من مذكرات أميرة عربية

التـاج والمشعل

رواية

فكري آل هير

2013

From the memoirs of a Arabic princess

THE CROWN AND THE TORCH

Novel

Fekri Al-Heer

2013

من مذكرات أميرة عربية

التـاج والمشعل

روايـــة

فـكري آل هير

إهداء

كفارةٌ

تلك التي كانت...

أما هذه فـــ

للشال البنفسجي والساعة الحمراء

وعطر الابتسامة الوردية..

ذكرى واحدة تكفي..

للرائعة (س. م)

فكري..

الحقيقة مثل الشمس،

لا يحجبها الكف ولا تعمى عن رؤيتها القلوب،

فكري آل هير

مقدمة الكاتب

لازمني على مدى ما يقارب العقد من الزمان، حلم أن أكتب رواية، ومع ذلك كنت أعتبر كل ما يصادفني من أفكار روائية رائعة، بمثابة مشروعات مؤجلة، ليس بحد ذاتها وانما الكتابة الروائية بشكل عام، وكانت فكرة ما مثل هذه التي ينطوي عليها هذا الكتاب تراودني بشغف، فيما كنت أقصيها بعيداً طوال الوقت، حتى جاء الوقت الذي اكتشفت فيه بأن القدر قد هيأ لي أكثر مما كنت أستبعد نواله، لكتابة عمل روائي، يسلط الضوء على الواقع في سقف الحياة وعالم الطبقة المخملية.

كان ذلك فجأة وبدون ترتيب مسبق أو سعي مقصود، عندما توفرت لي تلك المادة الخام الدسمة والمثيرة، التي رأيت إنها أكثر بكثير من مجرد كافية، لإخراج عمل روائي ينبض بالحياة ويتكلم بلسان الواقع الحاضر، فلم يكن أمامي من خيار، إلا الاذعان لإرادتي وخوض غمار التجربة، من أصعب وجوهها وأشدها حساسية وجرأة.

ينتمي هذا العمل إلى ذلك النوع من الأعمال الروائية التي تعتمد على عنصر (السيرة الذاتية) (Autobiographical)، والذي غالباً ما يكون أكثر مراوغة من غيره من الأنماط الأدبية الأخرى للطراز الروائي، ذلك أن رواية السيرة الذاتية تعتبر نوعا مركبا، يجمع بين نوع (الرواية) والصيغة الـــ (السير– ذاتية)، لكنه يبقى في النهاية (رواية)، لأن الرواية هي التي تحدد شكله العام، تماما مثلما يحدث مع الرواية التاريخية، والرواية الرعوية، والرواية الغنائية، إلى أخر تلك التركيبات بين نوع الرواية والصيغ الفنية المختلفة، والجدير بالذكر أن أكثر روايات القرن العشرين ثورية – على مستوى العمق النفسي والفلسفي، وعلى مستوى تقنيات السرد– كانت روايات سيرة ذاتية، تماما كما كانت أخصب السير الذاتية سيرا روائية بامتياز[١].

لذا يسعدني ويشرفني أن أقدم للقارئ العربي، باكورة أعمالي الروائية، وسأكون ممتناً لكل من تصلني تعليقاتهم وآرائهم على الدوام، آملاً أن يسهم ذلك في تدعيم أسس تجربتي في المشروعات القادمة.

ختاماً، أتمنى للجميع رحلة قراءة ممتعة ومشوقة، مع خالص التحيات.

---

١ – ــــــــــــــــــــ: **روايات السيرة الذاتية للبنات، مجلة نزوى، العدد (36) (2009 /9 / 27).**

الفصل الأول

سؤال البداية

أن تكون (امرأة) في مجتمع شرقي، وبالتحديد في مجتمع عربي مسلم، فهذا يعني في كثير من الأحيان، أنك (مملوك) تعيش حياتك بدرجة أقل من درجة الانسان، بالقدر الذي يحدده الغير لك ويفرضه عليك وتقبل أنت به، أما إذا كنت (رجلاً) فهذا يعني أنك تمتلك مؤهلاً عالياً يجعلك تحظى بفرصة دائمة للانتماء إلى طبقة (المُلاك) أو (الملوك)، والفرق في اعتقادي بين الصفتين ليس إلا ذلك الذي يُقاس بناءً على ما تملكه أو لا تملكه من الارادة الحرة، في مقابل نموذج السلطة الذي يهيمن عليك، أو بالأصح موقعك في الخريطة أفقياً وموقعك في الهرم رأسياً، ولازلت أجهل حتى الآن لماذا كل هذا الاصرار في مجتمعاتنا العربية على التعامل مع مسألة (الحرية)، باعتبارها مسألة سياسية واقعة على قشرة سطح الحياة والعلاقات بين الفرد والسلطة، مع أن جميع أدبيات التاريخ البشري تقول وتؤكد بأنها مسألة أخلاقية كامنة في جوهر الحياة والعلاقات بين البشر على كل الأحوال؟! ولماذا كل هذا الاصرار على جعل هذه المسألة شائكة ومعقدة، إلى درجة استحالة الوصول إلى حل لها عندما يتعلق الأمر بالمرأة؟

تحكي لنا الأساطير والملاحم القديمة والقديمة جداً، بأن كل الأديان والعقائد خلعت على المرأة تلك القداسة التي جعلتها دوماً في المقام الوجودي الأعلى للكيان البشري، وهي القداسة التي يبدو إنها كانت على مر العصور في شرقنا الساحر حبراً على ورق، إلا من بعض لحظات تاريخية غائرة في المجهول من فجر تاريخ البشرية، أو واقعة بين حواصر زمنية ضيقة لم يرى (المؤرخ الرجل) أي أهمية لذكرها، في مقابل تلك المسافات الشاسعة من تاريخ الحروب والمعارك والانتصارات العسكرية التي خاضها وحققها (القائد البطل)، الجالس دوماً على عروش المجد تحيط به العشرات من النساء الجميلات، من الجواري والمحظيات اللاتي تم سبيهن والاتجار بهن في أسواق النخاسة، هذا عن التاريخ المكتوب، أما في الواقع فقد نُزعت عن المرأة قداستها تلك والُصقت بالرجل، لتصبح قداسة المرأة المنزوعة والمصادرة، هي التطبيق والنموذج الواقعي لكل الامتيازات التي احتكرها (الفحل) لنفسه، فالقداسة (الأنثى) في القاموس الأبوي تعني السلطة (الأنثى) ولكن في قبضة الإرادة الذكورية، وتحت رحمتها المرعبة.

لكن، وألف آه وآه، من هذه (لكن)، ماذا لو أنك امرأة أولاً وأميرة ثانياً، وكرهاً على عامة الناس ومن قبلهم خاصتهم في بلدك أن ينادوك ويصفوك ويعاملوك على أساس حقيقة واحدة: أنك (صاحبة السمو الأميرة)، حقيقة أنك جزء من متاع الجالس على العرش ومن خاصته الخاصة، ترى هل ستشعر بما يمكن أن يضيفه إلى شخصيتك وحياتك هذا اللقب الأميري والملكي؟! أم أنك ستشعر – كما أشعر أنا- بالمرارة والحزن بسبب ما سُلبته (أنا) مرتين: مرة لكوني (امرأة) ومرة أخرى لكوني (أسيرة)؟، وكلمة (أسيرة) هي أصدق ما قدمته قواميس اللغة للتعبير عن مقام امرأة في قصر ملكي!!!

سوف تجد نفسك في مفترق طرق منذ البداية، بين التسليم بحقيقة كوني أميرة بالفعل من جهة وبين درء ما أقوله عن نفسي هنا بالشك الذي يساور قلبك بأني دعي ومنتحل، له مأرب من هكذا قصد وهكذا مطلع قصة من جهة أخرى، بقدر ما اعطيك كامل الحق في أن تشك وتتعمد أن تساورك الظنون بهذا الشأن، فالشك في مجتمعنا العربي شعور مقتبس من سلطة ذكورية تمارسه المرأة حتى على نفسها، وحتى دون أن يثبت شيء يمكن أن يتحول مجرد الشك إلى يقين والتهمة إلى جريمة ثابتة، لا يمحوها إلا حد السيف وغسل العار بالدم أو غسل الدم بالعار- لا أدري ما الفرق- فالشك الذي قد يساورك الآن أمر طبيعي، لا يسعني إلا أن أتوقعه وأهمله، خاصة وقد قررت أن امضي في الاتجاه المعاكس، ليس رغبة في التحرر والتمرد، ولا طمعاً في الظهور والشهرة، بل أقول ليس المهم من

أكون بل الأهم ماذا كتبت وماذا سأكتب؟! فلا أرى أحد غيري معني بأمري وذاتي، وفي المقابل لا يسعني إلا أن أكون موضوع الآخرين.

وعلى نحو من التباحث أقول بصيغة السؤال: ألا يمكن أن تُعزى لعمل كهذا أهمية يستحقها، لا تقوم على أساس كوني أميرة، بل على أساس كوني فتاة وامرأة، غالبها الوقت وغلبها الواقع وغلب على حـــالها الكبت دهراً طويلاً من عمرها، حتى جـــاء الحين الذي قُدِّر لها فيه أن تستفيق من غيبوبتـــها، وتخرج من سراديب غربتها المظلمة، لترى عوالم النور التي تشع بالحقيقة واضحة كالشمس في قلب النهار، الحقيقة التي جعلتها تدرك بالضبط ما كانت عليه، لتدرك في المقابل ما يتعين عليها القيام به قدر الضرورة والإمكان، ولتصبح لها في الحياة غاية بحق نفسها ورسالة بحق الغير عليها، باتساع دائرة الغير هذه وشمولها لكل حي تَدُّبُ خطواته على سطح البسيطة.

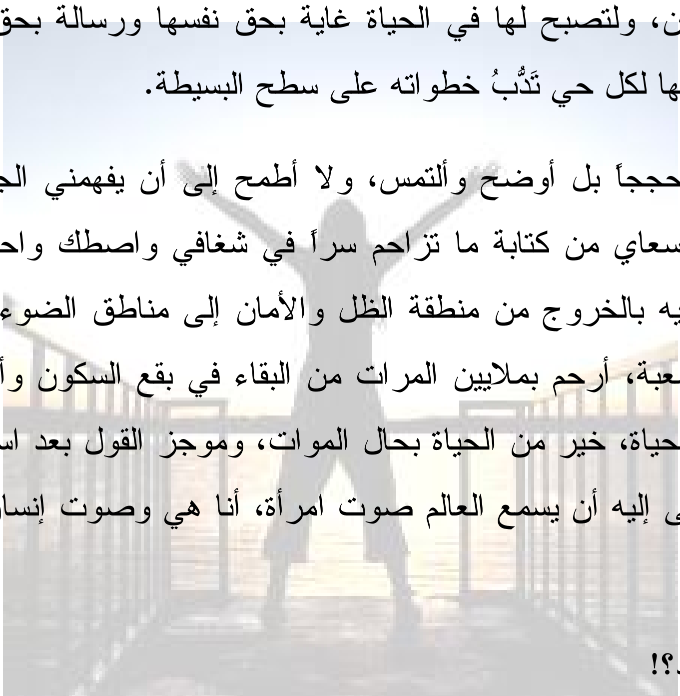

لست أتساءل أو أقدم حججاً بل أوضح وألتمس، ولا أطمح إلى أن يفهمني الجميع بل آمل أن يتفهم الجميع هدفي وغاية مسعاي من كتابة ما تزاحم سراً في شغافي واصطك واحتك بأعماقي، حتى أن الأوان الذي رضيت فيه بالخروج من منطقة الظل والأمان إلى مناطق الضوء والتهديد، وقنعت بأن السير في الطريق الصعبة، أرحم بملايين المرات من البقاء في بقع السكون وأوحال الخنوع، وآمنت بأن الموت في طلب الحياة، خير من الحياة بحال الموات، وموجز القول بعد استطالة وقبل استفاضة، أن جل ما أتمناه وأسعى إليه أن يسمع العالم صوت امرأة، أنا هي وصوت إنسان أنا هو، وهذا لوحده يكفي.

ويبقى السؤال، ماذا بعد؟!

لن أكتب سيرة عمري ومذكرات حياتي كلها، فلم أجد للماضي الذي عشته أكثر من عقدين من الزمان حتى اليوم، قيمة يستحق لأجلها أن يكتب أو يوثق، ولكن شعلة الإرادة الحرة مذ حلت بأعماقي ذات ليلة، لا أستطيع تحديدها بالضبط ولا أدري أن كانت قد جاءت مبكرة أو متأخرة، كانت سبباً كافياً لاتخاذ قرار يقضي بالسباحة ضد التيار، لعلي أضيف بتجربتي الجديدة فصلاً جديداً إلى كتاب تاريخ النساء في مجتمعي، وقصة أخرى لم ترويها (شهرزاد) في لياليها، فإلى أين يمكن أن يقودني هكذا طريق؟! لن أجيب على أي سؤال بعد اليوم، بل أنا من سيثير زوابع وأعاصير الأسئلة، ولن أهتم أو أعبأ مطلقاً أن كان (الطوفان) من بعدي، فكل الأشياء التي كانت ذات قيمة في حياتي قبل اليوم، فقدت

قيمتها وما عدت أبالي أن بقيت أو فنت، ولعلي أجزم بأن بداية تاريخي وقصتي كانت في تلك الليالي النادرة، التي اخترقت أشعة نورها القمري جدران سجوني الممقوتة خلسة، وأشعل وهج نجومها ضوء شمعاتي التي كانت كفيفة طوال الدهر، وما إدراك ما تلك الليالي؟!!

لعل السطور التقديمية التي لم أقصد أبداً أن تكون هي مستهل ما أكتبه أو ما أريد أن أكتبه ولا أعرف بالضبط ما عساه يكون أو ما عساه سيكون، قد حركت لديك دوافع الفضول وأثارت لديك الأسئلة: من أنا؟ وإلى أين انتمي؟ وما هي غاية الكتابة هذه؟ وما جدوى مثل هكذا سرد مفعم بالذاتية المفرطة؟

تقتضي خطتي بأن انطلق بلا خطة مسبقة، ثم أمضي معك خطوة خطوة في بناء وتصميم هذا العمل الكتابي الغريب، فهناك فكرة مازالت مشوشة وهناك حدث وتجربة وقصة وواقع طويل وعريض حافل بالموضوعات إلى حد التخمة، التي هي بالأصل سمة بارزة في كل شيء حولي، وهناك أيضاً وهذا هو المهم: لعنة موقعي بين قمة الهرم وقاعدته، وبين شرق العالم وغربه، إذا ما نظرنا إلى المغزى الشمولي لهكذا عمل، يحاول أن يتجاذب اطراف الواقع في حديث قد يطول من مواقع شتى لكل المعنيين به، سواء في ذلك أولئك الجالسون على الكراسي الوثيرة، أو أولئك القاعدين كرهاً والمقعدين قسراً على الحصير والقش، وهو أيضاً عمل يحاول أن يقدم تلويحات واقعية على متن الحديث في السياسة انطلاقاً من تسريب بعض الحقائق التي توسم دوماً بأنها اشاعات مغرضة للنيل من أعراض الحكام بأحاديث افك ملفقة، أخر من يمكن اتهامه بتلفيقها ليس إلا (اسرائيل الشقيقة وأمريكا الصديقة)، ولعلي أتساءل عن مستوى الجرأة المطلوبة في هذا العمل لخوض مغامرة كتابية في الحديث عن (الجنس) واخراج مقاطع فيديو لـــ (You tube) اللعين، تكشف عن ذلك الحراك الجنسي وتلك الثورات الجنسيـــة، التي يتم اشعالها واخمادها في مواخير وحانات الليالي العربية الحمراء، المدججة برزم البنكنوت المزينة بصورة (بنجامين)، والمسكونة بضجيج شياطين الرغبة وجنيات الغواية، والمُحلاة بالتواءات وتضاريس أجساد طرية وبضة، توحي بوفرة اللحم البشري على مائدة الحياة في القمة الهرمية، وتؤكد بأن أسفل الهرم وأعلاه من الناحية الأخلاقية يشتملان على نفس الصور والمضامين، والفارق ليس إلا في مستوى الإنفاق المادي.

بيد إني أتمنى وأتحرق شوقاً أيضاً إلى أن يسجل هذا العمل معارضات ساحقة واعتراضات ماحقة، لما غدت عليه وبه فحوى (الدين) المسطح، على أرضية واقع ثلاثي الأبعاد، لم يدرك فيه بعد (أحبارنا

وحاخاماتنا السفليين/ السلفيين)- والكلمة الأولى هي ما أقصده- أن فحيحهم أصبح عارياً ومكشوفاً في ظل تقنية الــ (3D max)، التي مكنتنا وبشكل غير متوقع أو مرغوب، من أن نلمح لأول مرة الطريقة التي يتم بها (طقس انتصاب اللحية)، بعد أن أثار غريزة عانتها التحتية، مشهدٌ إعلاني يصور انتصار فوطة الــ (Always) البيضاء على البلل الأحمر، الذي قد يكدر صفو يوم الفتاة الشقراء، والمهم في الإعلان ليس إلا (الربع عارية) التي تظهر فيه، والتي تشكل فتنة دنيوية خبيثة بالنسبة لــ (ناسك متعبد)، أخر ما يمكن أن تمنحه الــ (MBC)، إحدى (ذوات خمار أسود) تحرض النساء من باب (الدعوة إلى الطهارة) إلى شراء المنتج!!

إنه مشهد لم يقوى (قديسنا الرباني) على مقاومة إغرائه، إلا بإمعان النظر والتمتيم بـــ (سبحان الله)!! وحينما يخطب بنا مستشهداً بهذا المثال، يصرخ في وجوهنا بصوت عالي: (إنها فتنة)، بينما يستدرك ما قاله لنا علناً بقوله في نفسه سراً: (ويالها من فتنة محببة!!)، وعندما يتخلص من خثر إيمانه ويتذكر خطيئته، يتجشأ الاستغفار ثلاثاً وثلاثين مرة، على ما حاك في نفسه وخشي أن يطلع عليه الناس، وكأن الله يتغيب في بعض الأوقات، فلا يكون هو الأولى بالخشية بل تكون الخشية كل الخشية من أن يتسرب خبر مثل هذا بين الناس، فتلك فضيحة ما بعدها فضيحة؟! وإذن، من يجزم بأن هذا ليس من الواقع في شيء؟ ومن ينكر بأن هذا هو أدنى ما يمكن أن نجده في الواقع ذاته؟

الأمر على هذا النحو، قد يتخذ منحى حافلاً بالتهديد ومتجهماً ناحية ما يصدر عنه، ويتجاوز حد الوشاية إلى حد الفضح والتعرية، وهذا كله ينبع من كم التقاطعات الموضوعة على رؤوس مثلث المحرمات، بالنسبة لما قد تكتبه (امرأة) هي في نفس الوقت (أميرة)، جُل ما تخشاه وتكرهه حد كره الموت، هو ذاته جل ما يرجى منها حد إدمان فض البكارات، وطيش الأيادي على صحفة أجساد طفلات صغار، تستحث فيها ومنها تفجر ذلك المكنون الأنثوي الذي لم تئن بعد مواسمه، في ليالي لن تكون أبداً في ذاكرة الصغيرات مجرد ليال عابرة، أضف إلى ذلك ما لا يسعني وضعه في خانة خشيتي، وينأى عن مقامات دهشتي، وأحاول أن أجد له موضعاً يطابق ما فيه من مشاعري، وأقصد شيء مثل ذاك الذي نما إلى علمي في أحد دواوين الثرثرة النسائية، بأن هناك كُثر من الرجال على شاكلة ذلك الذي يؤم الناس في الصلاة، ويطلب من (حليلته) فقط في ذلك الوقت الذي يقع فيه عليها أن تجعل من نفسها (عاهرة)، قدر ما تستطيع وبأقصى ما يمكنها بلوغه!!!! فهل أتى على الرجال حيناً من

الدهر يقروا فيه ويعترفوا بفضائل المومسات، أو على الأقل بمعايير الجودة وحسن الأداء التي يلتزمن بها في تقديم خدماتهن؟! ومما عساهم اليوم لازالوا يتحرجون؟!

لكن مثل هذا الجدل المثار دوماً، والذي يفضي إلى كل أشكال السجال العقيم، ولا يفضي في النهاية إلى شيء يمكن الخلوص إليه باعتباره نتيجة، هو ما أتحاشاه في مسلك القلم المتحرر من قيود الوعي المكبل بأغلال الواقع، إذ أكره أن نختلف في جماليات البرواز ونهمل الصورة، أو نتعمق في اكتشاف دلالات المرسوم ونتجاهل الخلفية، أو أن نفسر معاني العبارات المبتورة عن سياقاتها التي وردت فيها، ذلك أنه سيطول بنا الأمر، ويأخذنا إلى أدغال تفاصيل بعيدة، ونقاط تباين شديدة الحساسية والتعقيد، ليس بالنسبة لما ينطوي عليه الموضوع، بل بالنسبة لميل الغالبية إلى الإنجراف عنتاً وصلفاً إلى التكدس في طرفين، لا يجزي فيها القول بسوء الفهم، ولا يعين على كبح نواياها القاتلة والمدمرة اصلاح ذات البين، في وقت أشد ما نحن بحاجة فيه إليه هو البساطة والوضوح والتسامح، أضف إلى ذلك العمق والشمول.

ومن أجل ذلك، سأحرص على البقاء على استقامة الطريق، وأقاوم دوافع الانحراف والانزلاق في الكلام والموضوع، وسأتعمد في كل مرة أتنبه فيها إلى انزلاق السرد بعيداً عن موضوعه، أن أطلق انذاراً هادئاً بضرورة العودة، إلى حيث يمكن وصل ما انقطع ويمكن استئناف المسير باتجاه الغاية، التي بدأت تتشكل ملامحها العريضة، على شفق تهم الشمس أن تلتهم ظلاله السوداء والرمادية بإشراقة غنية عن الوصف، مع إني أؤكد هنا بأن كبح جماح إرادة السرد الطاغية، يكاد يكون مهمة شبه مستحيلة، وعلي أن أطلق الآن أول انذار.

يجب أن أعود إلى حيث قلت أن الوقت لازال مبكراً، وهذا يستدعي أن أستثمر حماستك للمتابعة، وألا أبخل عليك بما تتلهف إليه، ويمكن أن يشغلك عني قليلاً حتى أفرغ من مهمة التقديم لهذا العمل، وما كنت يوماً بخيلة، ولكن لكل عطاء أوانه، وأعتقد إني اهتديت تواً إلى سبيل لا يخلو من الحيلة، إذ سألعب معك لعبة التلميحات بين سؤال وجواب وقضية وتفسير على تماس دائرتي العام والخاص، حيث يمكن أن أمهد الطريق بهذه الحيلة للوصول سريعاً إلى قلب الحدث والقصة التي تعنيني بالدرجة الأولى.

ثمة تلميح استفهامي للبدء في هذه المساجلة الذاتية، التي لا تخلو من المراوغة والمداورة، ولكن على من؟ على فرعون يا هامان؟!!! [هذا من حكم وأمثال الجبابرة].

ما الذي يمكن أن يحدث للمرء منا ويمكن أن يؤدي إلى تغيير جذري في شخصيته وتفكيره ومسار حياته؟ وبسرعة، يجب أن أوضح بأن هذا السؤال ينطوي على تلميح عمومي، إلى حد كاف للتيه في فضاءات المعاني والاحتمالات اللانهائية، وربما رأيت أنه بحاجة إلى تلميح من نوع أخر، أقصد ذلك النوع من التلميحات التفسيرية، ولنأخذ مؤقتاً بمثل هذه الإجابة:

الحقيقة، نعم معرفة الحقيقة هو الشيء الوحيد القادر على إحداث التحول فينا، والحقائق يجب إلا تقدم وتطرح على سبيل التجريد بل على سبيل النسبية الكامنة وراء علل التباين والتعدد والتنوع الباطنة والظاهرة بالنسبة لقواقع الواقع التي يطردها بحر الحياة إلى شواطئ الرؤية، فهناك دوماً حقيقة غائبة لكل واحد منا يصعب حدوث أي تغيير جذري أو جزئي للمرء قبل معرفتها، ربما يجب على كل منا من الآن فصاعداً أن يفكر ويبحث عن حقيقته الغائبة، خاصة نحن أولئك الذين نطمح دوماً إلى التغيير.

لازلت أحاول الاحتفاظ بمساري الذي حددته اتجاهاً ومسافة، بمقياس إتمام الغاية المرصود لها هذا العمل، والذي بدأت أنظر إليه من ثقب ضيق، أحدثته في جدار تشوش رؤيتي حيلة التلميحات هذه التي انتهجها، وكأنني أصوغ تمهيداً اشكالياً تنغرز فيه الفلسفة كرأس سهم في خاصرة الطراز الروائي، الذي أزمعت حالاً أن ألجأ إليه، للعبور إلى الضفة الأخرى التي تنتظرني فيها لحظة فراغي من كتابة هذا العمل.

لكن عندما تنغرز الفلسفة في خاصرة الواقع، فإنه سيكون من المؤلم جداً إدراك كيف أنه من الصعوبة دوماً تأليف المختلفات، في تلك المسافات الفاصلة بين اللغة وأنماط الخطابات المختلفة، تماماً كما تبدو لنا تلك الهوة الفاصلة بين لغة السياسيين وأنماط الفهم التلقائي أو العفوي السائدة في أوساط الناس، الذين يتزاحمون حول شاشة التلفاز، وهم ينصتون لإحدى الكلمات التاريخية للقائد الفذ والمليك المفدى، حيث لم أكن اتوقع أبداً أن أواجه ذلك الكم الهائل من التعقيدات الدلالية التي تحول عامة الناس دون فهم مقاصد الحاكم بأمر الله.

الأمر مجرد ضرب مثل يقربني من توضيح فكرتي المستعارة حديثاً، من (رجل) ما، أتيحت لي فرصة ذهبية ليقترب من حياتي على حين غرة وبشكل درامي عجيب، وهي كيف أننا بالفعل بحاجة ماسة إلى

لغة واقعية تمكننا جميعاً من مختلف مواقعنا من الوقوف على أرضية (فهم مشترك)، ندرك فيها المحكي والمُقال بنفس المقاصد التي قيلت لأجلها دون تورية أو إضمار، وبدون خداع أو تضليل، فهل تراني سأهتدي إلى مثل هذه اللغة في ترجمة مقاصدي على سطور هذه القصة؟!

كما إني أريد هنا، أن أضع كلمة (لغة) في مقابل كلمة (رؤية) لأتمكن من طرح سؤال شفاف وصلد في أن واحد: هل هناك لغة مرئية؟ مع امكانية سهلة لطرح مفهوم (لغة الرؤية)، هذا يوجب عليَّ بالقطع التنويه إلى حقيقة ما نقوم به وما نسميه بـــ (القراءة)، فالقراءة ليست إلا تلك العملية التي نقوم بها دوماً بجميع قوانا وملكاتنا الحسية والذهنية، ونحن بالكاد ندرك شيئاً جوهرياً عن طبيعتنا البشرية: ماذا نرى؟ يعني تماماً ماذا نقرأ؟ والعكس صحيح وأولى بالتقديم، وأعتذر مجدداً عن انزلاقي الثاني!!

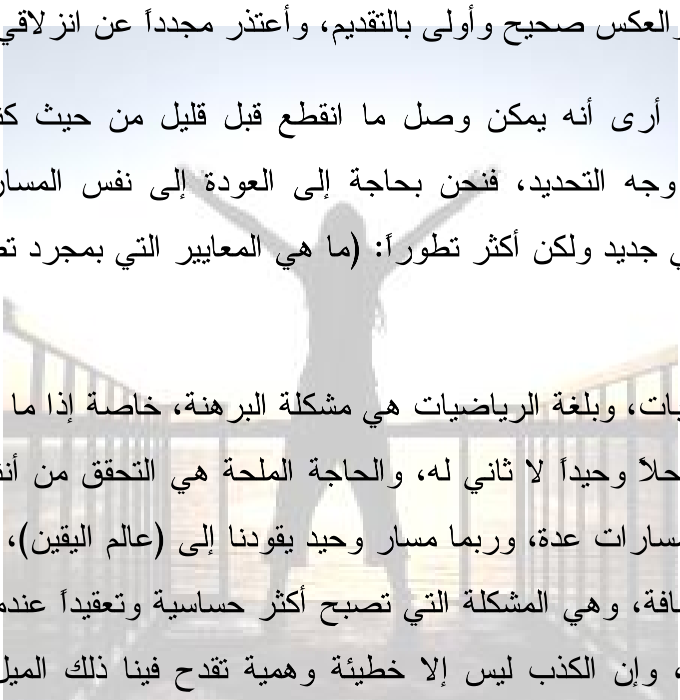

بصورة غير مرضية، أرى أنه يمكن وصل ما انقطع قبل قليل من حيث كنا نتكلم عن (الحقيقة) المتهمة بالغياب على وجه التحديد، فنحن بحاجة إلى العودة إلى نفس المسار بترجمة هذه الفكرة وبطرح تلميح استفهامي جديد ولكن أكثر تطوراً: (ما هي المعايير التي بمجرد تطبيقها تصبح الحقيقة.. حقيقة؟).

إنها مشكلة التحقق والثبات، وبلغة الرياضيات هي مشكلة البرهنة، خاصة إذا ما علمنا بأن هناك مسائل رياضية لا تحتمل إلا حلاً وحيداً لا ثاني له، والحاجة الملحة هي التحقق من أننا إذا ولجنا من (بوابة الشك)، يمكن أن نجد مسارات عدة، وربما مسار وحيد يقودنا إلى (عالم اليقين)، في حين تبقى الفوارق بيننا في السرعة والمسافة، وهي المشكلة التي تصبح أكثر حساسية وتعقيداً عندما ندرك بأن (الصدق) لا يعني (الحقيقة) أبداً، وإن الكذب ليس إلا خطيئة وهمية تقدح فينا ذلك الميل الشديد إلى الإحتفاظ بمسافات فاصلة بيننا وبين الآخرين، والإحتفاظ أيضاً بمساحات كافية من (الخصوصية) نخبئ فيها الأسرار والخطايا. لا يوجد ما يدفعني لتبرير الكذب ولكني أرى ضرورة الإعتراف بأن الكذب يساعدنا في كثير من الأوقات الحرجة على الاحتفاظ بذلك التوازن، الذي تحتاجه علاقاتنا بما يكفي لتستمر بيننا ونستمر نحن معاً، ذلك التوازن الذي قد يفسده الصـــدق ويجني عليـــه حد خراب البيـــوت، ولهذا يقال دوماً أن كلمة الصدق جارحة ومؤلمة، وربما مهلكة إلى حد نصب كمائن تفتيش ذاتي، وإطلاق حملة مداهمات عشوائية أو ارتكاب مجازر قتل جماعية!!

فكرة النسبية التي بشر بها (اينشتاين)، ليست فيزياء بحد ذاتها، بل هي في جوهرها مسألة تتعلق بجوهر (الوعي)، الذي نتميز به نحن البشر دون سائر الحيوانات، أي إنها مسألة كاشفة لجوهر فطرتنا البشرية، ولهذا نتواجد ونترابط ونتحدث ونتصرف من مواقع مختلفة، أو هكذا يبدو الأمر غالباً، وكل شيء نفهمه أو نسيء فهمه، ندركه بناءً على مواقعنا في الخريطة وعناويننا في مستويات الهرم، تماماً كما نتحدث بلغة الأمثال الشعبية عن أن لكل امرئ منا مقام وقدر، ومناط التباين يقع على إختلاف المواقع ظاهرياً، ولكنه يؤصل لاختلاف عرضي في المعايير.

الآن، ربما يجب عليك أن تحدد موقعك أين؟ في تلك المسافة الفاصلة بين (الصفر) و(الواحد) أو بين منطقة اللاقيمة واللاوجود ومنطقة القيـــمة والوجــود، هل فكرت يوماً في استعارة عقل (فيثـــاغورث)، فطرحت على نفسك سؤالاً من هذا النوع المحير؟: هل الصفر عدد وقيمة ووجود أم أنه العكس من ذلك تماماً؟

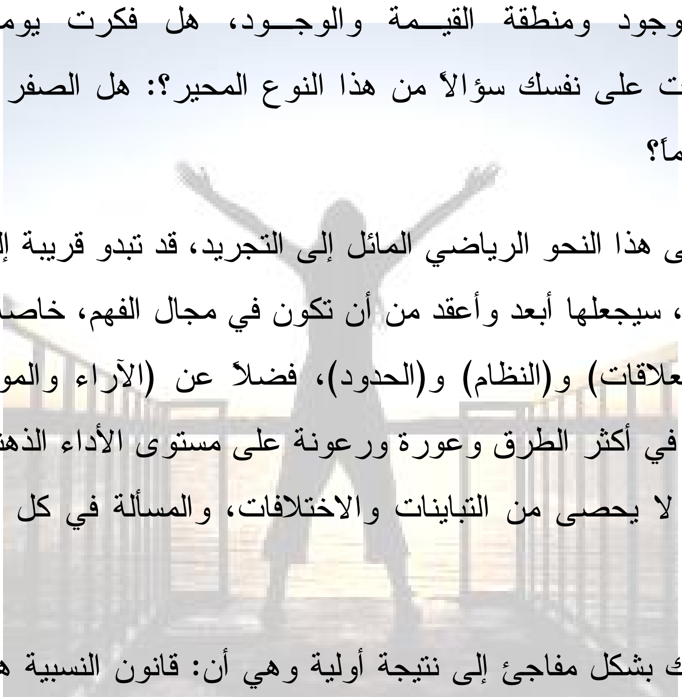

الحقيقة، أن المسألة على هذا النحو الرياضي المائل إلى التجريد، قد تبدو قريبة إلى الفهم، ولكن تنزيلها على الواقع الاجتماعي، سيجعلها أبعد وأعقد من أن تكون في مجال الفهم، خاصة إذا ما حاولنا تطبيقها على مفردات مثل (العلاقات) و(النظام) و(الحدود)، فضلاً عن (الآراء والمواقف والمقاصد)، إنها المسائل التي تسير بك في أكثر الطرق وعورة ورعونة على مستوى الأداء الذهني، فإسقاطات من هذا النوع، كافية لخلق ما لا يحصى من التباينات والاختلافات، والمسألة في كل الأحوال تظل كما قال (اينشتاين): (نسبية)!!

إذن، يمكنني أن أوصلك بشكل مفاجئ إلى نتيجة أولية وهي أن: قانون النسبية هو الوجه الآخر لقانون الإرادة الحرة، ولكن ما هو عصي على الإدراك هو معرفة أيهما وجد قبل الآخر الحرية أم النسبية؟! وهل يمكن الركون إلى حل توفيقي يتحدث عن (حدوث متزامن) لكلا الأمرين؟ إذن، علينا أن نعود إلى حقيقة كوننا مختلفين، لأننا مجبولون على أن نكون (ذوات) تتمتع بقدرات سحرية كالوعي والارادة والخلق والابداع، وباختصار الحرية هي مركز الدائرة وجميع النقاط التي ترسم محيطها هي كل تلك الخيارات المتاحة لنا والتي نختلف فيها وعليها، ومن ثم أن نعلم بأن كل ما هو موجود ومتوفر دائماً ليس إلا الأجوبة، وما نبحث عنه دوماً ليس إلا (الأسئلة)، وتبقى المشكلة دائماً في الاختيار.

اللغة أداة تواصل وتفاهم وتناغم، أصبحت مع الوقت أداة تحريف وقولبة وسيطرة، والمفردات والعبارات كانت رموزاً للصور ولكنها أصبحت أقنعة للتلاعب والتضليل، ونادراً كما هو غالباً أيضاً ما نهتم بشأن مواقعنا بين طرفي العلاقة: هل نحن في طرف المسيطر أم في الطرف المسيطر عليه؟، هل أنت حاكم أم محكوم؟ وكل العلاقات تقاس على هذا النحو مع مختلف الأدوار والمواقع في الواقع الاجتماعي، ونادراً ما نعنى بأي شيء يقع على حسابه ذلك كله، بين نقطتي الإلتزام والحرية وبين منطقتي الخصوصية والشمول.

قد تبدو هذه المقدمة السردية استعراض من نوع ما، ولكن الحقيقة أن كل هذه التلميحات والمراوغات، بدأت معي على نحو أشد صعوبة وتعقيداً مما نذرته حتى الآن، وبصراحة أشد، فقد بدأ الأمر معي بطريقة قاسية ومؤلمة جعلتني أصطدم للحظة طويــلة فيها بنفسي، واكتشف بأن كــل الحقائــق كانت دائــماً أمامي، حاضرة لي في كل الأوقات والأماكن، ولكني لم أكن أراها وأبصرها، ولهذا لم أكن أعقلها، حينها وجدت نفسي أمام سيل جارف من التساؤلات والأحجيات، التي انتهت بي إلى قناعة جديدة بأني كنت أعاني من خلل في إدراك (ذاتي) و(هويتي) و(انتمائي)، وكل شيء يجسد حقيقة قيمتي الآدمية كإنسان، وكل ذلك بسبب حجاب وضعه على عيني كوني امرأة، وبسبب غشاوة ختمها على قلبي موقعي الاجتماعي كأميرة!!

كان ذلك، عندما جرحتني في الصميم العميق تساؤلاتي عن خصوصيتي واستقلالي وكرامتي من جهة، وتلك التي وقعت على جسدي أشد من وقع السياط، وأقصد بها تساؤلاتي عن هويتي وانتمائي من الجهة الأخرى، وعندما تساءلت عما إذا كانت كل ملامحي الظاهرة على سطح شخصي الذي كنت أعلن عنه من قبل، قد حددت ذات يوم على نحو صحيح حقيقة (من أنا؟ ومن أكون؟)، وهل شكلت مع المفهوم العميق للحقيقة فارقاً جوهرياً يجعلني مختلفة عن أي امرأة أخرى تسير في الشارع بمفردها، وتقوم ببضعة أشياء كيفما هي (محض ارادتها)؟؟ وبلغ الألم ذروته وتفاقمت المشكلة إلى أبعد مما كان لي أن اتصور أن يصل إليه مستوى الإيلام يوماً، والذي اقترب بي إلى حد الفتك والإفناء.

كان ذلك، عندما جاء من تجرأ على اقتحام حياتي قادماً من أقصى البعيد المجهول، ليصدمني بإحدى صور الحقيقة، التي أعماني دائماً غرور الإمارة وخيلاء الأميرة عن رؤيتها، بكثير من أقواله التي

قالها لي، وهو الذي أجبرني بكل رضا وحبور على سماعه، وبقليل من أفعاله التي حاكت السمو ذاته والرفعة عينها، ذلك الرجل الذي قال لي ذات ليلة غير آبه:

- **أنت (يا صاحبة السمو) في أسوأ موقع بين القمة والقاعدة، يخشى من في القمة أن تصنعين فضيحة، ويتلهف من في القاعدة أن يسمع عنك فضيحة، تراقبك العيون من كل الجهات، فليس لك انتماء ولا إليك انتماء، يراد منك كل شيء ولا يراد لك أي شيء، وأي ارادة لك لا تلتمسينها إلا خلسة، فكل ما يصدر عنها اما سراً مخفياً أو خطيئة معلنة..**

  أنت أميرة بلا امارة أو سلطة، بلا شعب أو وطن، بلا ذات أو ارادة، تكبلك قيود السلطة وتنبذك حياة الشعب، ولو نظرت إلى الحقيقة لعرفت أن كل ما تنالينه من كلمات الاطراء ومشاعر الاعجاب والحب والتبجيل.. ليس إلا تحريفاً لما تستحقينه من الشفقة.

عاندت كثيراً كيلا أقبل بهذه الحقيقة، ولكن خدوش اصطدامي بنفسي كانت واضحة بما فيه الكفاية، حتى أن المرايا سخرت من عنادي، وكسرت الصور ريشة كبريائي، فاستسلمت وكدت أؤول إلى حال الانهيار، فكان من الممكن أن أستحيل حطاماً في إحدى زوايا الحياة المظلمة، لولا أنه كان كمن يُطعم السم ويكوي بالنار، ليداوي الحمى بالترياق، ويشفي الجرح بالمرهم، إنه ذلك الرجل الذي قدر له أن يكتشفني قبل أن يراني، وأمكن له أن يفهمني قبل أن يعرفني، وحق له أن أمُكنه من نفسي دون أن يلمسني، حتى تمنيت من خالص قلبي أن أراه لمرة واحدة ولو كان ثمن ذلك الموت، فكان هو ذاته من حقق أمنيتي وأحياني، عندما قرر أن تصل الحكاية التي ابتدأها إلى ذروتها، في لقاء أردت أن أميط فيه الحجاب عن وجهي ليراني ويعرف (من أكون؟) فأبهره، ولكنه بنور حكمته وتواضعه بهرني وأذهلني؟!!

هذا هو موجز الحكاية، التي أود اليوم من خالص قلبي أن أحكيها بنفس الطريقة التي صاغها هو بها وأنتجها، وإن أتحلى بمقدرته الباهرة، التي تندمل بها كل الجروح، وإن أحاكي أسلوبه الساحر الذي تنطفئ به جذوة كل الأحزان والآلام، ذلك الرجل الذي لازال صوته يسكن في مسامعي، صوته الذي تفتحت لي مع أول زخاته، أبواب الدهشة وبوابات الشك، وصاحبتني موجاته وأصدائه إلى حيث أصبح بمقدوري السير في طريــق الحيــاة صوب الحقيقة وباتجاه اليقيــن، ذلك (الرجل الأول) في عمري البكر، وحياتي العذراء، فكل من عرفتهم قبله أشباه رجال وأزلام نخاسة، ذلك الرجل الذي أوكلني

لأول مرة بأمر نفسي، عندما قرر أن ينهي فصل بطولته المؤقتة، لتبدأ فصول بطولتي المطلقة، قائلاً لي:

- **اذهبي الآن، فأنت حرة، وعما قريب ستبلغين رحب اليقين..**

حينها سألته والحيرة غالبة على أمري وقلبي:

- **ماذا أفعل؟**

فقال لي ببساطته التي أصبحت مألوفة لدي بقدر ما كانت قبل ذلك تغيظني وتغضبني:

- **اخرجي من سجون الظلمة إلى عوالم النور، اعلني عن وجودك، اصرخي بأعلى صوت: أنا هنا.. أنا هنا.**

سألته مرة أخرى:

- **كيف لي ذلك؟**

قال:

- **قد فعلت شطر ذلك من قبل، وبقي الشطر الآخر..**

ثم إنه رحل عن دائرة إبصاري، ليبقى دائماً في دوائر بصيرتي وادراكي، الرجل الذي علمني كيف إني (امرأة)، وكيف ينبغي لي أن أكون (امرأة)، وكيف أصنع عروش إمارتي، بالمحبة في قلوب الناس، وكيف تكون لي من محبتهم تلك قوة وسلطة، هي جل ما أحتاجه في معاركي من أجل الحرية والتغيير.

رحل وتركني لأبدأ من جديد، من حيث اهتديت للكنز المخبأ في دفاتر مذكراتي، التي في صفحة منها قرأت ما كان قد قاله لي وكتبته بقلمي ذات ليلة:

لقد اكتمل فينا جوهر ما جعلنا بشراً، في تلك اللحظة التي أدركنا فيها وجوداً لأنفسنا، وخططنا فيها على لوحة الحياة علاقاتنا، وهي اللحظة التي أصبحنا فيها قادرين على كتابة تاريخنا خربشات على الرمل برؤوس العصي، التي صارت من بعد ذلك أقلاما نحفر بها على الصخر في جدران الكهوف، كل ما قد يسقط من خزائن ذاكرتنا، فمنذ تلك اللحظة أصبح حتماً على كل مكتوب أن يُقرأ، وحق لكل مكتوب أن يكون قيماً وثميناً أكثر

وأكثر، في كل مرة عاودنا فيها قراءته، وبهذا فقط ننجو من أسوأ مصير، وهو الموت دون أن يكون لنا أثر أو تاريخ، وبهذا فقط نفتح لأسمائنا أبواب الخلود..

هكذا كانت النهاية والبداية في نفس الوقت، وهكذا إذن عرفت أن ثمة ما عليَّ القيام به، ويمثل الشطر الثاني لما قمت به، فالتغيير لن يحدث في صفحة الفعل والواقع، إلا إذا حدث أولاً في صفحة الوعي والفكر، وأن الموت في سبيل تحرير الانسان، أسمى وأعظم من الجلوس على عرش السلطان.

ومن هنا تأتي قيمة هذه القصة، أما غاية هذا العمل فهي: الخروج إلى عوالم الضوء، وإطلاق الصرخة في فضاء الوجود، ولعلي سأعود إلى نفس هذه النقطة عندما انتهي من كتابة قصتي هذه، فما كان للآن ليس إلا سؤال بداية، كما أن نهاية هذا العمل لن تكون إلا سؤالاً لبداية أخرى، فقط لو أنك تأملت!!

الفصل الثاني

أقصوصة ما قبل

تأملتُ إلى الماضي من عمري، بضع وعشرون سنة مضت، ما الذي يمكن أن تكون قد احتوته ويستحق الذكر هنا، هذا طبعاً.. بالمعايير التي أصبحت تحتكم إليها رؤيتي الجديدة للحياة ولنفسي.

في الحقيقة، لم أجد شيء أكثر من ذلك الخواء لمظاهر براقة وأسطح لماعة، لم يعد لها اليوم قيمة، فهي لم تحفل بشيء واحد مني وعني، سنوات مضت كنت فيها مجرد صنيعة ونتاج، ومملوك ساكن ليس له أثر ولا يثار حوله جدل، ذلك أن أي قيمة لي من قبل لم أكن أجدها إلا من خلال ما كنت أملأ به خزانة ملابسي وصناديق مجوهراتي، أشياء كثيرة نفيسة وثمينة ونادرة، لكني في المقابل كنت أرخص شيء في ذلك العهد كله.

قال لي ذات مرة:

أن الانسان لا يستطيع أن يدرك حاجته للتغيير إلا إذا عرف بالضبط حقيقة ما هو عليه واقعه، فبناءً على ما نحن عليه الآن نحدد ونقرر ما نريد أن نكون عليه في الغد، وكذلك الآخرون، فإنهم لا يشعرون بالتغيير الذي طرأ علينا إلا إذا كانوا على اطلاع بما كنا عليه من قبل..

لذا قررت أن أختزل الماضي من حياتي بطريقة ترويه عني الأقاصيص القصيرة، وترسم ملامحه وسماته الصور البسيطة والهادئة، ولكني سأترك للخيال فرصة واسعة لإحداث تغييرات شكلية على بعض حقائق الأسماء والأماكن، تاركة هذا العمل معلقاً على لوحة الزمن المبهمة في سراة الوضوح، بعيداً عن أية تحديدات زمانية، ولست مضطرة لذكر السبب الداعي إلى ذلك، فهو أوهن من أن يستعصي على ذهنٍ حاضرٍ ويقظ، وجل ما أسعى إليه من سرد اقصوصة ما قبل، ليس إلا إيصال بعض الصور والمشاعر التي انطوت عليها حياتي في الماضي، والتي تترجم ما لازلت قادرة على استحضاره تجاه نفسي ومحيطي في تلك المرحلة، وكل هذا سيكون بقدر ما أرى أنه سيخدم القصة فيما بعد.

بعد شهور من تلقي رسائله والتواصل معه، سألني ذات ليلة عن أسمي، ولما تحرجت من ذكر الحقيقة له، قال لي بأنه لا يهتم مطلقاً بحقيقة من أكون، وأنه سيقبل بأي اسم مستعار أختاره لنفسي، لكي يكون بوسعه مناداتي كلما اضطر إلى ذلك، فقلت له: سمني أنت ما شئت، فاختار لي: (تيماء)، ولعلي بعد فترة لم تطول بعد تلك الليلة عرفت وفهمت لماذا اختار لي هذا الاسم بالتحديد؟!

لقد عرف بالضبط إلى أين يسير بي، فبهذا الاسم ألقاني مجددا بذرة في رحم الأرض التي جئت منها، لكي أكون قادرة على الشعور بالانتماء إليها، والإحساس بالجذور التي تربطني بها، ولكي يلازمني ذلك الشعور وذلك الإحساس في كل نفس أتنفسه، وفي كل شربة ماء أشربها.

أصبحت كلما يخطر على بالي اسمي الجديد هذا، أشعر بأنني عندما أتحرك ويهتز جسدي، كأني كثيب رمل ذهبي تلاعبه أنسام الرياح الهادئة، وتشكله رويداً رويدا موجة رملية رقيقة، تزحف باستحياء على امتداد حضن أمها الحنون، لكنها في لحظة ما، يمكن أن تتحول عاصفة لا يصدها جبل أو يعوقها جدار.

كانت ولادتي في إحدى الليالي الرجبية كما أخبرتني بذلك عمتي (الأميرة تهاني)، وكان على النظرة الأولى التي رمقتني بها أمي أن تشكل ملامحي الغير شبيهة جداً بها يوماً بعد يوم، وإن تلازم بعضاً من ملامح وجه أبي وجهي طول الحياة. لكني لا أنكر أبدا أن كل حسابات انتسابي كانت قد جعلت أمي في مركز الكون، والكل يدور من حولها وينسب إليها، فأنا المولود الخامس أو ربما السادس لأمي من أبي وعمي، فلقد تزوجت أمي من أبي مرتين، ومن عمي الشقيق الأكبر لوالدي مرة واحدة، إذ يبدو أن

أبي ساءه من أمي أن أنجبت له ابنتان هما شقيقتاي (هالة ونجلاء) فطلقها، ليتزوجها عمي من بعد ذلك، والذي أنجبت له (جبر وسعد) الأخوين غير الشقيقان لي، وكان هذا سبباً كافياً لندم أبي على طلاقها والرغبة في استعادتها إليه مجدداً، وقد استجاب عمي لرغبته تلك فطلق أمي، ولم تمضي غير فترة، حتى عاد أبي فتزوجها للمرة الثانية، فأنجبتني أنا وشقيقتي (سارة)، وهي التي نعتبرها أخر عنقودها طبعاً، وإن كنت أشك في ذلك، لكن أبي عاد فطلقها مرة أخرى، لتطلق أمي الرجال كلهم.

كانت ولازالت أمي جميلة تغار منها الجميلات، طويلة القامة ممتلئة الجسم، بضة اللحم، قمحية اللون مائل إلى البياض لون بشرتها، ورثت عن أبيها شدة الطبع، وهي صفة كنتُ قد كرهتها فيها، لكني عدت فأحببتها فيما بعد، فقد أخبرتني عمتي (تهاني) ذات مرة بأن كل الرجال الذين طمعوا في الزواج من أمي، لم يكونوا ليعشقوا جمالها لولا ما صاحبه من قوة شخصيتها، وكانت عمتي هذه تخبرني بأني سأكون مختلفة دائماً عن أمي، وإن هذا سيكون أهم مميزاتي؟ ولأنني لم أكن أفطن إلى فهم ما تقوله لي بهذا الشأن، كنت أسألها وكانت تنهي حديثها معي بالقول: "عندما تكبرين ستفهمين"؟؟

كنت ألوم نفسي أحياناً وأقول لو لم أكن (فتاة)، لو جعلني الله (ولداً) لما تطلقت أمي، ولكني كنت أعزي نفسي بما توثقت منه في هذا الشأن، فقد وصلت أمي إلى قناعة بأن (المهزلة) – كما أحبت أن تصف دوماً الطريقة التي تمت بها زيجاتها- يجب أن تتوقف، ولم تكن أمي تتحرج في قول ذلك علناً، فقد طلبت هي الطلاق من أبي قبل أن يقوم هو بذلك، وكان لها ما طلبت.

قررت أمي (الأميرة نورا) أن تعيش حياتها كأميرة بدون أن يكون في حياتها رجل، وربما كان لقرارها هذا فضيلة واحدة ادركتها، وهي إنها حرصت على أن نعيش نحن أبنائها الستة في كنفها، وهذا ما أعتقد أنه خفف من حدة التشرذم الذي كان يمكن أن يسود بيننا نحن الأبناء، لاسيما وإن هذه تعد سمة ملازمة لمعظم علاقاتنا العائلية داخل الأسرة المالكة، والسبب في ذلك ليس إلا كثرة الإنجاب في ظل الحرص على تعدد الزوجات، وعلى الرغم من فضيلة أمي تلك إلا إنها لم تتفرغ لشأن أبنائها، فتربية أبناء العائلة الصغار، تتم وفق قواعد غير متجانسة ولكنها تظل في النهاية قواعد، خاصة وإن هناك دوماً وظائف للعديد من المربيات والخادمات، اللاتي يعهد اليهن القيام بخدمة صغار الأمراء من الجنسين، وجل ما كانت تقوم به أمي لم يكن يتجاوز حدود مراقبة حسن أداء العاملين وحسن استجابة الأبناء لقواعد القصر وقواعدها هي أيضاً، ولأني الصغرى كما كنت أعتقد، كل شيء كنت أطلبه من

أمي كانت تحيلني فيه إلى شقيقتي الكبرى (الأميرة هالة)، وهي التي لم تُحسن فعل ذلك يوماً، رغم طيبتها ورقة قلبها، فقد عرفتها عازفة دوماً عن كل ما تهتم به مثيلاتها، أقول أنا بأنها ربما اقتربت من إدراك حقيقتها الغائبة، ولكن زواجها المتأخر حال دون أن تصل إليها، فقط أقول ربما!!

علاقاتي بشقيقاتي واخوتي، كانت محدودة بشقيقاتي البنات، وخصوصاً (نجلاء وسارة)، أما اخوتي الذكور فقد غلب عليها طابع الجدية والرسمية، إذ لم تكن تجمعنا إلا المناسبات وبعض الظروف الطارئة، ولم يكن هذا حكراً علينا فقط بل كان هذا الطابع السائد في معظم القصور الملكية، فقد كانت الحظوة دوماً للأمراء الذكور، فضلاً عن فارق السن بيني وبين اخوتي الذكور، وإن كان أخي من أمي وابن عمي (الأمير سعد) يحاول أن يحسن التعامل معنا نحن البنات، وإن يبدى الاهتمام بنا ويسأل عنا بين الفينة والأخرى، إلا أن هذا لم يمنع من أن تتركز علاقتي بشقيقاتي البنات بشكل أساسي استمرت عليه حياتي السابقة.

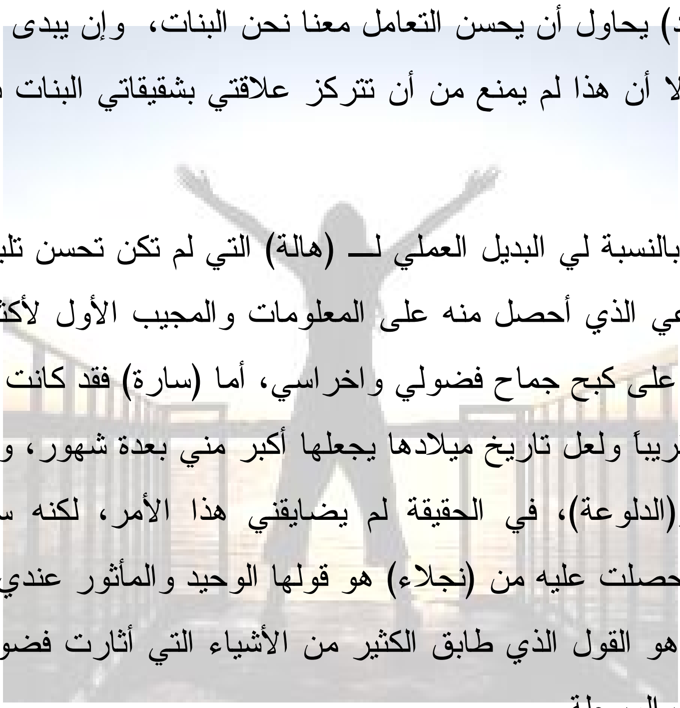

شقيقتي (نجلاء) كانت بالنسبة لي البديل العملي لـــ (هالة) التي لم تكن تحسن تلبية حاجاتي، كما كانت دوماً المصدر الموسوعي الذي أحصل منه على المعلومات والمجيب الأول لأكثر الأسئلة الحاحاً، كما إنها كانت الأقدر دوماً على كبح جماح فضولي واخراسي، أما (سارة) فقد كانت سر غرابتي وحيرتي، فهي في مثل عمري تقريباً ولعل تاريخ ميلادها يجعلها أكبر مني بعدة شهور، ومع ذلك نعاملها جميعاً على إنها الصغرى و(الدلوعة)، في الحقيقة لم يضايقني هذا الأمر، لكنه سبب لي حيرة وربكة شديدتين، وأفضل ما حصلت عليه من (نجلاء) هو قولها الوحيد والمأثور عندي: "لخبطة وتحصل كل يوم وفي كل شيء"، وهو القول الذي طابق الكثير من الأشياء التي أثارت فضولي دائماً، ولم أجد بداً من الركون إليه في تلك المرحلة.

بالنسبة لأبي، فقد تعددت زيجاته بعد أن طلق أمي، كما كان هذا حاله كذلك قبل وأثناء زواجه منها، فضلاً عن كل ما كان يصل إلينا من أعلام مغامراته النسوية في كل مكان ذهب إليه، وقد رزق أبي بالأبناء الذكور الذين جمعني بهم مجرد الانتساب إليه بالاسم، حتى إني بالكاد عرفتهم ونزراً لازلت ألتقي ببعضهم، ومع ذلك فقد كانت الغلبة لنا نحن البنات على الأولاد الذكور، إذ ينتسب إلى أبي خمسة من الذكور في مقابل ثمان بنات. في الحقيقة لم يكن أبي يختلف كثيراً عن سائر أمراء العائلة من هذه

الناحية، ولم يكن يبدي اهتماماً كبيراً بنا نحن البنات، مع ما عرفت منه من قوة العاطفة والحنان الأبوي الذي كان نادراً ما يعجز عن اخفائه.

أبي، رجل وسيم الوجه ذو بشرة طرية بين البياض والحمرة، طويل القامة مع ضخامة في البنية، واعتدال في السمنة، قوي الملامح، هادئ الطبع، ولكنه شديد عند الغضب، ويُعد أبي من أمراء الطبقة الثانية المهيمنة، والذين غالباً ما توكل اليهم مهام ادارة بعض الوظائف الحكومية، ولكنه معروف بميله الشديد إلى عالم المال والأعمال، لذا فشراكته في هذا المجال واسعة ومعقدة، وبسبب انشغالاته هذه كانت رؤية أبي بالنسبة لي ولمعظم اخوتي حدث نادر له رهبته وقلة شأنه لدينا، إلا إذا استثنيت من ذلك ولديه الكبيرين من زوجته الأولى الأميرة (العنود)، والمقربة بشدة من أميرة البلاط والشقيقة الملكية (الأميرة بدور) صاحبة الحظوة والنفوذ الأكبر، كونها الحاكمة المسيطرة على النصف الثاني المتواري خلف الحجاب الملكي للأسرة كلها، وهي بالإضافة إلى ذلك (عمة أبي) التي لا يخرج عن طوعها، رغم أن له دلال عليها.

مجتمع الأسرة المالكة الذي شكل طوال فترة حياتي السابقة المحيط الذي لم أخرج منه أو أحيد عن كوني إحدى الاضافات المتدفقة إليه دوماً، كان وأظنه لايزال ذلك العالم المغلق من كل الجهات بحيث لا يمكن رؤيته من الخارج، إلا لمن سمح له بأن يدخل إليه ثم خرج منه، كم مهول من الأمراء والأميرات تذكيه وتضاعفه باستمرار، نزعة ذكورية إلى التكاثر لا يمكن السيطرة عليها، ومع ذلك فإن التفكك هو الغالب على كل العلاقات الداخلية بين العائلات والأفراد، والذي غالباً ما تخفف حدته مشروعات المصاهرة والزيجات المتبادلة التي تدعمها مراسيم سامية في كثير من الأحيان، فالتماسك والترابط التي تظهر بها العلاقات الداخلية بين مكونات الأسرة، ليس إلا مظهراً تفرضه قواعد السلطة الصارمة، والمصالح والأغراض النفعية الكثيرة التي تربط الجميع بالسلطة، وتحفظ لهم نفوذهم في مواقع الحكم والثروة.

في عُرفنا الملكي وتقاليدنا السامية، بنت الأمير تكون أميرة، وكذلك بالنسبة لزوجته وأخته، وهذا لا ينطبق أبداً، أبداً على بنت (الملك) أو زوجه، أي أنه لا يخلع عليها أبداً لقب (ملكة) كما في غالب الدول الملكية في العالم، فهذه المرتبة لا تنالها المرأة في مجتمعنا الذي يحتكم إلى الشريعة، وإلى أعراف وتقاليد مقدسة سارية المفعول وواجبة النفاذ، فلا اعتراض على ما حكم الله به وارتضاه الناس

على وجه العادة قروناً من الزمان، فأقصى ما يمكن أن تبلغه المرأة وفق هذه القاعدة، هو أن تحمل صفة (أميرة)، وهي ليست إلا مجرد صفة تشريف مجازية أو عرفية ليس لها أي قيمة فعلية، ولا ترتبط بأي تكليف أو دور بقدر ما هي امتياز يضاف إلى رصيد الرجل الأمير، من حيث تأكيد ملكية المرأة وتبعيتها وانتمائها له، فالأميرة ترث عن أبيها أو زوجها لقبه ووجهته أياً كانت: ديناً أو فكراً أو رأي سياسة.

وبداية الحكاية تعود إلى زمن إختلاف ورثة العرش وأبناء الطينة الواحدة وانقسامهم على من له الحق منهم والأولى فيهم بالجلوس على ذلك الكرسي الذي يظله ظل الله، ولأن المسألة مسألة (مُلك) نفقت جلالة فردها وعادت إلى أصلها في التراب وموطئ الأقدام، فأصبحت من بعد ذلك مسألة (خلافة) تعدد وارثوها، في حين إنها لا تطيق إلا واحداً وحيداً يجر منهم ثلة من بعده، وما حدث ليس إلا ذاك الذي تعدى الاختلاف وأدى إلى الخلاف وأرخى للانقسام أن يتحول إلى صراع، لقد سطر التاريخ من ساعة غير بعيدة عن اليوم حكايات نهايات الملوك: ملك معزول، وملك مقتول، وملك معلول، وملك مشلول، وملك قائم به الدهر لن يطول، فالملك ليس إلا لله!!

أنظر: يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، لمن يعود الضمير هنا؟! اختر من بين الأقواس: (الله – السيف)؟ هذا سؤال جوهري، ولكنك أن جهرت به ستغدو في عيون حراس العقيدة (كافر)، وحق أن يقام عليك وفيك (حد الردة)، فثب إلى رشدك وأعلن التوبة قبل أن تغرب عليك شمس اليوم الثالث، فتصبح على ما قلته من النادمين!!

هذه هي الصيغة التي نتجت عن زواج مذكر (الدين) بأنثى (السياسة)، حيث أصبح الدين دولة، والدولة دين، والخارج على الدولة خارجاً عن الدين، وهو من بعد ذلك (كافر مارق)، وقس على ذلك كل العلاقات، من أبسط قضايا العلاقة بين المرأة والرجل، إلى الذروة الأكثر تعقيداً وتشابكاً والتي أرقتنا منذ قرون: العلاقة بين الغرب والشرق.. فالذكورة غالبة في حيواتنا ومجتمعاتنا، مهما بلغ سفه رجال الدين ومهما تواطؤا ابتغاء غرض الدنيا، وكل شيء من وراء غطاء الوجه المفروض قسرا على المرأة على نحو (طاعة ولي الأمر من طاعة الله)، ودون أن ننسى العباءة السوداء التي تطورت على نحو مثير في إحدى حواضر الاسلام على طريقة (لحوم العلماء مسمومة)!! وإذن: استخلاص بديهي

أن لا حياة إلا بـــ (السمع والطاعة)، وحسبك في طلب الموت أن تقول لمرة واحدة (لا) في وجه ذوي القداسة والجاه والجلالة والسلطان؟!

المهم، أن الورثة الـــ (من طينة واحدة) انقسموا وصاروا طينتان، طينة ارتدت عباءة الدين وتدثرت برقاع (الأصول) التي ورثتها من (السلف الصالح)، وطينة أخرى ارتدى أهلها (البذلة وربطة العنق الحريرية) التي جلبوها من بلاد (الكفار) وجلبوا معها بشارة (الليبرالية)، ولو أن التاريخ يقرأه الناس من كل الجهات، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، ولكن الحاصل أن الجميع ما عادوا يقرأون، فقد أوكلوا مهمة القراءة لـــ (حاخامات) المساجد و(سدنة) المحاريب، وبدلاً من ذلك أصبحوا (يُنصتون) و(يسمعون)، فإن غم على أحدهم شيء من أمر دنياه وليس فقط دينه، لجأ إلى حيلة الاستفتاء ليحصل من الواقف خلف شباك التذاكر لدخول الجنة على (الفتوى)!! ولا شيء يقال ويمكن أن يسمعه كم (الغثاء) من البشر المطويين تحت إبط السلطة، إلا تلك الحقيقة التي تنطق بها (الجهات الرسمية)، ويُصرح بها (الناطق باسم الله): صدقها أنت أو (اخسأ) و(اقطع) واضرب رأسك عرض ألف جدار، من تلك الجدران التي تُحتسب في كل عام مرة أخرى ضمن الانجازات التي تحققت بفضل النفحات السامية التي لا تنقطع على الشعب، وإن كان لابد من أن تظل حياً فلا تنطق بحرف دون ما سمعت، نعم، هذا هو مختصر النظام والقانون، الذي توجزه حكمة الأقدمين في اصدارها الأخير: (رأس الحكمة مخافة أهل السلطان)!!

هل وصلت إليك الفكرة؟! هل اتضحت لك الصورة؟! أرجو ألا تتسرع وتجيب على مسمع ومرأى بـــ (نعم)!! ففي ذلك منتهى القول أن: العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الإشارة، وبحسب قواعد النحو السياسي (العبد) اسم علم وصفة مرفوع بـــ (الوفرة) الظاهرة على نتائج التعداد السكاني، أما (الحُر) بضم الحاء فاسم صفة، عربي اللفظ عجمي المعنى، ممنوع من الصرف والتداول، ومحله (الحبس)، وهو غير (الحَر) بالفتح والذي منه (الحرارة)، وهو أيضاً غير (الحِر) بكسر الحاء وهو موضع ايلاج ذكر الرجل من جسد المرأة!!

والآن إلى بيت القصيد، من بعد هذا (الدش) الطويل، الذي لا أعرف أن صح لك فلسفة أو اتضح لك منه تاريخ، أو بانت لك فيه قصة، ولكن ماذا تنتظر مني أن أفعل في زمن ندرة القراء؟! فأنت ربما ذاك الذي بالكاد حصلت عليه، ولأني لا أثق بالمُجمل السائد بأن تك قد قرأت من قبل التاريخ الرسمي

كله، بالقدر نفسه الذي أتمنى أن تكون ممن تجرؤا على لي أعناقهم سراً أو جهراً صوب إحدى ثلاث جهات أخرى، مخالفاً ما جاء في (فتاوى المحرمات)، فقرأت شيئاً مما جاد به الدهر لك من (الكتب الممنوعة والمهربة) التي لا تعد ولا تحصى، لذا أرجو أن تذكر نفسك في جميع الأحوال وإن تسألها: كيف لرسالة إلهية أمرتك في البدء منها بـــ (اقرأ) أن تُحرم عليك وتنهاك من بعد عن فعل ما كانت بالأصل قد أمرتك به؟!

وهكذا حال (الأميرات)، يرثن عن آبائهن كل تلك الشرور الخيرة، والفتن النائمة والمنومة، وبقدر ما نحن في الظاهر العام من تلك (الطينة الواحدة)، فإننا بالقدر نفسه وفيما خفي عنا واختصصناه لأنفسنا، من ألف طينة وطينة، وقد سبق أن قالت الأعراب: (كل عود ينفح بعطره)، وسواء كنا من تلك الحُزمة التي اتحدت لتصبح (عوداً واحداً) أو كنا من الحُزمة نفسها ولكن بعد أن تفرقت آحادا، أن ننفح بعطر واحد أو بعطور متعددة، وبصيغة سؤال مفعمة بأعلى درجات الفضول، ترى بماذا عسانا على مأخذ (الكل) ننفح؟! وبماذا عسانا بمأخذ (البعض) ننفح؟!! تجاهل هذا السؤال وأجل أمره لما بعد قليل أو كثير – لست أدري- من الصفحات، وتهيأ لقراءة الجزء القادم من القصة.

ارتبطت سنوات عمري السابقة بمكان واحد في إحدى الضواحي الجنوبية من العاصمة، وفي طرف واسع ومنزوح منها يشمخ (قصر العروض) وهو أحد تجمعات القصور الملكية الحديثة نسبياً حيث لا يتجاوز عمره ثلاثة عقود كاملة، وفي الحقيقة أن (العروض) مجموعة قصور واحد منها هو الذي ولدتُ ونشأتُ وعشتُ فيه، بناء واحد خماسي الشكل قائم في جزيرة واسعة يحيط به سور عالي من جميع الجهات، تظهر من وراء السور ومحاذية له اشجار عالية، والدخول إلى محيط القصر من ثلاث بوابات ضخمة، حيث تظهر طرق مشجرة على جوانبها أحواض الزهور والنخيل، والمساحات الخضراء، وحمامات السباحة وثلاث نوافير قبالة الواجهة الرئيسية للقصر، كبراها هي الأقرب إلى بوابة القصر، حيث تمتد حول القصر مساحات مرصوفة بالرخام الناعم ذو اللون السماوي الذي تتخلله الخيوط الرمادية والسوداء، مما يضفي عليه جمالاً وسحراً، حتى أن الرخام هذا عنصر حاضر دوماً في معظم قصورنا الفارهة.

القصر مكون من خمسة طوابق تتدرج في الضيق من الدور الثالث، مما يجعله ذو شكل هرمي، يبعث منظره في النفس ذلك الشعور بعلو المقام وسمو القدر لساكنيه، وإن كان لا يُرى من خارج أسواره إلا جزء من قمته، بسبب سعة المساحة التي يقع فيها وعلو الأسوار التي تحيط به.

في أحد مباني هذا القصر اختارت عمتي (الأميرة تهاني) أن تعيش بالقرب من صديقتها المقربة إليها جداً وهي (أمي)، ويضج الدور الأرضي من القصر وملحقاته المتراصة بانتظام في الجهة الشمالية، بالكثير من العاملين والعاملات، الذين يتغير معظمهم باستمرار.

حياتنا في هذا القصر كانت تُظهر دوماً ذلك النمط السائد من العلاقات الداخلية القائمة على روابط قاتمة وباهتة، تغيب عنها روح الألفة والمعاشرة، نظراً لطبيعة الزيارات المتبادلة التي كانت تتم من وإلى داخل القصر، باستثناء العلاقة الحميمية التي ربطت أمي وعمتي تهاني، كما أن عمتي تهاني هذه كانت الأقرب إلينا نحن البنات وبالأخص بالنسبة لي، فهي لم ترزق بأولاد حتى اليوم رغم إنها اليوم في نهاية العقد الرابع من العمر تقريباً، وعلى العكس كانت علاقاتنا بالأسر والعائلات الأخرى من خارج الأسرة المالكة كبيرة وواسعة، وكان لي منها الكثير من الصديقات والمقربات.

كانت عمتي (الأميرة تهاني) قد تزوجت في بُكرة عمرها من أحد أمراء الأسرة، ولكنها لم تلبث معه طويلاً، إذ سرعان ما تطلقت منه، والحقيقة أن زوجها ذاك كان شهيراً بكونه مزواجاً ومطلاقاً على الدوام، لا تمر عليه سنة كاملة دون أن يكون له فيها زواج وطلاق، ولعل هذا ما اكسبه خبرة جعلته يعرف بالضبط عيوب النساء المحليات من داخل الأسرة وخارجها، فاتجه إلى استيراد نسائه من الخارج، حيث بات يجلبهن من لبنان وتونس والمغرب ولعله اليوم تجاوز حدود المنطقة العربية، وعازم على استيراد نساء من السويد ورومانيا أو حتى من كاليفورنيا!!

تساءلت كثيراً طيلة سنوات، لماذا لم تتزوج عمتي (تهاني) بعد طلاقها من زوجها الأول، وبقدر ما كان التساؤل نابعاً من حبي الشديد لها، بالقدر نفسه الذي كنت قد احرجتها به أمام أخرين غير مرة واحدة، ولكني لم أحصل على جواب شافي، ولم تساورني ظنون حتى بعد أن تجاوزت سن البلوغ، حتى أطلعتني شقيقتي (نجلاء) ذات مرة بسر هذا الأمر، إذ أخبرتني بأن عمتي تهاني بعد طلاقها تزوجت بالسر من رجل كان يعمل سائقاً لديها يدعى (سالم الحضرمي)، وإن هذا الرجل يتردد عليها من حين لآخر، كونه لازال يعمل في خدمة الأسرة حتى اليوم، وطلبت مني (نجلاء) إلا أتحدث في هذا

الشأن أو أعاود طرح الأسئلة على أحد حوله، حرصاً على سلامة العمة، كون هذا الخبر لايزال غير أكيد، ولكي لا ينتهي بها المطاف كما انتهى من قبل بـــ (الأميرة مشاعل) التي قتلت وأشيع عنها بأنها انتحرت، بينما اعلنت الأسرة رسمياً بأنها انتقلت إلى بارئها بوفاة طبيعية، ترى ما هي قصة (الأميرة مشاعل)؟!

كان ذلك قبل أن أولد وأوجد أنا على سطح هذا الكوكب بأكثر من عشر سنوات، عندما اختفت (مشاعل) وإلى الأبد، لتظل قصتها تروى وتروى خلسة في ثرثرات النساء، وأسرار الفتيات داخل جدران القصور الملكية، ونموذجاً روائياً يردده الرجال بالتهديد والوعيد لكل من تفكر أن تعيش ولو للحظة واحدة بعواطفها، أو تظن بأن بإمكانها اختراق حدود السلطة الأبوية الصارمة، وإذن ماذا حدث وكيف حدث للأميرة (مشاعل)؟ أقول هناك أكثر من رواية، ولكني أحب أن أروي القصة التي أميل بدرجة شديدة إلى اعتبارها الأقرب إلى حقيقة ما حدث بالفعل.

كانت (مشاعل) أميرة جميلة وفي منتهى الجمال، وفوق ذلك كانت ذكية ومتفوقة في دراستها، إلى درجة أن من عرفوها في ذلك الوقت قالوا بأنها كانت (عبقرية)، وكان هذا هو العامل الأقوى الذي شجع والدها على مخالفة أوامر والده – الأمير المحافظ والمتشدد – أن يبعث بها إلى الخارج لإكمال دراستها، بعد أن أتمت مرحلة الدراسة في مدرسة القصر، حيث كشفت عن نبوغها، وفي (بيروت) المتحررة على الطريقة الغربية، عاشت (مشاعل) أجمل وأخر سنوات عمرها.

وبالصدفة، تعرفت (مشاعل) على شاب من مواطنيها هناك: أي من طبقة أدنى من البشر، ونشأت بينهما قصة حب قوية ظلت تنمو وتترعرع بينهما سراً، لعلمهما بأن هذا النوع من العلاقات محرم جداً على بنات العائلة وعلى كل فتاة في المملكة، فضلاً عن معرفتها المسبقة بأن العائلة لن توافق على الشخص الذي اختارته هي، إلى أن اقترب وقت عودتها إلى موطنها الذي جاءت منه، حينها كانت في التاسعة عشر من العمر.

استمرت تلك العلاقة بشكل سري بعد عودتها إليَّ المملكة، فوضعت مع حبيبها خطة محكمة تقتضي أن تأخذ أكبر قدر من المال يكفيهما للعيش بهناء في الخارج، وتدبير حادث غرق لها في البحر تختفي بعده على إنها ماتت غرقاً، وكادت الخطة أن تنجح لولا إنها انكشفت في اللحظة الأخيرة، فبينما كانت تحاول الهرب للخارج برفقة حبيبها مرتدية ملابس رجل، ظهر على ملامحها الارتباك والخوف، مما

بعث الشك في نفس موظف المطار، الذي أحالها إلى غرفة التفتيش والاستجواب، وهناك انكشف أمرها إنها فتاة أولاً، وأنها من هي من الأسرة المالكة ثانياً، فتم الامساك بها والتحفظ عليها، إلى أن جاء من استلمها، وكان ثمن ذلك طبعاً أن حصل ذلك الموظف على ترقية وعلى مكافأة قيمة، وأجر مستمر مقابل سكوته وكتمانه سر ما حدث، ويالها من غنيمة!!.

منذ اللحظة الأولى، قرر جد (مشاعل) قتلها بنفس الطريقة التي اختارت أن تعلن بها عن وفاتها وهي (الغرق)، ولكن والدها وبعض المقربين حاولوا منع ذلك، فتم حبسها وتعذيبها في سجن يتبع إحدى المحاكم الدينية، إذ أعتقد والدها أن لجوئه إلى تلك المحكمة سوف يحميها من المصير الذي قرره لها والده، وهناك وجهت إليها تهمة (الزنا)، وعلى مدى ثلاثة أشهر من الحبس والتعذيب، قرر القاضي الذي لم تكن له أي سلطة بعد سلطة أولي الأمر النافذة، أن يبرئ ساحة ذمته ويحكم عليها بموجب ما ستقوله هي لعدم توفر شروط الإثبات الشرعية لواقعة الزنا، وهي توفر أربعة شهود، وكان انكارها كافياً لعدم ثبوت التهمة عليها واخلاء سبيلها، ولكن جدها أرسل إليها في السجن من أخبرها، بأنها سواء اعترفت أو أنكرت، ستموت.. يعني ستموت؟؟؟

في صباح موعد الاستماع إليها والنطق بالحكم الشرعي، حاول والديها منعها من الاعتراف والاقرار بما هي بريئة منه قبل أن تنطق باعترافها للمرة الثالثة والأخيرة، لكنها كانت قد اتخذت قرارها الأخير.. قرار الموت!!

حكم على (مشاعل) بالإعدام، لماذا؟! لا أحد يدري من أين استمد القاضي هذا العقاب، من كتاب الله أم من كتاب العرف القبلي؟! فهل تراه أبرئ ذمته بتطبيق شريعة الله التي قضت بعقوبة الزنا (مائة جلدة)؟!! فضلاً عن أنه ما كان هناك ما يثبت واقعة الزنا، إلا ما أجُبرت هي على الإقرار به على نفسها، لا لشيء إلا طلباً للموت الذي قنعت به سبباً يحرمها ممن كانت تحب، بعد أن صارت الحياة بدونه أسوأ من الموت نفسه، إنها محنة قلوب وأزمة ضمائر.

كان أخر طلب طلبته (مشاعل) قبل أن تموت، أن يقوم جدها بقتلها بنفسه، ودون أن يشهد ذلك أحد سوى الله، فارتعب الجد مما طلبت وخاف، حتى أنه رفض ذلك في البداية، وشدد على أن تُساق إلى حيث يتم تنفيذ الحكم، والذي تقرر أن يكون في مرآب للسيارات تحت إحدى المباني القريبة من المحكمة.

المشهد الأخير هو الجزء الأهم في القصة، والذي جعل منها فزاعة لكل (اميرة) تراودها عواطفها أو يخطر على بالها إنها يمكن أن تخرج عن قواعد العائلة، فقد أوكل الجد إلى اثنين من الأقارب مهمة تقييد (مشاعل) بالحبال، وبعد أن فعل الرجلين ما أمرا به، أمرهما الجد مرة أخرى بضربها وهي مقيدة وممددة على الأرض، فانهالت على جسدها الركلات والضربات، وهي صامتة لا تنطق بحرف غير تأوهاتها المكتومة التي كانت تطلقها اثر كل ضربة أو ركلة كانت تتلقاها، أما نظراتها فكانت موجهة صوب جدها الذي كان واقفاً غير بعيد منها ينظر إليها ويُشفى غليله منها، وبين الفينة والأخرى كانت تسمع صوته الغاضب يدوي في أرجاء المكان وهو يقول مخاطباً إياها:

- **موتي يا فاجرة، موتي يا بنت الكلـــ...**

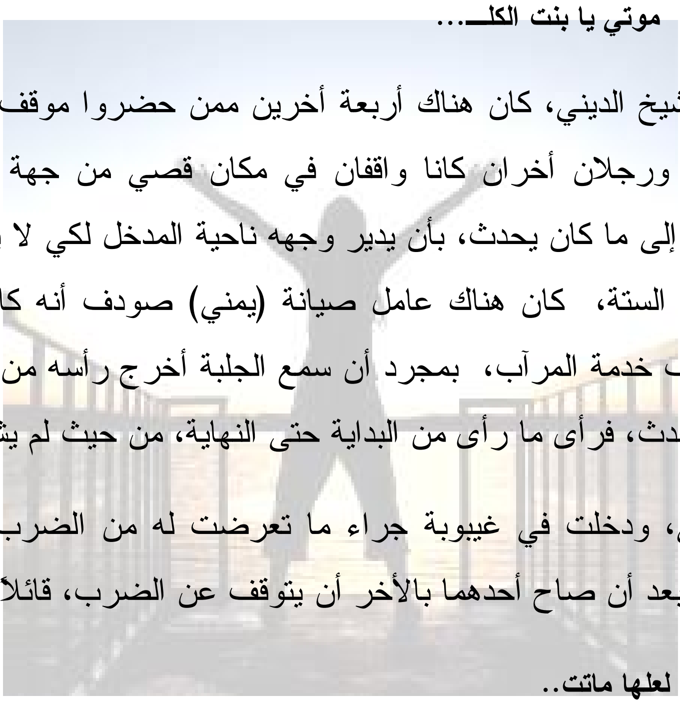

بالإضافة إلى الجد والشيخ الديني، كان هناك أربعة أخرين ممن حضروا موقف تنفيذ الحكم، الرجلان اللذان كانا يضربانها، ورجلان أخران كانا واقفان في مكان قصي من جهة مدخل المرآب، وكان أحدهما يتحاشى النظر إلى ما كان يحدث، بأن يدير وجهه ناحية المدخل لكي لا يرى شيء، ومن حيث لا يعلم أحد من اولئك الستة، كان هناك عامل صيانة (يمني) صودف أنه كان موجوداً في الجناح الداخلي حيث تقع غرف خدمة المرآب، بمجرد أن سمع الجلبة أخرج رأسه من نافذة الغرفة التي كان يعمل فيها، ليرى ما يحدث، فرأى ما رأى من البداية حتى النهاية، من حيث لم يشعر بوجوده أحد.

فقدت (مشاعل) الوعي، ودخلت في غيبوبة جراء ما تعرضت له من الضرب الشديد، حينها توقف الرجلان عن ضربها، بعد أن صاح أحدهما بالأخر أن يتوقف عن الضرب، قائلاً:

- **لحظة، لحظة، لعلها ماتت..**

اقترب الرجل نفسه من الفتاة المتكومة على الأرض، قبض بإحدى يديه على رأسها وباليد الأخرى قبض على ركبتها، وبحركة غليظة فرد جسدها كأنه يفرد خلقة بالية، ثم وضع ظهر كفه على جزء من عنقها يجس نبضها، وبعد لحظات قام من مكانه، والتفت ناحية الجد وقال له:

- **مازالت حية.. إنها فقط فاقدة الوعي..**

نظر إليه جد الفتاة بوجه متجهم وقاسي، ورد عليه قائلاً:

- **لم تمت الكلبة الفاجرة؟! الظاهر إنها لن تموت إلا كما أحبت هي.. هيا اسحبوها للسيارة..**

قام الرجلان بحملها، ولكن الجد صاح فيهما بغضب شديد:

- **قلت اسحبوها.. لا أن تحملوها، آلا تفهمون؟ سحب يعني سحب..**

امتثل الرجلان للأمر، وألقيا بها من أيديهما إلى الأرض، واكتفى أحدهما بأن سحبها من قدميها إلى السيارة.

كانت (مشاعل) لاتزال على قيد الحياة عندما رموا بها إلى سطح سيارة الـــ (وانيت) التي كانت مركونة قبالة مدخل المرآب، بحيث تمنع دخول أي سيارة، وتضيق المساحة لمن أراد الدخول إليه، أما إلى أين حُملت؟ وما حدث لها بعد ذلك، فقد أخذت إلى قصر جدها، وهناك في حديقة القصر، وضعوا (مشاعل) وهي لاتزال مقيدة وفاقدة الوعي على طرف حمام السباحة، وبدأ جدها يرش وجهها بالماء البارد، لكي تفوق من غيبوبتها، ومن خلفه لم يكن هناك غير الرجلان اللذان كانا ينفذان أوامره، ويُقال أن (مشاعل) لما أفاقت، نظرت في وجه جدها القريب منها، وهي ترسم على وجهها ابتسامة هادئة، وبعد أن استجمعت كل ما بقي من قوتها قالت له بصوت متهدج وأنفاس لاهثة:

- **أنا راحلة يا جدي، فلا تخف، لن أعيش بعد اليوم، أنا ذاهبة إلى الحق والعدل.. إلى من لا يظلم عنده أحد، وأعد للظالمين عذاباً شديداً، وتأكد يا جدي.. أن دمي وحياتي، في ذمتك إلى أن يجمعنا الله عنده، فلا عفو لك عندي.. لا عفو لك..**

تبلد الجد من هول ما سمع من حفيدته، حتى ما كاد يقوى على النهوض، وابعاد وجهه عن وجهها، فألقى مؤخرته على الأرض وحرر إحدى قدميه وركل الفتاة بها، لتسقط في حمام السباحة، وهو يصيح ويصرخ..:

- **موتي يا فاجرة.. موتي لعنة الله عليك، لم يبقى إلا أنت من تذكرني من هو الله وتعلمني ماذا قال وبماذا أمر، موتي يا كلبة يا بنت الكلبة..[ثم ألتفت ناحية الرجلان وقال لهما]: دعوها في الماء حتى تطفو جيفتها، بعد ذلك ارموا بها في ألعن حفرة.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا وقوة إلا بالله.. حسبي الله عليها من فاجرة.. حسبي الله عليـــ.. .**

كان ذلك ما حدث للأميرة (مشاعل)، الفتاة التي لم تتجاوز العشرين عاماً من العمر، التي أتهمت وأُدينت بجريمة (الحُب)، وحكم عليها باسم الله وباسم الدين بالموت، لأنها أحبت واختارت أن تعيش مع

من تحب، ووصمة العار الحقيقية التي لن تمحى أبد الدهر من صفحات التاريخ، الذي ترد فيه قصة الأميرة (مشاعل)، ليس ما فعلته هي بل ما حدث لها..

أعود إلى قصتي، في الدور الأول من قصر العروض، خصص جناح لدراسة الأميرات الصغار، يعملن فيه مربيات ومعلمات عربيات واجنبيات، وجميعهن يخضعن لسلطة الناظرة (مُطاع) وهي سيدة محلية صارمة وشديدة في تعاملها، تشرف على كل أعمال هذا الجناح.

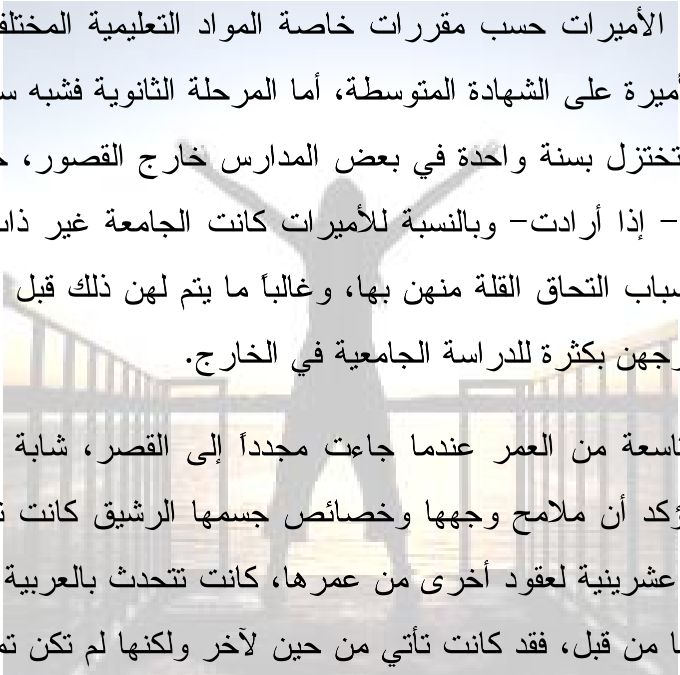

عندما تصل الأميرة إلى سن السادسة، يبدأ تعليمها أساسيات القراءة والكتابة والحساب، وبعض الأوليات الدينية والتعاليم التربوية والسلوكية، وربما استمر هذا الوضع ثلاث أو اربع سنوات، ثم في مرحلة متوسطة، تتعلم الأميرات حسب مقررات خاصة المواد التعليمية المختلفة خلال ثلاث سنوات أخرى، تحصل فيها الأميرة على الشهادة المتوسطة، أما المرحلة الثانوية فشبه ساقطة من مراحل تعليم الأميرات، وغالباً ما تختزل بسنة واحدة في بعض المدارس خارج القصور، حيث يتم اعداد الأميرة فيها للالتحاق بالجامعة- إذا أرادت- وبالنسبة للأميرات كانت الجامعة غير ذات اهمية بالنسبة لكثير منهن، بينما تختلف أسباب التحاق القلة منهن بها، وغالباً ما يتم لهن ذلك قبل أن ينتهين من المرحلة الثانوية، لكنهن الآن يتوجهن بكثرة للدراسة الجامعية في الخارج.

كنت في الثامنة أو التاسعة من العمر عندما جاءت مجدداً إلى القصر، شابة انجليزية شقراء نحيفة وطويلة نسبياً، من المؤكد أن ملامح وجهها وخصائص جسمها الرشيق كانت تجعلها مهيأة لأن يظل الآخرون يرونها كفتاة عشرينية لعقود أخرى من عمرها، كانت تتحدث بالعربية وباللهجة المحلية على نحو رائع، كنت أعرفها من قبل، فقد كانت تأتي من حين لآخر ولكنها لم تكن تمكث طويلاً، بعكس ما فعلته في المرة الأخيرة.

كانت تلك هي المربية والمعلمة الانجليزية (كيث براون)، والتي أعتدت أن أناديها (كايتي)، وقد كانت معنية بتعليمي أنا على وجه الخصوص أساسيات السلوك واللياقة العامة، فقد كان لكل أميرة (وصيفتها) أو سادنتها الخاصة بها، وقد ربطتني بـ (كايتي) علاقة حميمة منذ وقت مبكر استمرت طيلة السنوات الثلاث التي قضتها عندنا، وحتى انتهيت من مرحلة دراستي المتوسطة وقررت هي العودة إلى بلدها، ومع ذلك ظلت (كايتي) تحتل المكانة الخاصة لها في قلبي وفي حياتي.

استطاعت (كايتي) أن تكسب احترام الجميع، وإن تصنع ذلك التوافق الغريب والمريب في علاقتها بـــ (أمي) وصاحبتها المقربة عمتي (تهاني) على وجه الخصوص، رغم كل ما كان يتردد سراً وعلناً عن علاقتها بأبي، والتي كانت سبباً في زياراتها المتكررة لنا واقامتها الطويلة في المرة الأخيرة لدينا، إنها (كايتي) التي ستكون لها قصة في صلب قصتي، أو بالأصح ستكون قصتي فصل من فصول التكملة في قصتها، فصل صدمتي الكبرى التي شكلت أقوى ملامح تجربتي التي خضت غمارها خلال سنوات إقامتي في لندن.

ولد مشروع السفر إلى لندن قبل أن يصبح حدثاً وواقعاً فعلياً، في إطار ارتباط أمي الشديد بشقيقتها الصغرى وخالتي في نفس الوقت (الأميرة سمية)، وهما أبنتا الأمير (مساعد بن عبدالله) والذي ينتمي إلى فرع أخر من فروع الأسرة الملكية، فقد كانت زيارات خالتي هذه لنا تتم على نحو متكرر، في الشهر مرتين على الأقل قبل أن تنتقل مع زوجها (الأمير خالد) للإقامة في لندن، نظراً لطبيعة عمله الذي جعله الرجل الأول في البعثة الدبلوماسية لبلدنا هناك، كما أن (الأمير خالد) يعد من الأمراء المقربين إلى والدي ولهما معاً العديد من المصالح المشتركة، وهذا طبعاً كما يقال وليس كما أعرف.

خلال سنوات عديدة، نشأت بيني وبين (الأميرة هند) بنت خالتي (سمية)، علاقة صداقة وثيقة العرى وعميقة المكنون، فقد انطلقت الشرارة الأولى لفكرة الدراسة في لندن من فم (هند) ورغبة كلانا في أن نكون معاً بشكل دائم أو هكذا بدا لي الأمر، وبالفعل تمت الاستعانة بخالتي (سمية) وزوجها (الأمير خالد) لإقناع والدي بالموافقة على سفري معهم إلى لندن، والاقامة في كنفهم طوال فترة دراستي الجامعية، وكما عرفت لاحقاً فقد دعمت (كايتي) هذا المشروع، فقد كانت على اتصال بخالتي سمية في لندن ومنها علمت بالأمر، خاصة وإن (كايتي) كانت ذات تأثير قوي على أبي، والحقيقة أن الكثير من الظروف خدمتني وساعدتني ليتسنى لي السفر والعيش في عاصمة التاج البريطاني لعدة سنوات من عمري، حدث ذلك على نحو لم أكن اتوقعه، وفي لندن سأعيش تلك السنوات وسيكون لها الشأن الأكبر في حياتي القادمة كلها، فالغاية من هذا العمل ليست إلا حكاية قصتي في لندن، وكل ما سبق ليس إلا خلفية لما سيأتي.

جاء اليوم الذي حملتنا طائرة خاصة إلى لندن، في صبيحة يوم ثلاثاء من أيام أغسطس الصائفة، ومن نافذة الطائرة كان بإمكاني أن أرى المسافات تطوى بسرعة عالية ونحن نعبر من فوق الصحارى

الذهبية، صاعدين فوق السحب التي حجبت الرؤية عني، ولم تكد تنقضي بضعة ساعات حتى بدأت ألمح على سطح الأرض زرقة البحر، وقد ارتسمت عليها أقواس الموج البيضاء، كأنها ثابتة بلا حراك.

قبل نصف ساعة من موعد وصول الطائرة وهبوطها على الأرض، دعتني (هند) إلى مرافقتها وخالتي أيضاً لنتوجه إلى غرفة خاصة، لم يحدث فيها شيء سوى أننا خلعنا ملابسنا التي كنا نرتديها (الحطات والعباءات)، وارتدينا ملابس أخرى، وكان عليَّ أن أدرك حينها بأني سأظهر لأول مرة في حياتي فوق الأرض وتحت السماء بدون عباءة سوداء وغطاء وجه (نقاب)، ومازلت قادرة على استعادة ذلك الشعور الذي أحدث في جسمي قشعريرة مريحة، لوحت لي بحياة جديدة لا أكون فيها خلف حجاب ولا وراء جدار، كنت سعيدة حينها مع ما أصابني من الارتباك من ذلك كله، بحيث إني لا أستطيع تذكر ما حدث في تلك الدقائق التي عدنا فيها إلى مقاعدنا، قبل أن نتوجه جميعاً ناحية باب الطائرة، ومع اطلالتي الأولى على أحد نهارات لندن وقفت برهة، استعداداً لتوثيق الخطوة الأولى لي هناك في ذاكرتي بحيث لا تمحى منها أبداً، وبعدها فوراً إلى شارع تشارلز (**Charles Street**)...

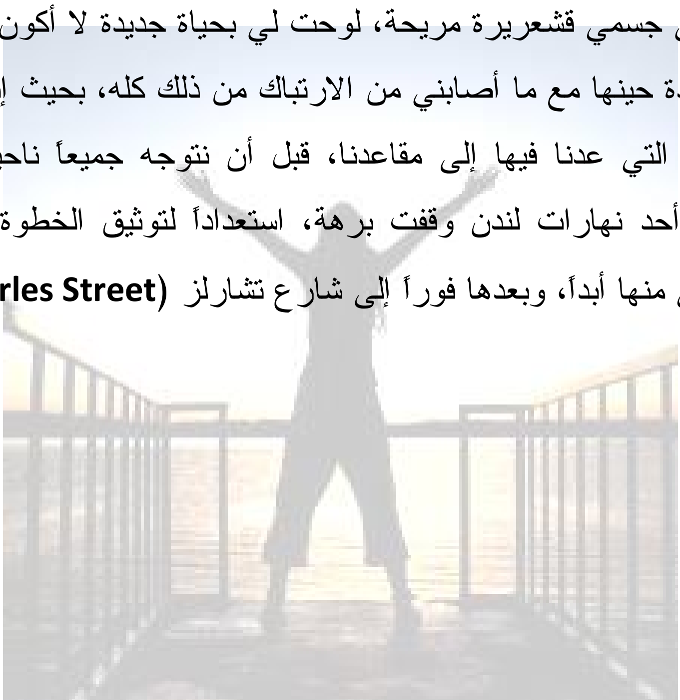

الفصل الثالث

أميرة في لندن

في شارع تشارلز (Charles Street)، يقع قصر سفارة بلادنا في لندن، أما المكان الذي أقمت فيه فور وصولي لندن، فكان قصر يقع في منطقة هامستيد (Hampstead)، حيث تسكن خالتي وزوجها وابنتهما (هند).

القصر مؤلف من ثلاثة طوابق، في الطابق الأرضي توجد صالتان، الصالة الرئيسية التي تطل على الباب الرئيسي للقصر، وأخرى كبيرة وواسعة، يفصل بين الصالتين جدار يستند إلى أعمدة ترتبط مع بعضها البعض بأقواس عالية مكسوة حواشيها وأطرافها بقطع متصلة من خشب الأبنوس الفاخر والمزخرف بطريقة حديثة ومتطورة للأرابيسك العربي المطعم بالزجاج الملون، والممر الواصل بين الصالتين كان أحد تلك الأقواس وأوسعها حيث يقع في جزء قريب من منتصف ذلك الجدار، الذي تراصت بمحاذاة امتداده خزائن كلاسيكية مصنوعة من خشب الأرز المعمول والمصقول بدقة وأناقة فائقة، والذي أحتفظ بلونه البني القاتم. بعض الخزانات ترتفع عن قامة الواقف قبالتها قليلاً، وبعضها الأخر يرتفع إلى منتصف الجدار، وفي تلك الفراغات كانت المعلقات الحائطية التي أعجز عن وصفها كفيلة بإضفاء الحيوية والوقار على تفاصيل الصالة الصغيرة، ومعظم جدران القصر الداخلية مكسوة

بالرخام الصقيل واللامع الذي يميل لونه إلى اللون الوردي الفاتح الذي تتخلله الخطوط والبقع الغامقة اللون والتي اكسبت الجدران جمالاً طبيعياً أخاذاً، وقد عمل ديكور وأثاث القصر كله على هذا النحو، وفي الدور الأرضي كل ملحقات القصر الخاصة بالمعيشة والخدمة، ففي منتصف الصالة الرئيسية من الداخل يوجد السلم المؤدي إلى الطابق الأول الذي يتكون من جزأين، جزأ مفتوح يطل على الصالة الرئيسية في الأسفل، وجزء يمتد إلى الخلف ويتألف هذا الطابق من عدة أجنحة، ثلاثة منها تقع في الجهة التي تعلو الصالة الكبيرة، وجناحان في الجهة التي تقع فوق ملحقات الدور الأرضي الداخلية، وتطل جميع الأجنحة على حديقة القصر في الجهة الخلفية، بينما كان فناء القصر من جهة البوابة قاصراً على مرافق انشائية وخدمية أخرى، أما الطابق الثالث فكان يمثل جناحاً خاصاً ومستقلاً لخالتي وزوجها مع كافة مكملاته التي تجعل منه بيتاً كاملاً ومستقلاً.

اخترت أن أقيم في الجناح المجاور لجناح (هند)، وكان جناحي مكوناً من صالة بعد باب الدخول، وإلى الجهة اليسرى حجرة نوم واسعة وأنيقة ذات شرفة كبيرة تقع خلف مستطيل زجاجي شفاف يمثل نافذة للحجرة وباباً للدخول إلى الشرفة التي تزدان بأشجار الزينة الحية والملونة، وتشمل حجرة النوم حماماً صغيراً وخزانة ملابس واسعة لا يظهر عمقها من الخارج، يقابلها عن بعد في عمق الحجرة سرير النوم، الذي يرى الجالس عليه ثلاثة أبواب أقربها يؤدي إلى خزانة الملابس والحمام الداخلي، وفي الجهة المقابلة ينتصب باب عريض يؤدي إلى الغرفة الثانية التي تقع في الجهة اليمنى لصالة الجناح، وهي أصغر من حجرة النوم وقد أعددتها لتكون خاصة بأغراض الدراسة، لها باب أخر يؤدي إلى الصالة، ويجاوره من جهة الصالة مدخلاً يؤدي إلى المغسلة والحمام الكبير الخاص بالجناح، وخلال الأيام الأولى من إقامتي هناك أضفت بعض اللمسات لجناحي، وزودته بكل ما احتاجه من أجهزة وأثاث، باستثناء جهاز التلفزيون، لأنه عنصر أساسي لبعض الطقوس العائلية التي تحرص عليها خالتي وعلى رأسها الجلسات المشتركة لمشاهدة التلفزيون، بحيث لا يكون ذلك إلا في صالة الجلوس المخصصة له، ولم يسعني إلا احترام رغبتها، فهي على كل حال سيدة المنزل.

بالمناسبة، (هند) هي الابنة الصغرى لوالديها، ولها من الأشقاء أربعة، ثلاثة أكبر منها وهم (العنود، ناصر، الهنوف)، أما الأصغر منها فواحد وهو (يزيد).

الأميرة (العنود) شقيقة (هند) الكبرى، متزوجة منذ سنوات ومقيمة في الوطن مع زوجها، والأمير (ناصر) الشقيق الأكبر لها، حصل على شهادة البكالوريوس في ادارة الأعمال من (Kings Coolidge) في جامعة لندن، حيث كان قد أنهى دراسته الجامعية وأقيم له حفل بهذه المناسبة قبل عدة شهور من وصولي إلى لندن، وقد سافر مع أسرته لقضاء العطلة الصيفية في الوطن، وكان يفترض أن يعود معنا في نفس الطائرة التي حملتني مع (هند) ووالديها إلى لندن، ولكنه فضل البقاء هناك امتثالاً لأمر عمه وشقيق والده الأكبر الأمير (محمد)، وكما أخبرتني (هند) فإن عمه قرر أن يوكل إليه ادارة إحدى المؤسسات التجارية الضخمة التي يملكها عمه ووالده، أما شقيقة (هند) الأخرى الأميرة (الهنوف)، فكانت قد تزوجت هي الأخرى قبل ذلك بفترة ليست طويلة، بقي الشقيق الأصغر لــ (هند) والأقرب إلى قلبها والأحب إليها من كل اخوتها، وهو الأمير (يزيد) فمعروف عنه أنه (المدلل) عند والديه اللذان أسرفا في تدليله، مما جعله شاب مستهتر وغير مبالي، وكثيرة هي فضائحه ونزواته التي جعلته سيء السمعة جداً، لاسيما فيما يخص علاقاته النسوية العابثة، وهذا ما دفع والده أخر مرة إلى منعه من البقاء في لندن وارساله إلى (الرياض) ليبقى تحت عين عمه الأمير (محمد)، المعروف بشدة طبعه وصرامته في التعامل مع الأبناء، وقد كان عدم اقامة (يزيد) في منزل والديه واحد من أهم الأسباب التي دعمت فرصة إقامتي مع (هند) وخالتي (سمية) في نفس المنزل، كما أن عودته لاحقاً ستكون السبب الرئيسي لانتقالي إلى مسكن أخر خاص بي طيلة فترة إقامتي في لندن.

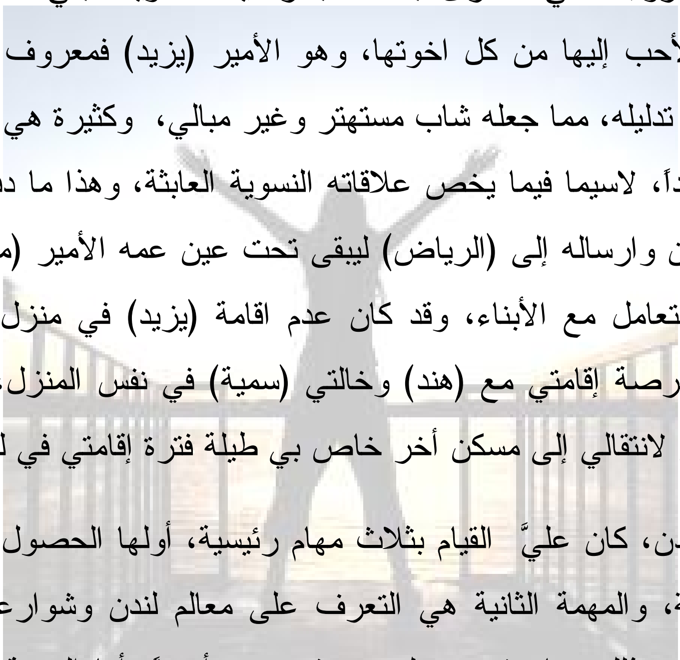

في بداية إقامتي في لندن، كان عليَّ القيام بثلاث مهام رئيسية، أولها الحصول على الشهادة الرسمية لإجادة اللغة الانجليزية، والمهمة الثانية هي التعرف على معالم لندن وشوارعها وأسواقها ومولاتها وحدائقها ومقاهيها وغير ذلك مما تنفرد به لندن وتشتهر به أيضاً، أما المهمة الثالثة فتمثلت بمعرفة قواعد حياتي الجديدة والطرق الذي سوف تسير فيها اموري هناك.

بعد أقل من شهر على إقامتي في لندن، أخذتني (كايتي) إلى المعهد الذي درست فيه اللغة الانجليزية التي مكنتني من الالتحــاق بصفوف الجــامعة، وقد استمرت دراستي في هذا المعهــد قرابة ستة أشهر، ولولا مساعدة (كايتي) ووقوف (هند) إلى جانبي لطال هذا الأمر، كما إني كنت حريصة على إتمام هذه المهمة، إذ كنت اعلم أن الفشل فيها يعني العودة إلى الديار، وهذا ما كرهت أن يحدث، وكان لي في النهاية ما أردت.

بعد تجاوز فترة الحفاوة التي تستقبلك بها لندن، والتي لا تتجاوز عادة شهراً واحداً، لأن أكثر من ذلك يعني أنك قد تصبح مقيماً فيها، وهذا ينقلك إلى وضع أخر غير وضع الزائر، لذا يفضل الزائرون للندن إلا يبقوا فيها أكثر من تلك المدة، فقد اتضحت لي في الشهور الثلاثة الأولى ملامح وسمات الحياة في لندن والمشكلات التي ظهرت على سطح حياتي هناك، وخشيت طيلة تلك الفترة أن تؤثر سلباً عليَّ، خصوصاً تلك المشكلات المتعلقة بالسلطة الأسرية والعادات الاجتماعية التي جئت من عالمها، لاسيما تلك التي تعلقت بمظهري العام الذي أدخل به وأخرج في لندن، بين البيت والمعهد ومن ثم الجامعة والأماكن العامة التي كنت ارتادها مع (هند) و(كايتي) وبقية الرفاق لاحقاً، أو في الخرجات العائلية النادرة التي كنا نقوم بها جميعاً للتعرف على معالم لندن والتنزه والتسوق، والحقيقة أن الأمور كانت مثيرة للدهشة في البداية وربما وصل الأمر في بعض الأحيان إلى الشعور بالصدمة، فالتحول إلى النقيض أمر ليس بالسهل على نحو ما كنت أحلم به واتوقعه، كما أن نمط الرقابة الأبوية التي فُرضت عليَّ وبدأت اتعرف على أساليبها الظاهرة والخفية أرهقتني كثيراً، وخلقت لي الكثير من الاحباطات التي تكونت في نفسي، ولم أشأ أن اخبر عنها أو أفضي بما يجول في نفسي طيلة الشهور الثلاثة الأولى، حتى إلى (هند) أو (كايتي)، فقد فضلت التروي وابداء نوع من روح التكيف مع الظروف والمستجدات التي كانت تحصل في حياتي أنذاك، إذ كنت أرى أنني لا أزال غريبة، وأحتاج إلى وقت كاف للاندماج في العالم الجديد.

كانت أولى تلك المشكلات نابعة من رغبتي الشديدة في التحول إلى نمط المرأة الغربية، وكان (الحجاب) أو الغطاء الذي اضعه على رأسي هو عنوان تلك المشكلات، صحيح لم تعد هناك عباءة ولا خمار أو نقاب، ولكني كنت بحاجة إلى تحسس مساحة الحرية المسموحة لي بعد أن لقنتني خالتي بعض التعليمات، واطلعتني على شيء من تلك المحاذير التي يجب أن اضعها في الاعتبار، ولعلي رغبت بشدة في الانفلات من دائرة القيود العائلية، التي تجعلني واضحة للعيون اللندنية ومكشوفة كفتاة شرقية وعربية، باعتبار هذا أكثر ما كرهت أن يعيبني في تلك الفترة، ولم أكن أعرف بأن كل تلك القيود سوف تزول بسهولة ويسر في قابل الأيام.

نفسي التواقة للتحرر والتحول، رسمت في مخيلتي ملامح كثيرة مكتملة التفاصيل أحياناً وناقصة التفاصيل أحياناً أخرى، حيث كان عليَّ أن ارسم ثلاث دوائر خضراء تعبر عن المناطق التي أريد أن أعبر إليها: (المظهر، الحركة، العلاقات)، وكنت أعتبر هذا الثالوث جوهر ما أحتاج أن تقف عليه كل

التحولات التي اعتقدت إني أريد أن أحدثها في حياتي وشخصيتي، وقررت في لحظة ما أن أتحرر بالتدريج وأنتقل من دائرة إلى أخرى حتى تكتمل كل أساسيات التحول المنشود، والذي تتوق إليه نفسي بكل جوارحي.

كانت البداية من دائرة المظهر، فكان لابد من اختبار الممكنات والتحفظات في أن واحد، ويالها من مهمة عسيرة استغرقت مني وقتاً طويلاً، قبل أن أصل إلى إدراك حاسم للكيفيات التي تتم بها الأمور، فقد كان مما لابد منه التحقق من الغاية الحقيقية التي تكنها نفسي من مشروع إقامتي في لندن، وما إذا كانت الدراسة جزءً أو كلاً من تلك الغاية.

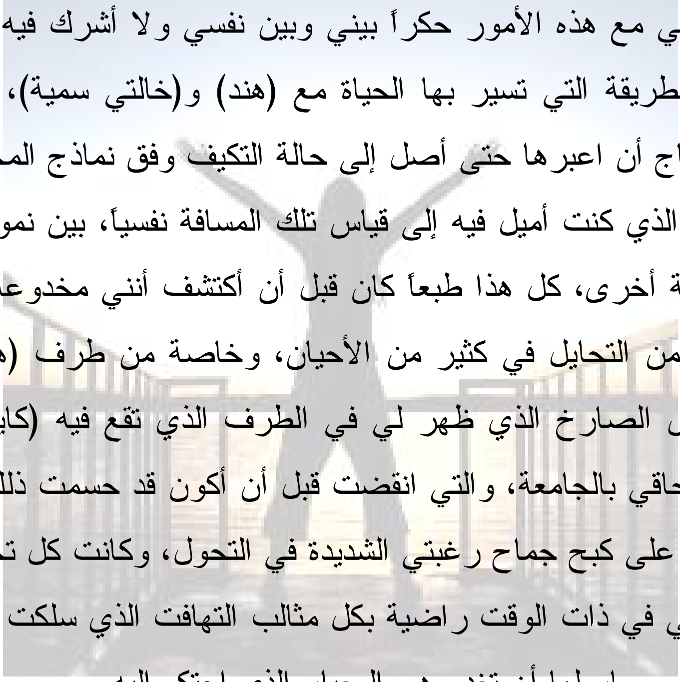

في البداية، كان التعاطي مع هذه الأمور حكراً بيني وبين نفسي ولا أشرك فيه أحد، على أساس إني كنت مكتفية بمراقبة الطريقة التي تسير بها الحياة مع (هند) و(خالتي سمية)، وأعتمد على ذلك في تقدير المسافة التي أحتاج أن اعبرها حتى أصل إلى حالة التكيف وفق نماذج المحاكاة الشكلية والالتزام بالتعليمات، في الوقت الذي كنت أميل فيه إلى قياس تلك المسافة نفسياً، بين نموذج (كايتي) من جهة، ونموذج (هند) من جهة أخرى، كل هذا طبعاً كان قبل أن أكتشف أنني مخدوعة بما يظهر لي كثيراً، وإن الأمور تتم بنوع من التحايل في كثير من الأحيان، وخاصة من طرف (هند)، وقبل أن أكتشف واصطدم بذلك التناقض الصارخ الذي ظهر لي في الطرف الذي تقع فيه (كايتي)، في تلك الشهور الأولى التي أعقبت التحاقي بالجامعة، والتي انقضت قبل أن أكون قد حسمت ذلك التعقيد كله، فلم أكن قادرة حتى ذلك الوقت على كبح جماح رغبتي الشديدة في التحول، وكانت كل تحفظاتي الدفينة تتهاوى أمام تلك الرغبة، وكأني في ذات الوقت راضية بكل مثالب التهافت الذي سلكت طريقه، وكأن رغباتي المكبوتة أيضاً انطلقت، وصار لها أن تغدو هي المعيار الذي احتكم إليه.

في العام الأول لي في لندن، وفي بداياتي هناك بالتحديد وجدت فرصة لتعبئة أوقاتي باهتمامات الدائرة الأولى (دائرة المظهر)، وبالكاد تمكنت من اقناع الجميع بأني قادرة على الخروج بمفردي، ولكني لم أفعل ذلك لأني شعرت بالحاجة إلى من يكون معي ولا يقيد خطواتي، فكانت (كايتي) في البداية وإن كنت ألجأ إليها وأنا مجبرة على تحمل صرامتها في تطبيق التعليمات الأبوية التي لم تكن جاهلة بها.

شراء الملابس والحاجيات الشخصية الأخرى، ملاحقة الموضة وغير ذلك، كلفتني أوقات طويلة درت فيها بين معارض ديور (Dior) وشانييل (Channel)، ومراكز التجميل والعناية بالشعر والجمال،

وكان عليَّ أن أمارس طقوس من نوع ما في جناحي كل ليلة، إذ كنت أرتدي الملابس واستعرض شكلي وخطواتي وحركاتي أمام المرآة طوال الليل، وقبل أن أنام اتخيل نفسي وأنا اشتعل ضوءً انيقاً ومبهراً في الأماكن التي اتخيل نفسي موجودة فيها، وكل العيون ترصدني بذهول وافتتان، وأقول لنفسي: يالك من نعمة جزيلة يا لندن!! ولا شيء يدور في ذهني سوى الاعتقاد بأن كل ما أحلم به سيحدث، يعني سيحدث.

تبدو الأمور التي نرغب فيها أو بالقيام بها سهلة عندما ننظر إليها من زاوية الخيال وأحلام اليقظة، ولكن فعل ذلك في الواقع يتطلب مواجهة قدر عالٍ من الصعوبة، ولا شيء أصعب من الخطوة الأولى، أقول هذا لأني نظرت إلى ما أقوم به كل ليلة تقريباً، واكتشفت إلى أي مدى كنت خائفة ومترددة في فعل ذلك حقاً، إلى درجة إني لم أجرؤ على الظهور بتلك الملابس داخل المنزل، وبدا لي بشيء لا بأس به من الوضوح، أن هناك ثمة مشكلة كامنة في هذا الشأن، تتعدى مشكلة قوانين الجرائم والعقوبات النسوية، التي تطبقها علينا السلطة الذكورية الصارمة نحن الفتيات ونحن النساء، فقد كنت أدرك بأن كسر تلك القوانين أمر واقع يقوم به من حولي، وأي تحفظات على بعض الأمور تكون مرتبطة بموانع ذاتية أكثر منها سلطوية، وإلا لما كنت أشعر بالحاجة إلى شخص أكاشفه بما أريده، ليساعدني في إتخاذ القرار والاقدام على تنفيذه، ولكن لماذا؟ هذا ما سألت نفسي.

استطعت ذات ليلة أن أجذب (هند) إلى جناحي، وهناك عرضت عليها كم الملابس والأزياء التي اشتريتها في الفترة الأخيرة، وأبدت هي اعجابها بمعظم ما عرضته عليها، بل إنها كانت تقترح عليَّ الخيارات التي تراها أفضل من وجهة نظرها، فتقول لي: هذا سيكون عليك تحفة، وهذا سيجعلك في غاية الأناقة، أما هذا فمثير وهو أكثر ما يلفت الأنظار ويجذب الشباب إليك.. وهذا كذا.. وذاك كذا، وفي غمرة حماسها اقتنصت اللحظة المناسبة لأخبرها بما أردت حينها، إذ أطلقت نهدة عميقة تعمدت أن تسمعها بكل وضوح، بينما غيرت ملامح وجهي لتبدو عليَّ مظاهر الحزن، فسألتني مستغربة:

- **هيييه.. لماذا؟ ما الذي حصل؟**

- **أبداً لا شيء.. [قلت لها ذلك بصوت خافت وأنا أحيل وجهي إلى الجهة الأخرى]**

- **أبداً لا شيء!!! هذه عبارة تقولينها لغيري.. فما أنا بجاهلة بك، فاخبريني هيا ما الذي حدث وغير ما كنت وكنا عليه قبل لحظات؟!**

– كل هذا.. كل هذا يا (هند)، لا أعرف كيف أقوم به، ولا أجد في نفسي قوة على اتيانه، وكأنك لا ترين شيء.. أو أن الأمر خافياً عليك..

نهضت على عجل من مجلسها ووقفت خلفي وجذبتني من ذراعي بشدة لألتفت إليها، قائلة:

– لا تتفوهي بما لا يجدي من الكلام، وأخبريني بصراحة ما الأمر؟

– كل هذه الملابس في خزانتي منذ فترة، ولا أستطيع أن أرتديها وأظهر بها وأستمتع بذلك، أليست هذه مشكلة؟ قولي لي يا (هند) كيف أفعل ذلك؟

– فقط هذا.. أم أن هناك أمراً أخر؟ – [سألتني]

– ألا تكفي هذه المعاناة بالله عليك؟!

انفجرت (هند) ضاحكة في وجهي، الذي كنت لا أزال أدنيه ناحية الأرض، وسارت تتهادى ضحكاً في أرجاء الحجرة، حتى إنها خشيت أن تسقط على طولها من شدة الضحك فاستندت إلى الحائط، وقد احمر وجهها وكادت أن تدمع عيناها، فيما كنت أنا أسمع قهقهاتها تدوي عالية حولي وأنظر إليها وكل الغيظ قد بدأ يعتريني، ولعدة مرات كانت تنظر إليَّ وهي تهم أن تقول لي شيئاً، ولكنها تعود مرة أخرى إلى هيستيريا ضحكها، فقلت لها بصوت حاد يكاد يكون صراخاً غاضباً:

– هل قلت نكتة؟! أم إني أبدو لك سخيفة إلى هذه الدرجة؟

استجمعت نفسها خلال لحظات، وقالت:

– آسفة، والله إني آسفة، فلم استطع أن اتمالك نفسي من شدة الضحك، وعموماً سأقول لك ما تودين سماعه مني، هل تريني كيف ألبس وكيف أظهر؟! افعلي مثلي، لا أنكر أن جميع هذه الملابس في غاية الروعة والأناقة، ولكن المشكلة فيك أنت وليس فيها، فأنت ترين إنها لن تكون مناسبة لك كطالبة جامعية.. صحيح؟

شعرت بالحرج من عبارتها الأخيرة، فقلت لها مقاطعة:

– ومن تناسب إذن؟

أدركت إنها أحرجتني فأظهرت شيء من الجدية قائلة:

- أكيد تناسبك أنت، ولكن لكي تتخلصي من الخوف، عليك أن تحددي بالضبط مما أنت خائفة؟

- نعم، لعلي خائفة مما ستكون عليه مواقف من حولي إذا ظهرت وخرجت بهذه الملابس، منك ومن خالتي ووالدك، ومن أبي والعائلة كلها..

- أعرف هذا، ولكن يجب أن تعلمي أننا هنا في (لندن) التي يأتي إليها الجميع من أهلنا واهل بلادنا من أجل سبب واحد هو اختراق القوانين، الجميع يفعل ذلك هنا، فقط عليك أن تبقي على الحد الأدنى من الحشمة، وهذا أمر يعود عليك تقديره، بقدر ما أنت مستعدة للقيام بما تريدين ومواجهة الآخرين به، فهنا كل شيء ممكن ولكن – بالنسبة للبنات– تؤخذ الدنيا غلابا، لذا قومي بكل شيء بالتدريج، حتى يألفك الأخرون بالشكل الجديد، ويأتي الوقت الذي لن ينكرون عليك ما تفعلين أو يلتفت إليك أحد بالمرة.

- هل ترين هذا؟ – [سألتها بوداعة]

- نعم، وتخلصي من هذا الخوف..

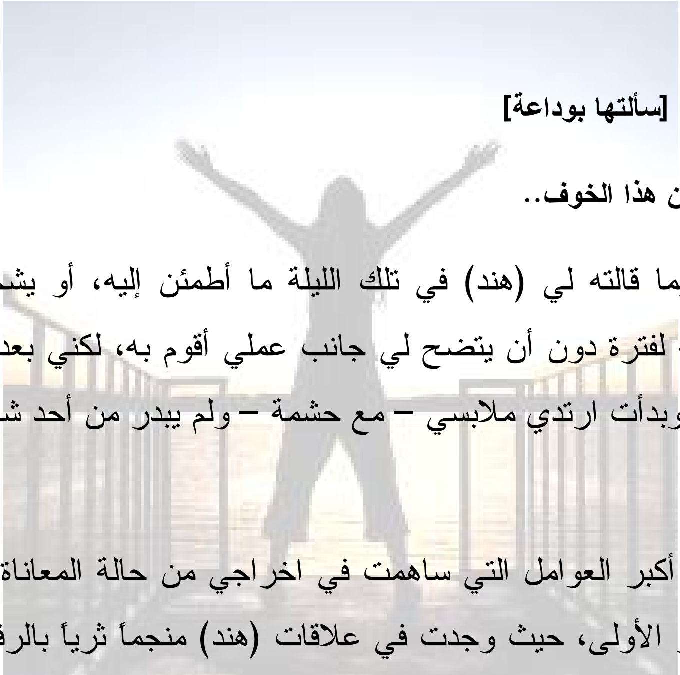

في الحقيقة، لم أجد فيما قالته لي (هند) في تلك الليلة ما أطمئن إليه، أو يشجعني فعلاً على القيام بشيء، فبقيت مشوشة لفترة دون أن يتضح لي جانب عملي أقوم به، لكني بعد ذلك وجدتني مدفوعة لاختبار الأمر بنفسي، وبدأت ارتدي ملابسي – مع حشمة – ولم يبدر من أحد شيء ملفت، فأدركت أن ما قالته (هند) صحيح.

كانت علاقاتي الجديدة أكبر العوامل التي ساهمت في اخراجي من حالة المعاناة والانعزال التي غلبت عليَّ في الثلاثة الأشهر الأولى، حيث وجدت في علاقات (هند) منجماً ثرياً بالرفيقات والصديقات، من جاليتنا والجاليات العربية ومقيمات أجنبيات وانجليزيات أيضاً، المهم إني تعرفت على عشر دفعة واحدة: شيرين وريم وسالي وأماني وعزة ومهجة وايما وسيندي والكس وانجلي، على الرغم من أنهن لم يمكثن في حياتي كثيراً، فبعد وصولنا إلى لندن أقامت (هند) حفلة على شرفي دعت إليها كل صديقاتها ورفيقاتها، وكانت تلك الحفلة أول حدث اجتماعي لي أعيشه في لندن، وقد اثمرت عن لقاءات تعارف جرت بيني وبين الجميع، كان لها الفضل في خلق أوقات ولقاءات أخرى بعد ذلك، وعلى الرغم من أن شعوراً بالغربة كان يلازمني في البداية، إلا إني كنت أشعر أيضاً بدفق نزير يتسلل من أعماق أعماقي لشعور قديم وخافت بالانتماء إلى لندن، لم أكن قادرة على اكتشاف مبعثه أو مصدره،

في الوقت نفسه الذي كنَّ البنات فيه يعملن كل شيء من أجلي ومن أجل إلا يراودني أي شعور بالغرابة بينهن ومنهن، فقد حرصن على أن يعلمنني كل شيء ويخبرنني عن كل شيء كنت أجهله، وكل ذلك صدر منهن بحفاوة ورقة حتى إني لم أجد شيئاً فاتهن ولم يمنحنه لي، ولو أن هذا الأمر استغرق وقتاً طويلاً فلم أصل إلى أولى مستويــات الانسجام إلا في نهاية العام الأول من وجودي هناك.

هذا كله سمح لي بأن أشق لي طريق مستقل في علاقاتي عن طريق (هند)، لاسيما بعد أن تعمقت علاقتي بالــ (4Cats) خاصتي: (ريم وسيندي وسالي وانجلي)، وسر تعمق علاقتي بهن كان يكمن في نزوعي الشديد إلى الانطلاق في عوالم حياة لندن، والخروج عن دائرة القيود والمحبطات، كما أنهن شاركنني حبي الشديد للمغامرة، والعيش في ظروف التحدي وأجواء الخوف الذي بدأت أهدم معاقله في قلبي، وخصوصاً مع (ريم وسيندي)، وفي محيط الشلة الكبيرة وبحر شلتي الصغيرة، انغمست في غمرة كل ما يمكن أن يحققه لي الترف والبذخ، في مدينة عرفت أن كل ما فيها معروض للبيع وقابل للشراء باستثناء تاج الملكة وقصرها، وكان هذا الانغماس المبكر في أجواء الحياة اللندنية، سبباً كافياً وطريقاً مختصراً لاختبار الممكنات في مقابل المعوقات، فقد ظهرت لي تلك العناصر التي شكلت معاناتي في السنة الأولى من فترة إقامتي في لندن، أولها صرامة (كايتي) في الزامي بالقواعد والتعليمات وثانيها العوائق والقيود المتعلقة بإقامتي في منزل عائلي فرض عليَّ أنا و(هند) أيضاً أن نبقى تحت طائلة السلطة العائلية، بالإضافة إلى عائق التزاماتي الدراسية في الجامعة، باعتبار هذا الأخير السبب الجوهري وراء وجودي في لندن.

في الأيــام الأخيرة من دراستي في المعهد، كنت لا أزال أعاني من عائــق أخر، لطالما كرهته وسعيت إلى التخلص منه بشدة، في تلك الفترة التي سبقت دراستي الجامعية، ألا وهو (السائق)، نعم كان عليَّ أن أتخلص من المسكين (ألطاف) – السائق الخاص بي- كان رجلاً هندياً في الخمسينات من العمر، تغلب عليه سمرته الشديدة وشعر رأسه الأبيض بالكامل، ولكم شعرت بكرهه والحقد عليه رغم أنه كان طيباً ووديعاً، إذ كنت أعتبره عنصراً من عناصر الرقابة الأبوية المفروضة عليَّ، فلم أكن أحسن معاملته بقدر ما كنت قاسية عليه في كثير من الأوقات، حتى جاء اليوم الذي ضاق ذرعاً مني ومن سوء معاملتي له، فقال لي بعربية مكسرة:

- **أنا لست المشكلة يا سيدتي، فحتى لو تمكنت من طردي من هذه الوظيفة، سيأتي سائق أخر ولن تكوني راضية عنه مثلما تفعلين الآن معي، ما رأيك أن تتعلمين القيادة يا سيدتي؟ هذا هو الحل..**

عصفت كلماته تلك في رأسي، فادركت كم كنت غبية بالفعل، كيف لم يخطر على بالي تعلم قيادة السيارات؟! حلم كل الفتيات والنساء المحظور عليهن في بلدي، وكأني تذكرت في تلك اللحظة أن ذلك الحظر لا يسري عليَّ هنا في لندن، فكانت تلك الفكرة هي الخطوة الأولى لوضع دائرة خضراء أخرى حول منطقة (الحركة).

طرحت الموضوع على خالتي (سمية)، وطلبت الدعم من (كايتي) أيضاً، لأحصل على الموافقة الرسمية من كل الجهات المعنية بتنفيذ قرار من هذا النوع، خاصة وإن (هند) كانت بالفعل تتمتع بهذه الميزة، وقد كشفت لي ردود الفعل كم كنت مبالغة في التوسل والاستعطاف، وأني لم أكن بحاجة إلى تلك الموافقة التي جاءت بسرعة وبسهولة، وسريعاً التحقت بمدرسة خاصة ولم يطل بي الوقت أكثر من بضعة أسابيع حتى حصلت على رخصة القيادة، وأصبحت أقود بنفسي سيارتي الـــ (لامبرغيني) الفارهة في شوارع لندن، ولكم كنت سعيدة بهذا، إلى درجة لا يمكنني وصفها، وبقدر ما شعرت بأن كل شيء كان مستحيلاً في بلدي، فإنه هنا في لندن ممكن وبأسهل ما يمكن، بعد ذلك، أصبحت متلهفة للجامعة وانتظر موعد بدء الدراسة يوماً بعد يوم، ولازلت حتى اليوم كلما أشعر بمتعة قيادة سيارتي أقول في نفسي: "شكراً لك يا (ألطاف) المسكين وليتكفلك الله بواسع رحمته".

جاءت (هند) ذات ليلة إلى جناحي تحمل في يدها ورقة تضمنت ما كتبته الأميرة (شهد) ابنة عم (هند) لعمها الأمير (خالد) والد (هند)، وأهمية تلك الرسالة كانت تكمن في كونها مما استجد في تلك الفترة، وجاء تكملة لقصة كانت (هند) قد حكت لي الجزء الأول منها من قبل، وأصل القصة أنه كان هناك من تقدم لخطبة (هند) من والدها، وهو رجل أعمال فاحش الثراء من بلدنا، يدعى (سلمان الرجوب) ويعيش معظم شهور السنة مقيماً في قصره الضخم الذي يملكه ويقع في إحدى مدن بريطانيا التي أسس فيها معظم أعماله، وقد رفضت (هند) زواجها من ذلك الرجل كما رفض والداها ذلك أيضاً، وتخلصا من الرجل بطريقة لائقة، لكن القصة لم تنتهي هنا، لأن ذلك دفع الرجل نفسه إلى التقدم لخطبة الأميرة (شهد) ابنة عم (هند)، وهذا ما أثار اهتمامي، إذ حرصت على متابعة الجديد بهذا الخصوص، ذلك أن هذا النوع من الزيجات التقليدية شائع جداً في مجتمعنا عامة وبيئتنا الأسرية خاصة، فغالباً ما تنعقد الزيجات وتتم المصاهرات بناءً على أسباب ومصالح لا علاقة لها البتة بإرادة الفتاة التي عادة ما

تُغلب على أمرها وتُجبر على الارتباط والزواج من الرجل الذي اختاره لها والدها، وكثيرات هن الفتيات اللاتي تم التضحية بهن على مذبح علاقات المنفعة والمصالح، وقصة الأميرة (شهد) هذه على تلك الشاكلة بدأت بتقدم ذلك الثري لخطبتها من جهة وبرفضها الشديد له من جهة أخرى.

كان ذلك أصل القصة كما قلت آنفاً، أما فصلها فكان يكمن في أن الأمير (محمد) والد (شهد) كان مرتبطاً بعلاقة شراكة ومصالح واسعة النطاق مع (سلمان الرجوب)، وقد حاول الأمير (محمد) في البدء أن يتهرب ويعتذر عن الموافقة على طلب شريكه الزواج من (شهد)، ولكن بعد أن فشلت جميع محاولاته وأعذاره، وجد نفسه في مأزق خطير سيطرت عليه فيه مخاوفه الشديدة من أنه لو رفض الرجل بطريقة مباشرة أن تتأثر علاقته به ويخسر الكثير من المصالح التي لا يستطيع التضحية بها، فلم يكن أمامه إلا الموافقة على زواج (شهد) من (سلمان)، غير أن (شهد) ظلت مصممة على موقفها الرافض بشدة، واستنجدت بعمها الأمير (خالد) والد (هند)، خاصة إنها كانت على علم بأنه كان قد رفض من قبل خطبة الرجل نفسه لابنته (هند)، فكتبت لعمها رسالة، وصلت إلى يد (هند) وهي بدورها أطلعتني عليها، وجاء فيها:

يا عم، أنا مثل (هند) ابنتك أيضاً، ومن لم تقبل به زوجاً لـــ (هند) لن تقبل به لي، وما حدث أن أبي وجد نفسه مخيراً بين أن يضحي بمصالحه وأعماله من أجل ابنته، أو أن يضحي بابنته من أجل تلك المصالح، ولعله اختار مصالحه على ابنته، وهذا والله لظلم عظيم، وقد عرفتم جميعاً كيف إني أفضل الموت على أن أقبل بذلك الرجل زوجاً، وعرفتم ما الرجل عليه من كبر سنه وكثرة من تزوجهن ومن طلقهن من قبل، فأي مصير هذا الذي يمكن أن ترتضون به لبنت من بناتكم، وأنتم من أنتم.. وهو من هو؟! أستحلفك بالله الذي من أسمائه العدل ألا تقبل بأن يلحق بي هذا الظلم كله، وبالله الذي اسمه الرحمن والرحيم أن تنظر لي بعين الرحمة، وتمنع عني ما تكره حتى أن تتخيله. يا عم، ليس لي من بعد ربي أحد سواك ألجأ إليه وامنع عن نفسي به، فإن لم تجد في صلة الدم والرحم وما أمركم به الله في كتابه، ما يحرضك على فعل شيء من أجلي، فإني أطلب جيرتك كما جرت عادة العرب أن تجير المستجير وتعصم الخائف ولو كان قد أصاب دماً وأزهق روحاً، فما بالكم وأنا بريئة وضعيفة.

بكيت أنا و(هند) عندما قرأنا ما كتبته (شهد) في رسالتها، وأخبرتني (هند) أن والدها تأثر بشدة مما جاء فيها، وقرر أن يتدخل ويمنع هذا الزواج، وبالفعل حصل ذلك، ولم يترك أخاه حتى حصل على وعد منه بأن هذا الزواج لن يتم إلا بموافقة (شهد) نفسها بدون ضغط أو إكراه، وكان عليَّ بعد أن

توقف الأمر عند هذا الحد أن أسجل واحداً من تساؤلاتي التي لن تنتهي أبداً بسهولة، وهو: هل ستنتصر (شهد) أم ستنتصر المصالح؟!

والآن، سأعود إلى قصتي أنا، فقد كنت أخرج مع (هند) و(كايتي) يومياً في البداية ثم ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع تقريباً بعد التحاقي بالمعهد للتعرف على لندن، ثم الخرجات التي كنت أقوم بها مع رفيقاتي الجدد بعد ذلك، فقد كان بي شغف كبير للتعرف على معالم وأسرار لندن، كما كنت بحاجة إلى ذلك ليكون بوسعي الخروج والتجول بمفردي عندما يلزم الأمر، وخاصة عندما أبدأ بالدراسة في الجامعة، وبالفعل بدأت من زيارة المعالم الرئيسية في لندن، حتى تولعت بـــ (لندن المدينة) حيث ازدحام الناس والأسواق والمسارح والمتاحف والحدائق، وأدمنت التواجد في وسط لندن حيث حظيت بالإطلالات الفريدة والساحرة على (نهر التايمز) من أجمل المناطق الذي يمكن رؤيته منها وخاصة من على الجسر الشهير، وكانت لنا جولاتنا في شوارع وأحياء لندن الشهيرة (الوست اند) في شمال النهر والضفة الجنوبية، و(وستمنستر) حيث المباني العريقة لمؤسسات الدولة، وتسوقنا من أسواق ومعارض (الوست اند) ومعارض الماركات العالمية المنتشرة على امتداد طريق الـــ (وايتهول) والمحلات الراقية الأخرى في شوارع (بوند) و(أكسفورد) و(ريجنت)، ومثيلاتها المنتشرة انطلاقاً من (ميدان بيكاديلي) في الاتجاهات الأربعة، وإن كان اهتمامي مركزاً أكثر على الاتجاه المؤدي إلى شارع (ستراند) في الشرق والاتجاه المؤدي إلى مطاعم ونوادي منطقة (السوهو) في الشمال، ولم تسلم من وقع خطواتي ضواحي لندن فقد وصلت غزواتي إلى منطقة (الايست إند) التي توغلت فيها حتى وصلت إلى (تاورهاملتس) و(هاكني)، كما انتشرتُ أيضاً في ضواحي أخرى مثل (بارنت)،(كرويدون)، (هافرنج) و(هونسلو).

هكذا عرفتها لندن: كاملة لا ينقصها شيء، كل متع الدنيا وعوامل بهجتها موجودة فيها، وأيما شيء خطر على بالك في الليل أو في النهار لا يكلفك أكثر من مجرد وقت ومال لتحصل عليه، ولا شيء أجمل وأشهى في لندن من متعتي التنزه والتسوق، التسوق الذي لم أكن أكل ولا أمل منه، فعندما كنت أجول في أسواق لندن ومعارضها ومولاتها كانت تتملكني شهوة عارمة للشراء إلى حد ظننت معه بأني ذات يوم سأشتري لندن كلها، فلندن هي بالفعل عاصمة الدنيا وتحفة العواصم التي لا تضاهيها في عراقتها وفرادتها وجمالها وعظمتها عاصمة أخرى، لذا كل ما تقع عليه عينك في لندن وكل ما تشتريه وتقتنيه منها هو تحفة فريدة أو نادرة، بل أنك تجد في لندن من يصنع أي شيء فقط من أجلك، ولا

يصنع إلا مرة واحدة، ولا يصنع لأحد سواك في هذا العالم، فقط تمنى واطلب وادفع وستجد من يقول لك: "شبيك لبيك.. عبدك بين يديك".

هكذا عرفتها لندن: فاتنة لا تتوارى فيها الفتنة، في ميادينها وحدائقها وساحاتها الشهيرة يجتمع البشر من كل الأجناس والألوان والأعراق واللغات والأديان والصور والأشكال، حتى تكاد ترى فيها أفضل منطقة للحشر، الجميع يأتون إليها من كل حدب وصوب ومن كل أقصى وأدنى وكأنها في مركز الأكوان التسعة، يمرون من حولك ويقتربون منك تشتم روائحهم ويشتمون رائحتك، والجميع مع ذلك يعبقون بأريج لندن، كل معني بنفسه، أو مشغول بصاحبه، تلمح في وجوههم حب السلام وتشعر بالرغبة التي تغمرهم حتى الثمالة في الحياة وترى الأمل الذي يسكن عيونهم على أي حال كانوا وكأنهم ممسكون بأطراف الخيوط التي تؤمهم صوب المستقبل، بكل دعة وود واحترام يتركون لك حرية أن تعيش كما تحب، دون أن تشعر بخوف أو يراودك ارتياب، ويأملون أن تبادلهم أنت ذلك.

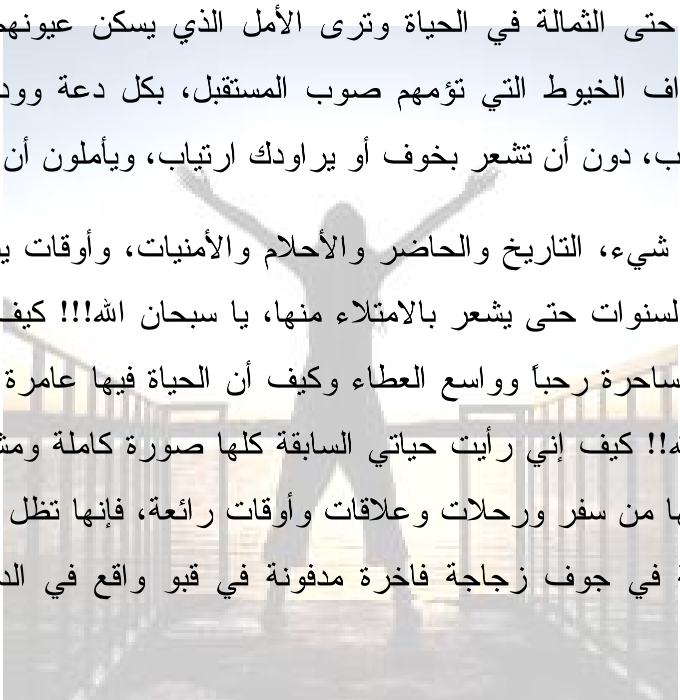

هناك الحياة مليئة بكل شيء، التاريخ والحاضر والأحلام والأمنيات، وأوقات يتمنى المرء لو تتوقف عندها عقارب الساعة لسنوات حتى يشعر بالامتلاء منها، يا سبحان الله!!! كيف أن العالم يبدو للمرء وهو في هذه المدينة الساحرة رحباً وواسع العطاء وكيف أن الحياة فيها عامرة بأشياء مفعمة بالجمال والألوان، وياسبحان الله!! كيف إني رأيت حياتي السابقة كلها صورة كاملة ومشوهة من سوء حظي، رغم كل ما حظيت فيها من سفر ورحلات وعلاقات وأوقات رائعة، فإنها تظل في نظري مجرد حياة مكتومة مطوية كورقة في جوف زجاجة فاخرة مدفونة في قبو واقع في الدرك الأخير من تحت الأرض.

نعم، هناك نوعان من الحياة: حياة تعيشها فوق الأرض وأخرى تعيشها تحت الأرض – [فكر هنا للحظة: إذا كانت أميرة ثرية تقول هذا، فماذا عساه يقول الفقراء والتعساء؟؟] في لندن استطعت ولأول مرة في حياتي أن ألتقط شعوري بالحياة وادرك سمته وكنهه، هل ساورك من قبل ذلك الشعور الواضح والحقيقي بأنك حي بكل ما تعنيه الحياة؟ إنه كما اختبرته وحفظته ولازمته طوال سنوات إقامتي في لندن، في كل نفس وفي كل نبضة وفي كل ثانية، ذلك الشعور الذي لا يجعلك تلتفت أبداً إلى الوراء إلا بقدر ما تحتاجه لتستمر في الخطو نحو الأمام، والشعور الذي لن يراودك ويغزل تفاصيل مشاعرك إلا عندما تخرج من وراء الجدران والأسوار إلى الفضاء الرحب، وأكاد اليوم أجزم بأن لا شعور

يضاهي أو يقترب من شعور الحياة، إلا شعور واحد هو الشعور بالحرية، فالحرية وحدها هي الوجه الأخر للحياة، والسجون حتى لو كانت قصوراً فارهة تظل سجوناً تشدنا نحو الموت.

كانت السنة الأولى بالنسبة لي في لندن، فترة طويلة وكافية لأصل إلى مستوى الإلمام الكافي بالطريقة التي تسير بها الأمور هناك، والتخلص من عدد من القيود والمحبطات، وكافية أيضاً للوصول إلى مستوى التجانس والانسجام مع نمط الحياة اللندنية، إلى درجة كرهت فيها العودة إلى الوطن، ورغبت بشدة في البقاء في لندن إلى الأبد، ولكن ومع بداية دراستي الجامعية كانت لا تزال تراودني العديد من مشاعر الشك والارتياب، التي جعلتني أشعر ببعض الغموض والألغاز التي تتعلق بالسهولة التي تحققت بها مكاسبي التحررية حتى ذلك الوقت، وهو ما عمَّق شعوراً أخر بأن كل هذا كان في إطار إبقائي تحت عدسة مجهر الرقابة الخفي للسلطة الأبوية القوية والنافذة جدا في لندن، بالإضافة إلى تلك الرقابة التي لطالما تلقيت تحذيرات كثيرة منها، فقد كان الجميع يقول لي نفس ما قالته لي (كايتي) ذات يوم وطلبت مني أن أحفظه عن ظهر قلب وأضعه نصب عيناي دائماً:

> **أنت أميرة، وتعرفين إلى من تنتسبين، وأنت أيضاً مجرد مقيمة هنا في لندن.. لندن المليئة بالعيون المتطفلة والعدسات المترصدة، التي لا همَّ لها إلا اقتناص اللقطات واللحظات والاتجاه سريعاً نحو صناعة الصفحات الصفراء، واعلمي أن كل شيء سيكون متاح لك طالما التزمت بالتعليمات وابتعدتِ عن دوائر الضوء، فأنتِ لست بحاجة إلى الشهرة..**

هذه الكلمات التي حفظتها، تضمنت أكثر من معنى، ففيها تعريف وتحذير وتصريح واشتراط وتهديد وخط أحمر عريض، وهذه الغزارة والكثافة في المضمون والشمول في التقديم كانا أكثر من كافيين لإشعال جذوة نار فضولي وفتح الباب على مصراعيه لتخرج تساؤلاتي مثل رؤوس اللهب، إنها (أنا) التي أعرفها عندما يتملك فضولي الجامح قيادي بأنه إذا اشتعل فلن ينطفئ ولن تخمد نيرانه إلا إذا شُفيت من داءتي تلك، وكما هي العادة فلن يكون دوائي إلا الداء نفسه. حينها عرفت أن مشكلتي القادمة لن تكون إلا في حاجتي الملحة إلى اكتشاف الأسئلة ومواجهتها، وهي المهمة الأصعب دوماً، في مقابل كم الأجوبة التي بُتُّ في ذلك الوقت أعرفها ولكني أجهل أسئلتها، فهل سيكون لي ذلك في (جامعة اكسفورد)؟

الفصل الرابع

في اكسفورد

جامعة اكسفورد (Oxford University)، وبالتحديد في منتصف العام الثاني كان التحاقي بـــ **(كلية سومر فيل)** التابعة لها، بينما كانت (هند) قد التحقت بها في العام السابق، وهذه الكلية بالإضافة إلى كلية أخرى اسمها (كلية سانت هيلدا)، هما الوحيدتان من بين أكثر من ثلاثين كلية تابعة للجامعة المخصصتان فقط للفتيات، أما بقية الكليات فالدراسة فيها مختلطة بين الجنسين، وقد كان من الطبيعي بسبب تقدم (هند) عني في الدراسة، أن تختلف أماكن ومواعيد تواجدنا أنا وهي في الكلية، مما قلل من فرص أن نكون أنا وهي معاً هناك، وكان مشواري إلى الجامعة يتطلب أن أقطع المسافة ما بين لندن وأكسفورد والتي تربو على (90 Km) ذهاباً ومثلها عند الاياب، الأمر الذي كان يستغرق في أغلب الأحيان قضاء نهار اليوم كله هناك، خاصة في الأيام التي يتعين عليَّ فيها حضور المناقشات الشخصية والاجتماعات الأسبوعية.

في البداية وقبل أن تتاح لي فرصة التحقق من الواقع الذي يمكن أن تكون عليه نماذج الطلبة في الكلية، كنت أتوقع أن تكون أغلبية الطالبات في الكلية من المنطقة العربية والشرق عموماً كونهن قادمات من مجتمعات تحرص كثيراً على الفصل بين الجنسين، ولربما تكون لدي إعتقاد سابق بأن هذه الكلية

ومثيلتها التي تدرس فيها قريبتي (هند)، إنما أقيمتا لتلبية هذه الحاجة الشرقية، لتكون الدراسة الجامعية في (اكسفورد) متاحة للفتيات الشرقيات، ولكن الواقع كان على خلاف ما كنت أتوقعه وأعتقد به، فقد كانت الكلية تضج بالفتيات القادمات من مختلف أقطار أوربا والعالم أيضاً، والطالبات الانجليزيات كن وفيرات العدد إلى حد المنافسة، كما كان للكلية قواعدها وقوانينها الداخلية الصارمة، التي تفرض على الطالبات الالتزام بها، وقد عجبت لما وجدت أن من تلك القوانين ما يلزم الطالبات بدرجة من الحشمة والتواضع في ملابسهن، ولا أنكر إني شعرت بخيبة الأمل كون الكلية لم تكن مختلطة، ولعل هذا ما جعل شعوراً بالنقص يلازمني بشأن علاقاتي الجامعية.

بدأت أنتظم وأواظب على الذهاب إلى الكلية، وهناك بدأت انشغل بمكونات جديدة، خاصة بعد أن تكونت لي علاقات مع بعض الزميلات، وإن بدأت تلك العلاقات سطحية وباهتة وغير عميقة حتى النصف الثاني من تلك السنة تقريباً، إلا إنها تحولت بعد ذلك إلى علاقات صداقة متفاوتة العمق والتأثير، وكثيراً ما كنت طوال تلك الفترة أسأل نفسي: ماذا أريد من الدراسة؟ وما عساها ستضيف إلى حياتي؟ وفكرت فيما إذا كنت بالفعل راغبة بالدراسة، أم إنها مجرد سبب اخفي وراءه غاياتي الأخرى التي تنطلق من رغبتي الشديدة في الخروج من حياتي المغلقة إلى العالم، هل الدراسة مطلب أم مهرب؟ وكانت هذه التساؤلات تسبب لي إحراجاً شديداً مع نفسي، خصوصاً بعدما كنت أسمع ما أسمعه من زميلاتي بهذا الشأن، حينها كنت واثقة بأني لست واضحة بما فيه الكفاية أمام نفسي وغير صادقة معها، بل وأني أتعمد مغالطتها والهروب من مواجهتها، لاسيما وإن الأمر تجاوز هذا النوع من التساؤلات وبلغ درجة أكثر اتساعاً وشمولاً وأكثر عمقاً وحساسية.

شكلت علاقاتي داخل الكلية جانباً ضئيلاً من محيطي الاجتماعي في لندن، وكان الخليط المتنوع من الزميلات، واحد من أهم السمات التي أضفت على موقعي بينهن طابع باهت بسبب المحاذير التي كنت أخذها دوماً بالاعتبار، خصوصاً في العام الدراسي الأول، وتقضي لوائح التعليم في الكلية بأن يتم إلحاق كل طالب في المرحلة الجامعية الأولى بمدرس يشرف على تعليمه، يسمى (المشرف الطلابي) وبمدير للدراسات، وبعدد أخر من المشرفين ويتولى المرشد الطلابي العناية بمختلف شؤون الطالب. في حين يقوم مدير الدراسات بتحديد المحاضرات التي يجب على الطالب حضورها، بينما يقوم المشرفون بتعليم الطالب بصورة فردية.

كان عليَّ أن أتعرف على (المشرف) المباشر عليَّ، وإن أتعامل معه مباشرة منذ اليوم الأول لي في الكلية، ومثل الجميع ذهبت إلى مكتب خدمات الطالبات في مقر ادارة الكلية لأحصل على كافة الأوليات والمعلومات اللازمة بشأن اجراءات البدء بالدراسة، وهناك أخبروني بأن المشرفة عليَّ هي (لورا باتلر)، وهذا ما اعتبرته من حسن حظي أنذاك نظراً لما تتمتع به (لورا) من سمعة حسنة من حيث طريقة تعاملها وعنايتها الشديدة بطالباتها وتقربها منهن، وطلبوا مني أن أذهب للقائها في مكتبها، وبالفعل ذهبت.

في مكتب المشرفة (لورا) استقبلتني سيدة ثلاثينية، بيضاء وذات شعر أسود ناعم ينسدل حراً على كتفيها، من طريقة لبسها كانت تبدو لي رسمية أكثر من اللازم، ولكنها قابلتني ببشاشة وجه وابتسامة ترحيب لطيفة ومعبرة، وقفت أمام مكتبها فطلبت مني الجلوس على الكرسي الذي كنت على مقربة منه، فجلست، فتحت ملف كان موضوع على طاولة المكتب أمامها وبادرتني بالسؤال:

- **أسمك؟ لو سمحت..**

عرفت بعد أن سألتني بأني ارتكبت خطأ، فقد كان من المفروض أن أبدأ بالتعريف عن نفسي قبل أن تسألني هي عن ذلك، فأجبتها:

- **أسفة سيدتي.. فأنا مرتبكة، اسمي (تيماء) ورقمي في السجل الطلابي (4263-901).**
- **هل اطلعت على كتيب اللوائح وتحققت من اكتمال الإجراءات آنسة (تيماء)؟**
- **نعم أستاذة، فقط طُلب مني أن ألتقي بك.**
- **حسناً (تيماء)، سنبدأ العمل من الغد وعليك أن ترجعي إليَّ إذا واجهتك أي مشكلة.. مفهوم؟**
- **نعم، فهمت..**
- **[استدركت وقالت]: وعليك أن تتخلصي من حالة الارتباك هذ.،**

قالت لي عبارتها الأخيرة، وهي ترسم لي ابتسامة قصيرة وترمقني بنظرات غير متكلفة، بما أوحى لي بأن اللقاء انتهي، وعلي أن استأذن للانصراف، فقلت لها:

- **أعتذر على وقتك، هل بقي شيء أخر تبلغيني به الآن؟ في الحقيقة لا أريد أن أزعجك أكثر..**

- **لا داعي للاعتذار، يمكنك الانصراف الآن إذا أحببت، ولكني أنصحك بأن تقومي بجولة في الأنحاء لتتعرفي على المكان بشكل أفضل، فهذا سوف يساعدك كثيراً.**

- **حسناً سأفعل.**

قمت بجولة في أرجاء الكلية ومن ثم في محيط الجامعة، حيث دخلت مكتبة **(بودليان)** وتنقلت بين أقسامها لأكثر من ساعة، فكانت تلك أول مرة أكون فيها في مكتبة بذلك الحجم وتلك الضخامة، فلم أكن من قبل مهتمة بالكتب وبالقراءة إلا في حدود ما يفرض عليَّ، وحتى المجلات الترفيهية أو النسائية كانت لا تحظى بكثير من اهتمامي، خاصة بعد أن دخلت عالم الأنترنت والشبكة العنكبوتية منذ عدة سنوات، إذ أصبحت أحصل على ما أريد معرفته من عمنا (Google)، كما أعتدنا نحن البنات أن نسميه هكذا، ولكن مكتبة (بودليان) أسرتني منذ اللحظة الأولى، فتوقفت جولتي عندها، حتى قررت أن أعود للمنزل.

أول زميلة تعرفت عليها أو بالأصح بادرت هي بالتعرف عليَّ، كانت (جليلة بوعطية)، حدث ذلك في أول لقاء دراسي جمعنا نحن الطالبات المستجدات في إحدى قاعات الدراسة، عندما خرجنا من القاعة لقضاء فترة استراحة، حيث كنت واقفة في رواق داخلي فسيح وممتد يمثل احد الضلعين الطويلين للصحن الداخلي لمبنى الكلية، وقد انهمكت في تأمل لوحة تظهر وجه فتاة جميلة إلى أعلى الصدر بحجم كبير، وخلفها كانت تتوزع العديد من الرموز التي تشير إلى أشياء مختلفة، لم أكن قد توصلت إلى فهم واضح لمغزى اللوحة أو فكرتها، فنادراً ما كنت مهتمة بهذا النوع من الفنون، خاصة وإن الرسم والتصوير يعد من المحرمات في شرعنا الديني، وفي غمرة انهماكي شعرت بأحد ما يقف بمحاذاتي، ويتخذ نفس وضعيتي متأملاً اللوحة، لم ألتفت إليها ولم يبدو إنها فعلت ذلك أيضاً، فقط أسمعتني قائلة باللغة الانجليزية:

- **وجه القديسة؟!!**

ألتفتُّ ناحيتها وللناحية الأخرى فلم أجد سواها، وما كنت إلا أنا من يمكن أن تتوجه إليه بالحديث، نظرت إليها دون أن أتفحص ملامحها، وقلت لها متسائلة أن كانت تقصد الحديث معي:

- **نعم؟**

- **هذا هو اسم اللوحة، وهي من أعمال (غوين جون- Gwen John)، رسامة انجليزية توفيت في نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي، اشتهرت برسم صور الأشخاص، وكثيراً ما كانت مواضيع لوحاتها راهبات وفتيات صغيرات منفردات. كانت أكثر صورها بورتريهات لشخوص ووجوه تكشف عن مسحة ذاتية، وقد أهدى الكلية هذه اللوحة أحد ورثة (غوين) قبل عقدين من اليوم تقريباً، شأنها شأن بقية اللوحات والجداريات.**

- **إنها جميلة، وتحمل معان كثيرة..**

قلت هذا متحاشية أن أظهر غموض فكرة اللوحة عليَّ،

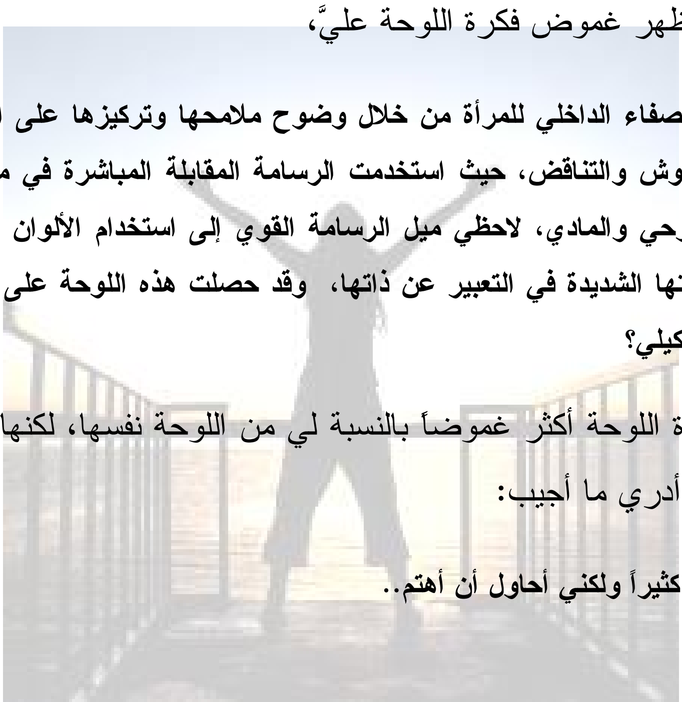

- **إنها تعبر عن الصفاء الداخلي للمرأة من خلال وضوح ملامحها وتركيزها على الوجه فحسب، كمدخل للخروج من التشوش والتناقض، حيث استخدمت الرسامة المقابلة المباشرة في مواقع الداخل والخارج بين العالمين الروحي والمادي، لاحظي ميل الرسامة القوي إلى استخدام الألوان الرمادية الخفيفة التي تعبر عن حساسيتها الشديدة في التعبير عن ذاتها، وقد حصلت هذه اللوحة على تقدير النقاد، هل أنت مهتمة بالفن التشكيلي؟**

ربما كان شرحها لفكرة اللوحة أكثر غموضاً بالنسبة لي من اللوحة نفسها، لكنها فاجأتني بسؤالها الذي لم أكن مستعدة له، فلم أدري ما أجيب:

- **نعم.. أقصد ليس كثيراً ولكني أحاول أن أهتم..**

- **عربية؟**

سألتني مرة أخرى، ولكن باللغة العربية، وكان جوابي أن هززت رأسي بالإيجاب سائلة إياها بالعربية أيضاً:

- **وأنت؟**

أهدتني إولى ابتساماتها في الوقت الذي كنت قد انتهيت من تسجيل صورتها في ذهني، وقالت تعرفني بنفسها:

- **نعم، أنا "جليلة" اسمي "جليلة البوعطية" من "تونس"..**

- **أهلاً بك، وأنا (تيماء) من الرياض.**

أعطيتها اسمي مفرداً دون أية ألقاب، فرحبت بي قائلة:

- **تشرفت، سنكون أصدقاء أن شاء الله..**

- **أكيد، لا يوجد أي مانع..**

أومأت لي بالسير معها للعودة إلى قاعة الدرس، فاستجبت لها وبدأت منذ ذلك الوقت رحلة صداقتنا.

حرصت منذ البداية في الكلية على ألا أكشف عن حقيقة كوني (أميرة)، ولكني عرفت بعد مدة أن هذا كان شبه مستحيل، ومع ذلك فقد تطورت علاقتي لاحقاً بكل من (لورا) و(جليلة) وتعرفت على زميلات أخريات. كانت صديقتي (جليلة) من طراز مغاير لما عهدته من صديقاتي السابقة، لها اهتمامات جادة وذات ثقافة عالية، وقد اجتهدت كثيراً في الاستفادة منها في اكساب شخصيتي بعداً جديداً، دعم هذه الميل في داخلي كون صديقاتي الأخريات (ربيكا وجين) كن على هذه الشاكلة تقريباً، وبمساعدة (لورا) تمكنت من إيجاد الطريقة المناسبة التي لا أتحرج فيها في المواقف التي أضطر فيها للتعريف عن نفسي، فبعد أن أخبرتها برغبتي في أكون شخصاً عادياً، وإن هذه المسألة تسبب لي ازعاجاً، قالت لي:

- **لا يجب عليك أن تخبري كل شخص حقيقة كونك (أميرة)، كما أنه ليس بمقدورك أن تخفي ذلك، الحل الوحيد يكمن في الطريقة التي تتعاملين فيها مع الأخرين، فهي التي سوف تجعلهم يعرفون بالضبط على أي نحو يجب أن يعاملوك به أيضاً، والأفضل أن تبقين على مسافة نفسية كافية بينك وبين كل شخص ولا يتعداها أحد منكما في علاقته مع الآخر.**

كنت أعيش أجواء اللقاءات التي تجمعني بصديقاتي في الكلية، وكأني في عالم أخر لم آلفه أو أعتاد على التواجد فيه، كانت النقاشات والحوارات التي تجري بينهن خارج نطاق الاهتمامات الدراسية، تحمل موضوعات وأفكار كنت واثقة بأني جاهلة فيها، هذا ما ولد داخلي حالة من التنازع بين رغبتي في أن أكون مثلهن واحساسي بالغربة بينهن، ولكم كنت أحسدهن على كم المعرفة والثقافة التي يمتلكنها، كن يتحدثن في الأدب والنقد والسياسة والفنون وغير ذلك، وكنت أرصد ما يتكلمن عنه في كل مرة، وفي المكتبة أستعين بـــ (هيستر) لكي تعطيني الكتب المناسبة، وما عدا ذلك كنت أندمج

معهن كلياً، خاصة عندما كنا نتحدث في أمور البنات العادية كالموضة والأزياء والجمال والتسوق وغير ذلك، وكان هذا هو مجال تفوقي عليهن، والجانب الذي استطعت أن أعزز من خلاله أهمية وجودي معهن، ولكن محاولاتي المستمرة والمتكررة لجذبهن إلى منطقة تفوقي تلك في كل لقاء، وضعتني أكثر من مرة في مواقف سخيفة ومحرجة، أضف إلى ذلك المواقف المحرجة التي وضعت نفسي فيها أمامهن، بسبب ما كنت أظهره من بذخ وتكلف في الإنفاق، وتعمدي دفع حساب أي شيء عنهن، ولكنهن كن يبدين قدراً عالياً من التفهم، بحيث استطعن في كل مرة أن يعالجن الأمر حتى لا يتسبب لي ذلك في الاستياء والنفور منهن، ففي أحد الأيام اختلفت معهن بشأن أين نتناول الغداء، وكنت مصممة على أحد المطاعم الفاخرة، بينما هن مجمعات على مطعم أخر، فتنازعت معهن في الأمر بحسن نية ودون أن أقصد قلت لهن:

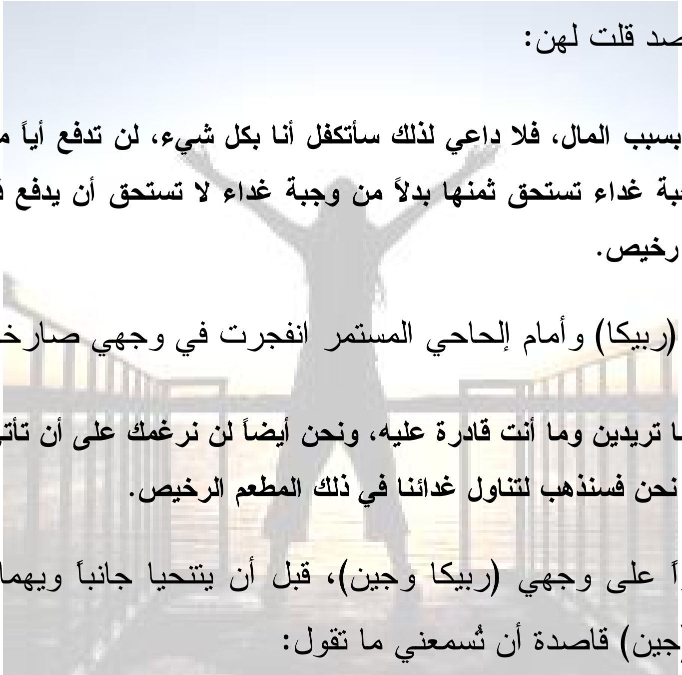

- **إن كنتن خائفات بسبب المال، فلا داعي لذلك سأتكفل أنا بكل شيء، لن تدفع أياً منكن فلساً واحداً، فقط لنذهب لتناول وجبة غداء تستحق ثمنها بدلاً من وجبة غداء لا تستحق أن يدفع فيها شيء، فضلاً عن تناولها في مطعم رخيص.**

بدا الغضب شديداً على (ربيكا) وأمام إلحاحي المستمر انفجرت في وجهي صارخة وهي تقول:

- **لا ترغمينا على ما تريدين وما أنت قادرة عليه، ونحن أيضاً لن نرغمك على أن تأتي معنا، يمكنك الذهاب حيث تريدين، أما نحن فسنذهب لتناول غدائنا في ذلك المطعم الرخيص.**

رأيت الامتعاض ظاهراً على وجهي (ربيكا وجين)، قبل أن يتنحيا جانباً ويهمان بالانصراف صوب وجهتهما، ثم قالت لها (جين) قاصدة أن تُسمعني ما تقول:

- **أعذريها (ربيكا)، فهي أميرة فاحشة الثراء ولا تعرف شيئاً عن امكانيات أبناء الطبقة المتوسطة لعلها لم تسمع من قبل أن هناك فقراء يموتون كل يوم من الجوع في هذا العالم، أعذريها..**

انثنيت على نفسي وتكومت في مكاني شبه جالسة أنظر إلى الأرض، ولا أجرؤ على رفع رأسي لأرى أن كن ذهبن أم بقين، في حين كانت (جليلة) تنظر إليَّ بإشفاق لا تعرف ماذا تقول، قبل أن اصرف نظري عنها وأتخذ وضعي ذاك، كسيفة وحسيرة، وإذا بي ألمح ظل (جليلة) قريبة مني، شعرت بانحنائها نحوي، وبيدها التي ربتت بها على ظهري، ثم قالت لي:

- آسفة (تيماء)، فهما على حق وإن لم تكوني تقصدي ما فهمتاه منك، ولكن لا داعي لأن تستائي أو تحقدي عليهما، هيا انهضي حبيبتي ولنتجاوز ما حدث.

ظلت جليلة تواسيني وتخفف عني، بينما كنت قد أغرقت نفسي في بحر من الدموع، ومع كل ما قالته (جليلة) لم استطع أن أرفع رأسي أو أقول لها شيء، ولما طال بي الأمد ولم تفارقني (جليلة) شعرت بأن عليَّ أن أحمل نفسي وأقفل عائدة إلى المنزل، نهضت من مكاني واستدرت لكي لا ترى (جليلة) وجهي، وقبل أن أقوم بخطوة واحدة كانتا (ربيكا وجين) واقفتان قبالة وجهي، ينظرن إليَّ ولا أنظر اليهما، ويد (جليلة) لازالت على كتفي، هممت بالسير فأمسكتني (ربيكا) من ذراعي ومنعتني من ذلك، وقبل أن تنطق بكلمة رميت بنفسي في حضنها وأنا أجهش بالبكاء، واظن إني مكثت طويلاً في حضنها قبل تحيط بي (جين) من الجهة الأخرى، ويلتحم ظهري بحضن (جليلة) التي أحاطتنا نحن الثلاث بذراعيها، ولم يتركنني إلا وقد أزلن كل ما كان بيننا.

في عشية ذلك اليوم كان لي وقفة طويلة مع نفسي، فقد كان للموقف الكثير من الأسئلة التي كان يتعين عليَّ طرحها على نفسي ومواجهتها وفهم دلالاتها في الواقع، كان يجب عليَّ أن افهم ما الذي تعنيه بالنسبة للأخرين تلك المسافات والحدود الفاصلة بيني وبينهم، بسبب موقعي كأميرة وثرية، وبدأت المشكلة الطبقية تلح عليَّ بأن أتناولها للمرة الأولى في حياتي بشكل جاد، هل أنزل من مستواي إلى المستويات الأدنى لكي تسير الأمور معي جيداً، فليس كل الناس أمراء وليسوا جميعهم أثرياء مثلي؟ أم عليَّ أن أتبرأ من علاقات مع أشخاص دوني في المستوى الطبقي كي لا اتعرض للإهانة منهم وأنا من أنا؟ فالإجابات لمثل هذه الأسئلة تأتي بشكل مسبق قاسية وصادمة، بل ومهينة، أين تكمن المشكلة بالضبط؟! في كون الناس مختلفين في مواقعهم وطبقاتهم عني أم في كوني مختلفة أنا عنهم؟ وهل صديقاتي هنا في لندن مثلي وهل أنا مثلهن، أم أنني من وضعت نفسي في غير موضعي؟ وعرضتها للإهانة والسخرية بتلك الطريقة الموحشة والجارحة؟ أنا من أنا؟! وإلى من وأين انتمي؟ هل أنا من الشرق أم من الغرب؟ من الأمراء أم من العامة، من فوق أم من تحت؟

ظللت على هذا الحال، طوال الليل ولم أخرج بنتيجة، أو أهتدي إلى شيء يهدئ من وطأة الغم الذي أصابني والشعور بالخيبة والانكسار في داخلي، حتى غلبني النوم، وغبت عن عالم الواقع المزعج، وعلى مدى عدة أيام بعد ذلك اليوم كنت أتعمد أن أخفي ما بي عن صديقاتي الثلاث في الكلية ولعلي نجحت في هذا، ربما لأني لم أحمل في نفسي حقداً عليهن، ولأني اعتبرت نفسي المسؤولة عما حدث

لي وعما أصبحت أنا فيه، فما حدث كان طبيعياً فلم يسبق لي من قبل أن عشت مع الناس حياتهم العادية، ولازلت أجهل الكثير من شؤونهم وطرائق تفكيرهم، ولعلي شعرت بالسخف ازاء نفسي عندما تذكرت ما قالته (جين) عن (الطبقة المتوسطة) وعن (الفقراء)، حينها قلت لنفسي: يا لسخافتي وقلة إدراكي، كيف لم يخطر ببالي أبداً طوال المدة السابقة التي جمعتني بهن أنهن من الطبقة المتوسطة؟ وكيف لم أفهم ولو لمرة واحدة أسبابهن التي منعتهن دوماً من قبول دعواتي لهن لزيارتي في المنزل، ولماذا كن يتحرجن من دعوتي لزيارتهن في بيوتهن والتعرف على أسرهن، لقد عرفت أن المشكلة ليست فيهن بل في أنا؟ وما العمل؟!

لم أشأ أن أطلع أحد بما حدث لي، بل لم أرغب في إشراك أحد بمعاناتي، التي تسببت بها لنفسي بمثل هذا الموقف الذي لم يكن الأول، ولكني مع ذلك شعرت بأن هناك ما يدفعني إلى إتخاذ قرار حاسم.. قرار ألا يحدث معي ذلك مرة أخرى، ولكن كيف؟ كيف يمكنني ذلك؟!

السنة الأولى وأيضاً الثانية في الكلية، اتسمتا كما تنبأت من قبل بازدحام التساؤلات ومحنة العيش في كنف الحيرة، لم تكن المشكلة في التساؤلات بحد ذاتها، بل في تعدد مباعثها وتقاطع مصادرها وقدرتها على إحداث ذلك التشوش في ذهني، والذي حرمني من أي فرصة لاستعادة صفاء الذهن والقدرة على التركيز على شيء واحد، كانت كل المشكلات تظهر في توقيت واحد، وكان عليَّ أن أحكم تلك الفواصل الواسعة والضيقة بين الأجوبة المسبقة والأسئلة اللاحقة، وإن أمتلك زمام السيطرة على افكاري بطريقة تسمح لي أن استوضح ما يجري من حولي بحيث أكون قادرة على التكيف التام مع الحياة في لندن، ولم يعد الأمر مرتبطاً بدوافع فضولي الشديد، بل باشتراطات الواقع التي تفرض عليَّ أن أعرف بالضبط ما يجب عليَّ أن أقوم به وما يجب أن أخذه باعتباري في كل لحظة وفي كل مكان ومع كل شخص. نعم، فالأمور التي نحبها ونرغب بالقيام بها والحصول عليها تبدو سهلة وممكنة عندما نتخيلها ونحلم بها، ولكنها ليست كذلك ولن تكون كذلك أبداً لي أو لغيري عندما نريد القيام بها فعلاً، لقد أصبح جلياً لي أن الحياة في لندن حافلة بالمصاعب والتحديات التي لا يخلو منها كل يوم يمر عليَّ وأنا فيها.

لكن الأمر لم يتوقف على ذلك فحسب، بل كان له ثمة بعد أخر من الناحية التي تشكلت فيها علاقاتي الجديدة في لندن، وبالأخص عندما وجدت نفسي بين نوعين مختلفين من الأصدقاء داخل الكلية

وخارجها، ولكن هذا البعد ظل شبه غائب عن الحسبان أو التأثير بوضوح على حياتي إلى ما بعد عدة أشهر على انتقالي للمستوى الثاني في الكلية، وانتقالي للإقامة في شقتي الجديدة، مع إني كنت طيلة تلك الفترة قادرة على الشعور به، ولكن دون أن أجد ما يكلف عليَّ الاصطدام بتناقضاته.

في تلك الأجواء النفسية الصعبة والمريرة حدث متغير أخر في تلك السنة وبالتحديد في النصف الثاني منها، ضاعف من حدة معاناتي التي ظللت اتكتم عليها وأواري أي تأثير لها عن عيون من حولي، وهذا المرة من قلب محيطي الاجتماعي ومن أقرب شخص لي، من (هند)، فقد فاجأتني قبل انتهاء اعمال الدراسة في الكلية من تلك السنة، بميلها الشديد إلى الابتعاد عني والانطواء والخلو بنفسها بعيدة عني، ولاحظت ما أكد لي بأنها تتعمد ذلك، صحيح إنها كانت تبدي اهتماماً كبيراً بدراستها على خلاف ما كنت عليه أنا، وأنه لم يصدر منها أي قول أو فعل يؤذيني، ولكنها لم تعد كما ألفتها من قبل، فبعد أن كانت تقضي معي الساعات في المساء والليل وتفضفض لي عن كل شيء وتنصت لي إذا انطلقت في البث عن مكنونات نفسي لها، وبعد أن كانت أنيس وحدتي ومبعث سلوتي ومصدر شجاعتي، أصبحت نادراً ما ألتقي بها أو أجلس معها، وكلما بادرت إليها كانت تتعذر لي بانشغالها وترجئ الحديث معي بأي شأن إلى وقت أخر، انتظرته طويلاً فلم يأتي، ماذا حدث؟ ما الذي غيَّرك عليَّ يا (هند)؟ كنت أتساءل والألم يعتصر قلبي والخوف أيضاً، ومع كل ذلك كنت أشعر بأني محاطة بالكثير من الأحاجي والألغاز من كل الجهات، وينتابني ذلك الشعور بالعجز وعدم القدرة على الحسم.. حسم أي شيء.

كان عذر الانشغال بامتحانات أخر السنة، كافياً لأشغل نفسي بغير ما أنا مشغولة به، خاصة بعد أن وبختني (لورا) عدة مرات بسبب ضعف تقديراتي الدراسية طيلة السنة، ولكنها في أخر مرة كانت شديدة اللهجة معي، فقد قالت لي بلهجة صارمة أنذاك:

- **سبق وإن نبهتك إلى ضعف تقديراتك، وطلبت منك اطلاعي عليَّ أي مشكلة تواجهك لأكون قادرة على المساعدة، ولكن يبدو أنك تعتقدين بأنك هنا للمتعة أو التنزه، وهذا ليس صحيح، يجب عليك أن تفهمي أن هناك من هو أكثر حاجة منك إلى مقعدك وربما يكون أحق منك، فإذا اعتقدت أن الظروف سوف تخدمك في النجاح دون أن تجتهدي فتأكدي أنك مخطئة، لن تنجحي هنا إلا بمجهودك، وأعلمي أن تقديراتك الضعيفة هذه إذا ظلت كما هي بعد اعلان نتائج أعمال السنة الأولى، فإنك لن تنتقلي للدراسة في المستوى الثاني، والأهم من ذلك فإنك قد تحرمين من البقاء في مقعدك، ألم أوضح لك هذا الأمر من**

قبل؟! عموماً أمامك فرصة أخيرة، فحاولي أن تفعلي شيء من أجل نفسك.. فمستواك الآن بات يسبب لي الاحراج فعلاً..

عكس ما قالته لي (لورا) الصورة التي كنت قد جعلتها تراني بها، لذا فقد كان من شأنه أن يصدمني ويجعلني أفوق وأتنبه لخطواتي، فلست مستعدة لأن أخسر السبب الوحيد لوجودي وبقاءي هنا في لندن، وكان عليَّ أن أفعل كل ما بمقدوري لأتجاوز هذا المأزق الخطير الذي بُتُّ على حافته، لذا انكببت على كتبي ودروسي كالمسعور الجائع، وصرفت النظر والاهتمام بأي شيء أخر عدا الدراسة حتى أتجاوز منطقة الخوف والتهديد، وقد استطعت أن ألفت انتباه (لورا) إلى ذلك لأتمكن من الحصول على دعمها ومساعدتها، وقد لاحظن صديقاتي في الكليـــة اهتمامي الجـــاد بالدراسة وعملن كثيراً لمساعدتي.

في تلك الفترة، وصل إلى القصر (يزيد) الشقيق الأصغر لـــ (هند)، وهو كما عرّفتُ عنه من قبل، شاب عابث وفاشل في كل شيء، فعلى الرغم من أنه كان في مطلع العشرينات من العمر إلا أنه سبق وإن تزوج مرتين، حتى قبل أن يتزوج شقيقه الأكبر (ناصر)، زوجته الأولى (أميرة) من داخل الأسرة وقد طلقها قبل أن يمر على زواجهما عام واحد بسبب نزواته، أما زوجته الثانية فكانت فتاة جامعية من أسرة ثرية عرفها ودخل معها في قصة حب قبل الزواج، وقد اشترطت عليه تلك الفتاة أن يطلق زوجته الأولى، وبالفعل قام بذلك وبعد أن تزوج بتلك الفتاة عاش معها فترة ثم دبت الخلافات بينهما، وبحسب رواية (هند) أنه أمسك بها متلبسة وهي تخونه وتمارس الجنس مع شخص أخر عبر الهاتف فطلقها، وقد حاول عدة مرات استرجاع زوجته الأولى، ولكن هذه الأخيرة رفضته رفضاً قاطعاً، و(يزيد) هذا جاء بخلاف شقيقه الأكبر منه الأمير (ناصر)، الذي أكمل تعليمه الجامعي، ويدير مؤسسة عملاقة من مجموعة الشركات والمؤسسات، التي يملكها والده وعمه الأمير (محمد)، فقد نما (يزيد) وشب على أساس أنه (دلوعة) والديه، اللذان عانا كثيراً من كثرة ما سبب لهما من مشاكل وفضائح، هذا على الرغم من تأكيدات شقيقته (هند) لي في أكثر من مرة تحدثنا بشأنه بأنه طيب من الداخل، وإن دلال والداه أفسده بالإضافة إلى احساسه بالدونية تجاه شقيقه الأكبر، إلا أن عودته للإقامة في المنزل كان أفضل سبب يجعلني أشعر بالضيق والحرج، فأنا لم يسبق لي أن التقيت بـــ (يزيد) هذا منذ سنوات طويلة، وسُمعته التي تسبقه إلى أي مكان يذهب إليه، جعلتني أفكر بأن أيام إقامتي في القصر

شارفت على الانتهاء، فلم أكن لأقبل أن أعيش هناك، بعد أن تأكد لي بأن بقاءه سيطول وربما سيكون بشكل دائم، أو هكذا قررت أن أستغل هذا الظرف لتحقيق مكسب جديد لي.

كان عليَّ بعد ذلك أن أبحث في هذه المسألة مع شخص أخر، فلم أجد غير (كايتي) التي أخبرتها بذلك، وأعلمتها بأني لست مستعدة أن أواجه مشكلة المسكن في ذلك الوقت، وإن عليها أن تجد لي الحل في كل الأحوال، وإن جل ما أخشاه أن أتورط مع ذلك العابث بأي شيء يقدم عليه، مستعينة بالمثل الذي يقول: "العيار الذي لا يصيب يدوش"!! وكان هذا هو السبب الأقوى الذي عبرت عنه لـــ (كايتي)، إذ رأيت أنه سيكون من المحرج جداً فتح هذا الموضوع مع خالتي (سمية) وزوجها لأنهما لن يتفهما أسبابي، كما أن اطلاعهما على السبب الحقيقي سيكون جارحاً لهما بعد كل ما قاما به من أجلي طوال العامين السابقين، لذا قررت أن أعتمد على (كايتي) في هذا الخصوص، واتفقت معها على أن تجعل قرار انتقالي إلى مسكن أخر وكأنه تنفيذ لأمر من والدي، الذي كنت أعرف بأنه سيسارع في الموافقة على طلبي، فقد كنت أعرف مسبقاً وجهة نظره بـــ (يزيد)، وإن اقامته بشكل دائم في القصر سيكون سبباً مقنعاً لديه للموافقة على انتقالي من هناك من حيث المبدأ، وكان على (كايتي) أن تقنعه فقط برغبتي في شراء وامتلاك مسكن خاص بي في لندن.

كنت أثق بأن (كايتي) ستنجح في مهمتها، وبالفعل فقد جاءت إليَّ وأخبرتني بعد فترة قصيرة بأنها حسمت الأمر وحصلت على الإذن لي من أبي للانتقال إلى مسكن أخر، فأخبرتها إني لست مضطرة للانتقال إلى مسكن تابع للسفارة، بل وأني عازمة على شراء مسكن خاص بي هنا في لندن، وطلبت منها أن تجد لي عقاراً مناسباً، وبالفعل اشتريت شقتي الفاخرة في **(ماي فير)** التي انتقلت إليها أبان فترة امتحانات نهاية السنة، وكان ذلك نقطة تحول ايجابية غيرت مسار تجربة إقامتي في لندن، ولكنه كان مبعثاً جديداً لجوانب أخرى أضيفت إلى أسباب معاناتي، هكذا هي الحياة، كل مغنم فيها هو في وجهه الآخر مغرم، ولنرى من بعد كيف سارت الأمور.

اتصلت بي (كايتي) في صباح ذات يوم أحد، وطلبت مني أن أستعد للخروج معها لمعاينة الشقة الجديدة بعد اكتمال تجهيزاتها، وكان أمامي ساعة من الزمن قبل أن تصل، ورأيت أنه سيكون من المناسب أن أدعو (هند) لتكون معنا في ذلك المشوار، فخرجت من جناحي باتجاه جناحها القريب، وفتحت باب الجناح ودلفت إلى الصالة لأني توقعت إنها لاتزال في غرفتها نائمة، وبمجرد ما أن وقفت بباب الغرفة

وقبل أن أطرق عليه لمناداتها، سمعت صوتها قريباً وهي تتحدث إلى أحد ما على الهاتف، وجدت في نبرة صوتها وطريقة حديثها وعباراتها التي لم اسمعها جيداً، ما دفعني إلى التروي قليلاً والانصات إلى ما تقوله، فقد كان صوتها يدل على إنها سعيدة ومندمجة مع من ينصت إليها من الجهة الأخرى، وكانت تنصت قليلاً وتقهقه ضاحكة وتعاود الحديث باستمتاع، وبدا لي أنها مستيقظة منذ وقت مبكر، وهذه لم تكن عادتها إلا أن يكون الاتصال مهم للغاية لها بحيث تصحو في ذلك الوقت.

طال وقوفي على باب غرفتها، وخشيت أن يمر أحد من الممشى ويراني على ذلك الحال، إذ نسيت أن أغلق باب الجناح، فمشيت على رؤوس أصابعي وأغلقت الباب، ثم عدت نحو باب غرفتها، وسمعتها وهي لاتزال تتحدث عبر الهاتف، وكان بإمكاني حينها أن أتصورها وهي واقفة تمسك الجوال بيدها وقد وضعت السماعة في أذنها، وتتحدث وهي تتحرك في أرجاء الغرفة، فقد كانت هذه أيضاً إحدى عاداتها، وقد تأكدت بأنها كانت تتحدث إلى رجل وكان حديثها بالعربية وباللهجة المحلية.

انتظرت قليلا حتى تأكدت بأنها تنصت لم يحدثها، فطرقت الباب على عجل قبل أن تنطق بكلمة واحدة قد تشك بأني أكون قد سمعتها منها، وكنت أناديها أيضاً، وبعد لحظة صمت أجابت:

- **من؟**
- **أنا (تيماء)..**
- **أدخلي..**

أمسكتُ بمقبض الباب وأدرته، وعندما فتحت عليها الباب كانت جالسة على طرف السرير، نظرت إليَّ وأنا لا أزال متسمرة عند الباب، فاستبقت أن تلاحظ شيء من ارتباكي وخطوت عدة خطوات نحوها، وهي مستندة على ذراعيها من الخلف، وكان هاتفها المحمول تحت كفها الأيمن على طرف السرير، قالت لي والسعادة واضحة على محياها:

- **(تيمو) صباح الخير – [اسم الدلع الذي كانت تناديني به].**
- **صباح الخير (نودي) – [اسم دلعها]– سوف تأتي بعد قليل (كايتي) لنذهب لمعاينة شقتي بعد أن اكتمل تجهيزها، فأحببت أن تكوني معي، فهلا تستعدين لنذهب معاً؟ ما رأيك؟**

- **صحيح، صارت الشقة جاهزة؟!!**

- **نعم، وسنذهب لمعاينتها بعد قليل، ويجب أن ترافقينا.**

- **أكيد (تيمو)، وإن كنت سأحزن كثيراً على فراقك.**

- **ليس هذا وقت مثل هذا الكلام، استعدي، وسأذهب أنا للاستعداد، أمامنا أقل من ساعة، وعلينا أن نستعجل.**

- **حسناً.. حسناً.**

قالت ذلك، ووقفت في مكانها ثم اتجهت نحو (الكومودينو) بجانب سريرها، فتحت الدرج ووضعت جهاز الهاتف المحمول، الذي كان في يدها فيه وأغلقته، وكأنها تتعمد إلا تلفت انتباهي لشيء، بينما تشاغلت أنا بطرف ثوب لها كان معلق على الشماعة القريبة مني، في حين مدت يدها وهي تتحني بجسدها في نفس الناحية التي أرى منها ظهرها بطريقة من يريد أن يخفي شيء، وعادت وفتحت الدرج واخرجت جهاز (جوال) أخر أبقته في يدها واستدارت ناحيتي وبشكل طبيعي اتجهت نحو خزانة الزينة ووضعت الجوال فوقها بخفة ثم مدت يدها نحو الشماعة لتسحب المنشفة وتلقيها على كتفها، علّقتُ على المشهد قائلة لها:

- **هيـــــــــــاا، أسرعي.. أريد أن اتأكد من أنك بدأت تستعدين قبل أن اذهب إلى جناحي..**

- **بالله، وماذا ترين إني أفعل الآن؟!**

- **لا تكثري من الكلام وإلى الحمام فوراً..**

وبمجرد ما دخلت الحمام وأغلقت بابه عليها، أسرعت ناحية الدرج وفتحته بسرعة ورأيت جهاز المحمول الثاني هناك، بينما الآخر في مكانه فوق خزانة المرآة، اكتفيت بالتحقق من ذلك واستعجلت الخطو قافلة صوب جناحي.

قضينا وقتاً ممتعاً في ذلك اليوم، وعاينا معاً تجهيزات الشقة وقد اكتملت وأصبحت في كامل الروعة والأناقة، وتبادلنا الآراء وسجلنا بعض الملاحظات والتعديلات، ومضى اليوم على خير، ولكني ظللت طوال الليل مشوشة الفكر مما حدث، فكانت كل الأفكار والمشاعر مختلطة وذهني غارق في لجة

الشتات والشرود، أتحدث إلى نفسي تارة ويطبق عليَّ الصمت تارة أخرى، بين فضول يساورني لمعرفة مع من كانت تتحدث (هند) ونوع علاقتها به، وبين سر المحمول الثاني، وكما يقال "من شاهر إلى ماهر إلى قباض الأرواح"، دون أن أخرج بنتيجة، حتى كاد يطلع عليَّ الصباح وأنا على تلك الحالة من الحيرة والشرود، فغلبت نفسي على النوم وليس في ذهني إلا تعليق واحد وسؤال واحد أقولهما لنفسي:

- **هذا هو إذن سر ابتعادك عني يا (هند)، لقد أصبح لديك أسرار تكتمينها عني، ولكن أي أسرار عساها تكون أسرارك؟**

في مساء اليوم الثاني، عدت من الكلية وقد شارفت الساعة على الرابعة بعد العصر، عندما فتحت لي الخادمة (آشي) الباب، وبالمصادفة لمحت (هند) وهي جالسة تتحدث مع شقيقها (يزيد) في ركن الصالة موليان وجهيهما شطر النافذة الزجاجية الكبيرة المطلة على حديقة القصر، استوقفت الخادمة وسألتها عن خالتي (سمية) فعرفت منها بأنها خرجت مع زوجها وأنهما سيتأخران في العودة، لم أرد أن أقابل (يزيد)، كما كرهت أن أذكر هنا أي شيء عن المرات التي التقيت به من قبل منذ عاد إلى المنزل، وعن الحوارات السمجة التي كان يحاول أن يستدرجني إليها، وفي كل مرة كنت أتصرف بلباقة معه وأنا مكرهة على ذلك، حرصاً على مشاعر والدته وشقيقته (هند)، وانسحب بهدوء معتذرة بانشغالي بالامتحانات.

احترت فيما يجب أن اقوم به، هل ألقي عليهما التحية؟! أم أتجه صوب مخدعي وكأني لم أراهما عندما دخلت؟! لم أطل التفكير إذ فضلت الخيار الثاني، وفي ذلك الوقت تراجعت عن قراري بتأجيل الانتقال إلى الشقة حتى انتهي من الامتحانات، ورأيت أن الاستعجال أفضل، وبالفعل عملت من حينها على ذلك، وفي نهاية ذلك الأسبوع انتقلت إلى شقتي، التي اطلقت عليها (شقة الحرية).

الفصل الخامس

أسوار لندن

شقة الحرية، تقع في الدور الرابع لعمارة راقية في واحد من أرقى أحياء لندن وهو حي (Mayfair) حيث يقطن غالباً الأثرياء والمشاهير، عبارة عن طابقين، الطابق الأعلى يتضمن أربع غرف للنوم مزودة بكافة مرفقاتها، أما الطابق الأول فيتضمن الصالة الواسعة وغرفة للجلوس وغرف للضيوف والمعيشة الأخرى ومطبخ وغير ذلك، وكل شيء فيها مصمم على الطريقة الأوربية المعاصرة، بلغت تكلفة شرائها وتجهيزها قرابة المليون جنيه.

حفل افتتاح الشقة كان بسيطاً دعوت له صديقاتي كلهن، بالإضافة إلى (هند) ووالدتها و(كايتي)، جرى الحفل بطريقة رسمية هادئة وبتجهيزات متواضعة، حيث بارك الجميع وهنئوني عليها، وبعد انتهاء الحفل ومغادرة الجميع باستثناء (كايتي) التي قررت أن تقيم معي عدة أيام، ليتسنى لنا مناقشة الجوانب الصعبة لهذا التحول الذي حدث، والمتعلقة بالمشكلات التي قد ينظر إليها البعض بسبب إقامتي بمفردي في لندن، وكيف يمكن تلافيها، وكان عليَّ طبعاً أن أستمع أيضاً إلى مجموعة التعليمات الجديدة التي أملاها والدي على (كايتي) لتبلغني بها وتتأكد باستمرار من التزامي بها.

كانت الساعة العاشرة، وكنا جالستين على طاولة الأكل الواقعة في الطرف الداخلي للصالة عندما استأذنتنا (ماغي) – مديرة المنزل التي اختارتها لي (كايتي)– بالانصراف على وعد أن تكون هنا في موعدها المحدد غداً، كنا قبلها قد أرجأنا تناول العشاء إلى وقت لاحق، لنبدأ في مناقشة أمور الوضع الجديد، وبمجرد انصراف (ماغي) بادرت (كايتي) بالحديث، فقالت:

- **والآن عزيزتي، أتمنى أن تكون قد هدأت نفسك واطمئن قلبك بعد أن أصبحت في بيتك ومملكتك..**

راقت لي كلمة (مملكتك)، وتوقفت عندها قليلاً، قبل أن أقول:

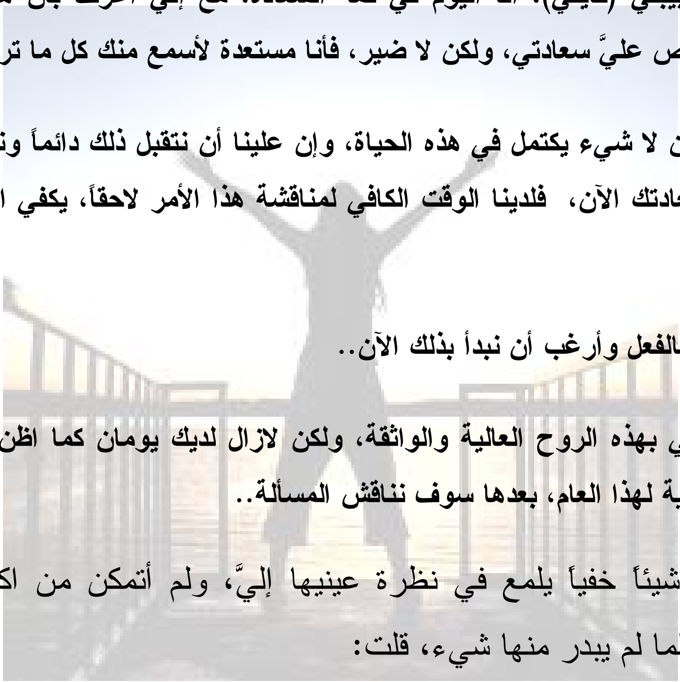

- **لا أخفيك سراً حبيبتي (كايتي)، أنا اليوم في قمة السعادة، مع إني أعرف بأن هناك ما ستقولينه لي، وترين أنه قد ينغص عليَّ سعادتي، ولكن لا ضير، فأنا مستعدة لأسمع منك كل ما تريدين قوله..**

- **تعرفين سموك بأن لا شيء يكتمل في هذه الحياة، وإن علينا أن نتقبل ذلك دائماً ونحسب حسابه، لا أريد أن أكدر صفو سعادتك الآن، فلدينا الوقت الكافي لمناقشة هذا الأمر لاحقاً، يكفي الليلة أن نمهد الطريق لذلك..**

- **لا.. لا، أنا جادة بالفعل وأرغب أن نبدأ بذلك الآن..**

- **يسعدني أن تكوني بهذه الروح العالية والواثقة، ولكن لازال لديك يومان كما اظن حتى تنتهي من أخر فحوصاتك الدراسية لهذا العام، بعدها سوف نناقش المسألة..**

قالت ذلك، وأنا أرى شيئاً خفياً يلمع في نظرة عينيها إليَّ، ولم أتمكن من اكتشافه، انتظرت برهة عساها تضيف شيئاً، ولما لم يبدر منها شيء، قلت:

- **(كايتي).. تعرفين مكانتك في قلبي وحبي الشديد لك، فأنت أكثر شخص موجود معي هنا في لندن يفهمني وأثق فيه ثقة كاملة وسأكون ممتنة لو بدأت الآن، أنا مصممة..**

- **حسناً.. ولكن فقط لساعة واحدة نتوقف بنهايتها أينما وصلنا.. اتفقنا..**

- **وأنا موافقة وجاهزة..**

قامت من مقعدها، وسارت بضع خطوات ثم امسكت بكلتا يديها مسند الكرسي الذي وقفت خلفه وهي في مواجهتي تماماً، وتحدثت قائلة:

- **عزيزتي (تيماء).. لقد سمح لك باتخاذ مسكن خاص بك هنا لسبب واحد فقط، ليس السبب الذي تعرفينه وأعرفه، وإنما لأنك أصبحت في موضع الثقة، وطوال الفترة التي قضيتها حتى الآن في لندن، لم يصدر منك شيء تؤاخذين عليه، ولكن هذا السبب له صيغة ثانية يقال بها، وهي أنك اخترت أن تكوني في موضع المسؤولية الكاملة، وهذا ما يجعل الوضع الآن مختلف عما قبل، واصبح من الضروري اطلاعك بأمور لا ينبغي لك الاطلاع عليها، وتأكدي بأني إذا قمت بذلك فإني سأجازف كثيراً، ولكني واثقة بك وفوق ذلك فأمرك يهمني شخصياً أكثر من أي شخص أخر في هذا العالم، وسأفعل ذلك من أجلك فقط مهما كانت المخاطر..**

- **استمري (كايتي) لا تتوقفي.. فقط كوني واضحة أكثر ولا داعي للمقدمات..**

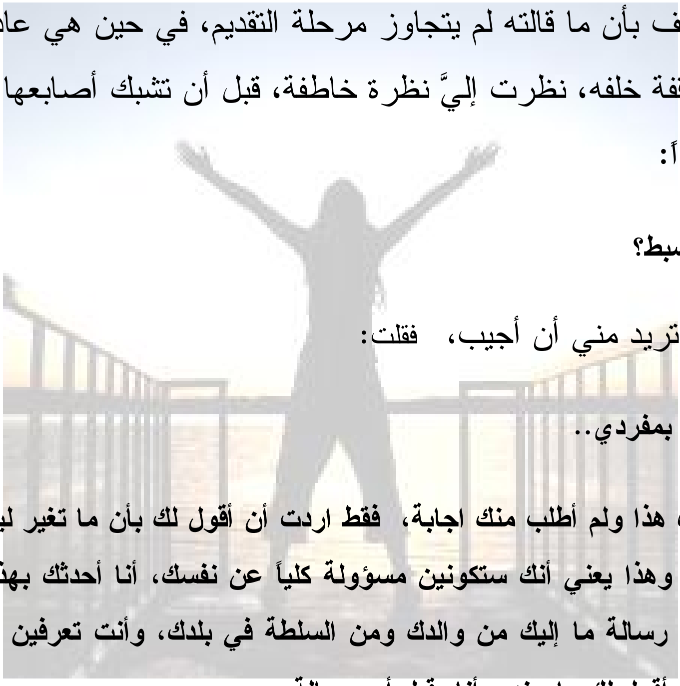

قلت لها ذلك، وأنا أعرف بأن ما قالته لم يتجاوز مرحلة التقديم، في حين هي عادت وجلست على نفس الكرسي الذي كانت واقفة خلفه، نظرت إليَّ نظرة خاطفة، قبل أن تشبك أصابعها وتصرف عني نظرها وتستأنف الحديث مجدداً:

- **ما الذي تغير بالضبط؟**

سألتني، وتوقعت إنها تريد مني أن أجيب، فقلت:

- **انتقلت إلى مسكن بمفردي..**

- **سموك، أنا أعرف هذا ولم أطلب منك اجابة، فقط اردت أن أقول لك بأن ما تغير ليس المسكن وانما أنك أصبحت بمفردك، وهذا يعني أنك ستكونين مسؤولة كلياً عن نفسك، أنا أحدثك بهذه الطريقة فقط عندما أكون ملزمة بنقل رسالة ما إليك من والدك ومن السلطة في بلدك، وأنت تعرفين ذلك، ولكن هذه المرة سأتجاوز الحدود وأقول لك ما عندي أنا، قبل أي رسالة.**

هذه في العادة طريقة (كايتي) عندما تتحدث إليَّ بشكل رسمي، وهي تعرف بأن ذلك يستفزني وغالباً ما يثير اعصابي، وكاد ذلك أن يحصل، لولا إني اخذت نفساً عميقاً، ثم عجلت بالحوار وسألتها:

- **فقط أخبريني، ماذا يجب أن افعل؟ وما الذي يجب أن أعرفه الآن؟ أرجوك (كايتي) لا تماطليني بالحديث، قلت لك إني مستعدة، فلماذا كل هذا الحشو؟!**

لمحت ذلك الذي لمع من قبل في عينيها، فسرت رعشة في جسدي، وساورني بعض الخوف، ما الذي تريد أن تؤجل قوله لي هذه المرأة؟! كانت تتأملني وتشعر بتقطع انفاسي، ولعلها شعرت بالعطف عليَّ.. تَنَحنَحت، ثم قالت:

- **لأني أعرفك جيداً (تيماء)، يجب أن أخبرك بما هو محظور عليَّ الافصاح به لك، وهو أنك ستكونين منذ الآن تحت رقابة شديدة ولكن بشكل خفي قد لا تشعرين به، والهدف من ذلك ليس من أجل سلامتك أو مصلحتك، بل من أجل ضمان إلا يصدر منك شيء قد يضر بسمعة وموقف العرش والحكومة في بلدك. لن تكون هناك قيود عليك.. تأكدي من ذلك.. بوسعك أن تعيشي كما يحــلو لك، تدخلي وتخرجي كيــفما شئت، ولكن أي غلطة منك سوف تحرمك من أدنى درجات الرحمة، وتضعك تحت طائلة أسوأ أنواع العقاب.**

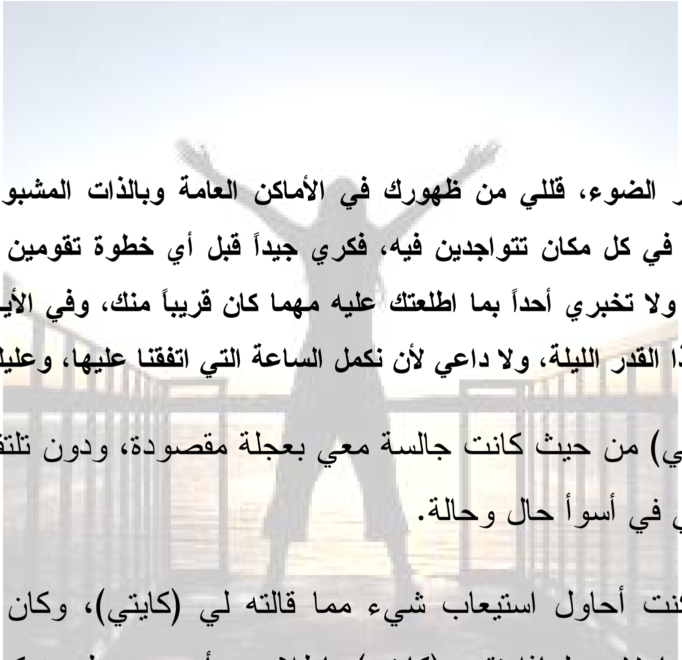

- **وماذا أفعل؟**

- **ابتعدي عن دوائر الضوء، قللي من ظهورك في الأماكن العامة وبالذات المشبوهة منها، احذري من عدسات التصوير في كل مكان تتواجدين فيه، فكري جيداً قبل أي خطوة تقومين بها، وأبقي في دائرة علاقات محدودة، ولا تخبري أحداً بما اطلعتك عليه مهما كان قريباً منك، وفي الأيام القادمة سأشرح لك أكثر، سأكتفي بهذا القدر الليلة، ولا داعي لأن نكمل الساعة التي اتفقنا عليها، وعليك أن تثقي بي.**

انسحبت بعد ذلك (كايتي) من حيث كانت جالسة معي بعجلة مقصودة، ودون تلتفت نحوي اتجهت نحو الطابق الثاني، وتركتني في أسوأ حال وحالة.

في غرفتي الجديدة، كنت أحاول استيعاب شيء مما قالته لي (كايتي)، وكان هذا سبباً كافياً لإثارة المزيد والمزيد من التساؤلات، لماذا تقوم (كايتي) باطلاعي بأمور محظورة كما قالت؟ وكيف تعرف هي تلك الأمور ما دامت محظورة؟ ثم ما هو نوع المجازفة في ذلك؟ ولماذا تعتبرني أهم شخص بالنسبة لها؟ وما هي علاقة (كايتي) بكل هذا؟ وما هو عملها ووظيفتها بالضبط؟ وغير ذلك من التساؤلات المربكة والمحيرة، خاصة وأنه كان يتعين عليَّ أن أحدد بالضبط أين أضع مجموعة تلك الأسئلة بالنسبة للمجموعــات الأخرى التي تكونت لدي من قبل.

ما قالته لي (كايتي) بقدر ما كان عمومياً وغير واضحاً بما يكفي لأعرف وأفهم بالضبط مقاصدها التي أرادت أن توصلها إليَّ، وعجزها وتخوفها الشديد من أن تكون واضحة معي في حديثها ذاك، قادني إلى استنتاج غريب، وهو إنها تحاول أن تبقيني تحت السيطرة وإن تمنعني بشكل غير مباشر من أن

أعيش حياتي كما أريد وكما أحب في لندن، من خلال الإيحاء لي بأني كنت ومازلت تحت المراقبة، وأنها قامت بذلك بناءً على اتفاق مسبق مع دائرة السلطة العائلية، وفي مقابل هذا الاستنتاج كان يتعين عليَّ أن افترض بأن ما قالته لي وما تحدثت عنه قد يكون صحيحاً، وهكذا أدركت أن الاستمرار في اضافة حلقات جديدة لسلسلة تساؤلاتي سوف تقودني إلى حالة صعبة ومعقدة من تشابك الأمور وزيادة تعقيداتها.

لم يكن أمامي بداً من تأجيل ذلك كله إلى أن انتهي تماماً من أخر مهامي الدراسية، حيث يمكن لي بعد ذلك التفرغ تماماً للبحث في كل الأمور التي تكونت لدي حولها الكثير من الأسئلة، ومع اقتناعي بهذه الفكرة، لا أعرف كيف ولا من جاء ذلك الإحساس بالحاجة إلى شخص ما أبوح له بكل ما يخالج ذهني ويعتلج في نفسي ويسمعني، شخص ما أفضفض وأبث إليه، لم يكن ذلك الاحساس واضحاً على هذا النحو في الحقيقة، بل كان مجرد فكرة شعورية جعلتني أحس بالغربة والوحدة والخوف وعدم الاطمئنان، بحيث عرفت بأني أعاني من حالة مسيطرة من الكبت، وإن من أحتاج إليه في ذلك الوقت لن يكون من بين كل الذين من حولي.

في أخر يوم لي في الكلية، كان عليَّ أن أقوم بالفحص الأخير والذي كان عبارة عن مناقشة شفاهية يجريها معي أحد المشرفين عليَّ، وكانت المشرفة عليَّ (لورا) حاضرة وتجلس على كرسيها بجانب مجموعة المشرفين وتتابع عن كثب أدائي في المناقشة، وقد كنت مستعدة نوعاً ما لأتجاوز هذا الفحص بنجاح، لذا كنت أقيس أدائي من خلال قراءة التعابير التي تظهر على وجه (لورا) وملامحها، وقد ساعدني هذا كثيراً في أن أكون هادئة وواثقة، فنتيجة ذلك الفحص مهمة جداً في تقرير صعودي إلى المستوى الثاني، أو الانتقال إلى دور سبتمبر والذي سيترتب عن فشلي فيه احالتي إلى مجلسي القسم والكلية، لتقرير بقائي في الكلية أو سحب مقعدي، وبعد أن انتهيت من الفحص، خرجت من القاعة التي منت فيها، وقررت أن انتظر (لورا) خارجاً في الرواق، حتى خرجت ورأتني في مكاني فعرفت إني كنت أنتظرها، فجاءت نحوي بخطى تعمدت أن تكون ثقيلة وغير مهتمة، ولما أصبحت على مقربة مني، أومأت إليَّ بأن أسير معها، ففعلت وظللت صامتة حتى سألتني هي:

- **هه (تيماء).. أخبريني، ما الذي انتظرتني من أجله؟!**

- **كنت أريد أن تخبريني برأيك عن أدائي في المناقشة، طبعاً لا أريد أن تطلعيني على تقييمات اللجنة أو تقييمك الذي وضعته أنت لي، لأني أعرف أن هذا غير ممكن بحسب اللوائح، ولكني فقط أريد رأيك، هل كان أدائي جيداً أم لا؟**

كنت أسير بجانبها، وبعد أن قلت لها ذلك إلتفتت ونظرت إلى وجهي ودون أن تضفي على ملامح وجهها ما يبشر بخير، سألتني:

- **أنت خائفة.. أليس كذلك؟**

- **في الحقيقة، نعم.**

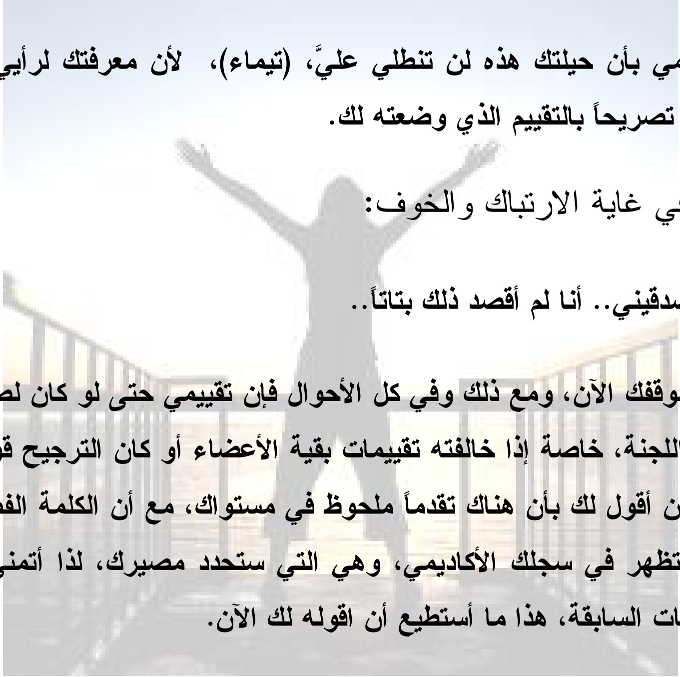

- **أولاً يجب أن تعلمي بأن حيلتك هذه لن تنطلي عليَّ، (تيماء)، لأن معرفتك لرأيي لا تختلف كثيراً عن اخبارك تلميحاً أو تصريحاً بالتقييم الذي وضعته لك.**

قاطعتها وقلت لها وأنا في غاية الارتباك والخوف:

- **أنا أسفة، ولكن صدقيني.. أنا لم أقصد ذلك بتاتاً..**

- **يمكن أن أتفهم موقفك الآن، ومع ذلك وفي كل الأحوال فإن تقييمي حتى لو كان لصالحك، لن يؤخذ بعين الاعتبار من قبل اللجنة، خاصة إذا خالفته تقييمات بقية الأعضاء أو كان الترجيح قوياً عكس ذلك، ولكني مع ذلك أستطيع أن أقول لك بأن هناك تقدماً ملحوظ في مستواك، مع أن الكلمة الفصل سيكون للتقديرات التراكمية التي ستظهر في سجلك الأكاديمي، وهي التي ستحدد مصيرك، لذا أتمنى أن تكوني قد أبليت حسناً في الامتحانات السابقة، هذا ما أستطيع أن اقوله لك الآن.**

- **شكراً.. وأعتذر عن سوء تعبيري..**

- **لا، لا داعي للاعتذار (تيماء).**

كنا قد وصلنا إلى قبالة باب مكتبها، وعندما أمسكت بمقبض الباب لاحظت إني غير راغبة في الذهاب، اعتذرت مني قائلة:

- **عفواً، هل هناك شيء أخر؟**

نظرت إليها بخجل وأنا لا أعرف بماذا أرد عليها، فقد كنت راغبة في الحديث معها بشأن ما كنت منهمكة فيه وما أريد أن أقوم به، ولكني تحرجت من كون الأمر شخصي وليس له علاقة بالدراسة، ولكيلا أطيل انتظارها، أجبت:

- **نعم، هناك أمر أريد أن استشيرك فيه، ولكنه أمر شخصي، فهل تسمحين لي بذلك؟**

- **حسناً، تفضلي..**

أخبرت (لورا) بكل ما لدي، وبذلت جهداً كبيراً من أجل أن أشرح لها وأوجز في الشرح، وبعد أن انتهيت من ذلك، قالت لي:

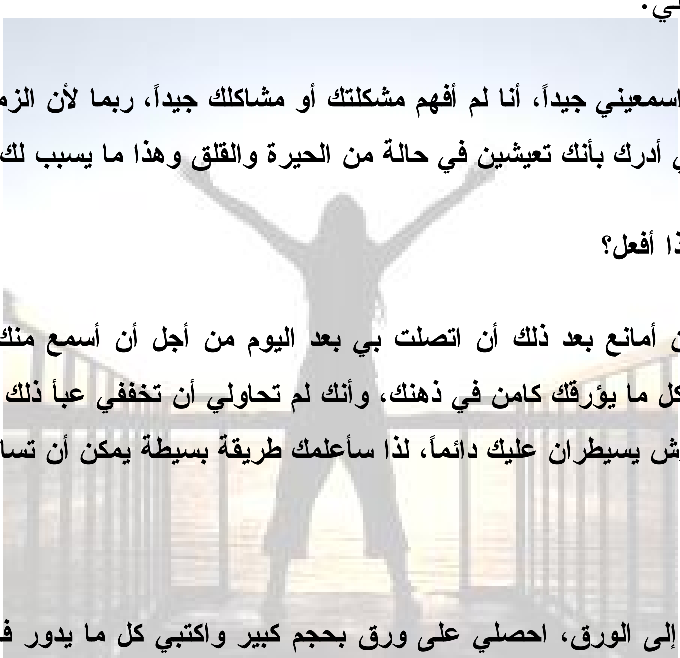

- **انظري (تيماء) واسمعيني جيداً، أنا لم أفهم مشكلتك أو مشاكلك جيداً، ربما لأن الزمان والمكان لم يسمحا لكلينا بذلك، ولكني أدرك بأنك تعيشين في حالة من الحيرة والقلق وهذا ما يسبب لك المعاناة، صحيح؟!**

- **نعم، ولا أدري ماذا أفعل؟**

- **عزيزتي، أولاً، لن أمانع بعد ذلك أن اتصلت بي بعد اليوم من أجل أن أسمع منك كل شيء، أما ثانياً، فمن الواضح أن كل ما يؤرقك كامن في ذهنك، وأنك لم تحاولي أن تخففي عبأ ذلك عن نفسك، إلى درجة أن الحيرة والتشوش يسيطران عليك دائماً، لذا سأعلمك طريقة بسيطة يمكن أن تساعدك، ما رأيك؟**

- **حسناً..**

- **انقلي كل أفكارك إلى الورق، احصلي على ورق بحجم كبير واكتبي كل ما يدور في ذهنك عليها، بشكل مخططات وأشكال موزعة على مساحة الورقة انطلاقاً من مركزها، كأن ترسمي دائرة تكتبي فيها مشكلة، ومربع فيه مشكلة أخرى ومثلث وهكذا، وارسمي خطوط مستقيمة تصل بينها كما ترين ذلك مناسب، وأنت تفعلين ذلك.. احرصي على تسجيل الملاحظات والاستنتاجات التي ترد على ذهنك، هذه هي الطريقة..**

- **هل أقوم بذلك فقط؟!**

- **نعم، وأنا متأكدة بأن ذلك سيساعدك، لأن اخراج الأفكار من ذهنك ونقلها إلى مكان أخر، سوف يسهل عليك التفكير واعادة التفكير فيها، والتحرر من شدة وطأتها عليك، جربي ذلك..**

– **حسناً سأفعل، أشكرك والآن سأنصرف بعد إذنك..**

حملت أغراضي ومضيت ناحية باب المكتب خارجة، وقبل أن أصل إلى البـــاب، استوقفتني فالتفت إليها، وقالت:

– **يمكنك الاتصال بي إذا شئت..**

– **نعم وأشكرك جداً..**

في مساء ذلك اليوم، توقفت في طريق عودتي إلى المنزل لشراء بعض الحاجيات، حينها لفت انتباهي إني قريبة من معرض لبيع أجهزة الهاتف الجــوال، فتذكرت (هند) وجوالها الثاني حينها خطر على بالي أن رقم جوالي قد يكون مراقباً من حيث لا أشعر كــما قالت (كايتي)، وتولــد لدي دافع قوي لشراء جهاز جوال أخر، وشريحة رقم مجهولة لا تكون بياناتــها باسمي ولا يعرف بشأنها أحــد غيري، ولعلي فهمت متــأخرة سر وحقيــقة ما قامت به (هند)، اتخــذت قراري وفعلت ذلك، نعم اشتريــت الــ (I-Phone)، واستعنت بأحدهم لشراء شريحة مجهولة لقاء مبلغ بسيط، فالمال هو السيد هنا في لندن، ولا أعرف لماذا أسعدني ذلك؟ ولا كيف خلق بداخلي طاقة قوية، أزالت كل ما كان بي لحظتــها، وبمجرد وصولي إلى الشقة، قابلتني (ماغي) فسلمتها بعض ما كان بيدي من الحاجيات، وأخبرتها بأن بوسعها الانصراف مبكراً، لأننا لن نكون بحاجتها في الليل، واتجهت ناحية غرفتي، ووضعت أغراضي حيثما سهل عليَّ ذلك، ولكني اهتممت واعتنيت كثيراً باختيار المكان المناسب لإخفاء سري الصغير.

كنت في ذلك اليوم نفسه، على موعد مع (كايتي) لتناول العشاء خارج الشقة، وكانت لا تزال هناك عدة ساعات على الموعد، وعندما خرجت إلى الصالة، كان التلفزيون مفتوحاً، إذ لم يكن شيء سواه تسلي به (ماغي) نفسها طوال فترة غيابي عن الشقة، جلست قبالة التلفزيون وأمسكت بجهاز التحكم عن بعد ومضيت أقلب المحطات واتنقل بينها، كنت أعرف أن (كايتي) قد حرصت حتى على أن تبقيني في سجن النايل سات، ولم تمضي برهة قصيرة حتى سار ذهني إلى الماضي القريب ليذكرني بإحدى العادات التي كنت قد أدمنتها لفترة قبل أن أسافر إلى لندن، وهي المراسلة عبر الشات والدردشة

باستخدام رسائل الــ (SMS)، ومواقع الدردشة على الــ (Net)، فقد كان ذلك أفضل متنفس لنا نحن البنات، للتعرف على الشبان والدخول في علاقات معهم وصنع المقالب لهم، والحقيقة أنني لا أعرف متى تخلصت عن هذه العادة، غير إني تذكرت المحمول الثاني مرة أخرى، فنظرت إلى الساعة، ووجدت أن هناك أكثر من ساعتين حتى يحين موعد الخروج للقاء (كايتي)، فذهبت لآتي به وفي رأسي شبه فكرة جهنمية، كان نائماً وآمناً في مخبأه، مددت يدي وأخذته برفق وأنا أقول له:

- **تعال إليَّ يا صغيري.. لقد بدأ دوام عملك من اليوم!!**

لم يظل الأمر مسلياً كما كان من قبل، إذ سرعان ما شعرت بالملل من التفكير في كتابة الرسائل، ووجدت أن الأمر يحتاج إلى وقت طويل، فيجب أن أسجل اسمي المستعار، ثم ابعث برسالة واتعرف على المشاركين، وانتظر حتى يهتم أحد برسائلي.. أفففف... كان الأمر ممل للغاية، حتى إنها كانت أبطأ وأسوأ خمس دقائق قضيتها في لندن، عدت مرة أخرى اقلب المحطات، وأنا أبحث عن خيارات وفرص أخرى لتفعيل جهازي الجديد، حتى وصلت في نهاية القائمة إلى محطة (تعارف)، تأملت إلى صورة الفتاة الظاهرة على الشاشة، وضعية انحناء مثيرة ودائرة حمراء بين الشفتين كافية لمص رأس اصبع السبابة، مكتوب إلى جانب منها (تعرف على أحلى الصبايا) وأرقام هاتفية منتشرة حولها، رغبت في أن التقط احد تلك الأرقام ولكني شعرت بازدراء تجاه فتاة الصورة التي شعرت بأنها تقدم دعوة للعاجزين جنسياً أو لذوي الأعضاء الصغيرة ليعوضوا شيئاً مما فاتهم، فكرهت أن افعل ذلك وإن أكون من تلك الصبايا، فحصلت على ذلك الشعور النادر بــ (تقدير الذات)، خرجت من تلك القناة في ذيل القائمة حتى عثرت على قناة الــ(Z Aflam)، فرحت واستبشرت وقلت لنفسي:

- **كل العالم تخلى عن الرومانسية، إلا الشعب الهندي غارق في جمال الطبيعة بين الألوان والأغاني والرقص وقصص الحب والتضحية ومعارك البطولة والانتقام..**

وفي غاية الروعة كانت المصادفة، أن أقابل الملك (شاروخ خان) (Sharukh Khan) في واحد من أروع أفلامه وأقربها إلى قلبي فيلم (Kal Ho Naa Ho) أي – قد يكون أو لا يكون– كنت قد شاهدت ذلك الفيــلم من قبــل عدة مرات، ومع ذلك شعرت برغبة في مشاهدته في ذلك اليوم، اندمجت مع الأحداث، وقد أصبحت أنا (بريا) التي تعيش مأساة حبها بين الوسيمين (أمان) و(روهيت)، وخلال

أحداث الفيلم، كنت أتلذذ بذلك الشعور بالألم والمعاناة وبلوغ قمة المأساة ولكن في أجواء وعلاقات وحوارات مفعمة بالرومانسية، وثرية بالعاطفة والإحساس..

هذا هو سر الأفلام الهندية، فهي تجعلني أكتشف جانباً كبيراً من رغباتي العاطفية المدفونة في سرداب عميق داخلي، وأطلقها بالخيال وكأني أعيشها حقاً، فأنا لا أشاهد الأفلام الهندية، بل أعيش فيها دائــماً، ولهذا السبب مضى الوقت سلسبيلاً وكأنه جدول حب يتدفق من اللابداية إلى اللانهاية، وما نحن البشر إلا حدث بسيط في الزمان ونقطة صغيرة جداً في المكان على امتداد ذلك الجدول العذب والرقيق، المسمى بـــ (الحياة).

إلا ترى أن كل هذا التحول السريع والعجيب الذي طرأ على أسلوبي ولغة كتابتي، كان فقط بسبب ما أحدثه في ذلك (الجهاز الصغير)؟!! في الحقيقة، إنه الإحساس الأكيد بأنك يمكن أن تعيش حراً طليقاً من كل أشكال الرقابة والتجسس، ولعلي أتساءل معترضة: لماذا يحرص رجال هذا الكوكب على مصادرة حق النساء الطبيعي في أن يكون لهن المساحة الكافية من الحرية والخصوصية؟! سأغلق التلفزيون الآن، وأعتذر لأني مضطرة للذهاب في الموعد لتناول العشاء مع (كايتي)..

تمام الثامنة مساءً، مدخل (**Zafferano Restaurant**)، مد عامل الخدمة يده لأعطيه مفتاح السيـــارة، بينما تولى عامل أخر الترحيب بي واستقبالي وايصالي إلى الطاولة التي حجزتها لنا (كايتي)، التي كانت هناك بالفعل، ولا أظنها انتظرتني كثيراً.. بادلتني الابتسامة، وظلت واقفة حتى تأكدت من جلوسي على المقعد، وبدأت مراسيم تقديم العشاء وبدأ وقت الثرثرة بين صديقتين من زمنين ومكانين مختلفين، غير إنها عندما تضع (كايتي) وجهها قبالة وجهي أشعر كم أننا متشابهتين، وأثناء العشاء سألتني (كايتي):

- **والآن عزيزتي (تيماء).. أين توقفنا في تلك الليلة؟**
- **عندما طلبت مني أن أثق بك.. حسب ما أذكر.**
- **هل أنت واثقة؟**
- **أكيد، واثقة بك!!**

- لا، لا، أقصد هل أنت واثقة أننا توقفنا عند ما قلت للتو؟

قالت ذلك، وهي تكاد تنفجر من الضحك، فأضحكتني بالفعل، ولكني ضحكت من شكلها فقد رأيت وجهها ينتفخ ويحتقن محمراً وهي تقاوم الضحك، أكثر من السبب الأصلي، لبثنا قليلاً وتمالكت كلاً منا نفسها واستعادت هيئتها، وأحببت أن أملي شروطي عليها قبل أن تستأنف الحديث بطريقتها، فقلت لها:

- **لن تفعلي ذلك بطريقتك، بل سأسأل أنا وستجيبين أنت.. سيكون هذا افضل.**

- **حسناً، يبدو ألا خيار لي، فاطربيني بسؤالك الأول؟!**

- **كيف تعرفين بأني سأكون مراقبة طوال الوقت، في الوقت الذي يفترض أن يكون ذلك بشكل سري؟ فكيف تعرفين ذلك؟!**

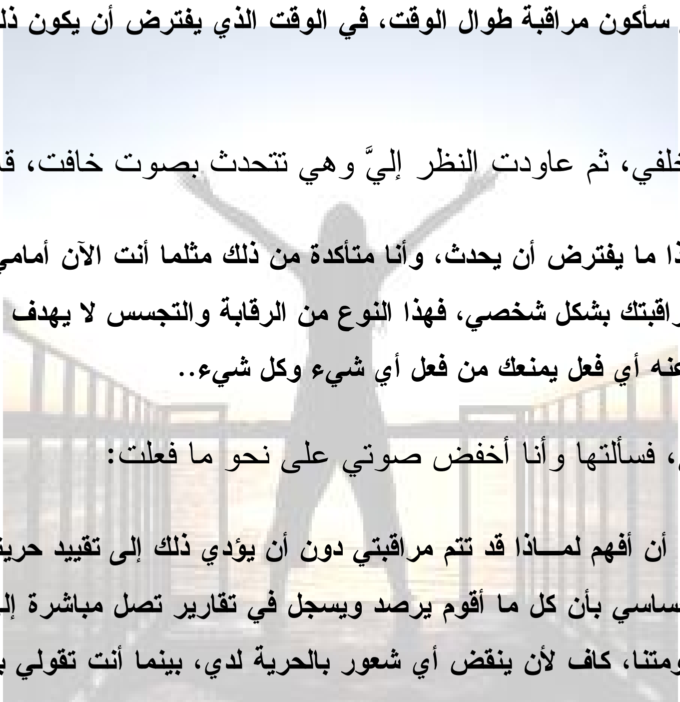

لفت انتباهها شيء ما خلفي، ثم عاودت النظر إليَّ وهي تتحدث بصوت خافت، قائلة:

- **أعرف هذا لأن هذا ما يفترض أن يحدث، وأنا متأكدة من ذلك مثلما أنت الآن أمامي، يا حبيبتي المسألة ليست مرتبطة بمراقبتك بشكل شخصي، فهذا النوع من الرقابة والتجسس لا يهدف إلى تقييدك أو الوشاية بك، بل لن ينتج عنه أي فعل يمنعك من فعل أي شيء وكل شيء..**

توقفت عن الحديث هي، فسألتها وأنا أخفض صوتي على نحو ما فعلت:

- **كيف؟! أقصد أريد أن أفهم لمـــاذا قد تتم مراقبتي دون أن يؤدي ذلك إلى تقييد حريتي ورصد تحركـــاتي، على الأقل فإن احساسي بأن كل ما أقوم يرصد ويسجل في تقارير تصل مباشرة إلى والدي مثلاً، أو إلى مسؤولين في حكومتنا، كاف لأن ينقض أي شعور بالحرية لدي، بينما أنت تقولي بأن ذلك لن يمنعني أو يقيد حريتي، فكيف يتحقق النقيضان؟**

- **اعلمي أولاً أن جميع أفراد الأسرة المالكة ذكوراً واناثاً ممن يأتون إلى لندن أو أي عاصمة أو مدينة في هذا العالم يخضعون لنفس الاجراء بلا استثناء، فهذا النوع من التجسس تقوم به أجهزة أمنية عليا وليس مجرد أشخاص، والهدف من ذلك منع حدوث أي فعل أو تصرف من قبل شخص ينتمي للأسرة أو محسوب على الدولة، قد يتسبب في اقلاق العرش أو إثارة المشاكل التي تؤثر سلبياً على سمعة ومكانة وعلاقات الدولة وسياساتها، فهي ليست رقابة شخصية، بل أمنية لأهداف سياسية، هل تفهمين ذلك؟!**

- **أعتقد إني بدأت افهم، ولكن (كايتي) لدي سؤال أخر، كيف يمكن على سبيل المثال أن ارتكب عملا ينتج عنه من غير قصد ما يسبب لحكومة بلدي مشاكل وتهديدات؟**

- المشكلة ليست فيما قد تقومين به أياً كان ذلك، بل في الرقابة والتجسس الذي يقوم به أخرون في الطرف الآخر، كالصحافة ووسائل الاعلام والأجهزة الأمنية المحلية، وأي جهات دولية أخرى تستهدف أي مصالح لها من خلال استغلال أخطاء فردية أو سلوكيات شخصية، مجرد اشهارها كفضائح قد يسبب القلق الشديد للنظام في بلدك..

- وماذا يمكن أن يحصل لي إذا وقعت في مشكلة من هذا النوع؟!

- هذا يا عزيزتي، يتوقف على أمور كثيرة هي التي تحدد حجم ودرجة ومستوى تأثير الواقعة على النظام، فقد تتعرضين للتوبيخ والحرمان من بعض الامتيازات، بالإضافة إلى الآثار السلبية التي سوف تطالك جراء التشهير الاعلامي بك وهذا في الحد الأدنى، أما في الحدود القصوى يمكن أن يبلغ العقاب درجات شديدة من الصعب استثناء أي شيء يمكن تصوره، ولن يدفع عنك أحد مهما كان أي مصير سوف يقرر لك، ففي مثل هذه الحالات يكون الأفراد المتورطين أضحيات توضع رخيصة على المذابح التي تنصبها مصلحة العرش وأمن الدولة والنظام.

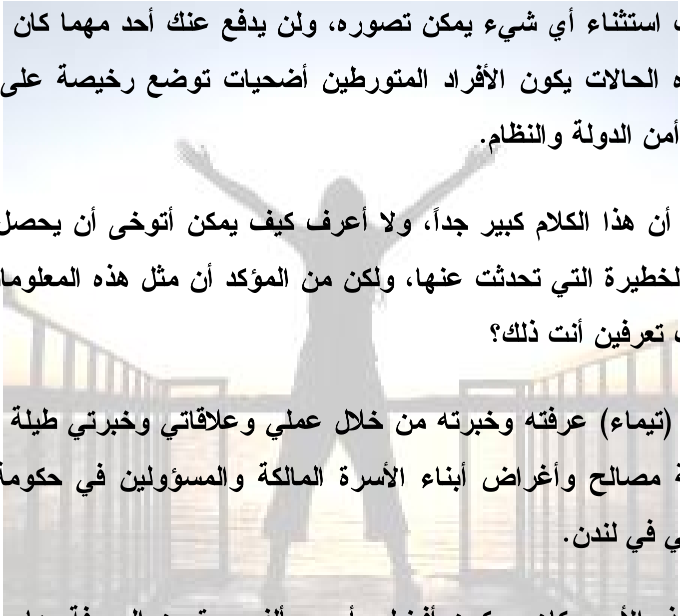

- (كايتي).. تعلمين أن هذا الكلام كبير جداً، ولا أعرف كيف يمكن أتوخى أن يحصل معي ما قد يصل بي إلى هذه الدرجة الخطيرة التي تحدثت عنها، ولكن من المؤكد أن مثل هذه المعلومات تحفظ بدرجة عالية من السرية، فكيف تعرفين أنت ذلك؟

- كل ما قلته لك يا (تيماء) عرفته وخبرته من خلال عملي وعلاقاتي وخبرتي طيلة السنوات السابقة التي قضيتها في خدمة مصالح وأغراض أبناء الأسرة المالكة والمسؤولين في حكومة بلدك، وأيضاً بفضل علاقاتي واتصالاتي في لندن.

- يبدو أن جهلي بهذه الأمور كان سيكون أفضل وأرحم بألف مرة من المعرفة بها، ولعلك تفهمين جيداً ما أعنيه، لقد جعلتني متأكدة تماماً بأني سأعيش السنوات القادمة هنا في لندن، تحت وطأة القلق والشعور بالحصار، وهذا الوضع لن يكون مناسباً بالنسبة لي، يجب أن يكون هناك حل ولعلي أعتقد بأني يجب أن اتسلح بمعرفة كافية بهذا الشأن، فأنى لي ذلك بحق الله؟؟ (كايتي) أخبرني أرجوك، أرجوك؟!

- (تيماء) أنا لم أجازف وأطلعك على كل ذلك لأتسبب لك بالقلق، بل لأحيطك علماً بما يجري من وراء الكواليس..

- أدرك ذلك، صدقيني ولكن...

قاطعتني (كايتي) بانفعال واضح:

- **عجباً لأمرك (تيماء)!! ألم تسمعي من قبل ما حدث لبعض الأمراء والأميرات الذين وجدوا انفسهم متورطين في قضايا جنائية أو أخلاقية، عملت وسائل الاعلام على تحويلها إلى فضائح وقضايا اشهار ورأي عام؟ هل كنت تعيشين من قبل صماء أم عمياء؟! أرى أن ننهي هذا الحديث فوراً..**

- **طيب.. طيب، فقط سؤال أخير، كيف عرفت قبل قليل أننا مراقبتان في هذا المكان؟**

- **لماذا تسألين؟ هل قلت شيئاً من هذا القبيل؟**

- **لم تقولي ولكنك أومأت لي بذلك عندما خفضت صوتك..**

نظرت إليَّ بدهشة لبرهة قصيرة، ثم قاومت رغبة شديدة بالضحك وكتفت برسم ابتسامة لم تخلو من قدر من السخرية ربما، وقالت:

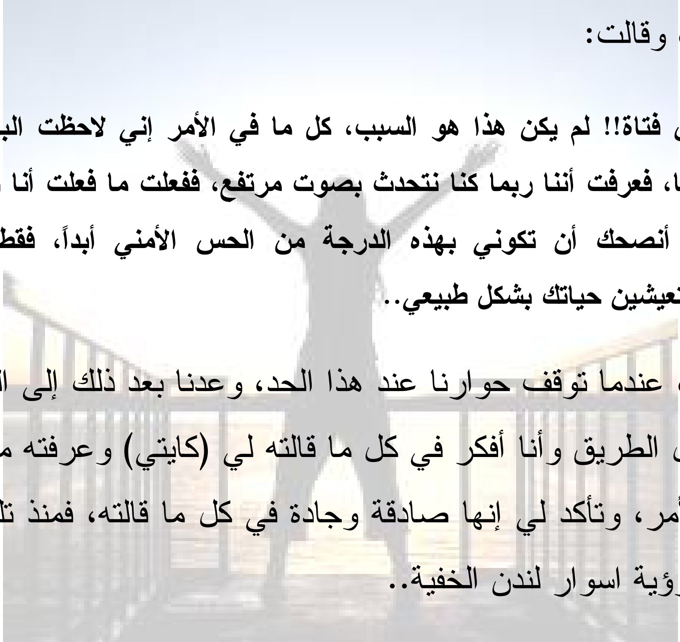

- **هآآآآآه، يا لك من فتاة!! لم يكن هذا هو السبب، كل ما في الأمر إني لاحظت البعض من رواد المكان بدأوا يلتفتون إلينا، فعرفت أننا ربما كنا نتحدث بصوت مرتفع، ففعلت ما فعلت أنا وظننت ما ظننت أنت، على العموم، لا أنصحك أن تكوني بهذه الدرجة من الحس الأمني أبداً، فقط أنصحك بأن تتحلي بالمسؤولية وإن تعيشين حياتك بشكل طبيعي..**

شعرت بالإحراج قليلاً، عندما توقف حوارنا عند هذا الحد، وعدنا بعد ذلك إلى المنزل، وقد سارت كل منا بسيارتها، لذا فطول الطريق وأنا أفكر في كل ما قالته لي (كايتي) وعرفته منها، وكنت قادرة على تصور مدى فظاعة الأمر، وتأكد لي إنها صادقة وجادة في كل ما قالته، فمنذ تلك الليلة فتحت عيوني وأصبحت قادرة على رؤية اسوار لندن الخفية..

ولكن ما كان يحيرني حينها وكنت أريد أن اسأل بشأنه (كايتي)، هو طبيعة عملها وموقعها من هذا الأمور كلها؟

ما أعرفه عن عمل (كايتي) هو أنها تمتلك وتدير شركة خاصة لخدمات الوافدين إلى لندن– اسم الشركة (ايزي سيرفيس)، وسبق وإن أخبرتني (هند) أن الوافدين العرب والوافدين من بلدنا على وجه الخصوص، هم أكثر المستفيدين من خدمات شركة (كايتي)، التي تقع في **شقة فارهة في (كينغستون) بلندن**، تجاورها الشقة التي تسكن فيها (كايتي)، بالإضافة إلى عدة منازل وبيوت ريفية وشاليهات تمتلكها (كايتي) موزعة في لندن وضواحيها والمدن والجزر البريطانية الأخرى..

(كيث براون) أو (كايتي)، هي في الواقع سيدة أعمال ثرية وتحقق أعمال شركتها أرباحاً عالية، ولكن هذه المعلومات التي أعرفها عنها، بالإضافة إلى معلوماتي عن حياتها الشخصية تظل قليلة جداً مقارنة بحجم ما أدركت حينها إني اجهله عنها، وأثناء تفكيري وجدت نفسي مدفوعة لأتصور ذلك التقابل المريع بين أسرار (هند) وأسرار (كايتي)، إلى درجة أدركت معها كيف أن (سري) الصغير تافه وليس له أدنى قيمة، استصغرت نفسي حينها وتساءلت بيني وبين نفسي:

- **أين أنا من هذا كله؟**

عندما وصلت إلى المنزل، كانت (كايتي) قد وصلت قبلي فقد لمحت سيارتها واقفة في جراش المبنى، كنت راغبة في أن أكون وحدي، ولهذا استبقت الأحداث وذهبت إلى الغرفة المخصصة لإقامتها عندي، كانت قد انتهت من تغيير ملابسها وجالسة قبالة المرآة تزيل بالمناديل ما كان على وجهها من الصبغات والألوان، رغم إنها لم تكن تسرف في زينتها وفي عمل الـــ (Makeup) لنفسها، ألقيت التحية عليها واستأذنتها بالانصراف، وذهبت صوب غرفتي بعد يوم شاق ومرهق وحافل من صبحه إلى ليله، غيرت ثيابي وأخذت حماماً ساخناً وسريعاً..

كان عليَّ أن أبدأ في تلك الليلة، في تطبيق الطريقة التي علمتني إياها في الصباح (لورا): نقل الأفكار من الذهن إلى الورق، وكان عليَّ أيضاً أن أجلس قليلاً أو كثيراً مع صغيري الجديد، لنفكر معاً في الطريقة التي يكون فيها مفيدا لسيدته..

من المؤكد في ذلك الوقت إني لم أكن أعرف أبداً ولم أتوقع أو اتخيل مطلقاً أن هذا الصغير سيحدث تغييراً هاماً في مسار تجربتي اللندنية، فالعجائب والغرائب كلها ستبدأ من حين دخل ذلك الصغير مخبأه في غرفتي وحياتي، لنرى وحسب تصاريف القدر؟؟!!

الفصل السادس

الانتكاس الى الداخل

للقدر تصاريفه الأخرى التي لا ندرك مغزاها إلا في وقت متأخر، المهم أن (كايتي) غادرت بعد أن شعرت بأن مهمتها اكتملت، ولكنها دون أن تدري إنها رسمت جزءً جديداً من محيط دائرة الألغاز والأحجيات التي أصبحت تحاصرني، حتى تكونت لدي قناعة تامة بأن عليَّ أن انتظر حتى تلتحم نهاية هذه الدائرة ببدايتها، وأني لن أخرج من حالة الحصار وأفلت من قبضة هذا الوضع الذي بُتُّ أعيش فيه، إلا إذا تيقنت من شعوري بضيق الخناق وتأكدت من قدرتي على الانفجار وتفجير الدائرة.

أصبحت ولأول مرة في (لندن) بين أربعة جدران: وحيدة وغريبة، تائهة وحائرة، مشتتة ومشوشة، قلقة وخائفة، ضعيفة وعاجزة، محاصرة ومهددة، تزاحمت في رأسي كل التساؤلات التي خطرت عليَّ من قبل، وتكاثفت في عشار قلبي كل مشاعر الحزن والألم والمعاناة، وبدأت بالفعل أتحقق من معنى (المأساة)، وكان ذلك دافعاً قوياً لأعتزل الناس بمن فيهم أقرب الناس إليَّ (هند) وصديقاتي من داخل الكلية وخارجها، حبست نفسي داخل شقتي فلم أكن أخرج منها إلا للضرورات، وغرقت طيلة أسابيع في حالة من الانكفاء على الذات والاحتجاب عن كل الحياة، فقد كنت بحاجة للجلوس مع نفسي حتى أصل إلى قناعات مرضية تمكنني من الاستمرار في (لندن).

لقد أسعدني جداً أن أنتقل إلى شقتي الجديدة، وإن أخرج من بيت العائلة واتحرر من أخر حلقات السلطة العائلية، ولقد شعرت بالامتعاض لما أخبرتني (كايتي) بأنها ستقيم معي في الشقة، وانتظرت بشغف تلك اللحظة التي ستغادر فيها، لأبدأ منها في خوض تجربة الحياة بلا قيود، فهذه الشقة هي بالفعل (مملكتي)، ولكني لم أعرف حينها لماذا تغيرت حسبة المسافات بيني وبين العالم من حولي، بقدر ما أنا واثقة بأني شعرت بذلك التغيير بمجرد ما أن توارت (كايتي) عن نظري وأغلقت باب الشقة عليَّ نفسي.

في تلك الليلة سطا عليَّ كم ثقيل من الشعور بالملل والسأم، وانصرفت نفسي عن كل رغبة وعن كل شيء تاقت إليه يوماً، فجأة وعيت بنفسي واقفة في منتصف الصالة اتلفت في الجهات بثقل شديد، وأبحلق في الأشياء من حولي بشرود بعيد، وبعد وقت يحسب بالدقائق ولكنه أطول من أيام الآخرة، سرت انتقل في أرجاء الشقة، وكأني أرسم على أرضيتها لوحة تخطيطية مثل تلك التي علمتني (لورا) أن أرسمها على الورق، بدأت ذلك واتممته بطريقة عفوية وتلقائية، لاسيما وأني كنت أقوم بذلك طيلة الوقت تنفيذاً لأمر كامن وغامض في اللاشعور مني، فاتخذت من تلك النقطة من الصالة التي كنت واقفة فيها مركزاً للصفحة، ولعلي رسمت هناك دائرة وهبتها من وحي احساسي بذاتي علامة استفهام من داخلي إلى داخلها، ثم ذهبت ناحية الطابق الثاني، صعدت السلم وأنا أتخيل في طريق العودة ماذا سيعني لي الخط الواصل بين ركن الشقة الذي سأذهب إليه وبين ما خططت بمركزها، مررت على اول غرفة، تململت، جلست قليلاً على أريكة فيها، تنسمت ما تبقى من رائحة (كايتي)، ثم خرجت منها وفتحت باب غرفة أخرى، وقبل أن أتململ مرة أخرى وأعتاد على ذلك الشعور، أحسست بانجذاب باهت وانغمست في حالة تأمل في لوحة كانت على جدار الغرفة، وبالكاد تمكنت من الانسحاب منها، فقد أوحت لي تلك اللوحة بأني لو نظرت إلى المرآة فلن أرى وجهي، بل سأرى شبحاً، ربما حلمت به من قبل عندما كنت صغيرة، خاصة في تلك الليالي التي كنت أرغم شقيقتي (نجلاء) على أن تحكي لي قصة ما قبل النوم، وبعد أن تعييها الحيلة وتجدني لا أنام، تحكي لي بخبث قاتل قصة مرعبة عن بيت الأشباح.

في الغرفة التي اتخذتها لنفسي، جلست على طرف سريري، ألقيت بنصف جسدي على السرير، حدقت في سقف الغرفة، وسرعان ما عدت وانتصبت مجدداً، واقفة أداعب بأناملي قبة (الأباجورة) المذهبة، وأرسم برؤوس الأنامل نفسها خطوطاً وهمية تحاكي الخطوط العشوائية الرمادية المرسومة بعناية فائقة

على جدار الغرفة، منظر مقلد لمنظر جدران الرخام التي كانت في جناحي في القصر، أجبرتني إحدى بقع التشعب تلك على ارسال يدي خفيفة وراء ظهري لتقبضها يدي الأخرى، انتبهت لتعبيري وقلت لماذا لا يكون ذلك (عناق) حبيبين تعاهدا على العيش معاً، والموت معاً، هاتفني هذا الخاطر وسألني عن نفسي؟! لم أكن أدري أي اجابة ممكن أن تناسب ما أنا عليه، فقد تعرفت بعد ذلك بوقت طويل على تلك الحالة التي تسمى بـــ (الفراغ العاطفي)، لأنني مثل كل البنات أتوق لحبيب وللحظة عناق، وأوقات مترعة بالشاعرية والشغف والرغبة، والانهماك بكل تفاصيل لقاءات الحب.

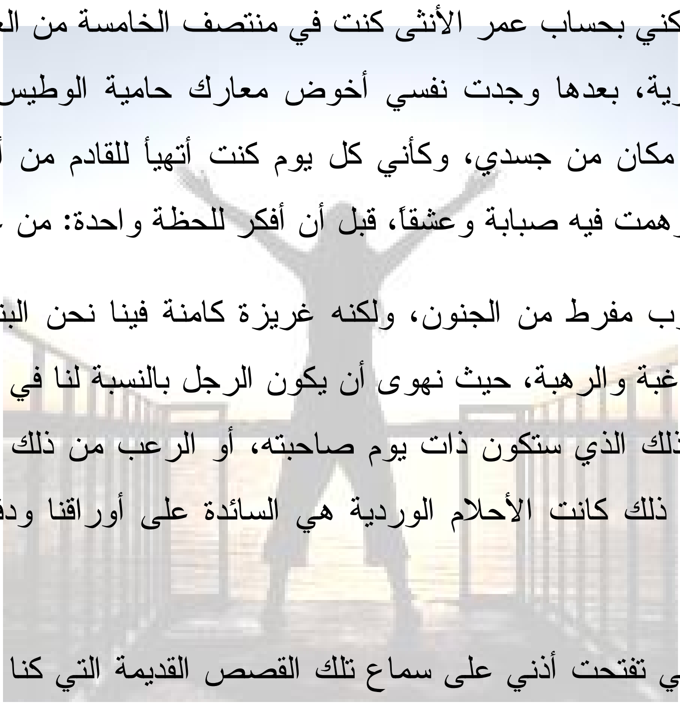

كنت في ذلك الوقت في قمة (التاسعة عشرة) وعلى وشك السقوط في قوقعة (العشرين)، كان هذا بحسبة عمر الانسان، لكني بحساب عمر الأنثى كنت في منتصف الخامسة من العمر منذ داهمتني لأول مرة ألام الدورة الشهرية، بعدها وجدت نفسي أخوض معارك حامية الوطيس ضد (حب الشباب)، والشعر الزائد في أي مكان من جسدي، وكأني كل يوم كنت أتهيأ للقادم من أقصى البعيد، فقط من أجلي، ولطالما أحببته وهمت فيه صبابة وعشقاً، قبل أن أفكر للحظة واحدة: من عساه سيكون؟!

التفكير في الغيب ضرب مفرط من الجنون، ولكنه غريزة كامنة فينا نحن البنات، يتجاذبنا سر تلك الغريزة بين طرفي الرغبة والرهبة، حيث نهوى أن يكون الرجل بالنسبة لنا في مركز الحياة وفي قلب كل واحدة منا هوس بذلك الذي ستكون ذات يوم صاحبته، أو الرعب من ذلك الذي ستكون ذات يوم سجينته ورهينته؟ ومع ذلك كانت الأحلام الوردية هي السائدة على أوراقنا ودفاترنا، وألوان ملابسنا وأشيائنا.

في غرة عصر مراهقتي تفتحت أذني على سماع تلك القصص القديمة التي كنا نتبادلها نحن الأميرات الصغيرات في قصورنا، بالوشوشات والهمسات، قصص تحكي بطولات أميرات كن ذات يوم في مثل أعمارنا، ومغامراتهن التي كن يخضنها في بداية عمرهن، في ذلك الوقت لم يكن هناك (I-Phon) أو (Internet)، بل لم يكن هناك بد من الخروج إلى حيث تجتمع قطعان الشباب والرجال، وحيث يقمن بمطاردات الصيد بعد ذلك، والتي لا تنتهي إلا وقد ظفرت كل أميرة بفريسة ستأتي في موعدها كرهاً أو طوعاً، وقصص الحب العذري وغير العذري التي وقع فيها (السائق) أو (العامل) أو (البائع) أسيراً في قبضة أميرة جموح لا تعرف الرحمة إلا بنوال بغيتها وحصول متعتها، المهم أنه كان ولازال لدي مجلد كامل من تلك القصص التي يصبح فيها الرجال رهائن في سجون الأميرات بالحب أو بالسلطة.

"أعود لطاولتي" كما غنت "ماجدة الرومي" مع فارق إني أعود لصالة شقتي، أنظر إلى باب الشقة، المنفذ الرئيسي إلى عالم الحرية المفتوح، وقد أصبح اليوم في قمع سلطتي لا يقف عنده أحد يمنعني، ولا تراقبني في الطريق إليه متى شئت من الخلف العيون المترصدة أنفاسي ورغباتي الدفينة، ولكن لماذا لا أشعر برغبة في الخروج؟! سألت نفسي وأنا اتجه صوب الشرفة المطلة على الشارع والعالم، لعلي ألمح منها شيء ما يجذبني لأخرج من أجله، كانت لحظات الغروب، وكان لابد أن يفتنني منظر الشفق وقد ارتوى من دم العشاق الذي أكسبه لونه القرمزي، وإذا بي أرى السحاب وقد رسمت لي وجه شاب وسيم يبتسم لي من هناك، ويستأذن أن يغازلني قليلاً، أذنت له برمشة هدب مدلل، واستحياء مصطنع وعضة على شفتي، فمتّع ناظريه برؤية وجهي الذي تلون بكل ألوان الحب ونزواته، كنت أمارس عن قصد سطوة أنثاي وأبالغ في حدود رؤيته باستعراض تضاريس الجسد العشريني، وهو يتلوى ويتكور ويتقعر على امتداد قامتي، عندما تراجعت قليلاً إلى الخلف ظناً مني إني بذلك أتيح له أن يراني كاملة من فوق إلى تحت، هم بالانصراف وجه رجل السحاب، فكشرت عن أنياب ملامحي انزعاجاً، وبلغة سطوتي الأميرية، أطلقت غضباً بنبرة صوت متعجرف: إلى أين؟! لم أرى الخوف في عينيه، بل مراعاة شعوري، اعتذر مني ووعدني بأنه سيكون معي كل يوم أن شئت أنا، وفي نفس المكان والزمان.. رحل قبل أن أعطيه الإذن، ولكني عذرته واكتفيت بوعده..

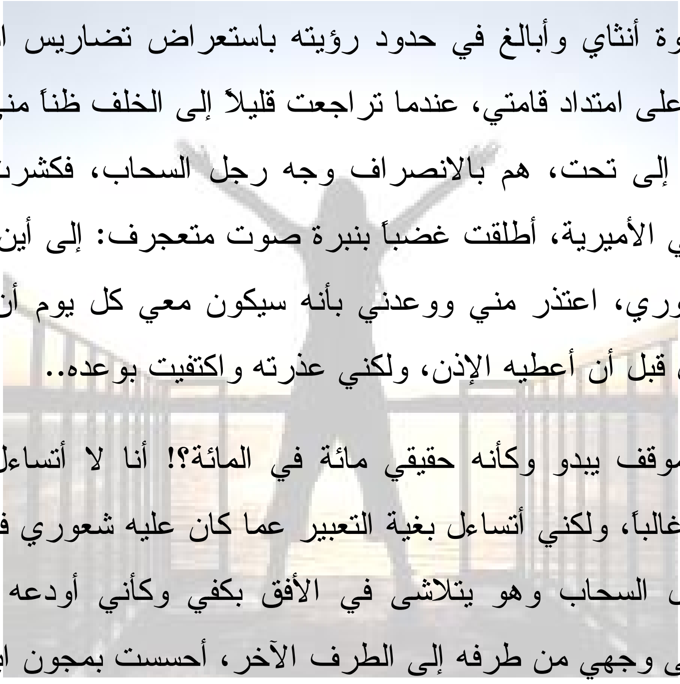

ما الذي يجعل هذا الموقف يبدو وكأنه حقيقي مائة في المائة؟! أنا لا أتساءل بغية الحصول على جواب، كما هو شأني غالباً، ولكني أتساءل بغية التعبير عما كان عليه شعوري في تلك اللحظات، حتى إني لوحت لوجه رجل السحاب وهو يتلاشى في الأفق بكفي وكأني أودعه واستودعه وعده لي، وابتسامتي قد شقت أدنى وجهي من طرفه إلى الطرف الآخر، أحسست بمجون ابتسامتي التي خذلت ما كان من عجرفتي، فأخفيتها ولعاً لا ورعاً وراء كفي، ولم تمضي برهة إلا وقد بدأت امسح بظهر كفي على جانب من عنقي، وأعود فأدنيه رويدا.. رويداً حتى أرخيته على نفس الجانب من صدري، وأحطت به نهدي الذي أستشعر بي رغبته ورغبتي خلسة مني، في لحظة بلغ الوجد فيها ذروته وأخذت الرعشة مني مبلغها، حتى اعتراني الوهن، فخلت نفسي ممددة على جناح سحابة، أتوسد ذراعه بفتور واسترخاااااااء، ولم تكن تلك السحابة إلا سريري..

أخر شيء راودني في تلك اللحظات، مقابلة نرجسية لا أعرف من أين جاءت إلى ذهني، وهي تدفعني إلى أن أضع صورتين متقابلتين، وأخط في المسافة بينهما السؤال بصيغة: ماذا لو؟!

الصورة الأولى أشعرتني كامرأة في أحد شوارع لندن المكتظة بالناس، قامت بفعل فاضح متجاهلة الجميع، والصورة الثانية وكأني يكسرني من نصف قامتي فيها حياء امرأة في الرياض، مسكونة بغواية شيطان العشق، سرقت من نافذة منزلها نظرة يتيمة في وجه حبيبها الذي لا يدري بسرها.

ماذا لو قررت لندن أن تقيم حد الرجم على تلك الماجنة المفضوحة؟ وماذا لو قررت الرياض أن تمنح تلك العاشقة المكبوتة حرية العشق والحياة؟!! مع هذا التصور والسؤال بدا لي إلى أي مدى يبدو الأمر مشكلة في كلتا الحالتين: الحرية بلا سقف والكبت بلا متنفس.

بقدر ما تتيح لحظات التأمل للمرء فرصة ليصوغ بها فلسفته في كل شيء، بالقدر الذي تضعه دوماً أمام حقائق الواقع المروعة، فالمشكلة كما اتضحت لي لحظتها تكمن في أن المرأة في الرياض تقوم وتفعل بكل ما هو محظور عليها سراً إذا أرادته، ولا يقدر على منعها من ذلك إلا القوي القادر، أما المرأة في لندن فتقوم وتفعل كل شيء وأي شيء ترغب به بمحض إرادتها علناً ولا تمنعها إلا نفسها، وأمام هذا التقدير لهذه المشكلة كيف لم يكن أن يراودني ذلك الشعور بأنه لا خيار لي إلا الكبت أو الفضيحة؟ ولما لا؟! ألم يقول "نزار" بأنه لا توجد منطقة وسطى بين.. وبين؟!!

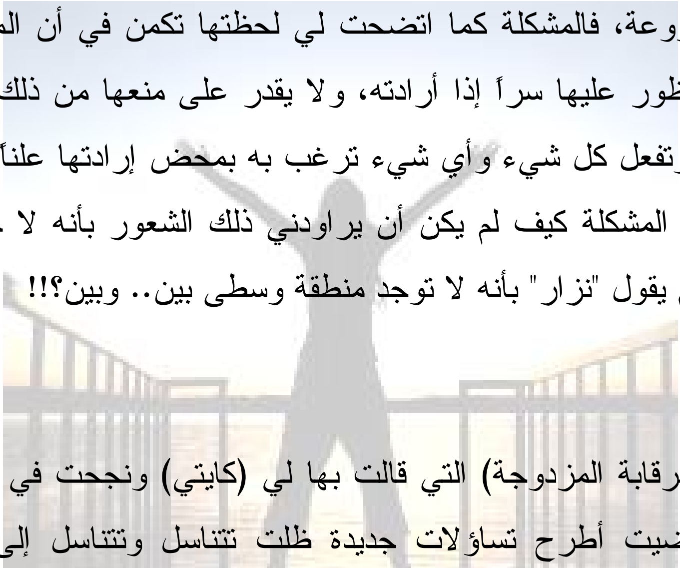

سيطرت عليَّ فكرة (الرقابة المزدوجة) التي قالت بها لي (كايتي) ونجحت في أن تزرعها في عمقي اللاشعوري، ولهذا مضيت أطرح تساؤلات جديدة ظلت تتناسل وتتناسل إلى حد فظيع من كثرة الأسئلة: كيف تكون (لندن) هي ذاتها (لندن) التي تعيش فيها ملايين الفتيات مثلي، دون أن يساورهن أي شعور مما يساورني أنا على وجه الخصوص؟ وإذا كانت (لندن) ستكون على نحو ما قالته (كايتي)، فما الفرق الذي جنيته من وجودي فيها عما كان عليه واقع الحال في الرياض؟!! ولماذا يجب أن تتحول (لندن) إلى سجن ضخم لي أنا وحدي؟! وكان عليَّ حينها أن أعترف بتلك الإجابة التي توجزها عبارة واحدة تفسر حقيقة أسباب كل تلك المعاناة: فقط (لأنني امرأة) في بلدي، وفقط (لأنني أميرة) في لندن!!!

فكرت في تلك الليلة التي لم يشأ لها أن تنتهي، إلا بعد أن تفنيني في العذاب الفكري والنفسي وترميني كتلة من هشيم لحم ودم انثويين، على سرير نوم بارد لم يتسنى له بعد أن يحظى بدفء شراكة حية واحتفال عاطفي وجسدي، نعم، فليس لي أن أستحي من البوح برغبتي والتلويح بحاجاتي، المهم إني

فكرت في الحل، في الوسيلة، وكان لابد أن ينتابني ذلك الشعور الذي طرأ عليَّ عندما اشتريت ذلك الصغير، أوووه.. كيف فاتني ذلك؟! وكيف نسيت تلك الحيلة التي هدتني إليها دون قصد (هند) كما اهتدى بفعل الغراب (قابيل) ليواري في التراب سوأة أخيه الذي كان قد قتله.

أخرجت (المحمول) الثاني، وبدأت اتصل بأرقام عشوائية، ولما بدأ الأمر يضايقني في أرقام (لندن)، أدركت بأن الأمر لن يكون ممتعاً إلا لو أجريت اتصالاتي لأرقام عربية، اكتملت الفكرة، واتجهت مسرعة نحو الصالة وفتحت التلفزيون، ومضيت أقلب القنوات والمحطات بحثاً عن تلك التي تدلني على أرقام الكود الدولي وأرقام الهاتف المحلية في أي بلد عربي دون أن أهتم أيها يكون، أجريت أول اتصال وكان ناجحاً، رد عليَّ رجل لم استلطف صوته فأغلقت في وجهه، اتصلت برقم أخر، رد عليَّ رجل أخر، ظل يصرخ: ألو، ألو، ألوووووو.. وكنت أسمعه يصرخ دون أن أنبت ببنت شفة، حتى أشفقت عليه من لهفته أن يظنه اتصال مهم ورد إليه من لندن، يبلغه بأنه فاز بجائزة اليانصيب لهذا العام، فأنهيت الاتصال، وقررت إلا أعيد الاتصال به مرة أخرى، واستمرت محاولاتي.

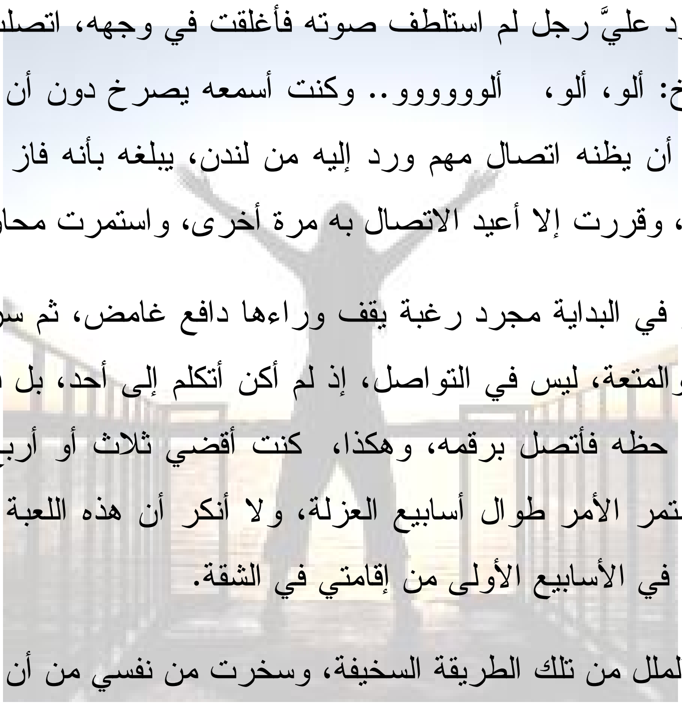

في الحقيقة، كان الأمر في البداية مجرد رغبة يقف وراءها دافع غامض، ثم سرعان ما أصبحت أجد فيه بعضاً من التسلية والمتعة، ليس في التواصل، إذ لم أكن أتكلم إلى أحد، بل في اختبار ردود افعال كل من يقع عليه سوء حظه فأتصل برقمه، وهكذا، كنت أقضي ثلاث أو أربع ساعات من كل ليلة على هذا المنوال، واستمر الأمر طوال أسابيع العزلة، ولا أنكر أن هذه اللعبة خففت عليَّ كثيراً من أعباء معاناتي في الليل في الأسابيع الأولى من إقامتي في الشقة.

بعد فترة بدأت أشعر بالملل من تلك الطريقة السخيفة، وسخرت من نفسي من أن تكون لما أقوم به قيمة أو منفعة، حتى قررت أن أطور العملية، وإن اضيف إليها تقنيات جديدة تمكنني من اجراء اتصالات ايجابية، يمكن أن يجرني أحدها إلى التعرف بشخص ما يمكن أن أتحدث إليه وأتسلى به متى شئت، كنت اتصل وبمجرد ما أن يرد عليَّ أحد ما، أتحدث إليه وكأني أتحدث إلى شخص أعرفه، حتى يسألني هو عمن أعتقد إني اكلمه، فأخبره بأي اسم يخطر على بالي، فيعتذر لي قائلاً: عفواً، الرقم خطأ، أعتذر منه وأنتقل إلى أخر مثله.

ذات مرة ردت عليَّ فتاة، كان صوتها رقيق وناعم، دار بيني وبينها حوار رائع ومثير للدهشة، بقدر ما إني لم أرتب له مطلقاً، فبعد أن ظل جرس هاتفها يرن ويرن، سمعت صوتها:

- **آلوو..**

فاجئني أنه كان صوت فتاة، وشجعني ذلك على الحديث معها، فأجبت عليها:

- **نعم، مساء الخير.**

- **مساء الخير.. من تريدين حضرتك؟ – سألتني**

- **أنا [أول اسم فتاة خطر لي] من لندن، كنت اتصل بأرقام هواتف عشوائية حتى اتصلت برقم هاتفك، هل تمانعين لو تحدثت معك قليلاً؟!**

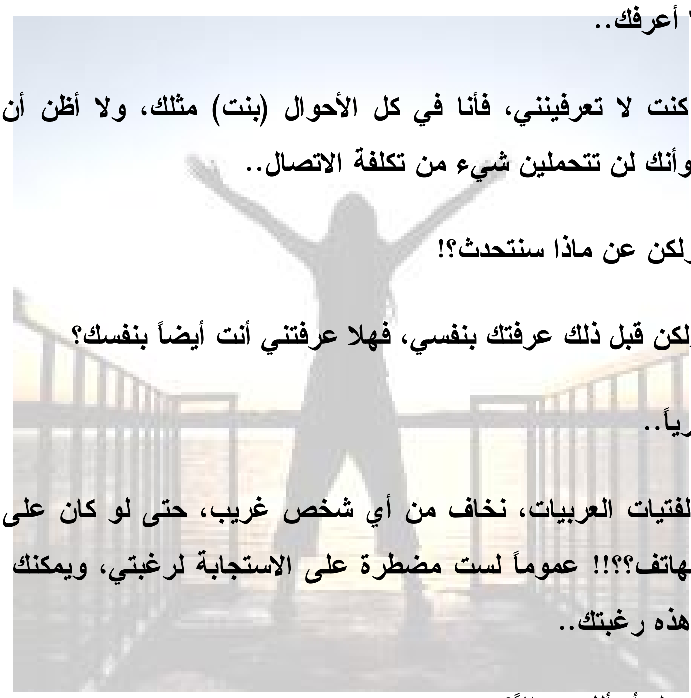

- **لماذا؟! أنا حتى لا أعرفك..**

- **وما المشكلة أن كنت لا تعرفينني، فأنا في كل الأحوال (بنت) مثلك، ولا أظن أن هناك ما يمنعك من التحدث إليَّ، كما وأنك لن تتحملين شيء من تكلفة الاتصال..**

- **لا يوجد مشكلة، ولكن عن ماذا سنتحدث؟!**

- **دعي ذلك عليَّ، ولكن قبل ذلك عرفتك بنفسي، فهلا عرفتني أنت أيضاً بنفسك؟**

- **لا أرى ذلك ضرورياً..**

- **دائماً هكذا نحن الفتيات العربيات، نخاف من أي شخص غريب، حتى لو كان على الهاتف، بل حتى لو كانت فتاة على الهاتف؟؟!! عموماً لست مضطرة على الاستجابة لرغبتي، ويمكنك أن تطلبي مني انهاء الاتصال لو كانت هذه رغبتك..**

- **لا، لا، ليس هذا، هل أسألك سؤالاً؟**

- **على الرحب والسعة، سلي ما شئت..**

- **ما الهدف من قيامك بالاتصال بأرقام عشوائية؟!**

- **هل تريدين الصراحة؟!**

- **أكيييييييد..**

- **أبحث عن شاب أتعرف عليه، هذه هي الحقيقة..**

- **تتصلين من لندن بحثاً عن رجل.. لماذا؟! هل انقرض الرجال في لندن؟؟**

- **هل تسخرين مني؟!**

- **لا، بل أنت التي تسخرين مني..**

- **لم أفعل ذلك، لقد قلت لك الحقيقة، ألا يقنعك أن هذه هي الحقيقة؟!**

- **هل أنت جادة، أم أنك تمزحين؟ لا أريد أن أكون موضوع تسليتك الليلة، رجاءً!!**

- **أنا جادة، فهل بوسعك مساعدتي في التعرف على شاب وسيم وجذاب ووووو، لا يهمني أن كان أخوك أو أبنك، أو حتى زوجك..**

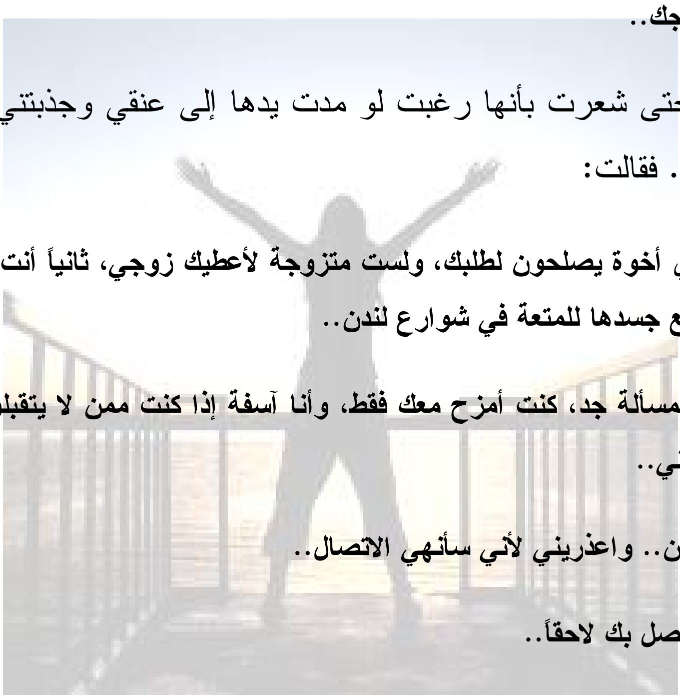

أغاضها ما قلت لها، حتى شعرت بأنها رغبت لو مدت يدها إلى عنقي وجذبتني إليها بعنف، لتضرب برأسي عرض الحائط.. فقالت:

- **أولاً، أنا ليس لدي أخوة يصلحون لطلبك، ولست متزوجة لأعطيك زوجي، ثانياً أنت وقحة، ولعلي أحسبك ساقطة عربية تبيع جسدها للمتعة في شوارع لندن..**

- **يبدو أنك أخذت المسألة جد، كنت أمزح معك فقط، وأنا آسفة إذا كنت ممن لا يتقبلون الدعابة؟! كما إني لم أسمعك تشتمينني..**

- **سمعت ما تستحقين.. واعذريني لأني سأنهي الاتصال..**

- **كما تشائين.. سأتصل بك لاحقاً..**

- **لا لاحقاً ولا سابقاً.. انسي رقمي فحسب.**

- **OK...As you like!!!**

بعد هذا الحوار الذي دار بيني وبين تلك الفتاة المصرية، ارتميت على السرير وأنا غارقة في الضحك، ولكن ناقوساً دق في رأسي وجعلني أتساءل: ما الذي جرى؟ وما الذي قلته لتلك الفتاة؟! هل يعقل أن ما قلته لها صحيح وينطبق عليَّ؟!! ألقيت بما حدث وما خطر على بالي في جب عميق لأسراري، بعدما ساورتني مشاعر ازدراء واحتقار تجاه نفسي، يا الله هل وصل بي الأمر إلى هذا الحد الرخيص؟! هل

نسيت من أنا؟ من أكون؟ هل يمكن أن أجرؤ على البوح بما أقوم به وما حدث لي هذه الليلة لأحد مهما كان قريباً مني؟؟

(لندن)، مدينة الضباب، عروسة الغرب، تُرى ما هو عدد الأسماء التي أطلقت على هذه المدينة النادرة والعاصمة الثمينة؟! مهما يكن الرقم الذي يمكن كتابته كجواب على هذا السؤال، فإنه سيكون ضئيلاً جداً أمام ذلك الكم الكبير من المناقب والمعالم التي قلما توجد عاصمة في الدنيا تضاهي ما هي عليه وما تحتويه هذه المدينة الساحرة، لذا فليس من الغريب أن يجد المرء لنفسه ألف سبب وسبب لزيارة (لندن) ولو لمرة واحدة في حياته.

يزور (لندن) الملايين من البشر سنوياً، يأتون زمراً وأفرادا، أفواجاً وأشتاتا، من كل أصقاع الدنيا، بل ويقال أن من بين كل أربعة أشخاص في لندن، ثلاثة من الوافدين إليها، وواحد فقط من مواطنيها الأصليين، ولكن علينا أن نضع عشرة خطوط حمراء تحت السؤال التالي: لماذا يشد الناس الرحال إلى هذه المدينة من كل حدب وصوب؟!

ما بُتُّ أعرفه هو أن هناك مليون فرق بين (لماذا) و(لماذا)، مثلما هناك مليون فرق بين (سبب) و(سبب)، والأمر يصبح محرجاً عندما تعرف بأن هناك طريقة واحدة بسيطة ومميزة لمعرفة الفروق هذه أو تلك، فقط اسأل أي شخص تصادفه في لندن، أو تحقق جيداً من ملامحه، وبمجرد أن تعرف من أين جاء أصلاً، ستعرف بشكل بديهي لماذا جاء إليها، فمثلاً: (الهنود) لأسباب الدراسة والعمل، (الصينيون واليابانيون) لأسباب السياحة التاريخية والتبادل الثقافي، (الأوربيون والأمريكيون) للسياحة والفنون والرياضة والــ (Business) من العيار الثقيل، أما (الروس) فلأعمال العصابات والإجرام، من بقي معنا؟! من؟ من يا ربي؟؟؟ أووووه.. كدت أنسى أهم الأقوام: (العرب)، نعم، لماذا يذهب العرب إلى (لندن)؟!

ثمة سؤال أخر يجب أن أطرحه هنا، هل تشمل تلك الإجابة العرب كلهم؟ طبعاً، لا وألف لا، فما هو معروف في الغالب، أن سياسات الحكومة البريطانية فيما يخص السفر والهجرة إلى أراضيها، قائمة على قوانين صارمة واجراءات مشددة، من الصعب تجاوزها ومن شبه المستحيل اختراقها، خاصة بالنسبة لنا نحن العرب والمسلمين، بعد أن أضفنا سبباً جديداً للسفر إلى (لندن) وهو (الارهاب)، لذا

أغلب من يتاح لهم تحقيق هذه الغاية الجميلة منا، هم أولئك الذين يملكون (المال) أو (السلطة)، باختصار (علية قومنا)، وباختصار أكثر (علية قومي أنا) وأشباههم من عرب المشرق والمغرب وباختصار شديد للغاية (مثلي أنا)!!! وإذن، لابد من جواب على سؤال: (لماذا)، (العرب)، (لندن)؟

الإجابة على هذا السؤال وعلى نحو متسرع وموثوق بصحته، حصلت عليها من أحاديث (كايتي) الأخيرة معي، ثم من التوسع بعد ذلك في المعرفة اكثر فيما تحدثت بشأنه، وهي الإجابة التي جعلتني متحمسة بشدة لاقتراح اسم جديد أطلقتــه على (لندن) وهو: [عاصمة الفضائح]!!

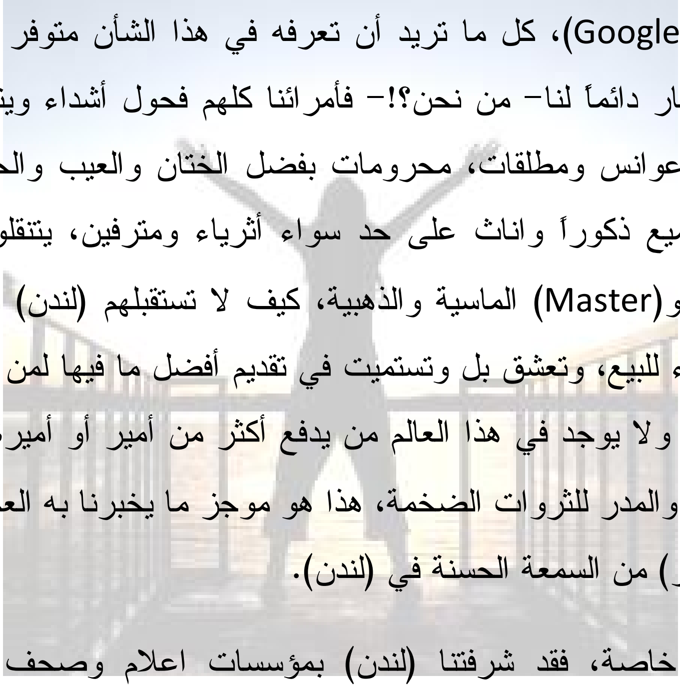

البحث عن (الفضائح) في الــ (Internet) كان أسهل من اعداد فنجان قهوة بالنسبة لي، والحمد لله أولاً، ثم بفضل العم (Google)، كل ما تريد أن تعرفه في هذا الشأن متوفر إلى حد التخمة، طبعاً فالسبق في هذا المضمار دائماً لنا- من نحن؟!- فأمرائنا كلهم فحول أشداء ويتمتعون بذكورية عالية وأميراتنا أيضاً كلهن عوانس ومطلقات، محرومات بفضل الختان والعيب والحرام من المتعة واللذة الجنسية، وما دام الجميع ذكوراً واناث على حد سواء أثرياء ومترفين، يتنقلون بين عواصم الدنيا ببطاقات الــ (Visa) و(Master) الماسية والذهبية، كيف لا تستقبلهم (لندن) بالأحضان، وهي التي تنتج وتعرض كل شيء للبيع، وتعشق بل وتستميت في تقديم أفضل ما فيها لمن يدفع، ولمن يدفع أكثر على وجه الخصوص، ولا يوجد في هذا العالم من يدفع أكثر من أمير أو أميرة عربية، ممن يملكون بحور من النفط الثمين والمدر للثروات الضخمة، هذا هو موجز ما يخبرنا به العم (Google) وهو أننا أصحاب الرصيد (صفر) من السمعة الحسنة في (لندن).

ولأننا نحظى بمكانة خاصة، فقد شرفتنا (لندن) بمؤسسات اعلام وصحف خاصة لنشر غسيلنا الاجتماعي وقيئنا الأخلاقي، حتى أنه لا يمر عام دون أن ينتج واحدٌ أو واحدةٌ منا فضيحة لائقة بالمكانة الأميرية التي نحن فيها، وليس هذا وحسب، بل أن المحاكم ودور القضاء في الغالية (لندن) قد كدست في أدراجها وخزائنها أكوام من ملفات فضائح أهلنا الساخنة، فكيف نسينا وأهملنا أن نمنحها نحن شرف اسمها الجديد؟!!

وأنا منهمكة في البحث والتزود بكل ما كتب ونشر في هذا الشأن خلال فترة عزلتي تلك، تذكرت ما سمعته من (هند) في بداية إقامتي هنا في (لندن) وادركت بالضبط الحقيقة مما قالته لي:

- **نحن هنا في (لندن) التي يأتي إليها الجميع من أهلنا واهل بلادنا من أجل سبب واحد هو اختراق القوانين، الجميع يفعلون ذلك هنا..**

لكنها فيما يبدو نست أو تعمدت إلا تقول بصراحة:

- **إننا نأتي إلى (لندن) فقط من أجل صنع الفضائح، التي نساعد بها الصحف الصفراء، لكي تسترزق ولكي نمنع عنها مخاطر الكساد المؤكد لو أننا لم نستمر في فعل ذلك!!! وذلك تطبيقاً للقاعدة الفقهية الاسلامية التي تقول: [درء المفسدة أولى من تحصيل المنفعة]**

بعد ذاك الذي عرفته، أين يمكن أن أضع مني ما قالته (كايتي)؟ وكيف لي أن أجعله يحدد ملامح واقعي ومسار حياتي في (لندن)؟ هل كان يتعين عليَّ أن أحبس نفسي وراء جدران شقتي التي أحببتها وتفاعلت بها حتى إني سميتها (شقة الحرية)؟!! هل يجب أن اعتزل صديقاتي وأعيش في غربة حقيقية عن نفسي وعن الناس؟! هل يجب عليَّ أن أقمع رغباتي المكبوتة أصلاً واتنازل عن إرادتي المتطلعة للحرية والانطلاق؟!

وبعد جهد جهيد وأيام وليال طويلة من الغياب والانطواء، جاءت الليلة التي حسمت فيها الأمر مع نفسي واتخذت قراري وعزمت على تنفيذه من بكرة غدها بدون تردد أو ارجاء أو تسويف نعم، قررت الخروج، فقد كان من المستحيل أن أعيش أو أقبل أن أعيش هكذا في (لندن).

طيلة فترة العزلة، كانت (كايتي) تتصل بي وتزورني بين الحين والآخر، وكانت أحاديثي معها روتينية ومقتضبة والأوقات التي تقضيها معي لا تتعدى بضع دقائق لا أكثر، أما (هند) فقد اتصلت بي مرة واحدة فقط خلال تلك الفترة، اعتذرت لي فيها عن انشغالها عني وعدم قدرتها على زيارتي أو قضاء وقت معي، فأخبرتها بما أنا عليه وبأنني أريد البقاء مع نفسي لبعض الوقت، فارتاح ضميرها، وبيني وبين نفسي كنت أعرف ما هي مشغولة به عني، واشعر بالسخط ناحيتها، ثم أعود لنفسي بعد ذلك وألتمس لها العذر، المهم إنها لم تتصل بي بعدها حتى اتصلت بها أنا بعد أن اتخذت قرار الخروج.

كان ذلك في صباح يوم أسميته (يوم الخروج)، استيقظت فيه مبكراً، واتصلت أولاً بأهلي في الوطن أمي وشقيقاتي (هالة ونجلاء وسارة) ثم بالجميع هنا في (لندن): (كايتي) و(هند) وخالتي (سمية) وصديقاتي الــ (4Cats): (ريم وسيندي وسالي وانجلي)، وكذلك اتصلت بالرائعات بنات الطبقة الوسطى (جليلة وربيكا وجين)، بل واتصلت أيضاً بالجميلة (لورا باتلر)، واتفقت معهن جميعاً على

استغلال العطلة في قضاء أوقات رائعة، بدأت استأنف حياتي وعلاقاتي مجدداً، وأعمل على تعويض ما فاتني من فترة العطلة الصيفية، مع كل من أحببتهم وأحبوني.

ولكني مع ذلك وجدت في نفسي الكثير من المشاعر التي أعاقتني، وحالت في كثير من الأوقات دون أن أحقق رغباتي في الاستمتاع والانطلاق والترفيه، خصوصاً لما كانت تلك التناقضات تعود إليَّ مجدداً وتربكني إلى درجة لم استطع أن أتحرر من سطوتها عليَّ، وكانت أقوى تلك التناقضات ما كان بين مجموعتي صديقاتي، فقد كنت في منطقة وسطى بين نوعين متقاطعين من الأصدقاء، فمن جهة كنت أميل بشدة إلى قططي الأربع (سيندي وسالي وريم وانجلي)، خاصة وأنهن كن يشاركنني اهتماماتي ويساعدنني كثيراً في تحقيق رغباتي الجريئة، لذا فقد انغمست معهن بشدة في فترة ما بعد (يوم الخروج) في كل المتع وانواع التسلية التي تقدمها لنا (لندن) بكرم وبذخ منقطع النظير.

خلال العطلة الصيفية لتلك السنة، أقمنا الحفلات والسهرات وكثيراً ما كنا نذهب إلى النوادي الليلية المتوفرة بالآلاف في جميع أنحاء (لندن)، فلن أنسى أبداً ليلة نهاية الأسبوع ذات الأجواء الصاخبة تلك التي استمتعت بها في الهواء الطلق بين الجموع المدهشة في نادي (Fabric)، ولا تلك السهرة النموذجية ذات الطراز الانجليزي الرفيع والعريق في نادي (The Holly Bush) في (Hampstead) حيث الأجواء الحميمية والنار الحقيقية وأجود أنواع الجعة (البيرة) والمشروبات وكذلك أشهى الأطعمة والمأكولات.

وعلى أساس صحة المقولة الشائعة: [لندن لا تنام أبداً وتجد فيها كلّ ما يخطر على بالك] فقد تحولت حياتي إلى نموذج حياة (الخفاش) الذي ينام في النهار ويصحو طوال الليل، في أغلب الأيام، وبالطبع لم يخلو الأمر من بعض معكرات الصفو، فقد حدث أكثر من مرة أن واجهتني (كايتي) بانتقاداتها اللاذعة وصرامتها المبالغ فيها، ولكني كنت أتمنى أن ينتهي الأمر في كل مرة عند هذا الحد، لأني ورغم كل ذلك الانغماس في حياة الشلة، كنت أحرص بشكل غير ملحوظ على أن يتم كل شيء في الحدود التي لا تجرني إلى المواقع التي كنت أخشاها وأحاذرها، ذلك أن فكرة (الرقابة المزدوجة) تلك كانت لا تزال رغم كل شيء، قادرة على أن تجعلني أعيش في أجواء من الرعب والقلق، حرصت دوماً إلا أظهر منها شيء، وكان الأمر يزداد سوءاً عندما أجد نفسي عاجزة عن اكتشاف عنصر من عناصر تلك الرقابة حولي، وعندما أعجز عن وضع حدود لنفسي لا اتعداها على هذا الأساس، حتى إني

شككت كثيراً في كون ما أوحت لي به (كايتي) صحيحاً، فسواء كنت أميراً أو غفيراً فإنك في (لندن) يمكن أن تعيش حياتك دون أن يلتفت إليك أحد، بل يمكنك أن تضيع فيها وتختفي بين الحشود المزدحمة عن كل العيون المتلصصة أن كنت تعرفها، حتى كدت أن أتخلى تماماً عن الاقتناع بتلك الفكرة التعذيبية، لولا ما تحققت منه بنفسي بشأن كثرة ما تنشره (الصحف الصفراء) في (لندن) وكذلك مواقع الأنترنت من الفضائح، وقدرتها على صنع (فضيحة) كاملة تستند إلى مجرد صورة فوتوغرافية أو لقطة فيديو التقطها أحدهم لك خلسة وأنت في مطعم أو في نادي ليلي، حتى إني امتنعت تماماً عن الذهاب إلى الشواطئ وارتداء (المايوه)- وإن كنت لم أفعل ذلك من قبل- خشية أن ترصدني عدسة مصور خبيث، فقط لأني استطعت أن اتصور الوضع الكارثي الذي يمكن أن يترتب عن نشر صورة من ذلك النوع في صحيفة أو في موقع الكتروني، فأخبار الفضائح تنتشر بسرعة أعلى من سرعة الصوت وأدنى من سرعة الضوء في عالم تهاوت فيه كل حقوق الخصوصية، بسبب وسائل الاعلام ومواقع الدردشة والتواصل الاجتماعي عبر الأنترنت.

ولكن المشكلة لم تنحصر عما كان عليه واقعي ونمط حياتي وتفكيري داخل شلة القطط تلك وحسب، بل كان لها وجهها الأخر المتعلق بصديقاتي اللاتي كن يقبعن في الجهة الأخرى وهن صديقاتي من الكلية (جليلة وجين وربيكا)، فقد كن فتيات ميالات إلى الحياة بطريقة مختلفة عما كانت عليه ميولي، يأخذن مسألة الدراسة بمنتهى الجدية، ويعولن كثيراً عليها في كل طموحتهن المستقبلية، وقد استغربت كثيراً لما عرفت من اهتماماتهن الفكرية والثقافية حتى خلال فترة العطلة، إذ كن يذهبن إلى المنتديات ويشاركن في الفعاليات والأنشطة ويحضرن مناقشات ولقاءات جادة تعنى بقضايا أسمع عنها ولا أعرف عنها شيء، وفوق ذلك كله كنت أشعر بأن هناك جدار فاصل بيني وبينهن في علاقتي بهن على مستوى الحياة العامة خارج حرم الكلية، وذلك لما رأيت من كثرة تحرجهن من دعوتي إلى منازلهن والتعرف على نمط حياتهن، فضلاً عن تحرجهن الشديد عن قبول دعواتي للخروج والتنزه أو الذهاب إلى الـــ (Night Club)، مع إني كنت أعرف بأن يفعلن ذلك معاً وأنهن لسن متزمتات، باستثناء (جليلة) التي كانت تتحفظ كثيراً على الذهاب إلى النوادي الليلية، وكانت تحفظاتها تلك نابعة من موقف ديني وأخلاقي.

كانت فكرة (الخروج) ذات مغزى دفين تحاشيت اظهاره صراحة أمام نفسي، إذ ارتبطت المسألة برغبتي الشديدة فعلاً في طمر ما زرعته (كايتي) في نفسي، وكاد أن يمتلك قناعاتي ويسيطر على

توجهاتي في اتجاه مضاد لما أسعى إليه، الحدود، القواعد، الرقابة، المخاوف والعواقب، الفضائح، كلها كانت أفكار أبعد عن أن توافق ميولي الصارخة للتحرر والتمرد والاستسلام لحياة المتعة والصخب، التي كان حبها يسري في دمي، وهذا ما انتهيت إليه مما حدث.

الفصل السابع

القفز وراء الحدود

حدث بعد ذلك، وقبل أيام قليلة على انتهاء العطلة الصيفية وبدء أعمال الدراسة في الكلية، أن تلقيت اتصال في مساء أحد الأيام من (هند) أبلغتني فيه بوجود قريبتنا الأميرة (مها) في لندن، والتي اتصلت بها وسألتها عني، لأنها لا تعرف عنوان شقتي، وأنهما اتفقتا على أن نلتقي في القصر صباح اليوم التالي، وجدت في هذا خبراً جيداً، فلطالما أحببت تلك الفتاة ورغبت كثيراً في أن تقربنا الأيام من بعضنا البعض أكثر، وها هي الفرصة قد جاءت كما يقال على (الطبطاب)!!

في صباح اليوم التالي، وبعد أن انتهيت من كامل تجهيزاتي، وتأكدت من كل تفاصيل أناقتي وحسن مظهري، الذي حرصت على أن يجعلني أبدو (فتاة لندنية) من الطراز الرفيع، إذ لازلت أتذكر ما كانت عليه حلتي في ذلك اليوم بكل تفاصيلها، سروال (Jaens) أبيض اللون من (Lee)، ورداء ارجواني من الحرير اللامع بأزرار وذو أكمام طويلة، ومصمم على الطراز الاسكتلندي، ومن فوقه صديرية قصيرة مصنوعة من الجلد الأبيض الفاخر المثقب على شكل شبكة تظهر لون الرداء الارجواني، وحول عنقي لففت (ايشارب) حريري ذو لون وردي، غطيت رأسي بـــ (بريه) أسود مزين بمشبك من البلاتين منقوش عليه بقطع أحجار من الـــ (Amethyst) الثمين أول حرف من أسمي بالحروف

اللاتينية، وهذه القطع كانت من (channel)، أما الجلديات فقد كانت من (**Loyotan**) منها حول خصري حزام جلدي أسود لامع مثقب بحلقات فضية متطابقة مع تصميم حقيبة اليد، بالاضافة إلى الحذاء الأسود ذو الجتر المرتفع قليلاً إلى ما فوق العقب، أما النظارة فكانت شمسية سوداء كبيرة من الطراز الكلاسيكي، من أرقى معارض الشهيرة في (Knightsbridge).

المهم بعد أن اتممت زينتي، خرجت من الشقة وصعدت سيارتي التي كان عامل الخدمة قد جهزها وقربها لي عند بوابة العمارة، واتجهت مباشرة صوب (هند)، التي كان عليَّ أن أزورها في القصر لأول مرة بعد انتقالي إلى مسكني الجديد، خاصة بعد أن مضى قرابة شهر من أخر مرة رأيتها هي وخالتي (سمية) في حفلة افتتاح الشقة، إذ لم أكن لأنسى ما قامتا به من أجلي، كما إني شعرت بالحاجة إلى تعويض عن افتقادي لأمي وأسرتي هناك، بعد أن اشعل اتصالي بهم لواعج الشوق في قلبي، ولعل هذا ما كنت أحتاج إليه بعد ثلاثة أسابيع من الاحساس بالغربة والوحدة.

كانت الساعة تكاد تتم الحادية عشرة صباحاً، عندما فتحت لي الخادمة بوابة القصر الرئيسية، وكانت مناسبة جميلة أن رأيت الأميرة (مها) جالسة مع خالتي (سمية) و(هند) في الصالة، وقد كن على وشك الخروج، إلا من انتظاري.. كان لقاءً حاراً وجميلاً، أنعشني فيه الاحساس بقليل من الدفء العائلي، فبمجرد أن لمحتني (خالتي سمية) ابتسمت وهي تقول:

- **يااااه.. الحمد الله، لقد كنا ننتظرك ونخوض في سيرتك، ونهّم بالاتصال بك.**

نهضت (هند) من مجلسها وقفزت إليَّ تعانقني بشوق حار، وإن كنت أحسست فيه ببعض التكلف منها، إلا أن هذا لم يمنعني من الاستمتاع بالجانب الحسن من الأمر، ثم عانقت (مها) ومن بعدها (خالتي سمية)، وجلست إلى جوارهن، لتبدأ على الفور ثرثرتنا الأميرية..

الأميرة (مها) كانت إحدى الأميرات المقربات إليَّ وإلى شقيقتي (نجلاء)، وهي وحيدة والدها الأمير المثقف الذي يقف على رأس التيار (الليبرالي) في البلاد، وعلى الرغم من أنه منصرف تماماً عن أي وظائف عامة، إلا أنه يعد من المشاهير عالمياً، كونه رجل أعمال ثري ونشيط، فضلاً عن أجمل صفة فيه، وهي كونه متحرر ومنفتح ويقدر كثيراً توجهات النساء التحررية، وقد حرص على أن تدرس (مها) في أرقى الجامعات العالمية، فأرسلها للدراسة في ولاية كالفورنيا (California) بالولايات

المتحدة، حيث حصلت على بكالوريوس في الآداب من (كلية ميتلو)، فيما كانت حين التقيت بها على وشك الانتهاء من تحضير رسالة الماجستير في العلوم في (جامعة سيراكيوز)، حيث تقيم هناك مع والدتها الأميرة (جواهر) المعروفة بـــ (بنت الملكين) جدها ووالدها اللذان حكما البلاد من قبل.

كانت الأميرة (مها) قد وصلت مطار (**هيثرو**) في لندن الليلة الفائتة، ونزلت للإقامة في فندق الـــ (The Ritz)، هذا على الرغم من أن والدها يملك واحد من أكبر وأشهر الفنادق العالمية في لندن وله فروع كثيرة في معظم عواصم أوربا وامريكا، وقد فسرت ذلك بكونها تحب عراقة الفندق الذي اختارته، أما عن سبب زيارتها المفاجئة لـــ (لندن) فقد عللتها برغبتها في تغيير الجو والتسوق قبل أن تكمل رحلتها لقضاء بقية العطلة الصيفية في مع والدها في الوطن، قبل أن تعود إلى امريكا.

قلت في نفسي عندما التقيت بالأميرة (مها): "جاءت في الوقت المناسب"، فقد كان عليَّ أن انتهز فرصة وجودها لأجلس معها واتحدث إليها وأسمع منها، لذا عجلت الجميع للقيام بتحقيق غايتها أولاً..

اتجهنا أولاً إلى ساحة (Trafalgar) قبل أن نتوجه لتناول وجبة الغداء وشاي العصر في المطعم التابع للفندق الذي نزلت فيه الأميرة (مها)، ومن ثم ذهبنا للتنزه والاستراحة قليلاً في حديقة (Saint James) وتمتعنا بالجلوس قرب بحيرة البط والأوز، ومع أول خيوط الليل توجهنا إلى عالم التسوق المثير، بدأنا من معارض (Marble Arch) ومنها انتقلنا إلى (Oxford Circus)، ولم يفتنا أن نجعل الوقت الأكبر للتسوق من أرقى المعارض في (Knightsbridge)، حيث معارض الملابس الشهيرة لـــ (Harvey Nichols) و(Harrods) وأيضاً تسوقنا من معارض الأزياء والاكسسوارات في (Covent Garden)، وبالكاد تمكنا من انفاق أكبر قدر من المال بقدر ما يرضينا في تلك الليلة، حيث دخلنا في خضم منافسة محتدمة بيننا نحن الثلاث الأميرات الشابات، أما خالتي (سمية) فقد قررت العودة مبكراً إلى المنزل، أما نحن الثلاث فقد بقينا نتسوق حتى شارف منتصف الليل، ولما حان وقت العودة حدث بيننا أخذ ورد بشأن أين تبيت (مها)، وبعد جهد مضني أقنعت (هند) بأن تعود هي بسيارتها إلى المنزل، بينما تكفلت أنا بتوصيل الأميرة (مها) إلى الفندق بعدما أوعزت إليها سراً من أن هناك عقبة تحول دون تلبيتها دعوة (هند) ووالدتها لها للمبيت في القصر، فقد كنت أخشى أن يحدث ذلك، لأني كنت أخفي في طياتي عزماً أخر، وهو أن تبيت (مها) عندي في الشقة أو أبيت أنا معها في الفندق، المهم أن اجتمع بها منفردة.

في سيارتي وفي الطريق ناحية الفندق، دار حديث بيني وبين (مها)، ابتدأناه حول ما قمنا به وما اشتريناه، قبل أن اتعمد حرف مجرى الحديث وتغيير الموضوع بعيداً، إذ قلت لها:

- **يااااه.. صحيح "يا محاسن الصدف"، كم أنا سعيدة جداً بلقائك يا (مها) هنا في لندن، وفي هذا الوقت بالتحديد، واتمنى أن تسأليني لماذا!!**

قالت وهي تنظر إليَّ مبتسمة وبشوشة:

- **وهاءنذا أسألك عزيزتي، لماذا؟!! فاخبريني..**
- **هل تصدقين لو قلت لك بأن الله أرسلك إليَّ في الوقت المناسب؟! فقد كنت في أشد الحاجة إلى من أتحدث إليه، وأبث إليه، ولم أجد فيمن حولي شخصاً مناسب، ولكنك جئت كالغيث في زمن الجدب.**

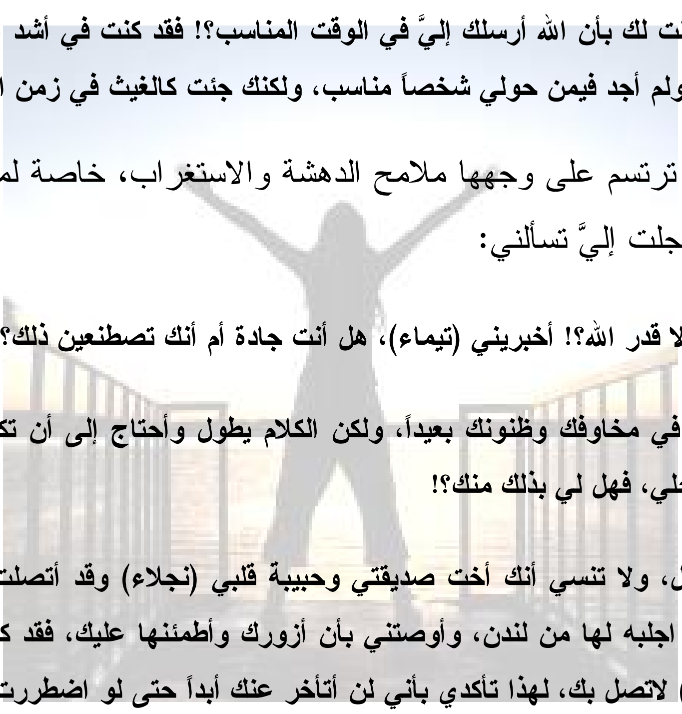

اختفت ابتسامتها وبدت ترتسم على وجهها ملامح الدهشة والاستغراب، خاصة لما رأت من تحول نبرة صوتي إلى الحزن، وعجلت إليَّ تسألني:

- **هل هناك أمر ما لا قدر الله؟! أخبريني (تيماء)، هل أنت جادة أم أنك تصطنعين ذلك؟!**
- **لا، لا، لا تذهبي في مخاوفك وظنونك بعيداً، ولكن الكلام يطول وأحتاج إلى أن تكوني معي أطول وقت ممكن قبل أن ترحلي، فهل لي بذلك منك؟!**
- **(تيماء)، نحن أهل، ولا تنسي أنك أخت صديقتي وحبيبة قلبي (نجلاء) وقد أتصلت بها من قبل لأعرف منها ما تحب أن اجلبه لها من لندن، وأوصتني بأن أزورك وأطمئنها عليك، فقد كنت أنوي أخذ عنوانك وهاتفك من (هند) لاتصل بك، لهذا تأكدي بأني لن أتأخر عنك أبداً حتى لو اضطررت للبقاء من أجلك عدة أيام لا عدة ساعات..**

أسعدني ردها ذلك كثيراً، إلى درجة إني كدت أطير من الفرح، وعبرت لها عن ذلك، ففرحت واطمأنت قليلاً، وقالت تهددني مازحة:

- **ولكن الويل لك أن كانت هذه حيلة من حيلك الشقية..**

- **ليس هذا المهم الآن، بل المهم أن نتفق ونقرر أن تأتين معي للمبيت في شقتي، فليس من ثمة أحد سوى أنا وأنت، فلست بحاجة إلى البقاء في الفندق، وتأكدي أن كل الخدمات التي تطلبينها ستكون متوفرة لك على أكمل وجه، هه، قولي موافقة، هيا..**

- **طبعاً، موافقة، وإن كنت أحب وأعشق ترف الخدمة الفندقية، لكن كل شيء يهون من أجل عينيك، خاصة بعد كل ذلك المجهود وكل تلك المكائد التي قمت بها من أجل تحقيق هدفك الخبيث..**

اكتملت سعادتي، بعد أن قالت (مها) ذلك، وبسرعة الصوت انتهينا من اجراءات الفندق واتجهنا نحو الشقة على الفور، حيث أريتها نظام ديكور وأثاث ومحتويات الشقة، وعبرت هي عن اعجابها الشديد، وهي تنعتني بـــ (صاحبة الأملاك)، وبعد ذلك توجهنا معاً إلى حجرة النوم الخاصة بي، حيث قررنا أن نكون معاً طوال الليل، سارعت كل منا إلى تغيير ملابسها وأخذ حمام ساخن، وكنت حريصة على أن اسبقها، ليكون بوسعي تجهيز متطلبات السهرة فتوجهت ناحية المطبخ، وجهزت حاجتنا من الطعام على الطاولة المتحركة، وفي طريق العودة إلى غرفة النوم، اخرجت من خزانة في الصالة زجاجة الـــ (سكريمينج ايجل) (Screaming Eagle) الفاخرة، ومن خزانة أخرى غير بعيدة أخرجت كأسين أنيقين من البللور، وقبل أن اضعهما على الطاولة تذكرت شيئاً، فعدت إلى المطبخ وفتحت البراد (Freezer) وأخرجت طبقاً من مكعبات الثلج وافرغته في وعاء فضي أنيق، ولما تأكدت من اكتمال شروط الخدمة الفندقية المترفة بجهودي وخبرتي المحدودة، اتجهت نحو الغرفة.

كانت (مها) جالسة قبالة المرآة الكبيرة الملتصقة بخزانة الزينة (التسريحة)، عندما دخلت إليها وأنا ادفع امامي طاولة الطعام، وكان لابد أن اتركها حتى تتحقق من الأمر لأرى ردة فعلها، وحصل ذلك بالفعل..

- **أوووووه!!! ما هذا؟! أقسم بالله أنك لمجنونة!!**

قالت ذلك وهي تنظر إلى القنينة المائلة في وعاء الثلج، وكنت متأكدة أن ردة فعلها تلك مصطنعة، ومع ذلك تعاملت معها وكأن الأمر عادي، وقلت لها بلهجة جادة:

- **ظننت أنك ترغبين في الشراب، وخشيت أن تقولي بأن خدمتي الفندقية رديئة، عموماً أن كنا لا نحتاج للشراب فيمكنني اعادة كل شيء إلى مكانه، وعندئذ عليك إلا تتذمري من شرب الشاي الذي لا أجيد اعداده..**

رمقتني بنظرات لئيمة وهي تهرش جانباً من رأسها، ومن خلف ابتسامة مطلية بخبث وتعبير ينم عن تقبلها الأمر، قالت:

- **عادي، ولكني فقط لم اتوقع هذا كله منك!! هذا كل شيء، ومهما يكن لا مانع من التجربة..**

وبدأت طقوس الليلة، شربنا وأكلنا بشهية مفرطة، ونحن نتنقل بالحديث من موضوع إلى موضوع، وما أن اعتدلت سكرتنا واستوى بنا الحال على أوسط درجات النشوة وأفضل خياراتها، بدأت أسرد لها قصتي واعدد لها تساؤلاتي وشكوكي، بينما كانت تستمع إليَّ بانجذاب، ولربما كانت تؤكد على بعض ما اقوله، أو تبدي تفهمها ووضوح المسائل لها أو تطلق بعض التعليقات على ما أقوله بين الحين والآخر بلطف وايجاز، دون أن تسلبني تسلسل أفكاري أو تقطع عني ما كنت أقوله، حتى شعرت باكتمال عملية التفريغ، وظهور حاجتي للاستماع إليها، فقلت لها:

- **هذا ما استطعت أن أظهره لك.. والآن عزيزتي (مها) كيف تنظرين إلى ما أخبرتك به؟! وتأكدي بأني سأنصت لك كما فعلت معي.**

كانت جالسة القرفصاء على أريكتها وقد أطرقت برأسها ناحية الأرض، قبل وقت يسير من انتهاء كلامي، وكانت كمن يرتب أفكاره ويبحث عن مدخل مناسب للبدء في الحديث، فراعيتها في ذلك، خاصة بعد أن ظللت أتحدث إليها لأكثر من ساعة، وانتظرت بصمت أن تبدأ بالكلام في أية لحظة، وحانت تلك اللحظة، عندما رأيتها ترفع رأسها وتنظر إليَّ مباشرة وعلامات التأثر واضحة على وجهها، استحسنت بصوت متحشرج – أي قالت: حسناً- وكأنها كانت تجرب صوتها، ثم جمعت قبضتها ووضعتها قبالة فمها وتنحنحت، حتى استعادت صفاء صوتها، ومدت يدها وصبت لنفسها كأس وهي تومأ لي أن كنت راغبة أنا الأخرى في كأس أيضاً، فقدمت كأسي ناحيتها وصبت فيه بقدر ما صبت لنفسها، وبيدي الأخري انتشلت حفنة من مكعبات الثلج ووزعتها بين الكأسين، أخذت كأسي في حين كانت هي ترج كأسها بشكل دائري، متعجلة ذوبان الثلج في الكأس، وبحركة خفيفة أفرغت الكأس في جوفها، واطلقت زفرة متحرقة، وهي تضع الكأس على الطاولة، وتقيس درجة لهفتي لسماع ما ستقوله، توقعت أن تنطق في تلك اللحظة، ولكنها فاجأتني عندما قامت من مكانها وتحركت ببطء وكأنها تختبر سيطرتها على نفسها، وسحبت شيء ما من حقيبة يدها التي كانت معلقة على طرف من الشماعة بجانب خزانة الملابس، وعادت إلى مجلسها، وفي يدها علبة سجائر، سرعان ما فتحت

غطاءها وعرضت عليَّ مشاركتها، فسحبت سيجارة ومدت هي إليَّ بالقداحة تشعلها، ثم سحبت لها أخرى واشعلتها، أخذت نفساً عميقاً وهي تتحاشى الدخان أن يؤذي عينيها، وأطلقت سحابتها، كل هذا وأنا بانتظار لحظة تنطق بها وتبدأ بالكلام، ولولا ما كنت فيه من أريحية، لأهلكني الملل ودفعني الغضب لقتلها، ولعل هذه واحدة من فضائل (شراب الروح)، وأخيراً نطقت (مها):

- **ياااااااه.. يا (تيماء)، إني لأحسدك على ما كان منك من قوة الصبر وقدرتك على التحمل، لو كنت أنا في مكانك، لأقدمت على أشياء جنونية – وأردفت متسائلة: هل تعرفين ما هو جذر المشكلة في ما أنت وأنا وغيرنا من بنات العائلة وكل النساء في بلدنا عليه؟!**

- **ما هو؟! – سألتها..**

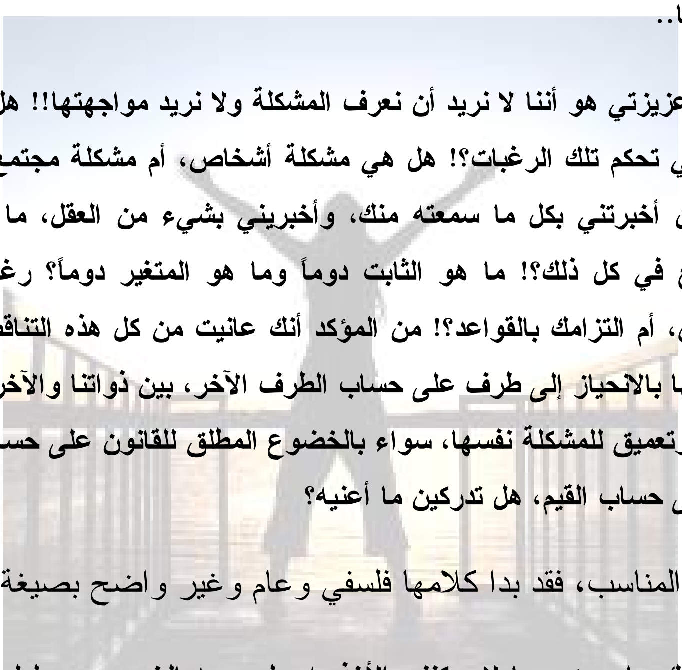

- **جذر المشكلة يا عزيزتي هو أننا لا نريد أن نعرف المشكلة ولا نريد مواجهتها!! هل هي في (رغباتنا) أم في (القواعد) التي تحكم تلك الرغبات؟! هل هي مشكلة أشخاص، أم مشكلة مجتمع بأسره؟! انظري إلى حالك أنت بعد أن أخبرتني بكل ما سمعته منك، وأخبريني بشيء من العقل، ما هو الطبيعي وما هو الطارئ المصطنع في كل ذلك؟! ما هو الثابت دوماً وما هو المتغير دوماً؟ رغباتك أم تلك القواعد، خوفك من البطش، أم التزامك بالقواعد؟! من المؤكد أنك عانيت من كل هذه التناقضات التي نجد أنفسنا مجبرين على حلها بالانحياز إلى طرف على حساب الطرف الآخر، بين ذواتنا والآخرين، وهذا في الحقيقة ليس إلا تكريس وتعميق للمشكلة نفسها، سواء بالخضوع المطلق للقانون على حساب الحرية، أو بالتمرد على القوانين على حساب القيم، هل تدركين ما أعنيه؟**

جاء سؤالها في الوقت المناسب، فقد بدا كلامها فلسفي وعام وغير واضح بصيغة فعلية، لذا قلت لها:

- **في الحقيقة، كلامك عام وهو مما لا يمكنني الأخذ به على وجه الخصوص، ولعل مقاصدك لاتزال بعيدة عن إدراكي لها بالنسبة لمشكلتي الشخصية، فهلا أوضحت؟**

- **هذا هو بيت القصيد (تيماء)؟!! هذا هو!! أننا لا ننظر إلى الحياة ولا نقبل عليها إلا من الزاوية التي ندرك فيها رغباتنا الشخصية، ونتعامل مع كل تلك التناقضات على أساس البحث عن مخارج وحلول فردية، أننا نكرس وندعم السلطة التي نخضع لها والتي تقيدنا في نفس الوقت، عندما نستعطيها ما هو من حقنا، فتعطيه للبعض على قلتهم وتمنعه عن البعض الأخر وهم غالبية، وعلى هذا النحو يتم كل شيء بمشيئة السلطة، وبالتالي فإننا نكرس لعلاقات المحسوبية والمصلحة القائمة على الجشع والأنانية، ونقبل بالظلم على حساب الحق في العدل والمساواة، ولهذا فإن مشكلتك وإن لم تكن واضحة، هي بكل وضوح مشكلة كل بنات ونساء الأسرة التي ننتمي إليها، ومشكلة كل بنات ونساء المجتمع الذي ننتمي إليه أيضاً، وإذا**

كان لابد من مواجهة هذه المشكلة فعلى هذا الأساس فقط، وليس على أساس كونها مشكلتك أنت وحدك، ولــ...

شعرت بأن النقاش اتجه في غير ما أردت أن يسير فيه واليه، لذا قاطعتها معترضة وقلت لها بصوت مرتفع قليلاً وتكسوه نبرة من غضب:

- **(مها)، أنت بهذه الطريقة تصعبين عليَّ المشكلة أكثر، فهل عليَّ أن انتظر حتى تتحرر كل النساء في بلدنا من قوانين الشرع والدين والعرف، هذا مستحيل؟**

تجاهلت اعتراضي بصورة فجة، وتشاغلت بملأ كأسها ثم كرعت جرعة كبيرة منه في جوفها اطلقت بعدها زفرتها المتحرقة، وأشعلت سيجارتها بعدة أنفاس متوالية ما لبثت بعدها إلا أن طردت من فمها وثقبي أنفها سحابة دخان هائلة، تابعت طردها بيدها الأخرى، وعادت تقول:

- **اتفق معك بأن هذا صعب بالفعل ولكنه ليس بالمستحيل، ولا أقول لك انتظري حتى يتحقق ذلك، بل أقول لك بادري وقومي أنت بخطوة في هذا الاتجاه تشجع الأخريات على أن تبادر كل منهن بالمثل وتقوم بخطوة، وهذا يعني بكل بساطة: انك إذا رغبت بشيء فاحصلي عليه أو قومي به طالما آنت مؤمنة بأن هذا الشيء من حقك، وبأنه لا يصب في اتجاه الاضرار بالآخرين، وتقبلي نتائج ما قمت به بروح المسئولية، وهذا هو مبدأ روح القانون، سواء باسم الدين أو العرف أو قوانين الدولة، صحيح أن الأخرين سيحاولون أن يمنعوك، ولكنك ستجدين من يقف إلى جوارك حتماً، مادام هناك من يعاني مثلك..**

بشكل ما طابق كلامها الأخير ما قالته من قبل لي (كايتي)، وهذا ما شجعني على الاستمرار في النقاش، ولكن بالبحث عن حيلة أخرى لحرف مساره وموضوعه، ولأنها سكتت عن الكلام، وأنا سرحت في التفكير في الحيلة، فقد ران الصمت علينا قليلاً، قبل أن ابادرها بالحديث مجدداً، ونيتي أن استفزها هذه المرة:

- **يبدو أنك ثقلت في الشرب، إلى درجة أنك تتعالين عني بفلسفة مطاطة أنا في غنى عنها، فأنت حتى لم تفهمي مشكلتي، لأن والدك رجل مثقف ومتحرر ويشجعك على ما تقومين به، أما أنا فوالدي محافظ وتقليدي متزمت، فأنى لك أن تشعرين بمأساتي؟!!**

حدقت في قليلاً، وتمتمت ببضع عبارات تعمدت إلا تكون واضحة لأسمعها، ومالت إلى أن ترنو ببصرها بعيداً، أغاظني ذلك منها، ولكني تمالكت نفسي، فقد شعرت بأنها تريد أن تقول شيئاً، وبالفعل

عادت تحدق في وجهي ببلادة مقصودة، وابتسامة صفراء مفتوحة تشبه إلى حد كبير ابتسامات العاهرات في أفلام السينما العربية، ولا أعرف كيف أثار شكلها لدي رغبة عارمة في الضحك، استسلمت لها عن طيب خاطر، فأطلقت قهقهاتي في وجهها، وأنا اتوقع أن ينفجر وجهها المحمر من أثر السكر غضباً، ولكنها فاجأتني بإطلاق ضحكة هستيرية أشد مما كان بي، وهذا بحد ذاته ما أضحكني أكثر، إذ تأكدت بأنها لم تكن تتعمد اظهار البلادة، بل كانت كذلك بالفعل، يا لسوء حظي، مع من وقعت وجاءتني من حيث لا أحتسب، قلت لنفسي ذلك، وأنا في غمرة الضحك، بينما كانت هي تلوح بيدها نحوي وتضع يدها الأخرى على صدرها، حاولت غير مرة أن تتمالك نفسها وتقول شيئاً تسخر به مني، ولكنها لم تستطع، المشهد في نظري أصبح في غاية السخف، مما أشعرني بالحسرة والغبن على نفسي، فانفجرتُ باكية تذرف الدموع عيني حارة كأنها تقذفها من قلب بركان ثائر في صدري، انتبهت (مها) لأمري فتغيرت ملامحها وشعرت بالذنب ربما، فقامت من مكانها وجلست على ذراع اريكتي حطت رأسها على رأسي تقبلني، وتكومت بجسدها تحضنني وبذراعيها تطوقني، ولم تمض غير برهة حتى شعرت بقطرة من دمعها تلسع سفح عنقي المكشوف وتتهاوى على كتفي متجهة نحو ظهري، استعصى عليَّ حينها إدراك ما كانت عليه مشاعري، فاستكنتُ تحت كومتها دون حراك، وغرقت في بحر دافئ من الحنان لم أشعر به من قبل ابداً، قالت لي (مها) بعد ذلك:

- **كم أنت مسكينة (تيماء)، تعيشين هنا في لندن وأنت مكبلة بقيود الحياة في الرياض، دون أن تدركي حقيقة ما يحدث، لذا تظنين أنك لا تستطيعين العيش كما ترغبين، ومن أجل ذلك أقول لك دعي هذا الأمر عليَّ، وغداً سترين...**

استيقظت في ظهيرة اليوم الثاني والصداع يكاد يشق رأس نصفين، كنت ملقاة على سريري ولم ألمح أحد غيري، حاولت أن اتذكر ما حدث، وبالكاد وعيت على نفسي وتذكرت بأن (مها) كانت معي، نهضت من مكاني بصعوبة بالغة، فقد كان رأسي أثقل من جبل، حتى خشيت لو تحركت أن يسقط وينفصل عن جسدي، وبمجرد ما أن وقفت حتى شعرت بثقل أخر يضغط عليَّ بشدة لأذهب بسرعة إلى الحمام حافية قبل أن يفلت مني شيء، وهناك أفرغت صهريجاً كاملاً من السوائل، التي كادت أن تفقع مثانتي، وأثناء ذلك (طسست) وجهي عدة مرات بحفنات من الماء، استخدمت فيها كلتا يداي، وأنا استعجل انهاء ما شغلت به لأذهب للبحث عن (مها)، خاصة بعد انتابتني المخاوف من أن تكون قد أخذت في نفسها شيء عليَّ أو أن تكون قد رحلت..

خرجت من الحمام كالملهوفة، أحث الخُطى وقد جذبت رداءي الشفاف إلى الأعلى كاشفة عن ساقي العاريين، تحققت أولاً من أغراضها في الغرفة، فوجدتها كما وضعتها البارحة، لم يطمئنني ذلك فهرعت إلى الطابق الأسفل، ألقيت نظرة على الصالة وأخرى ناحية المطبخ فلم أجدها، داهمني الصداع مرة أخرى بقوة أشد، فارتميت على اريكة في الصالة، وقبضت بكلتا يداي على مقدمة رأسي، وبين غمضة عين وأخرى لمحت ظلاً خلف ستائر الشرفة المطلة على الشارع الرئيسي، فعرفت أنه ظلها، كانت واقفة هناك لوقت طويل كما ظننت، حملت نفسي بالقوة وسرت نحوها، لكنها لم تشعر بقدومي، ووقوفي خلفها، فظلت على ما كانت عليه، بينما ارتميت مرة أخرى على كرسي الشرفة البلاستيكي فاحتكت قوائمه بشدة ببلاط الأرضية محدثة جلبة، كانت أكثر من مزعجة لتثير انتباه الجيران كلهم، إلتفتت نحوي والخوف ظاهر على سيماها، وسرعان ما أصبحت بالقرب مني، فسألتني فزعة:

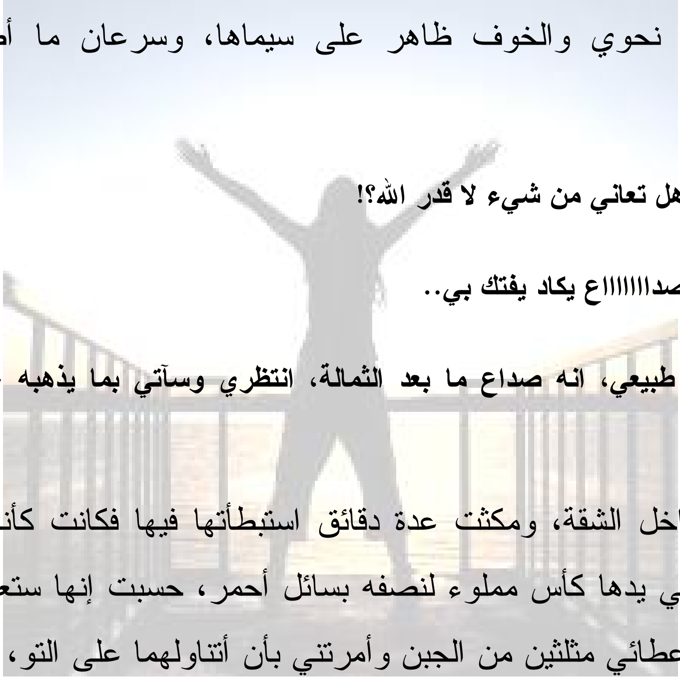

- **خير.. (تيماء).. هل تعاني من شيء لا قدر الله؟!**
- **رأسي، رأسي، الصداااااااع يكاد يفتك بي..**
- **لا تخافي.. فهذا طبيعي، انه صداع ما بعد الثمالة، انتظري وسآتي بما يذهبه عنك، انتظري لحظات وسأعود..**

قالت ذلك، واتجهت داخل الشقة، ومكثت عدة دقائق استبطأتها فيها فكانت كأنها الدهر كله، وعندما ظهرت، كانت تحمل في يدها كأس مملوء لنصفه بسائل أحمر، حسبت إنها ستعطيني حبة دواء أو ما شابه، لكنها فاجأتني بإعطائي مثلثين من الجبن وأمرتني بأن أتناولهما على التو، وبعد أن فعلت أمرتني بشرب ما بالكأس، فسألتها ما عساه يكون؟! لكنها لم تجب بل كرعت ما في الكأس بيدها في جوفي، وهي تقول:

- **وداوها بالتي كانت هي الداء!!! بعد قليل ستكونين بخير، فقط يجب أن نتناول افطارنا سريعاً فأنا أكاد (أفطس) من شدة الجوع، فهيا تخلصي من هذا الصداع والحقيني إلى المطبخ لنرى ماذا هناك؟؟**

ذهبت مرة أخرى، وجاء صوتها من منتصف الصالة يستحثني لألحق بها، مضت عدة دقائق فعاد صوتها من جديد يناديني، كنت حينها قد شعرت بزوال الصداع، فنهضت وسرت نحوها، كانت قد قدمت طبقين على مائدة الطعام وعلبة حليب خالي من الدسم أخرجتها من الثلاجة، بالإضافة إلى كيس

من شرائح الخبز الفرنسي، وأطباق صغيرة احتوت على شرائح من الجبن والمربى وحبيبات من الزيتون الأسود، ثم أحضرت كأسان انبعثت منهما رائحة الــ (Nice café) بالكريمة البيضاء، وقبل أن أجلس على مقعد قرب الطاولة، قالت:

- **مطبخك ثري جداً، وهذا ما سهل عليَّ الأمر، ولأني للأسف لا أجيد تحضير شيء باستثناء طبق الــ (Corn flex) بالحليب وكذلك القهوة، هذا خير من لا شيء، أنت بحاجة إلى خادمة..**

- **لدي واحدة بالفعل.. مدبرة المنزل اليونانية (ماغي)، ولكني لخبل أصابني أعطيتها اجازة مبكرة ومدفوعة الأجر بعد أسبوع واحد من تعيينها، فقد ظننت إني لن أحتاجها في العطلة..**

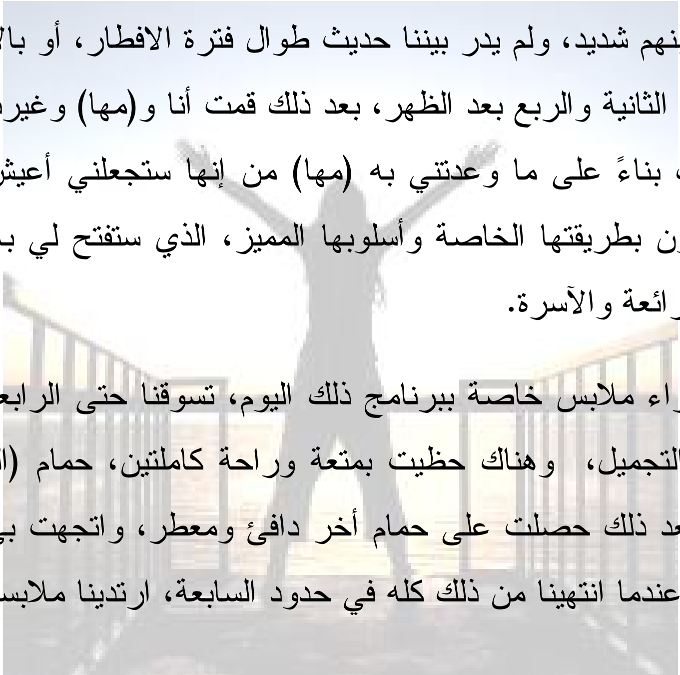

تناولت ما كان امامي بنهم شديد، ولم يدر بيننا حديث طوال فترة الافطار، أو بالأصح الغداء فقد رأيت ساعة الحائط تشير إلى الثانية والربع بعد الظهر، بعد ذلك قمت أنا و(مها) وغيرنا ملابسنا وخرجنا من الشقة، طبعاً، كان ذلك بناءً على ما وعدتني به (مها) من إنها ستجعلني أعيش يوماً من أروع أيام حياتي، وإن ذلك سيكون بطريقتها الخاصة وأسلوبها المميز، الذي ستفتح لي به أبواب الحياة المغلقة وتدخلني عوالم لندن الرائعة والآسرة.

أخذتني (مها) أولاً لشراء ملابس خاصة ببرنامج ذلك اليوم، تسوقنا حتى الرابعة مساءً، ثم ذهبنا إلى مركز شهير للعناية والتجميل، وهناك حظيت بمتعة وراحة كاملتين، حمام (الساونا) ومن ثم جلسة التدليك والاسترخاء، بعد ذلك حصلت على حمام أخر دافئ ومعطر، واتجهت بي عاملات الخدمة إلى قسم تصفيف الشعر، وعندما انتهينا من ذلك كله في حدود السابعة، ارتدينا ملابسنا الجديدة وخرجنا من المركز.

في السيارة.. سألت (مها):

- **والآن، ماذا بعد؟!**

- **ماذا بعد، ماذا؟ آه، تقصدين البرنامج؟ الآن سنذهب لتناول العشاء والسهر في أفخم (Night Club) في لندن، أكل وشرب ورقص وهيصة للصبح..**

تعجبت مما قالت، فقد كان أمراً مألوفاً سبق وإن عشته من قبل في لندن، والحقيقة إني توقعت أن تقترح شيئاً جديداً لم أقم به بعد، فسألتها باستنكار وهي تبدو مسرورة:

- **هذا فقط؟!!**

- **فقط ماذا؟! هييه (تيماء) ما بكِ؟ هل تنوين افساد الليلة علينا أم ماذا؟**

لم أشأ أن احرجها، أو لعلها هي من قصدت أن لا تقفز بي خلف الحدود، فقلت لها:

- **لا، لا شيء، هيا فلنذهب!!**

نعم، كنت أتوقع أن تضيف (مها) صاحبة الخبرة كما اعتقدت شيئاً جديداً إلى خبراتي في أمور المتعة والتسلية، ولكن ما حدث، هو إني عشت ليلة عادية سبق وإن حفلت بها وبأفضل منها من قبل، الشيء الجديد الذي حدث هو ما كان منا في اليوم التالي، عندما خرجنا من لندن، قاصدتان أحد الشواطئ الجميلة، حيث ارتديت (المايوه) وظهرت به لأول مرة في حياتي، وهذا ما كان جديداً بالفعل، ولو إني فعلت ذلك وأنا في أشد درجات الخوف من أن ترصدنا عدسة كاميرا، أو يحفل بوجودنا من حيث لا ندري احد صائدي الفضائح، مما حرمني من الشعور بمتعة الوقت، في اليوم الثالث غادرت (مها) وتركتني غير قانعة بشيء فعدت إلى سابق ما كنت فيه..

إذن، الوضع هو.. هو؟!! لم يتغير شيء، هذا ما استنتجته وتأكدت منه بعد كل محاولاتي الدائبة طيلة فترة العطلة الصيفية للخروج والاستمتاع بحريتي وتحقيق ارادتي، وهذا ما أعادني إلى المربع الأول نفسه، الذي تحققت فيه من كوني أعيش بالفعل (مأساة)، ضاعف من حدة وقسوة الوضع وفق هذا التصور وذلك الاستنتاج، احساسي بالانفصام بين عوالم متناقضة، فتارة أكون في حضن شلة أصدقاء عابثة وغير عابئة بأي شيء، وتارة أكون مع صديقات متزنات وجادات يستمتعن بالحياة بالطريقة التي تحفزهن دوماً للمضي قدماً نحو تحقيق الطموح والوصول إلى المستقبل، وتارة تراودني تلك الأحلام وتسرقني من نفسي تلك الخيالات التي تأخذني إلى حضن حبيب دافئ، ولحظات عشق وغرام شاعرية مفعمة بالورد والشعر والألوان والعاطفة المشبوبة، وتارة أخرى تعصف في ذهني كوابيس العادات والتعاليم الدينية، وتضع بيني وبين عواطفي ألف سور وحائط، حتى أشعر بالرضا كل الرضا عن اخضاع نفسي للواقع، وتعويض كل ما فاتني ولا يمكن أن الحق به فيه بالخيال وأحلام اليقظة، زد على ذلك توتر علاقتي واتصالي بـــ (هند) طيلة تلك الفترة، إذ لم أوفق في الالتقاء بها والجلوس معها والتحدث إليها، إلا بضع مرات متباعدة، كانت مددها الزمنية الضيقة محشوة بطابع رسمي وعلاقة صداقة قديمة وحميمة فترت حرارتها وبهتت الوانها وثقلت على أحد منا، فقد كنت أبادر بين فترة

وأخرى إلى زيارة (هند) في القصر، بينما لم تفعل ذلك معي ولو لمرة واحدة، حتى اتصالاتي الهاتفية بها كنت أجريها أنا أولاً، وكم كانت تسبب لي الضيق الشديد ردودها المقتضبة تلك، والتي كانت توحي لي في كل مرة بأنها غير راغبة في الحديث معي، ماذا حدث؟! لماذا هذا الانقلاب السافر عليَّ يا (هند)؟! والذي كان يزيد من شدة جنوني، أن الأجواء كانت تبدو في القصر طبيعية، وعلاقتي بخالتي (سمية) كانت رائعة وكانت تلقاني في كل مرة بحب وود وكرم، حتى اتصالاتها بي لم تنقطع.

وفي غمرة هذه الانتكاسة التي أصابتني من الداخل، وفي الصميم العميق، حدث شيء واحد أنعشني ورجح كفة الأمل عندي، بعد إذ كاد اليأس يستولي عليَّ، وذلك عندما اتصلت بي (جليلة) ذات ليلة وأبلغتني بأنها عازمة على الذهاب إلى (Oxford) في صباح اليوم التالي لرؤية نتائج الفحوص النهائية للسنة الماضية وقرارات مجلس الكلية المتعلقة برفع الطالبات المستجدات للمستوى الدراسي الثاني، في البداية كان وقع هذا الخبر ثقيل على قلبي إلى درجة كرهت فيها (جليلة) لكونها ابلغتني به، فقد أحيا ذلك الخبر في نفسي شجوناً كنت قد نسيتها فعلاً، خاصة وأني كنت أشك في نتيجة فحوصي، وأفضل ما كنت أتوقعه أن أنجح فيها، ولكني لم أكن أتوقع أبداً أن يصدر مجلس الكلية قراراً برفعي للمستوى الثاني، بقدر ما كنت أتحسب أن ألجأ لــ (كايتي) علها تساعدني في استصدار قرار يمنحني فرصة أخيرة، كانت هذه هي أفكاري في تلك اللحظات التي كانت لاتزال (جليلة) معي على الهاتف، ولهذا عندما سألتني أن كنت عازمة على الذهاب أيضاً، اعتذرت منها وأخبرتها بأني متوعكة، وأني سأعتمد عليها في هذه المهمة لتبلغني بما ستظهر عليه النتائج في الغد.

لم أنم تلك الليلة، ولم يغمض لي جفن حتى بعد أن احتسيت كمية من النبيذ، تكفي لفيل ضخم أن ينام شهر بأكمله، كنت أعرف بأن تلك النتيجة ستحدد مصيري، وأنا واثقة بأني شعرت ليلتها بالذعر الشديد، وأنا أتصور موقفي ونظرات الآخرين إليَّ وأنا أعود مجبرة وصاغرة إلى بلدي أجرجر أذيال فشلي وخيبة أملي وظن من دعموني بي، وبين ما كان من يأسي وقنوطي وقد عرفت حينها بأن الوقت قد فات لإيجاد مخرج من ذلك المأزق، وبين ما كان يراودني من الرغبة في اللجوء إلى الله عز وجل، قلت محدثة نفسي:

- **الوحيد القادر على اخراجي من هذه المحنة المرتقبة، هو الله القادر على كل شيء والذي لا يعجزه شيء، ولكني استبقت بالخطيئة أمري واستبحت بها الوقت القليل المتبقي لي، وهو وقت حاجتي إليه، كم أنا سيئة الحظ، مغضوب عليها من الله، فحتى الوقت الذي بقي لي لا أستطيع أن اتوجه فيه إلى الله بالدعاء**

وبالصلاة، كيف لي ذلك، ورائحة الخمر تنبعث خبيثة من حر أنفاسي ونار سمه تجري بأوردتي مخالطة دمي، فكيف أدعو الله وأنا على هذه الحالة، وأنى عساه ربي يستجيب لي والمعصية بائنة ثابتة عليَّ من قمة راسي إلى أخمص قدمي؟!!

وبعد صراع مرير، همدت اثره قوى تفكيري وخارت من شدة وطأته كل عزائمي، شعرت بالحسرة والندم يجلداني بسياط من نار ويلقيان بي في لجة الآلام، كأن الروح تتبذني والنفس تتنصل من كل جرائمي، فلم يعد أمامي سوى الاستسلام لعذاب الضمير، بكيت وأجهشت بالبكاء، وأسمعت أذني صوت بكائي، والدموع تنهمر سيولاً من عيوني، وشعرت بالضعف والعجز والوحدة، وكلما تلفت يميناً أو يساراً لا يخطر على بالي أحد سوى (الله)، لقد رأيت بأم عيني العالم كله وهو يقف عاجزاً عن درء ما أخشاه عني، فلا السلطة أو المال أو الأصدقاء أو أي شيء أخر كان بمقدوره أن يساعدني، ورأيت أبواب الحياة كلها تغلق في وجهي، وكل الأسباب تقطعت دوني، فلم يبقى غير باب واحد لا يغلق في وجه أحد، وسبب واحد لا ينقطع دون حاجة لأحد، وبدا لي كل شيء في الحياة تافهاً بقدر ما يمكن أن ينظر المرء إليها وكأنه يعيش لحظة زوالها في كل لحظة، ولم يبقى لي شيء أطلبه من الله سوى العفو والمغفرة، حينها ألهمني دعائي وصلاتي له، فرفعت يداي وتوجهت إليه:

- **يااااا رب، أقر لك واعترف بأني فعلت كل شيء يجلب عليَّ سخطك، ويسلط عليَّ غضبك، ويوجب أن ينزل بي عقابك في الدنيا وإن تنظرني عقابك في الآخرة، وأقر بأني استحق كل ما تقضي به عليَّ من سوء العاقبة وسوء المختم..**

لكني يا رب، عرفتك وعرفت عنك من قبل ما الهمني أن أستشفعك الآن في أمر نفسي، في هذه اللحظات التي شقيت فيها بمعصيتي، أن كنت يا رب قد استبقيت لمن هو مثلي شيء من رحمتك وأنت أرحم الراحمين، أن تغفر لي وتعفو عني، إني لجأت إليك مضطرة، وأنت أكبر وأعظم وأرحم من أن تأخذني بإثمي وأنا على هذا الحال من ضعفي وقلة ناصري، وأنت القوي المكين، يااا رب لك الحق عليَّ كله، ولا أزكي عليك نفسي بل أنا حجتك على نفسي، ومن أجل هذا سألتك عفوك ومغفرتك، متوسلة رحمتك، سبباً لا أرجو أن ينقطع بي دونك ووسيلة علمت إنها لا تخيب إليك، والحكم لك، فاقضي بما شئت وأنت احكم الحاكمين، وأنا لله وأنا إليه راجعون.. آمين.

كنت ألهج بالدعاء إلى الله وأنا غارقة في بحر دموعي، مرمية كخلقة بالية على طرف سريري، مشفقة على نفسي مما صنعته بيدي عمداً وغروراً، ولما انتهيت من الدعاء، استكان قلبي وهدأ الروع في نفسي وزالت عني الوحشة، بعد أن استأنست بربي للحظات كانت الأولى في حياتي بذاك الصدق

والاخلاص، ولم أعي بنفسي واستغرقت في نوم عميق، رأيت خلاله أطياف لا أحصيها من الوجوه والوقائع التي لم يثبت منها شيء بلوحة ذاكرتي، حتى أيقظني قرابة العاشرة من صباح اليوم التالي رنين هاتفي المحمول، مددت يدي إليه وأنا استثقل ذلك خشية أن يأتيني بخبر يسوئني، كانت تلك (جليلة) تتصل بي بعد أن حاولت ذلك من قبل عدة مرات، ضغطت على زر الاجابة، ليصعقني صوتها حاداً حتى كاد أن يثقب طبلة أذني، وأسمعتني قائلة:

- **(تيماء)، لي منك البشارة، مبروك، مبرووووك، لقد نجحت وصعدت للمستوى الثاني، البشارة هه، البشارة لي يا (تيماء)..**

لم أصدق ما سمعته أذني ووعاه قلبي، حتى إني أنهيت الاتصال عفواً وارتباكاً، عاودت الاتصال بها فكان هاتفها مشغول، انتظرت أن تتصل هي، لكني خشيت أن تكون هي فاعلة ما أفعل، تنتظر اتصالي بها، لم أجد بداً، فاتصلت مرة أخرى، كانت على الخط، التقطت اتصالي وقبل أن تسمعني صوتها، كنت قد شحذت صوتي، سألتها، فقالت ما لم يكن يهدأ لي بال إلا إذا تحققت منه بنفسي، فأعددت نفسي على عجل لا أبالي بشيء، وخرجت قاصدة مقر الكلية في مدينة (اكسفورد)، وأنا بحال لم أعي فيها أن كنت أعرف ما أفعل أو لا أعرف..

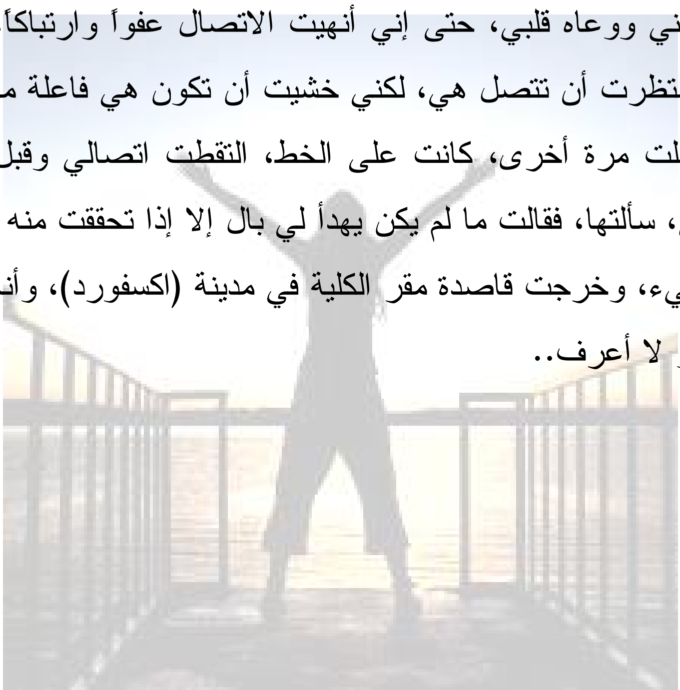

الفصل الثامن

رسائل من مجهول

لا أعرف إن كان الأمر يخصني وحدي أو أنه يحدث مع كل الناس، أقصد تلك الطريقة التي تحدث بها الأمور بعد أن يتخذ الانسان قراراً بأن يسعى إلى تحقيق ارادته في شيء ما، وفيما يتبنى الغالبية من الناس تفسيرات من ذلك النوع التي تعزى فيها الوقائع والأحداث التي تأتي مخالفة لإرادة المرء بأنها (قضاء وقدر)، وهذا ما دفعني إلى التفكير في هذه المسألة واسقاطها على حياتي، فكان ذلك ما أوجب عليَّ أن أتساءل مجدداً: ما هي الحدود الفاصلة بين ارادة الانسان وقدره؟! وعلى أساس أننا نملك الارادة ونحرص على اظهارها في كل ما نقوم به، فما الداعي لأن يتدخل القدر على نحو ما نعتقد بأنه ضد ارادتنا في تلك الأوقات التي تتملكنا فيها رغبة عارمة في صنع ما نحب وما نرغب به؟! ولماذا يتوجب علينا أن نثق في العناية القدرية دون أن يكون لدينا ما يؤسس لتلك الثقة؟ وكيف ومتى ندرك مغزى التوافق والتناقض بين ارادتنا وأقدارنا، ليتسنى لنا تجاوز مشكلات الاختيار المعقدة؟!

لا أهتم بما قد تعنيه لك هذه المقدمة الفلسفية، ولن أحفل بما ستراه فيها ومنها، فلست في موضع الخوض في مسألة كهذه، بقدر ما أنا معنية بسرد قصة ما بلغت في قراءتها حد هذا السطر، ولكني أعول على نباهتك في هذا الشأن من جهة، ومن جهة أخرى أرى أنه يجب عليَّ أن أوضح ماهية

السياق الذي يمكن أن تكون قد ظهرت فيه تلك التساؤلات، وسرد ما حصل معي وما جعلني أتساءل مجدداً، بعد أن قررت انهاء (فترة العزلة) والخروج مرة أخرى إلى الحياة، وهذه قصة ما حدث..

بعد الدرس الذي تعلمته، قررت أن انهمك تماماً بالدراسة، وأصرف اهتمامي عن أي شيء سواها قد يصرفني عنها، وكان عليَّ أن أهيأ نفسي وأجهز كل شيء ليتسنى لي تنفيذ هذا القرار والالتزام به، فاتخذت من اقتراب موعد الدراسة عذراً لأنسحب بهدوء ولباقة من شلة القطط التي كانت تحيط بي، وتحليت بتواضع جم لأصلح ما كنت قد افسدته من علاقتي بـــ (كايتي)، كما قمت بزيارة ود خالص لخالتي (سمية) في قصرها، وهناك صارحت (هند) بأني التمس لها العذر لانشغالها عني وتهربها مني طيلة الفترة الماضية، وأكدت لها بأني لن احقد عليها أو اتخلى عن صداقتنا مهما حصل، وفي طريق عودتي إلى الشقة في ذلك اليوم اتصلت بـــ (ماغي) لتعود إلى العمل، وبمجرد وصولها في صباح اليوم الثاني طلبت منها أن تعد لي الحجرة الأقرب إلى حجرة نومي لتكون مقراً لمهامي الدراسية ومستوعباً لكل حاجات الدراسة واغراضها، وكل هذا خلق في داخلي شعوراً بالارتياح، كنت بأشد الحاجة إليه في ذلك الوقت، فحفظت سمته ومكنونه وجعلت منه الأمارة الهادية والاشارة التي تجعلني أشعر وأتحقق بأني على الطريق السوية.

أبقيت على شيء واحد فقط، لم تطاوعني نفسي أن أتخلص منه، فجعلته متنفسي الوحيد الذي يمكن أن الجأ إليه متى ما شعرت بالضيق وساورني الملل، لم يكن ذاك الشيء إلا (صغيري المحمول الثاني)، فعلى الرغم من إني كنت قد تخليت عن عادة الاتصالات العشوائية منذ فترة لم تكن طويلة، إلا انه كان هناك ثمة سبب أخر وراء احتفاظي بذلك الصغير، لم يكن ذاك السبب إلا رسائل الـــ (SMS) التي بدأت ألاحظها قبل ذلك بأيام قليلة، والتي كانت ترد كل ليلة تقريباً من رقم واحد، خاصة وأني وجدت فيها ما لم يكن بمقدوري أن أتغافل عنه أو أتجاهله، وإن لم يكن ذلك بمستوى الأهمية التي حظى بها هذا الأمر لاحقاً، فما هي القصة إذن؟!

شيء غامض.. أو شعور ربما

ذاك الذي وحسب يجذبني إليك

لست أدري ما عساه يكون؟!

يا أنت، يا أيها المجهول

إني سمعت صرخاتك خفية عنك

يا صوتك الشفاف

عفواً جاء يطرق مسمعي

يا كل الشجون..

***

عما تبحثين في موجة المجهول؟!

عن الحلم؟! أم عن فارس في الحلم؟

يأتي على فرس بيضاء ناصعة مثل روحك

بكل وسامته وهيبته، ليأخذك..

ومعه ترحلين؟!

عما تبحثين، عن اللهو؟!

أم عن رجل لعبة؟

أم عن قصة عشق مجنونة تدور أحداثها سراً عن العالمين

عما تبحثين؟

في أرجاء شرق خلفته وراءك وفي الغرب لم تجديه

أم تراك للشرق تشتاقين؟!!

خائف عليك، من منطقة البين هذه

من هوة في سحيق الفواصل لا قرار لها

من طريق تنمحي خطوطها اثر خطواتك

أن سرت فيها لن ترجعين

***

أي قدر سيء يحيط بخطواتك؟

وأي زاوية في ركن جدران أربعة اختطفتك؟

هل غدا العالم كله سجن؟

لروح لم تجد في غربة الروح روحا تؤالفها وتؤنسها

حسبك حتى الأن، إني ولو بقدر بسيط أشعر بك

حتى وإن لم تكوني بي تشعرين!!!

***

أنا وأنت..

وجهان لعملة، لحقيقة، لمأساة، لحياة واحدة

تائهان عن ذواتنا، في الطريق المزدحمة

والدروب المظلمة

أنا وأنت، في زمن المرايا، والوجوه الخادعة

أنا وأنت في زمن الحياة المسرحية

والأقنعة

***

الكلمات مثل الملامح، والنصوص مثل الصور

أننا لا نقرأ الرسائل فقط

بل ننظر في وجوه أصحابها،،

وحقيقة من نكون

ليست إلا بأعماقنا

***

الرجل لا يولد بالصدفة

ولا يتم صنعه في المصانع حسب المواصفات

قدر المرأة التي تجهل حقيقة نفسها

أن لا ترى في حياتها رجلاً حقيقياً

***

أقرأ مخاوفك كما تقرأين أنت رسائلي

وألمح من وراء حجاب المسافات

بريق الخوف في عينيك

وأشعر بالأسى، كما قلبي

فهل تراني أنا من يخيفك؟!

وهل ترعبك أشباحي التي قد تظهر لك من خلف كلماتي؟!

أم أنك وحسب مدهوشة حد الذهول؟!

تلعبين مع الوردة لعبة الحزر والتخمين

تنزعين بتلة: معقول

وبتلة أخرى: غير معقول؟

لكن البتلة الأخيرة، ماذا عساها تقول؟!

***

من يضمر الشر يحرص ألا يبديه

ومن يفعل الخير لا يحرص على إظهاره

لذلك، وبعد فوات الآوان نكتشف أن من توقعنا الخير منه خائن لنا

وبعد فوات الآوان أيضاً، نكتشف أننا خسرنا أحداً وظلمناه

ولأني أعرف هذا، أقول لك:-

ثقي بأنه لن يفوت عليك الآوان معي، مهما أسأتِ.

***

بشأني، من أكون؟ ليس هذا مهماً صدقيني

بشأني، ماذا أريد؟

ستخيب كل ظنونك فلست كما تتوقعين

أنا رسول أعماقك إليك، ونبوتي (أنثاك) أعطيها الخلاص

أنا حكمة روح تبحث عنك

أنا قلب مؤمن، جئت من بلد الحقائق والأسرار..

من صنبور نجواك إليك

أنا ضميرك المعطل في حناياك الرقيقة

أنا استجابة أدعيتك، وثواب صلواتك

ورجولة متواضعة تسعى إليك؟؟!!

قبل كل شيء أود أن أسالك بشأن النصوص السابقة، هل تعتقد أن هذه يمكن أن تكون قد كتبت كقصائد أم إنها بالفعل يمكن أن تكون رسائل؟! وهل يمكن لمثل هكذا نصوص أن تخلو مما يمكن أن توحي به لقارئها؟! ثم ماذا يمكن أن تعني مثل هذه النصوص لفتاة مثلي أو أي فتاة أخرى مختلفة عني إذا فوجئت بها تصل إلى هاتفها على نحو متكرر وفي موعد واحد دائماً؟! وما الذي يمكن أن يحدث إذا اعتادت على انتظار وتلقي وقراءة مثل هكذا رسائل؟ وكيف ستفسر ما يحدث أن حدث معها ذلك؟ وكيف ستتعامل مع هذا الأمر؟! هذه تساؤلات نسجتها على محك القصة التي سأرويها، قصتي التي بدأت برسائل من مجهول..

بعد أن لاحظت ورود تلك الرسائل بشكل متقطع بين يوم ويومين، وأيقنت بأن من يرسلها إليَّ شخص مجهول بالنسبة لي يتعمد فعل ذلك معي، لذا بدأت أسجل ملاحظاتي بغية أن أتحرى الأمر أولاً وأحاول اكتشاف ما ومن وراء تلك الرسائل، وكان من بين ما سجلته من تلك الملاحظات، أن من يرسلها كان يحرص على أن تصل إليَّ رسائله في موعد زمني محدد، وبالتحديد من بعد الدقيقة الأولى وخلال الساعة الأولى من بعد منتصف الليل، وأنه كان يرسلها تباعاً على شكل نصوص تشكل في محصلتها مجموعة متصلة موضوعيا، وكان أكثر ما جذبني لقراءة تلك الرسائل هو طابعها الشعري وأسلوبها الأدبي والمضمونات العميقة التي تنطوي عليها، ولكن هل توقف أمر ملاحظاتي تلك عند ذلك الحد؟! تعال لنرى ما كان؟

بعد ذلك لاحظت بأن تلك الرسائل لا تأتي وفق توقيت زمني فحسب، بل ووفق توقيت نفسي وذهني مطابق لما كانت عليه انشغالاتي، وقد اكتشفت ذلك من خلال مضمونات تلك الرسائل التي كانت وعلى نحو عجيب ومريب توافق وتحاكي في كل مرة ما كان يدور في ذهني وتطابق ما كان يعتلج في نفسي، ولأني تعمدت التحقق من صدق ملاحظتي تلك من خلال مراقبة مشاعري وافكاري قبل وبعد قراءة ما كان يصلني منها، فقد كانت النتائج كافية لإثارة الكثير من الشكوك والمخاوف، إذ بدا لي أن من يراسلني – وإن كنت متأكدة من أنه ليس أحداً ممن يمكن أن أكون قد عرفته من قبل وحتى تلك اللحظة التي اكتشفت فيها ذلك التطابق– كان يكتب رسائله ويصوغ عباراتها ومفرداتها وخطابها على نحو ما وكأنه كان يعرف ما يدور في أعماقي من أفكار ومشاعر، ويعرف بالضبط كيف وعلى أي أساس يفعل ذلك، كما أني توثقت تماماً بأنه هو كاتبها وأنه لم يكن يقتبسها أو يستمدها من كتابات أخرين، وذلك لسبب بسيط وهو أن جميع تلك الرسائل كانت ذات طابع واحد وأسلوب ولغة تشير إلى

أن كاتبها شخص واحد، وبالتالي لم يكن هناك أي سبب يجعلني أعتقد بأن هناك من يقتبس ذلك الكم الكبير من النصوص المتطابقة على ذلك النحو البالغ مع ما كان يشغلني، وإن أمكنه أن يفعل ذلك فأنى له أن يكون هناك عمل كتابي كامل يطابق محتواه أفكاري ومشاعري، لأن هذا كان يعني أنني أواجه شخصان غامضان، وليس مجرد شخص واحد، ولو كان هذا صحيحاً لازدادت صعوبة حل اللغز، أو لأمكنني اكتشاف حقيقة مصدر تلك الرسائل، ولهذا عادت الشكوك تساورني بأن يكون ذلك الشخص المجهول أحداً ممن عرفني أو عرف عني شيء، ولم تكن تلك في الحقيقة مشكلتي، وإنما كانت المشكلة كامنة فيما كنت أجهله عن ذلك الشخص وعن غايته مما يقوم به معي، وفضولي الشديد لمعرفة حقيقة ذلك كله، ومن جهة أخرى كنت أتمنى أن يكون الأمر مجرد صدفة أو مقدرة شخصية غريبة، أو أي حقيقة أخرى غير تلك التي كانت تحدثني بها نفسي وتشعل مخاوفي.

استمر ذلك المجهول يبعث إليَّ برسائله، وأنا في المقابل أحرص على قراءتها وأستمتع بذلك، في البداية ظننت بأن ثمة شخص يفعل ذلك معي عمداً، بغية التسلية أو ربما التلاعب بي، ولم يذهب عن بالي أنه قد يسعى بذلك إلى استغلالي، وهذا دون أن أشعر بالحاجة إلى دليل يثبت صدق ظنوني، ويوم بعد يوم بدأ الأمر يتخذ وتيرة منتظمة وبدأ يضايقني أكثر فأكثر، بقدر ما كان يمتعني ويملئ تلك الساعات التي أنشد فيها النوم، والذي لا أصل إليه غالباً إلا بشق النفس، ولهذا كانت تتوارد على ذهني الأسئلة تباعاً، كأن سقف السماء الذي كان يحجزها عني تفتق من فوقي فجأة لتنسكب على رأسي تلك التساؤلات الملحة والمحيرة:

من هو؟ من عساه يكون؟ هل يعرفني؟ أم أنه مجرد عابث يبحث عن اللهو سلطه الله عليَّ لينتقم مني بمثل ما كنت قد امتحنت به غيري؟! وإن لم يكن كذلك فماذا تراه يريد مني؟ وأي كارثة مدمرة يحضرها لي؟ وأسئلة، وأسئلة، وأسئلة، تأكدت بأنها لن تنتهي ولن تتوقف عن التدافع إلى ذهني، إلا إذا عرفت حقيقة من يرسل إليَّ تلك الرسائل.

ثمة ما أثار انتباهي بعد مرور فترة منذ بداية وصول تلك الرسائل، ولكي أكون واضحة فالأمر أثار أيضاً المزيد والمزيد من مخاوفي، فقد أصبح لتلك الرسائل تأثير بالغ وعميق على نفسي، حتى إني سرعان ما توثقت من انجذابي الشديد لقراءتها، بل إني صرت انتظر جديدها وعلى أحر من الجمر أحيانا، وفي كل مرة كانت تصل لي مجموعة جديدة منها كنت اقرأها وأعيد قراءتها مرات ومرات

دون أن أمل من ذلك أبداً، إلا بقدر ما أشعر بالامتلاء مما كانت تجود به لي من صور وخيالات مفعمة بارتياح شديد كنت أحس به لمجرد أن هناك شخص ما وبالتحديد (رجل) يتصل بي، ويكتب من أجلي كل ذلك الكلام الجميل الذي لا يقرأه أحد غيري.. نعم، أصبحت تلك الرسائل تعنيني؟!

بيد أن المخاوف التي تسللت إلى قلبي والظنون التي سيطرت على ذهني في كل ليلة بسبب ذلك المجهول، كانت أكثر من كافية لأن تثير تساؤلاتي المقلقة مجدداً في كل مرة، تلك التساؤلات التي شكلت أمامي صخرة كأداء وعقبة عنيدة ورعناء لم يكن من الممكن لي تجاهلها أو تجاوزها، وعلى الرغم من أني كنت واثقة أشد الثقة، بأن رقم الهاتف الذي تصل إليَّ من خلاله تلك الرسائل، لا يعنيني ولا يشير إلى أي شيء عني من بعيد أو قريب، كما أني لم أطلع أحدا عليه ولم أبوح بسره لأحد سواء كان ذلك بالتلميح أو التصريح ولم أستخدمه مطلقا للاتصال بأي شخص أعرفه، كما أن الشخص الذي استعنت به للحصول عليه لم يكن يعرف عني أي شيء، ولم ولن تراني عينيه غير تلك المرة التي طلبت منه أن يفعل لي ذلك لقاء مبلغ من المال، وعلى الرغم أيضاً من أن هذه التعليلات الراجحة من طرفي كانت كافية بقوة لكبح تلك المخاوف والظنون، إلا أن ذلك كله لم يمنعني من الأخذ بأسوأ الاحتمالات، وهو أن الاستمرار في تلقي تلك الرسائل والاستجابة لمرسلها على أي نحو كان، يمكن أن يكون طريقاً محفوفة بالمخاطر، أقل ما في ذلك أن اتعرض للابتزاز والاستغلال، ولعلي أدركت بأني مهما بالغت في الحيطة والحذر، فإني في نفس الوقت أمام شخص متمكن له مواهبه الفائقة في استدراجي إلى حيث لا أدري ومن حيث لا أدري في وقت واحد، كما قال لي في إحدى رسائله، فكيف لي أن آمن جانب شخص قادر على جذب فتاة (ساذجة) مثلي مقارنة بما يظهره من شدة الذكاء والمهارة العالية في التأثير والاقناع؟! وأنا كما وقد قصد أن يكتب لي ويعرفني بأني لن أكون على غير ما هو طبع النساء الذي يجعلهن ضعيفات أمام رجل واثق بنفسه ويتحلى بالجرأة واللباقة، حتى قيل دائماً: "أن أقصر طريق إلى قلب المرأة، هو أذنها"، ثم وفوق هذا كله فأنا لا أعرف بالضبط دوافع هذا الرجل المجهول وغاياته، ولا أستطيع أن أتنبأ بخطواته، أما وقد بات يعرف بأني تحت سيطرته، وأن رغبتي في استمرار تواصلي معه أقوى من رهبتي من عواقب ذلك، فلا مناص من السير على نول الرغبة والاستمرار معه، وأنا قادرة على استشعار غايتي من ذلك، سواء تلك الظاهرة على محك فضولي ورغبتي الشديدة في معرفة إلى أين ستقودني هذه الطريق في النهاية، أو غايتي الدفينة

المتوارية والتي أدركت بها حاجتي لمثل هذا التواصل مع جنس الرجال، كبحث عن العاطفة أو تعويض لنقصها، أو للتسلي والانشغال بغيرها عنها.

ظلت مشاعر الشك والارتياب والكثير من المخاوف مهيمنة على باحة احساسي وبلغت بي مبلغاً صعباً، كانت تأخذني معه إلى أقاصي بعيدة بعد النجوم عما يطرحه العقل في حدود الممكن والمعقول المتوقع، ويحاصرني بالكثير من التصورات والتوقعات المفزعة والمرعبة، حتى شق عليَّ الأمر، وكاد أن يخرجني عن طوري ويطردني من مسلكي الهادئ الذي قررت من قبل أن أسلكه، فعرفت أنه يتعين عليَّ حسم الأمر اما مع نفسي فأمتنع عن متابعة تلك الرسائل، حتى لو اضطرني ذلك إلى التخلص من (المحمول الثاني) بأن أدفنه في أبعد سلة مهملات، أو أن أحسم الأمر مع ذاك الذي يراسلني لأعرف من عساه وما غايته، وقد اخترت أن أرد عليه برسائل بالمثل، ولكن بمحتوى مغاير ومناقض تماماً وبأسلوب مختلف تماماً عما كان عليه في الغالب محتوى رسائله، وبالفعل بدأت ردودي تنهال عليه، والتي طرحت عليه فيها كل الأسئلة التي حيرتني، استخدمت معه لغة اللين واللطف أولاً، بعد ذلك كنت أقذفه بأسوأ ما حفظته من عبارات الشتيمة والسب واللعن والتحقير من شدة ما استفزني بهدوئه ولامبالاته الذي كان يبديهما، وعلى الرغم ذلك كان في بعض الأحيان يكتب ويرد إليَّ برسائل يؤكد لي فيها بأنه لا يعرفني على الاطلاق وأني أنا كذلك لا أعرفه أيضاً، إلا أن ذلك كان يزيد من شدة غيظي وغضبي، فأعاود بردودي أكيل الشتائم عليه، وهو يرد بنفس ما كان منه آنف ذلك وبنفس الهدوء، وفي إحدى رسائله أكد لي بأن تعارفنا بشكل مباشر سيكون في حكم المستحيل، ما لم يبادر أحدنا إلى ذلك ويستجيب له الأخر بالمثل، المهم أن كل ما قمت به معه لم يزايل ما كان يبدو عليه كما كنت اتصور ذلك، ولم يفدني في شيء مما سعيت إليه، وأعترف هنا أنني في غالب الوقت كنت مطمئنة بدرجة عالية نوعا ما إلى أن ما قاله لي كان هو الحقيقة، ولكن هذا الاطمئنان لم يكن ليطرد من قلبي ذلك القلق الذي كان ينتابني بين الحين والآخر أو يعوذني من شيطان الفكر في أوقات الشرود، لذا اعتقدت أنه يجب أن أتعامل معه بنفس أسلوبه وأعترف له بحقيقة ما بات يعتريني من قلق وخوف، ما الذي سببه لي من الألم والمعاناة، لعلي إذا شعرت بتأثره طلبت منه تفسير ما يقوم به، فيفعل ذلك ويريحني من ذلك العذاب.

وبالفعل طلبت منه ذلك، وكم كان سهلاً، إذ لم يمتنع بقدر ما سارع بالاستجابة لطلبي، ولكنه كان كلما قدم لي اجابة أو تفسيراً وبدأ يلاحظ بأني بدأت أصدقه وأركن إليه، عاد بعد عدة أيام ليثير زوبعة

كلامية أعادتني إلى منطقة البداية نفسها، خاصة وأنه كان يخبرني بأن ما قاله لي من قبل (صحيحاً) وأنه كان (صادقا) معي أيضاً، ولكن ذلك – كما كتب لي – لا يعني بأن ما قاله هو (الحقيقة)؟؟!!

لقد كان بارعاً في تقديم التفسيرات ونقضها مرة أخرى، وبارع في الاقناع والتأثير بطريقة غريبة، كان يستخدم معي لغة الرياضيات والفلسفة والمنطق، وتطبيقات علم النفس، وفي كل مرة كان يعود ويخبرني كيف أنه يتعامل معي على نحو ما تظهر عليه مشكلاتنا نحن البشر جميعاً على محك كل العلاقات التي نصنعها في الواقع مع أنفسنا ومع الآخرين ومع الأشياء والموضوعات، وكيف أن هذه المشكلات تنتج في الغالب لأسباب لغوية ودلالية، على أساس أننا نمارس على أنفسنا وفيما بيننا البين ما يسمى بـــ (التلاعب اللغوي) و(التحايل اللفظي) و(الخداع التعبيري) وغير ذلك من المصطلحات التي تدل على أن (الحوارات الشفهية والخطابات والمواد المكتوبة)..الخ من أنواع الكلام والتواصل التي تجري بيننا، لا تخلو من تلك الممارسات التي تؤثر على فهمنا ووعينا بالحقائق، بسبب أننا نعتمد على اللغة والكلام في التواصل وتبادل المعرفة والمشاركة أيضاً في إنتاج وإعادة انتاج أفكارنا وثقافاتنا في الأنساق الاجتماعية.

طوال تلك الأشهر العديدة التي كنت أتلقى فيها تلك الرسائل، تكونت لدي فكرة عامة عن الشخص المجهول الذي يقف وراءها، فقد عرفت من خلال أسلوبه وقدراته التعبيرية وموضوعاته بأنه شخص على قدر عال من الثقافة والاطلاع، وأنه مؤثر وماهر جدا في ادارة العلاقات، لذا لم يكن أمامي بد من اللجوء إلى الخيار الوحيد الذي كان أمامي، وهو أن استغل ما يبديه من لباقة وحسن تعامل وأخلاق رفيعة، لأطلب منه أن يتوقف عن مراسلتي، وبالفعل نجح الأمر واستجاب هو بسهولة، فتوقف عدة أيام، توقعت حينها بأنه لن يتصل بي مجددا أبدا، ولكن هذا التوقع كشف لي عن شعور أخر كان يتوارى خلف رغباتي الظاهرة التي أجبرته على الانسحاب والتواري، إنه ذلك الشعور بأني افتقدت شيئاً أو أضعته، والرغبة في الاتصال به، حدث نفس الأمر عدة مرات، كنت أطلب منه التوقف ويستجيب هو فورا، وبمجرد ما أن يتأكد لي بأنه لن يبادر مرة أخرى بإرسال رسالة، ويطول أمد غيابه، يعاودني ذلك الشعور وتراودني تلك الرغبة، فأعود وأتحرش به برسالة من عندي، ولكنه في المرة الأخيرة التي توقف فيها عن مراسلتي بناء على طلبي، تحرجت كثيراً بأي وجه سأعود به إليه بعد كل ذلك التأرجح بين منعي إياه ورغبتي في صلته، ولذا طالت مدة انقطاع تواصلنا أكثر من أي مرة مضت، ولعله شعر بافتقادي إياه، فعاد من تلقاء نفسه في اللحظة التي كنت قد يأست تماما من

عودته، واللحظة التي رغبت فيها بشدة أن يتصل بي هو من تلقاء نفسه ويكفيني شر الحرج ويزيل عني احساسي بالفقد، وقد كشفت لي عودته تلك عن مدى ما كان يتمتع به من لباقة ودماثة خلق، الأمر الذي ثبت في رأسي، إلى درجة أني عندما كنت اتذكر أني خاطبته من قبل بألفاظ وعبارات نابية، أشعر بالخزي من نفسي، خاصة وأني كنت أسأل نفسي: ماذا لو عرف حقيقة من أكون؟ كيف سيكون موقفي وقد صدر مني ذلك الكلام؟ فكان هذا الجانب واحد من الأسباب القوية التي منعتني بقوة من التعريف بنفسي إليه، في كل مرة طلب مني ورغبت أنا فيها بذلك، لاسيما وأنه أكد لي منذ البداية استعداده الكامل للتعريف لي عن نفسه بكل صراحة، لكني أنا من كان يطلب يمانع هذه الخطوة، دون أن يكون لدي سبباً واحداً واضحا ومقنعاً لذلك.

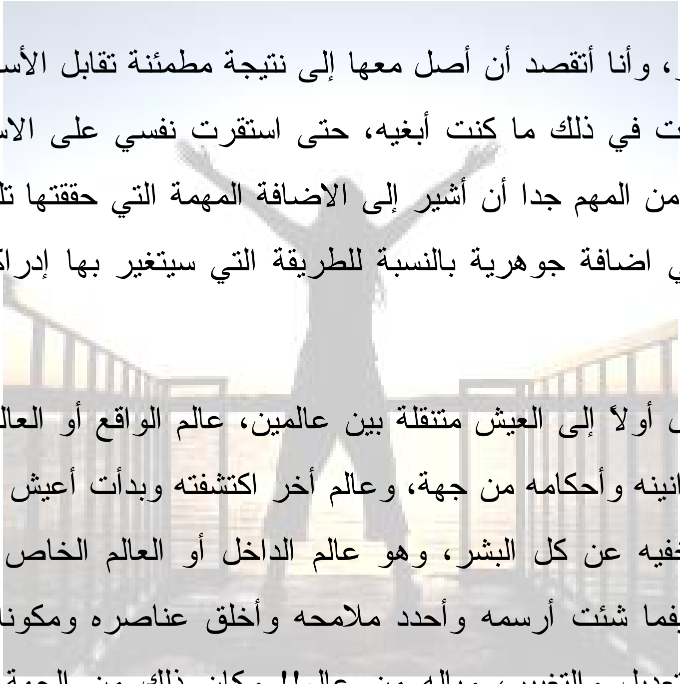

هكذا سارت بي الأفكار، وأنا أتقصد أن أصل معها إلى نتيجة مطمئنة تقابل الأساس الذي كنت مطمئنة له بالفعل، ولعلي وجدت في ذلك ما كنت أبغيه، حتى استقرت نفسي على الاستمرار في خضم هذه التجربة، لذا أعتقد أنه من المهم جدا أن أشير إلى الاضافة المهمة التي حققتها تلك الرسائل إلى حياتي خلال تلك الفترة، وهي اضافة جوهرية بالنسبة للطريقة التي سيتغير بها إدراكي للكثير من الأشياء التي كانت غائبة عني.

لقد دفعتني تلك الرسائل أولاً إلى العيش متنقلة بين عالمين، عالم الواقع أو العالم الخارجي الذي كنت أعيش فيه وأخضع لقوانينه وأحكامه من جهة، وعالم أخر اكتشفته وبدأت أعيش فيه منذ اللحظة الأولى التي أصبح لدي ما أخفيه عن كل البشر، وهو عالم الداخل أو العالم الخاص بي الذي يخضع لكل قوانيني وأحكامي، وكيفما شئت أرسمه وأحدد ملامحه وأخلق عناصره ومكوناته وأخضعها لإرادتي بالإضافة والحذف والتعديل والتغيير، وياله من عالم!! وكان ذلك من الجهة الأخرى، ومثلما بقي اهتمامي الجاد بالدراسة هو الموضوع الأول الذي يربطني بعالم الواقع، أصبحت تلك الرسائل بمثابة الرابط الوحيد الذي يربطني بذاتي ويصلني بها كل يوم وكل ليلة، وهذه اضافة تستحق الشكر من حيث كنت في أشد الحاجة إلى ذلك النوع من الشعور بالتحرر الذهني والشعوري من كل القيود والاحباطات التي يحاصرني بها الواقع، من خلال (الخيال) و(الأحلام)، وهو ما مكنني من تفريغ الكثير من أورام الكبت والانطواء والتقوقع.

كما أن تلك الرسائل كانت تمارس عليَّ نوعاً من التحريض على اجتراح المسافات التي تفصلني عن لحظة اكتشافي لذاتي، ونبذ كل ما كان قد انغرس في اللاشعور العميق مني من المواقف والاعتقادات السلبية التي كنت اتبناها تجاه نفسي، والتي لم أجدني من قبل قادرة على استظهارها واختبار صدقها وتقرير مصيرها، حتى اتمكن من تحقيق ذلك التواصل الايجابي مع نفسي، وأصل إلى أقصى درجات التفاهم والتناغم معها، فقد هدتني تلك النصوص البسيطة إلى تشخيص ما كان ممتنعاً عن التشخيص قبل ذلك من أمر نفسي، فيما يتعلق بتلك الأوقات الكثيرة التي أشعر فيها بأني لا أعرف ماذا أريد ولا ماذا أفعل، إذ أوضحت لي بأن تلك هي حالة (عدم فهم الانسان لنفسه)، كما حرضتني تلك الرسائل على كتابتها وحفظها في دفتر خاص، وكان الشعور بالخشية من أن تضيع مني تلك النصوص، أكثر شيء ألهمني أن أوثق أيضاً حياتي وأكتب تاريخي على شكل يوميات ومذكرات، حتى أصبحت كتابة تلك المدونات في كل ليلة وظيفة رسمية لا تفريط فيها أبداً، وعادة أظن إنها ستلازمني لبقية العمر.

كنت أتمنى أن أدون هنا كل الرسائل التي كتبها ذلك الرجل المجهول، والتي وثقت منها ما يحصى بألف رسالة أو دون ذلك قليلا، وهذا بقدر ما ندمت أشد الندم على ما فرطت منها وقمت بحذفه، مما يخص فترة البداية، وأنا واثقة بأنها كلها كانت رائعة ومذهلة، خاصة وأنها أصبحت بعد ذلك مجرد طور من أطوار ذلك التواصل الذي سيتحول بشكل ما إلى علاقة استثنائية بيني وبين صاحبها..

حدث ذلك بعد ثلاثة أشهر من التواصل عن طريق الرسائل، إذ بدأت أشعر بأن ثمة علاقة شخصية ذات طابع استثنائي قد نشأت بين طرفين أنا أحدهما وصاحب تلك الرسائل هو طرفها الأخر، مع أن طابع تلك العلاقة كان مجردا من أية عناصر تقليدية مباشرة، فجل ما كانت تتضمنه لا يعدو مجرد محاولات مستمرة ومتبادلة من كل طرف لاكتشاف الأخر.

التحول الأول، وقع على أدوات التواصل، حيث تحول تواصلنا من الرسائل النصية عبر الهاتف أو رسائل الـــ (SMS)، إلى التواصل عن طريق الـــ (Facebook)، مع بعض المراسلات التي كانت تتم عبر الـــ (E-Mail)، خاصة عندما كان يزودني ببعض المواد والملفات التي كان يطلب مني قراءتها، وقد ساهمت هذه الأدوات كثيراً في تهيئة أجواء مناسبة للحوارات والنقاشات التي كانت تدور بيننا، كما وفرت مساحات واسعة للخوض في موضوعات كثيرة، الأمر الذي كان له أثره في تعمق موضوعات التواصل اكثر ووضع الأساسات المتينة لبناء جسور الثقة بيني وبينه، ولكن مع الاحتفاظ

بخاصية واحدة وهي أني لم أعرِّفه بنفسي وبحقيقة من أكون أبداً، لكن بعد تلك التطورات وجدت نفسي أمام حاجة ملحة للتعرف إليه أكثر وبشكل مباشر، الأمر الذي كان يفرض عليَّ أيضاً أن أقوم بالمثل، خاصة وأني من كنت أؤجل هذه الخطوة وأتهرب من القيام بها، ومع ذلك فقد كنت متحرجة جداً من أن أطلب منه ذلك أو أن أكون صاحبة المبادرة فيه، ولذا انتظرت حتى فتح هو الموضوع معي، وكان ذلك بعد أيــام قليــلة من تحــولنا إلى التــواصل عبر الــ (Facebook) الذي أمكن معه حفظ كل ما كان يدور بيننا، ولقد حرصت كثيراً على تسجيل ما دار بيني وبينه بهذا الخصوص عندما حدث أول تعارف بيننا في دفتر مذكراتي، إذ كانت بداية الحوار عندما كتب يسألني:

- **هل لازلت مصرة على تأجيل موعد التعارف بيننا؟**
- **لا لست مصرة على التأجيل، بل أنا لا أريد أن أقوم بذلك، وإن كنت ترغب في أن تعرفني بنفسك، فلا أظن أن بوسعي الحجر عليك أو منعك أن تفعل، فهذا شأنك، أما أن أعرفك بنفسي فأرجو أن تعذرني..**
- **لماذا؟**
- **لدي أسبابي التي أحتفظ بها لنفسي أيضاً..**
- **وإذن؟!**
- **لا تعليق.**
- **ولكني أحتاج إلى أن أعرفك بدرجة ما، لأن هذا ضروري كما أعتقد، ولكي لا تظني بأني أضغط عليك أقترح عليك حلاً لهذه المسألة وأعتقد انه سيكون حلاً مرضياً، ماذا قلت؟**
- **أعرف الحل أولاً، ثم أقول لك ماذا سأقول عندها..**
- **فقط، استعيري شخصية.. أي شخصية تحبين أن أتعرف عليك من خلالها..**
- **هذا ليس حلاً.. لأنه يفترض أن أكذب عليك، فما قيمة ذلك وأنت تعلم بأني لست تلك التي أؤدي دورها؟؟!!**
- **أعرف، ولكن هل عندك حل أخر؟؟**
- **ليس بالضروري أن يكون هناك حل، فأنا لا أرى مشكلة أصلاً!!**

- بل التعارف بيننا ضروري، على الأقل فإني أرجو أن تقبلي بذلك من أجلي أنا، ولن أتردد أن أشفع طلبي هذا برجاء وتوسلات..

- يااااه!!! لهذه الدرجة تريد أن تعرفني على أي نحو؟! أكيد هناك سبب لذلك؟

- نعم، لدي أسبابي التي أحتفظ بها لنفسي!!!

- هكذا إذن؟ وأنا لن أفعل ذلك حتى لو بلغت توسلاتك عنان السماء، إلا إذا أخبرتني لماذا؟

- أنت تضغطين عليَّ، بينما أنا لم أفعل معك ذلك عندما احتفظت بأسبابك من قبل..

- أسمع، أنا أعرفك جيداً، أنت لا تفعل شيء إلا ولك من وراءه هدف، وهذا هو شرطي الوحيد ولن أتنازل عنه، فماذا قلت؟؟!

- أقول، حكم القوي على الضعيف؟؟

- حسناً، هيا أخبرني لماذا؟

- ببساطة شديدة، لأن (الصدق) لا يعني (الحقيقة)، ولأن الحقيقة يجب دائما أن تكون كاملة، ولأنها أيضاً (كل) لا يقبل التجزئة، فإن قول (99%) من الحقيقة، يجعلنا صادقين وكاذبين في نفس الوقت، ولكن الجهل بالحقيقة أو كتمانها في بعض الأحيان يكون أفضل وأسلم من معرفتها أو البوح بها، وهذا ما يفسر لماذا نلجأ إلى الكذب، إذ أن الكذب في تلك الأحيان يكون أفضل وسيلة للإبقاء على ذلك التوازن المطلوب للعلاقات والحياة لكي تستمر.

- هذا فقط؟؟

- لا، ولكن بقي هناك ما احتفظت به لنفسي، ولن أقبل أية أعذار.. رجاءً.

- حسناً، ولكن من اللياقة أن تعرفني بنفسك أنت أولاً..

- هذا صحيح، ودون أن أتأخر إليك موجز سيرتي الشخصية:-

أنا يا آنستي العزيزة، شاب في الــ (33) من العمر من [....] واسمي (أنور)- [الاسم المستعار الذي اخترته له]- من أسرة متوسطة في بلدي، ولكن بمعايير بلدك فإنا من أسرة فقيرة وفقيرة جداً، وأكافح

من أجل لقمة العيش والحياة الكريمة، بالنسبة للشكل (انظري الصورة) – [كان قد ثبت صورته على حائط صفحته].

و(أنور) هذا الذي هو (أنا) حاصل على درجة البكالوريوس في علم الإناسة (Anthropology)، والبكالوريوس في اللغة والأدب الألماني، وأنا مقيم منذ سنوات عدة في مدينة (زيورخ)، ولي هناك أعمالي الخاصة التي أديرها، والتي والحمد لله توفر لي دخلاً مناسبا.

حالياً أنا موجود في بلدي، ولن أمكث هنا طويلاً، أنا أحب القراءة والاطلاع والسفر والمغامرات!! زرت (لندن) من قبل مرة واحدة وأعجبتني كثيراً، وأكتب لك الآن وأنا أشم روائح عصورها، وأتمتع برؤية أنوار ليالها، على أنغام الموسيقى الكلاسيكية وترانيم الجوقات الدافئة.. ماذا تبقى؟! لا أعرف، ولكني أعتقد بأني حققت لك شرطك وعرفتك بنفسي، ولم يعد لك عذر من بعد..

قرأت ما كتبه لي هذا الـــ (أنور) عن نفسه، وأنا بين الفينة والأخرى أتأمل في صورته، وكأني أبحث في ملامح الصورة ما يتطابق مع ما قاله لي عن نفسه، لبعض الوقت ثبت بصري على تأمل صورته النصفية التي يظهر فيها جالساً خلف طاولة واضعاً كلتا يديه على سطحها، بكتف مائل. صورة شاب ذو بشرة بيضاء تخالطها حمرة خفيفة، تشبه إلى حد ما بشرة أغلب أبناء أسرتي، وذو شعر أسود منظم بقصة قصيرة، وشارب ولحية نابتان على وجهه بشكل خفيف، جعلتني أتوقع أنه يحلقهما في العادة، وابتسامة هادئة لا تكاد تبين إلا بعد امعان الناظر إلى عينيه الواسعتين والحادتين من تحت حاجبين دقيقين تفصل بينهما مسافة واسعة، أرخت بتحدب صغير لأنفه أن تظهر أطول بقليل مما هي عليه، وأدنى ذلك يرتسم ثغره الأحوى على استواء قوس ذقنه، التي يتوارى دونها عنق طويل تحيط به ياقة مفتوحة لسترة بيضاء مشوبة بلون وردي فاتح جداً وهادئ، كانت تلك ملامحه في الصورة، ولم يكن بوسعي حينها أن استقرأ قدر وسامته، فقط تقبلت برضا وافر أن تكون تلك صورته.

مازلت عند الصورة أتأملها، التي ربما وشت لي ملامحه عن شخص مهيب لمن يراه للمرة الأولى، ولكن مع استمرار تأملي للصورة بعد ذلك، بدأت ألمح شخص هادئ ومنظم وغامض إلى حد ما، وكما قلت آنفاً، فقد تقبلت صورته تلك بقدر ما رأيت أن صورته تعني لي شيئاً من الناحية التي وددت أن أعرفه منها.

أعود إلى ما كتبه هو عن نفسه، فبعد أن قرأته لم يراودني شك في أي مما قاله لي، فقط طرأ على بالي أن أسأله عن أشياء أخرى وددت لو أنه تحدث عنها، إلا إني خشيت أن يفسر ذلك بأني أتهرب مما

كان يرجوه مني، فلم يكن لدي ما أتعذر به عما أنا ملزمة به وراغبة به أيضاً، بقدر ما كنت استمهل نفسي لأقرر ما سأكتبه له عني، إذ لم أشأ قول حقيقة من أكون، وقاومت بشدة ما كان يدفعني لفعل ذلك، باستظهار خشيتي من أن تأتي ردة فعله على غير ما أريد، كأن يكذبني مثلاً أو أن يصدقني فيجد في ذلك ما ينفره عني، وبالتالي لم يكن أمامي من بد إلا أن أعمل بما كان قد اقترحه عليَّ، ولكن ليس باستعارة أو انتحال شخصية أخرى أدعيها زوراً وكذباً، بل أن أقول الصدق عن نفسي بقدر ما يكفي ليعرفني حقاً على وجه العموم، وأكتم ما يكشف عن شخصي على وجه الخصوص، وهي الصيغة التي استلهمتها مما قاله قبل ذلك عن الصدق والحقيقة، وكان هذا ما كتبت له عن نفسي:

- **أنا فتاة عربية من الرياض، جئت إلى لندن منذ ثلاث سنوات تقريبا بغرض الدراسة في إحدى الكليات بجامعة لندن ومجال تخصصي هو الإدارة، وأقيم هنا في بيت أسرة من أقاربي، ولولا هذا ما سمح لي بالسفر فأنا من أسرة محافظة جداً، تحرم حتى هذا النوع من التواصل الذي أجريه معك (سرا).. طبعاً، أنا عازبة، كما أني متوسطة الجمال والحقيقة إني ربع جميلة، وأعيش في لندن كما لو أني أعيش في بلدي، مع اختلافات طفيفة.. ليس لدي هوايات، وعلاقاتي محدودة جداً وكلها في إطار الكلية، وأنا لم أكذب عليك في شيء مما قلته لك عني، ولكني أيضاً لم أخبرك بكل شيء!!**

توقعت، وربما تمنيت أن يلتفت إلى ما قلته بشأن (جمالي)، وقلت لنفسي لعله لو توقف عند ذلك وعلق عليه، سيتضح لي شيء مما لم أدرك مرادي منه بشيء محدد، لكنه كمن لم يكن يهتم، تجاوز كل شيء تماماً، واكتفى بأن يسألني بالعربية والانجليزية:

- **What is your name?**
- **Shoes it for yourself?**

فكر قليلاً ومن دون أن يتأخر فعلاً، بينما استبطأت رده كثيراً، حتى ظهر تعليقه في ذيل نافذة الدردشة الخاصة وكأنه في ذيل أنفاسي الأخيرة، وقد كتب لي:

- **لقد اخترت لك اسم (تيماء)، فما رأيك بهذا الاسم؟**

أعجبني الاسم لسبب واحد فقط، وهو أنه لم يكن مألوفاً لدي، ولم أكن أعرف من تسمى به من قبل في محيط معارفي، مع أني كنت أجهل معناه تماماً، لذا بقيت مدينة له بإطراء لحسن اختياره وذوقه لفترة، قبل أن أقول له ذلك، فكل ما علقت به حينها:

- O. K

وفي نفس الليلة طلب مني أن أفتح رسالته في بريدي الالكتروني، لم أتوقع أنه سيرسل إليَّ بوثائق ومستندات تثبت ما قاله لي عن نفسه، وبقدر ما تفاجأت بقدر ما اعجبت بشجاعته وثقته بنفسه، فقد عرفت في نفس الوقت أنه تعمد فعل ذلك ليزيل عني كل أوزار الشك ويخلصني من هواجس الظنون والمخاوف التي قدر هو إني أعاني منها، وهذا بالفعل ما نلته بما يكفي لأثق به واستمر في التواصل معه، كانت هذه بداية قصتي مع ذلك الـــ (أنور)، الذي اقتحم جدران حياتي فجأة ودون سبق اصرار أو ترصد، ليكون لي معه وله معي شأن أخر من بعد ذلك، وأي شأن؟! فقط، عليَّ أن أذّكر نفسي برواية هذه القصة من الناحية التي يظهر مكنونها العميق، مما دار بيني وبينه من أحاديث وحكايات، كانت لها الأثر البالغ في نفسي وعلى شخصيتي، ولعلك ستندهش من ذلك أكثر مما كانت عليه دهشتي أنا.. حيث سيصبح (أنور) ذلك القاسم المشترك بين عالمي الخاص وعالم الواقع..

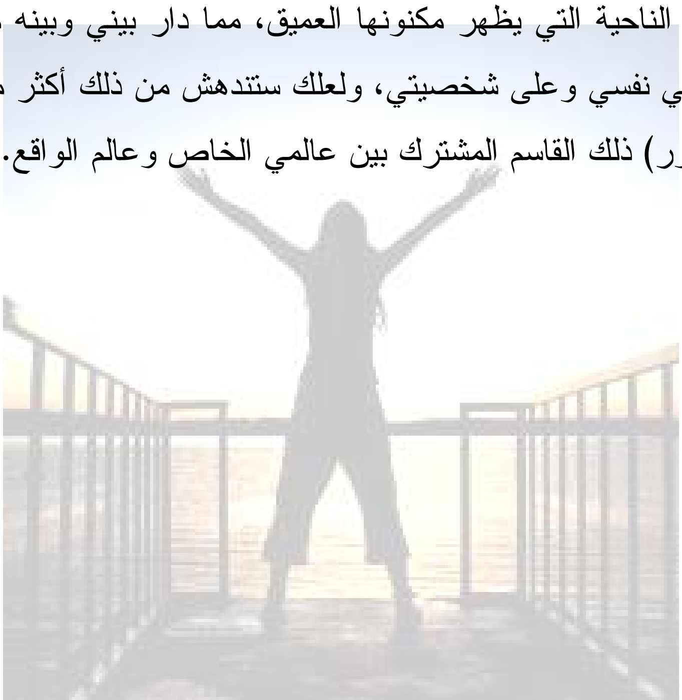

الفصل التاسع

أول الغيث.. فضيحة!

عالم الواقع، كان لي فيه شأن أخر طوال تلك الفترة التي عشت فيها تجربة العلاقة الاستثنائية التي نشأت ومضت تتحدد معالمها وتتكشف على مهل طبيعتها بيني وبين (أنور)، لم يكن ذلك الشأن مرتبطاً بشخصي أو دراستي، وانما كان شأناً خاصاً من الشؤون التي تخص أسرتي وعائلتي التي تتربع على عرشها في سقف العالم الذي أمكن لأسلافي أن يجدوا لهم حيزاً على خارطة العالم ليقيموا على امتداد مساحته الجغرافية دولتهم ويكتبوا على رقعتها بقلم الزمان تاريخهم، وأي شأن عساه يكون غير ذاك الذي يظهر من زاوية ما أمكن لـــ (أميرة) غريرة مثلي – إذا صدقت– أن تراه وتدركه؟!!

سأتجاهل كل ما يمكن أن يخطر ببالك، وأركز فقط على ما بدا عليه الأمر في الواقع، وطالما إني أشرت قبل سطرين من الآن، إلى تصنيف ما يمكن أن أكون قد تبنيته للنوع (الأميري) الذي انتمي إليه، في النسق الذي هيأ لي فيه الواقع أن أحصر مثل هذه الرؤية النوعية والتصنيفية في حدودها الضيقة، التي تحظى داخل مساحتها كل فتاة تنتمي لأسرتي بشرف حمل لقب (صاحبة السمو الأميرة)؟ هناك، حيث كل البنات والنساء (أميرات)، حق لي أن أتساءل: ما الذي يمكن أن يحجب عن إدراك

الناس كل تلك التباينات والاختلافات بين بنات ونساء الاسرة المالكة، فلا يروا إلا حقيقة أنهن من طينة واحدة؟! وما الذي يجعلنا بالفعل من طينة واحدة؟!

أريد أن أقول شيئاً مهماً، وهو أنه لو كانت مشكلات المرء منا ومعاناته تتوقف عند حدود ما يتعلق به وحسب، لكنا نعيش في هذا العالم على نحو أخر يختلف تماماً عما هو عليه الواقع، الواقع الذي يمثل كل واحد منا فيه جزءً من شبكة يتأثر فيها بغيرة ويؤثر هو في غيره أيضاً في نفس الوقت، وعلة هذا القول ناجمة عن احساسي في ذلك الوقت بأن عليَّ أن أتعرف على لندن بأكثر من طريقة، وإن أواجه مشكلات لا ترتبط بي شخصياً، بقدر ما ترتبط بالشبكة التي انتمي إليها، خاصة تلك المشكلات التي فرض عليَّ دوماً مواجهتها وتحمل تبعاتها، لا لشيء إلا للسبب واحد فقط هو كوني (أميرة)، فقد كان عليَّ أن أقبل بكل مغارم هذه الصفة مثلما قبلت بكل مغانمها، ولهذا السبب ذاته كان عليَّ أن أتعرف على لندن من ناحية أخرى وإن أراها بشكل أخر.

سأكتفي بهذا القدر من التمهيد، الذي لا أقصد منه دوماً إلا مجرد طرح ذلك السؤال الذي يطرحني أنا كسؤال أخر في المقابل، ليس على سطور الصفحات، بل على بساط الحياة التي يتفاوت فيها البشر ويختلفون إلى فئات وشرائح وطبقات، في عالم تسري فيه قوانين التباين والتعدد تلك، إلى حد تبــريــر الحروب وتشريع الظلم والقمع والهتــك والفضح والسبي والاغتصاب، بحيث يجري كل ذلك باسم الله وبموافقته ورضاه، والكل مع ذلك يقبل بذلك على حد سواء، لا يفرق معه أن كان المرء ظالماً أو مظلوماً، في حين ننسى ونتجاهل تماماً حقيقة أننا جميعاً من طينة واحدة، وإذن لماذا نصر على أن تسير الحياة على هذا المنوال ويمضي العالم في هذه الطريق؟! سأكتفي بهذا وأعود إلى مهمة سرد القصة، فلننظر ما عساه يأتي منها!!.

لم تكن قد مضت عدة أيام فقط على بدء الدراسة، عندما اتصلت بي خالتي (سمية) ذات مساء لتبلغني وتدعوني لحضور مأدبة غداء وحفل عائلي محدود في اليوم التالي، بمناسبة وصول الأميرة (شهد) ابنة عم (هند) من الرياض إلى لندن، والتي كانت قد تزوجت قبل ذلك بفترة قصيرة، من رجل الأعمال الشهير والثري والمقيم في بريطانيا (سلمان الرجوب)، وقد انهت خالتي اتصالها بعد أن تأكدت من قبولي الدعوة وعزمي على الحضور، ولكن هذا الخبر أدهشني، فقصة هذا الزواج قصة عجيبة، وبحسب ما كنت أعرفه قبل ذلك الاتصال، هو أن ذلك الزواج لن يتم أبداً..

ذهبت إلى الحفلة في اليوم التالي، والتقيت هناك بـــ (شهد) وهنأتها بطريقة حاولت من خلالها أن أستفز فيها شعوراً قد يظهر وينعكس على ملامحها ويكشف لي عما إذا كانت قد وافقت على زواجها باقتناع أم ثمة ما دفعها إلى ذلك مرغمة، وبالفعل بدا منها ما جعلني أثق تماماً بأن شكوكي كانت في محلها، رغم إنها اجابتني بأنها وافقت بالفعل، بعد أن ظل العرض سارياً طوال تلك المدة التي سبقت موافقتها، ومن ثم فقد تعمدت بعد ذلك أن أتصرف معها بشكل طبيعي، لأن كل شيء ما عدا ذلك بدا لي طبيعي جداً، كما أن علاقتي بـــ (هند) بدأت تعود بشكل ما إلى ما كانت عليه منذ ذلك الحين، غير أن الأمر أحتاج عدة شهور قبل أن يتضح لي منه شيئاً.

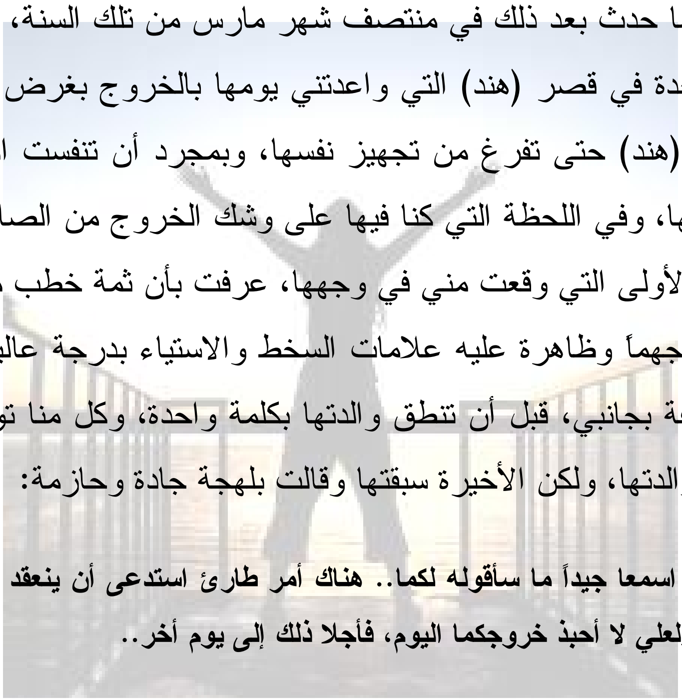

لازلت أذكر بالتحديد ما حدث بعد ذلك في منتصف شهر مارس من تلك السنة، في فترة ما بعد عصر أحد الأيام، كنت متواجدة في قصر (هند) التي واعدتني يومها بالخروج بغرض التنزه والتسوق، وبعد أن طال انتظاري لـــ (هند) حتى تفرغ من تجهيز نفسها، وبمجرد أن تنفست الصعداء ورأيتها قادمة نحوي في صالة جناحها، وفي اللحظة التي كنا فيها على وشك الخروج من الصالة، دخلت علينا خالتي (سمية)، ومن النظرة الأولى التي وقعت مني في وجهها، عرفت بأن ثمة خطب ما قد حصل، فقد كان وجه خالتي (سمية) متجهماً وظاهرة عليه علامات السخط والاستياء بدرجة عالية، تبادلنا النظرات أنا و(هند) التي كانت واقفة بجانبي، قبل أن تنطق والدتها بكلمة واحدة، وكل منا تومئ للأخرى متسائلة، همت (هند) أن تسأل والدتها، ولكن الأخيرة سبقتها وقالت بلهجة جادة وحازمة:

- **(هند)، (تيماء).. اسمعا جيداً ما سأقوله لكما.. هناك أمر طارئ استدعى أن ينعقد الليلة اجتماع للسفارة هنا في القصر، ولعلي لا أحبذ خروجكما اليوم، فأجلا ذلك إلى يوم أخر..**

كنت منصتة لما تقوله خالتي (سمية) باهتمام، حتى إني لم أعرف عندما سمعت (هند) تتكلم أن كانت خالتي قد توقفت عن الكلام بنفسها، أم أن (هند) قاطعتها، بسؤالها:

- **وما هي علاقتنا بأمور السفارة أمي؟!**

- **الأمر لا يتعلق بالسفارة بحد ذاتها، بل بما حدث واستدعى أن تنشغل بأمره الأسرة والحكومة كلها، هناك كارثة.. حصلت.**

عندما سمعت كلمة (كارثة) وقبلها (الأسرة والحكومة) والسفارة، خطر على بالي أن بلدنا تعرض للغزو، أو أن حرباً لعينة اندلعت، وقبل أن انساق تماماً وراء تخيلاتي، كان الفضول قد تملكني تماماً لمعرفة عما كانت تتحدث عنه الخالة، ولكني لم أجد الجرأة لأسالها عن ذلك، فما كان مني إلا أن عطفت ذراعي اليسرى قليلاً ولكزت جانب (هند) بمرفقي من حيث لا تلحظ والدتها، وجعلت ذراعي خلف ظهري إلتفتت (هند) ناحيتي وحركت لها حاجباي، ثم أفزعني صوت خالتي التي كانت قد بدأت تنظر إلينا بارتياب، وأفزعني سؤالها:

- **هل تخفيان شيء عني؟!**

- **لا.. أبداً.. [أجبنا أنا و(هند) في وقت واحد]**

كانت كل واحدة منا تنظر للأخرى ولا تطيل ذلك حتى تعود لتنظر ناحية خالتي الواقفة أمامنا، وقد احتدت نظرات ارتيابها أكثر، وانقلب الموقف رأسا على عقب، فبدلا من أن تخبرنا خالتي بما استجد، وجب علينا أن نقنعها بأن شكوكها بغير محلها، وبقدر ما كنت ساذجة، لم أدرك أبداً أن شكوك خالتي كانت في محلها، ولكن من الناحية التي كنت أجهل حقيقة ما كانت تعرفه (هند) وتكتمه عني.

لم أعطي ما كانت تخشاه خالتي (سمية) أي اهتمام في تلك اللحظة، لسبب واحد هو إني كنت أجهل ما أرادت أن تخبرنا به هي وما يمكن أن يجعلني أنا وابنتها (هند) في موضع شكها، بل كان فضولي الشديد لمعرفة ما وصفته خالتي بأنه (كارثة) هو أكثر ما اهتممت به، وفضولي وحده كان أكثر شيء يخلق بداخلي تلك الشجاعة، التي احتاجها لمعرفة ما أريد معرفته، لذا وبشكل عفوي كانت استجابتي وردة فعلي التي أبديتها وأنا أسأل خالتي عما لديها، كافية لإزاحة شكوكها جانباً، واستئناف ما جاءت لأجله، إذ قلت لها:

- **خالتي، بالله عليك؟؟ تعلمين أن ما من شيء يمكن أن تخفيه إحدانا عنك، فقط أخبرينا ما الذي حدث وأثار هذا الفزع كله في عينيك؟!**

- **ماذا أقول لكما؟ غير إنها مصيبة أقدمت عليها (شهد)؟؟؟**

قالت خالتي ذلك، ودون قصد مني قاطعتها متسائلة:

- **(شهد) من؟!**

- **(شهد) لا سواها..**

قاطعتها مرة أخرى:

- **ماذا فعلت؟! اخبريني خالتي وبدون مقدمات؟!!**

- **فضحتنا، وتنوي أن تُسمع بنا العالم كله، هربت من بيت زوجها من عدة أيام، ولا أحد يعرف حتى الآن لماذا؟ ولا إلى أين؟ والله وحده يعلم، ماذا سيحدث لو انكشف هذا الأمر للصحافة؟؟**

كانت (هند) لاتزال واقفة بجواري، والوجوم مسيطراً على وجهها، الأمر الذي اعتبرته – بسذاجة- مماثلاً لما كنت عليه بعد ما سمعته من والدتها بشأن (شهد)، والذي استدعى أن يعقد اجتماع سري لفريق عمل السفارة. طبعاً، ألغينا برنامج ذلك اليوم، واستأذنت خالتي (سمية) وابنتها (هند) بأني سأغادر إلى شقتي بمجرد ما أن تلوح لي فرصة للخروج من القصر، دون أن تلمحني عيون أحد الحاضرين.

في شقتي، لم أهتم بشيء في تلك الليلة إلا بمراجعة ما حدث معي في القصر يومها، إذ لم أكن لأفوت ذلك الحضور الطاغي للأمر في ذهني، على الأقل كان يجب عليَّ أن أسجل ملاحظاتي واطرح تساؤلاتي، وأبحث في ما وراء الأحداث لعلي أجد ما يربطه بما حفظته ذاكرتي، وانتبهت له فيما مضى، وأول ما طرأ على بالي، هو استحضار شكوكي تلك التي راودتني عندما تأكد لي زواج (شهد) من المسمى (رجوب)، من المؤكد أن موافقتها لا تعبر عن حقيقة موقفها الرافض، وأن ثمة ما دفعها لإعلان موافقتها وقبولها اتمام الزواج الصفقة، خاصة وإن تلك الموافقة جاءت بعد مضي ما يقارب العامين، وكان عليَّ أن أتساءل عما دفعها لذلك، حتى إنها اشترطت أن يتم حفل الزفاف بشكل ضيق وغير معلن، ثم ما الذي حدث ودفعها بعد مرور عدة أشهر على اقامتها في كنف زوجها في لندن إلى الهرب، ولأنه من الصعب الاعتقاد بأنها قررت الهرب ونفذت قرارها دون أن يكون هناك من ساعدها وشجعها، أو دون أن يكون هناك ما قررت أن تضحي بكل شيء من أجله، بما في ذلك سمعة أسرتها وسمعة المملكة بأسرها، وفي كل جهة كنت أقلب عليها الأمر بحثاً عما قد يدلني على شيء يساعدني في تفسير هذه الواقعة، كنت أجد (هند) واقعة في دائرة شكوكي بأنها قد تكون على علم مسبق بما عزمت عليه وقامت به (شهد)، خصوصاً وانهما كانتا مقربتان من بعضهما البعض، ومن المؤكد أن الفترة التي قضتها (شهد) في لندن كانت قد جعلت من (هند) أقرب الناس إلى (شهد)، فضلاً عما يمكن

أن يكون قد ألمح به لي شك خالتي (سمية) بنا أنا و(هند) لما علمته دوماً من قرابتي الشديدة بابنتها، وكيف فاتني أن أركز على موقف (هند) في تلك اللحظة. يااااه.. كم كنت غبية؟؟ وفي هذا المسار الذي اتخذته افكاري بهذا الشأن في تلك الليلة، كان عليَّ أن اتوقع ما يمكن أن يحدث لو تسرب خبر هروب (شهد) إلى الصحافة البريطانية، التي تشتهي فضائح أمرائنا وأميراتنا كما تشتهي النار الحطب؟!

أنبهك هنا بأني إذا ما قررت أن أستمر في تناول هذا الموضوع، فإني سأختص فقط بما يتعلق بالأميرات، فليس لي رغبـــة أبداً في التعرض لفضائح اخوتي وأبنـــاء عمومتي من الأمـــراء الفحـــول، ولست ملزمة بإيراد تفسير لذلك.

فضائح أميرات الأسرة المالكة، لم تكن بتلك الندرة التي يمكن تصورها، عند الحديث عن لحظة انتشار خبر (هروب الأميرة شهد)، بل على العكس من ذلك، بحكم ما دفعني من قبل إلى البحث في هذا الأمر من قبل، كما أن الأمر لا يقتصر على فضائح الأميرات في لندن وحسب، بل ويمتد ليشمل فضائحهن في كل عاصمة ومدينة، اتيح لصحفيي الفضائح وعدسات المصورين الانتهازيين أن تسجل خبر ما تقوم به أميرة في تلك المدينة وترصد عدسة الكاميرا احداهن من مسافة قريبة، كافية لإظهار ملامح وجهها وما يدل على هويتها، فضلاً عن تقنيات أخرى أكثر حرفية واتقاناً، فقبل عدة سنوات نشرت إحدى الصحف الأمريكية مقالاً أشار إلى ما اعتبرته الصحيفة مؤشرات سلوك جنسي مريب لأميرة عربية وبنت ملك سابق، قررت أن تعيش في هوليود (Hollywood)، بعد طلاقها من زوجها الأمير الثري، وقد أوحت تلك المؤشرات إلى أن الأميرة تسعى إلى اقامة علاقات مشبوهة وغير مستمرة مع نجوم السينما الامريكية المشهورين، بهدف لفت نظر واحد منهم إليها بعد أن فشلت في جذبه إليها، وطبعاً استشهدت الصحيفة بما اعتبرته واقعة فعلية وأكيدة، من أن الأميرة كانت تحرص على أن تتواجد في الأماكن التي قد يتواجد فيها الممثل الوسيم والمشهور، وأنها دفعت مبلغاً ضخماً على سبيل (البقشيش) لعامل في مقهى، مقابل أن يذهب ويخبر فتاها الذي كان متواجداً هناك بأن الأميرة ترغب في التعرف عليه والتحدث إليه، ولكن ما حدث هو أن الرجل تجاهل ما أخبره به النادل، وخرج متعمداً من المقهى، لتخرج الأميرة من بعده غاضبة، ويبقى النادل الذي فاز بالثروة التي هطلت عليه!!!

والأمر لم يبدأ بذلك، بل كان استمرار لقصص أخرى لم تنقطع في يوم من الأيام، فقد نشرت إحدى الصحف البريطانية بعد فترة قليلة من نشر خبر أميرة هوليوود خبر أميرة أخرى وابنة ملك أخر، قررت أن تتخلى عن امارتها وتتحول إلى (عارضة أزياء)، وهو الخبر الذي كان مسلحاً جيداً بما يثبت صحته، خاصة بعد أن كسبت الأميرة السابقة وسفارة حكومتنا في واشنطن القضية التي رفعتها في المحاكم الأمريكية ضد الصحيفة التي شهرت بها، فكانت التصريحات التي أدلت بها أميرتنا عارضة الأزياء لبعض الصحف المتخصصة، والصور التي التقطتها العدسات لها في أكثر من موقع كافية لأن تتأكد للعالم بأسره فضيحة تحول الأميرة العربية والمسلمة سليلة الأسرة المالكة والحاكمة والقائمة على تطبيق شرع الله إلى عارضة أزياء، أو بالأصح عارضة جسد ملكي له تضاريسه المميزة وتقاطيعه الفريدة، وكان على حكومتنا أن تصنع المستحيل من أجل منع وصول الخبر والصور إلى مسامع وأنظار الشعب في الداخل، وهذا ما كان المستحيل بعينه في عصر عنكبوت الــ (Net)؟؟

والحقيقة أن الذاكرة الرقمية لشبكة العنكبوت المريعة وارشيفات القنوات الفضائية، حافلة بالكثير والكثير من هذا النوع من الأخبار والمواد التي يسيل لها لعاب الملايين من البشر ذكوراً واناثاً، فنقلاً عن هذه الصحيفة نشر موقع [؟] صور الأميرة [....] وهي ترتدي ملابس فاضحة، ونقلاً عن تلك الصحيفة انفرد موقع [؟] بنشر صور ساخنة بالــ (مايوه) للأميرة [....]، وفي الــ (You tube) مقطع للأميرة (سكرانة)، ومقطع أخر للأميرة (هيمانة)، ومقطع أخر يغطي خبر اعتقال الشرطة الأمريكية للأميرة (طرزانة)، بتهمة الاعتداء بالضرب المبرح واستخدام العنف ضد خادمتها الفلبينية المسكينة، والأميرة (افتح يا سمسم) التي اشتهر اسمها وذاع صيتها بأشهر عملية سرقة لــ (Under Wear) من أرقى المعارض والمحلات التجارية في عاصمة الأزياء (Paris)، وهي الفضيحة التي أطلق عليها في وسائل الاعلام الناطقة باللغة العربية بــ (فضيحة الملابس الداخلية)؟؟!!

وتستمر سلسلة الفضائح، أميرة زارت لندن في بداية فترة الحمل، وهناك جاءها (الوحم) فاشتهت أن تأكل شوكولاتة، ولم يكن يطفأ حمى وحمها واشتهائها، إلا شراء محل شوكولاتة بأكمله، بثمن زهيد طبعاً، فقط (750)؟؟ ولكن (750) ماذا؟ لا تخف فليس بــ (750) مليون بل بأقل من ذلك بكثيييير!! فقط (750) ألف دولار!!!. ولن أنسى خبر الأميرة الصغيرة (مدمنة) التي دخلت في حالة اكتئاب دفعتها إلى إدمان المخدرات، وفي النهاية (انتحرت)، ترى ما الذي يمكن أن يجعل حياة أميرة ثرية

كئيبة؟! لن تصدق إذا اخبرتك بالحقيقة!! لقد كان سر شقاء تلك الأميرة وسبب كئابتها وإدمانها، ليس إلا كونها (فتاة)!! نعم لقد شعرت طول عمرها بالدونية والنقص بسبب طريقة معاملتها من قبل والديها مقارنة بالطريقة التي كانت تتم بها معاملة اخوتها الذكور، لذا قررت أن تتحول إلى (اميرة ذكرية) أو كما يقال عادة (مسترجلة)، فكانت تحلق شعرها مثل الأولاد، وتلبس ملابس الأولاد، وتتصرف مثل الأولاد، فضلاً عن كون نصف عقدتها كانت كامنة في كونها لم تكن جميلة؟!! حاولت أن تجد حلاً لمعضلتها تلك، لكنها فشلت وقررت في النهاية أن تموت؟!

والأمر من هذه الناحية كما تتناوله الصحف الصفراء، لا يتم التعامل معه باعتبار تلك الفضائح مجرد وقائع ترتبط بنماذج فردية تقترن ببعض الأمراء أو الأميرات، بحيث لا يمكن تعميمه واسقاطه على الجميع، بل على العكس تماماً، تُطرح تلك الوقائع من تلك الزاوية التي تعتبرها نموذج سائد ومعروف عن أبناء وبنات الأسرة المالكة، ويجسد طبيعة جوهرية تغلب على الجميع دون استثناء، وهذا الاعتقاد الراجح يرتكز على وقائع ارتبطت بطابع أسري، بمعنى أن هناك فضائح ترتبط بـــ (أسرة ملكية: الأمير وزوجته وابنائه وبناته)، ولكي تقترب من الصورة أكثر، سوف استشهد على نحو متعجل بمسلسل فضائح الأمير (بدر) وزوجته المغربية الأميرة (قمر) وابنتهما الأميرة (شمس) واشقائها، في قاهرة المعز و(أم الدنيا) شقيقتنا العربية طيلة سنوات اقامة هذه الأسرة هناك، والتي لم تقصر صحافة اخواننا في مصر بسردها تباعاً وعلى التوالي وبخطط ممنهجة وقصص موثقة بمحاضر في أقسام الشرطة، وعرائض ودعاوى وملفات وأحكام قضائية وعقود زواج عرفية وشهادات كلاب بوليسية وضحايا أبرياء!! فضائح بدأت بليالي السهر والرقص والدعارة الباذخة، سرعان ما أصبحت في طورها الثاني فضائح اعتداء بالضرب ومحاولات قتل، تطورت بعد ذلك إلى فضائح زواج وطلاق بأوراق عرفية وصفقات تجارية ومشروعات مشبوهة، إلى أن انتهت مؤقتاً بفضائح نصب واحتيال وسرقة أموال وممتلكات، قبل أن تنقل تلك الأسرة الملكية النموذجية نشاطها وأعمالها وتنتقل هي أيضاً إلى لندن. وكثّر الله خير خالتنا (روز اليوسف).. والله ما قصرت أو بخلت علينا بشيء من أخبار تلك البطولات و(الروشنات) الأميرية المذهلة!!

هذه هي الصورة إذن:

أميرات عربيات مسلمات فاحشات الثراء، (مختونات) ومطلقات وعوانس، سئمن من ارتداء الملابس السوداء والعيش خلف الأسوار والجدران، يسعين وراء الموضة والتعري واصطياد الفحول من رجال

الخامات الأوربية الشقراء والصهباء، يشترينهم بأموالهن، من أجل اشباع ما هن محرومات منه في بلدهن من الرغبات العاطفية والمتع الجنسية، يميلن إلى الأريحية والسلطنة بكل وسائل تعديل المزاج وطرق بلوغ الكيف، ابتداءً بالسجائر الكوبية والشيشة بنكهات العسل والقرفة والفواكه والنعناع، ومن المؤكد إني لن أنسى ذكر المعسل بنكهة (الجرجير) المثيرة، وصولاً إلى زجاجات النبيذ المعتقة وانتهاءً بالحشيش والمخدرات، في أجواء لا تخلو من الصحبة الرائعة والرفقة الكافية والوافية مع الولدان والغلمان والفتوات المكهربة من ذوي: (اللسعة.. مووووت والله مووووت)!! كما اشتهرت إحدى الأميرات بلازمتها هذه التي كانت ترددها باستمرار في كل مرة تصف فيه اولئك الشبان.

بدأت عملية البحث السرية عن الأميرة (شهد)، ولأيام عديدة لم تسفر النتائج عن شيء، كأنها (فص ملح وذاب)، وكان لهذا الموضوع فائدته بالنسبة لي، فقد أتاح لي أن اتواصل مع (هند) بشأنه كل يوم تقريباً، مما اعاد أجواء الحميمية بيني وبينها، ولو لم يحدث ذلك لاصطنعت ذلك اصطناعاً، من أجل أن أمهد الطريق لنفسي، لمعرفة حقيقة هروب الأميرة (شهد) وحقيقة من ورائه أيضاً، والتحقق من صحة شكوكي من أن (هند) قد تكون ضليعة في هذا الأمر الجنوني، الذي لم يكن يعلم أحد غير الله إلى أين سيفضي ويؤول في النهاية، لذا شعرت بأنه ولو لم يكن لدي الاهتمام القوي بهذه المشكلة، إلا انني يجب أن أكون حريصة على معرفة كل خباياه، من يدري.. لعلي أجد نفسي متورطة فيه مثلما كان بالإمكان أن يحدث ذلك عندما لاحظت بوادر شكوك خالتي (سمية) في ذلك اليوم، لذا وجدت أن عليَّ أن استدرج (هند) بحيث يفضي إليَّ بما عساه تخبأه من أسرار علاقتها بهروب (شهد)، وأن أتعجل في اكتشاف ذلك.

واعدت (هند) على أن نلتقي في أحد أيام العطلة الأسبوعية، وأن نقوم بنزهة هادئة على الأقدام على طول مجرى نهر التايمز، كانت خطتنا أن نبدأ من (كاتي سارك) في (غرينتش) أما النهاية فأن نصل إلى أقصى ما يمكننا بلوغه أو نستمر حتى نصل إلى (London Eye)، وقد اتيح لنا أن نأخذ استراحة في احد المقاهي الرائعة في وسط لندن، وهناك سألتها:

- **بالمناسبة يا (هند).. ما من أخبار جديدة بشأن (شهد)؟!**
- **لا، لا أعتقد أن هناك جديداً، كل ما أعرفه أن البحث الذي يقوم به فريق السفارة سيتوقف، وأن السفارة قد تلجأ إلى الشرطة الانجليزية ببلاغ أن (شهد) ربما تكون قد تعرضت للاختطاف..**

- **بالفعل، كيف لم يخطر هذا ببالي، لماذا نصر على اعتبارها هاربة، بينما قد تكون هي مختطفة من قبل جماعة ما؟ [قلت لها]**

- **(تيماء)، لو كانت قد اختطفت، لكان خاطفيها قد اتصلوا بنا وبدأوا في المساومة والكل يعي ذلك، ولكن التقدم ببلاغ رسمي أنها أختطفت أفضل من أن إبقاء الامر سراً، فما من سر يبقى سراً في لندن لفترة طويلة، على الأقل هذا سيحجب حقيقة هروبها.**

- **ولماذا أنت متأكدة من أنها هربت وليس أنها أختطفت؟!**

- **لأن هذه هي الحقيقة وعلينا أن نتقبلها.. (شهد) هربت ومن المؤكد إنها فعلت ذلك قاصدة.**

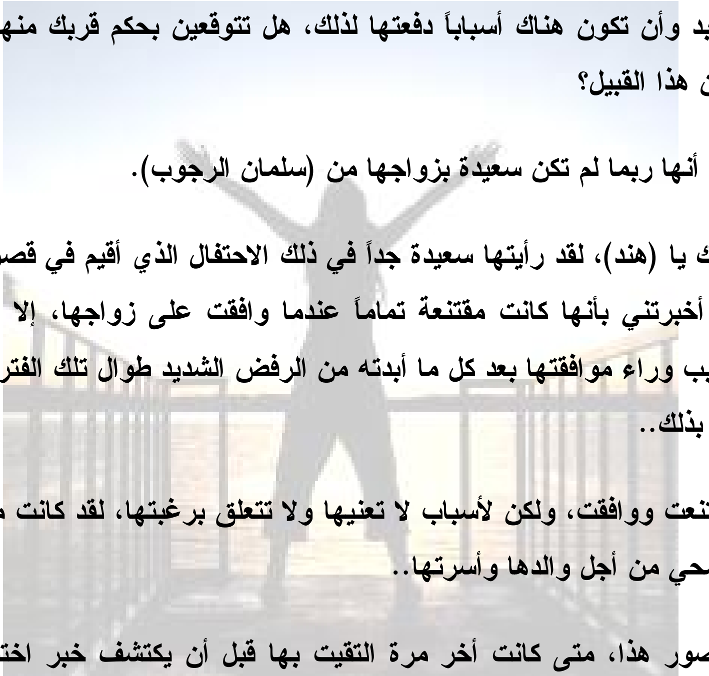

- **ولكن لماذا؟ لابد وأن تكون هناك أسباباً دفعتها لذلك، هل تتوقعين بحكم قربك منها خلال الفترة السابقة وجود شيء من هذا القبيل؟**

- **يكفي أن نتوقع أنها ربما لم تكن سعيدة بزواجها من (سلمان الرجوب).**

- **لا، لا أعتقد ذلك يا (هند)، لقد رأيتها سعيدة جداً في ذلك الاحتفال الذي أقيم في قصركم عندما وصلت إلى لندن، ثم أنها أخبرتني بأنها كانت مقتنعة تماماً عندما وافقت على زواجها، إلا أن كنت تعلمين ما لا أعلمه عن السبب وراء موافقتها بعد كل ما أبدته من الرفض الشديد طوال تلك الفترة التي سبقت الزواج، فقد تفاجأت أنا بذلك..**

- **صحيح، لقد اقتنعت ووافقت، ولكن لأسباب لا تعنيها ولا تتعلق برغبتها، لقد كانت مجنونة عندما اعتقدت إنها بذلك ستضحي من أجل والدها وأسرتها..**

- **أستطيع أن اتصور هذا، متى كانت أخر مرة التقيت بها قبل أن يكتشف خبر اختفائها؟ أسألك ظناً أنك يمكن أن لاحظت شيئاً غريباً فيها، ولم تكوني لتدركيه لحظتها.**

- **أخر مرة التقيت بها كانت قبل اختفائها بثلاثة أو اربعة أيام، وكان لقاءً سريعاً لم يدم لأكثر من ساعة في قصرنا، كانت طبيعية ولا يبدو عليها شيء..**

أدركت عند هذا الحد، بأني لن أحصل من (هند) على شيء إذا استمر حديثنا على هذه الوتـــيرة، لذا رأيت أنه من المناسب أن احرف مسار الحديث، وأن أمارس عليها نوعاً من الضغط علها تستجيب، فقلت لها:

- والله إنها مشكلة، عموماً فأنا أحمد الله على أن لا علاقة لك بما حدث، ألم تلاحظي شكوك خالتي (سمية) عندما جاءت تبلغنا بالأمر في ذلك اليوم، لا أعرف ولكني أحسست بأنها كانت تراقب ردود افعالنا بشكل شديد وكأنها تريد أن تتأكد من شيء ما.. هل لاحظت أنت ذلك؟ أم لا؟

- شعرت بشيء من هذا.. ولكني لم أهتم.

- (هند).. الأمر جد خطير والحقيقة أنني خائفة من أن أجد نفسي متورطة فيه، مع ما أنا واثقة فيه من نفسي بأن لا علاقة لي به البتة، إذ لم التق بـــ (شهد) إلا مرة واحدة في ذلك الاحتفال، فكيف لا تكوني أنت خائفة وأنت كما علمت منك، أكثر من كانت معها على اتصال؟ بل أنا خائفة جداً ومرعوبة عليك وغريب أن تكوني بهذا البرود..

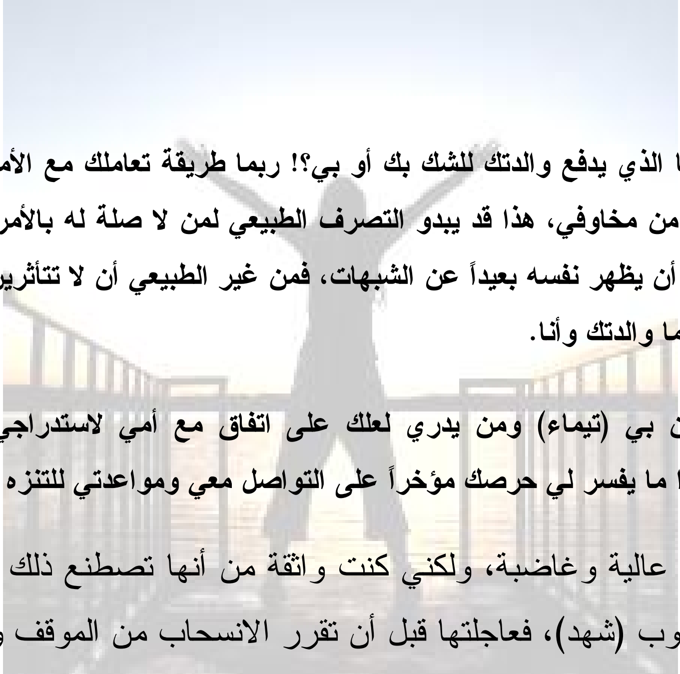

- ماذا تقصدين؟؟

- قصدي واضح، ما الذي يدفع والدتك للشك بك أو بي؟! ربما طريقة تعاملك مع الأمر هي السبب، انظري إلى ما أبديته لك من مخاوفي، هذا قد يبدو التصرف الطبيعي لمن لا صلة له بالأمر، في حين تبدو ردود فعلك، كمن يتعمد أن يظهر نفسه بعيداً عن الشبهات، فمن غير الطبيعي أن لا تتأثرين بما جرى أو تخافين منه على نفسك كما والدتك وأنا.

- إذن، فأنت تشكين بي (تيماء) ومن يدري لعلك على اتفاق مع أمي لاستدراجي والتحقق من صدق شكوكما بي، وهذا ما يفسر لي حرصك مؤخراً على التواصل معي ومواعدتي للتنزه اليوم..

قالت ذلك بنبرة صوت عالية وغاضبة، ولكني كنت واثقة من أنها تصطنع ذلك اصطناعاً وبدأت أتأكد من أنها على صلة بهروب (شهد)، فعاجلتها قبل أن تقرر الانسحاب من الموقف والرحيل، أن قلت لها:

- هذا فقط ما يهمك؟؟! نحن جميعاً في موضع الشك بنا يا (هند)، ولست أنت وحدك، والأمر لا يتعلق بأن أشك بك أنا أو والدتك، بل أن يُشك بنا جميعاً، ونكتشف في النهاية أن واحد منا ورطنا فيما لا علاقة لنا به، الأمر ليس هيناً، الأمر من شدة اهميته اصبح في يد (الملك)، وهذا بحد ذاته ما يستدعي أن نعمل له ألف حساب، وأنت أكثر من يفهم ذلك، وأنت ابنة ممثل (الملك) ونائبه هنا في لندن، أي أن والدك سيتحمل مسئولية ما حدث في كل الأحوال، فكيف سيكون موقفه وموقف والدتك إذا ما ثبت أنك أو أنا متورطين في الأمر، فضلاً عن موقف عمك نفسه الذي لن يرحم أحداً ثبت عليه ذلك، أما ما تظنيه بي وبوالدتك فلا أساس له ولن أهتم أن صدقتني أم لا، بالعكس كلما استطعت أن تزيلي الشكوك عنك مبكراً

كلما كان هذا أفضل للجميع، ولأننا في المنقم نفسه، فلابد من أن يتأكد بعضنا من بعض وأن يثق كل منا بالآخر.

- **وما الذي يمكن أن يحدث إذا ظلت تحوم حولي – أقصد حولنا – الشبهات؟!**

- **هذا يتوقف على حقيقة ما حدث إن كان هروباً أو اختفاءً أو اختطافاً، وحقيقة من كان ورائه، وهذا أمر سينكشف عاجلاً أم آجلاً، أم أنك تظنين أنها ستختفي إلى الأبد؟! سيعثر يوماً ما على (شهد)، وهي – صدقيني – لن تصمد لأكثر من صفعة واحدة على وجهها قبل أن تقر وتعترف، حينها ستواجه هي مصيرها وكل من كان معها أيضاً.**

لم تنبت (هند) بعد ما سمعته مني ببنت شفة، بل دخلت في حالة من الصمت الشديد، في الوقت نفسه الذي قررت فيه أن نستقل سيارة (Taxi) للعودة إلى حيث كنا قد ركنا سيارتينا، بعد أن كان من المفترض أن نقوم بذلك مشياً على الأقدام، وبالنسبة لي فقد اكتفيت بذلك القدر من حصارها والضغط عليها تاركة المجال مفتوحاً أمامي، لأرى ما ستكون عليه ردود افعالها في اليومين التاليين، حينها سأقرر إذا ما كنت سأنتقل إلى الخطوة التالية أم هي من سيحدد تلك الخطوة.

لقد تأكد لي صدق شكوكي، وأن لم أجد أدلة تثبت ذلك أو أعرف من (هند) شيئاً ينبأ بصلتها بحادثة هروب (شهد)، إلا أن معرفتي القوية بها جعلتني أثق تماماً بأنها كانت على صلة بالموضوع، وربما هي على معرفة بمكان اختفاء (شهد) أو على تواصل بها، ومعرفتي تلك بـــ (هند) دفعتني تلك الليلة أن افكر فيما يمكن أن تقوم به أو يصدر منها، ولعلي تنبأت بأنها أن صدقت ظنوني ستسارع بالاتصال بـــ (شهد) وتحذرها، ولكن هذا لن يمنع من أنها ستواجه مخاوفها التي كانت تتجاهلها قبل أن يدور بيني وبينها ذلك الحديث، وأنها أينما ولت بوجهها فإن مردها سيكون حتماً إليَّ، ولكن بقي لي حينها أن أتأمل حدوث ذلك في الوقت المناسب، قبل أن تغرق هي وتغرق والديها في هاوية سحيقة..

بعد يومين من لقائي ذاك بـــ (هند)، فاجأتني (كايتي) عندما زارتني في الشقة دون أن تخبرني بذلك من قبل، فضلاً عن كونها زارتني بعد الساعة التاسعة ليلاً، وهذا وقت لم يسبق أن زارتني فيه من قبل، كنت قد فتحت لها الباب، واستقبلتها وأنا أتفرس في ملامح وجهها عسى أن تنبأني بسبب تلك الزيارة الغريبة والمفاجئة.

- **مساء الخير.. (تيماء)**

- **أهلاً.. (كايتي)!!**

- **كنت قد فرغت من موعد لي بالقرب من هنا فقلت أنها ستكون فرصة لو شربت القهوة معك لبضع دقائق، قبل أن امضي في حال سبيلي، ولكني أخشى إني أزعجتك.**

- **لست مضطرة لقول شيء من ذلك (كايتي)، فأنت على الرحب والسعة.**

افسحت لها جانباً ليتسنى لها الدخول، إذ كانت لاتزال واقفة عند باب الشقة، الذي اغلقته فور دخولها، بينما هي لم تقم بأكثر من عدة خطوات لم تتجاوز بها الممر المؤدي إلى الصالة، فقلت لها:

- **لما لازلت واقفة، تفضلي.. تفضلي وأجلسي ريثما أعد لنا القهوة..**

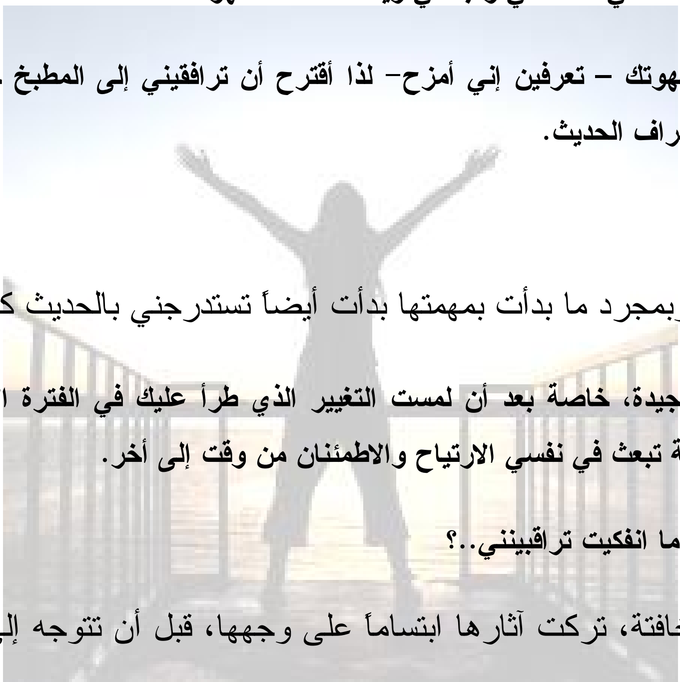

- **لا، فأنا لا اثق بقهوتك – تعرفين إني أمزح- لذا أقترح أن ترافقيني إلى المطبخ حيث سأعد أنا القهوة ونتجاذب هناك أطراف الحديث.**

- **لا بأس.. هيا.**

اتجهنا ناحية المطبخ، وبمجرد ما بدأت بمهمتها بدأت أيضاً تستدرجني بالحديث كعادتها، قالت:

- **أرى أنك بصحة جيدة، خاصة بعد أن لمست التغيير الذي طرأ عليك في الفترة الأخيرة، كما أن أخبار تقدمك في الدراسة تبعث في نفسي الارتياح والاطمئنان من وقت إلى أخر.**

- **أفهم من هذا أنك ما انفكيت تراقبينني..؟**

صدرت منها ضحكة خافتة، تركت آثارها ابتساماً على وجهها، قبل أن تتوجه إليَّ قائلة وعلى نحو من الاستفهام الاستنكاري:

- **وماذا تتوقعين من أم أن تفعل إزاء ابنتها؟!!**

- **يا شيخة (كايتي)، قولي كلام غير هذا، فمن يرانا معاً لن يلاحظ أي فارق في السن بيننا، ثم أنه من المستحيل أن أراك كأمي..**

- **بل قولي أنت أنك كارهة أن امارس عليك أمومتي.**

- **وكيف لمثلك أن تعرف شعور الأمومة؟ فأنت حتى لم تتزوجي، ولم تنجبي.**

تفاجأت عندما وجدت ملامحها وقد تغيرت، فقد اختفت ابتسامتها بسرعة، وتبدل ما كان على وجهها من مرح ودعابة، ليصبح استياء وملامح حزن.. لاحظت بعد ذلك وهي تتوجس خيفة إني قد أكون منتبهة لما حدث لها، كيف فقدت توازنها وارتبكت، وهي تنقل أناء غلي الماء من فوق الطباخ إلى الطاولة المجاورة، متذرعة بذلك لكي تتمكن من أن تشيح بوجهها عني وتعطيني ظهرها، وأنا في نفس الوقت أحاول أن افهم كيف يمكن أن يثير ما قلته كل هذا فيها؟!! فاضطررت أن انتظر برهة قبل أن أقول لها بصوت هامس ومتحشرج:

- **لعلي أسأت القول (كايتي)، ولكن صدقيني لم أكن أقصد أن تفهمين مني ما قد يسيئك.. فسامحيني أرجوك.**

إلتفتت ناحيتي وقد تمكنت من استعادة هيئتها السابقة، وعلى وجهها بذرة ابتسامة رقيقة وهادئة، وقالت لي:

- **لا عليك، فليس الأمر بذلك السوء كما قد تظنين، إنها مجرد خاطرة ذكرتني بما كان من سالف الوقت.**

- **حقاً؟؟**

- **نعم، هيا لنجلس على طاولة الطعام فلدي ما أود أن أحدثك به، لأني أعلم أن ما من حيلة لي قد تنطلي عليك، كما أن الوقت متأخر ومن الأفضل أن أعجل بالحديث عما جئت من أجله..**

- **(كايتي) ما الأمر؟**

- **سأخبرك، ولكن عديني أولاً أن تكوني صريحة معي لأقصى حد..**

- **إن كان لابد فإني أعدك بذلك.**

- **حسناً، هذا يطمئنني قليلاً، وقبل كل شيء يجب أن تعلمي بأن ما من أحد غيري وراء هذه الزيارة، فالأمر يتعلق بحادثة اختفاء الأميرة (شهد)، ولا أخفيك سراً هناك شكوكاً بأن هناك من كان على علم بنواياها وربما شاركها في التخطيط والتنفيذ أيضاً، وقد خشيت أن تكوني أنت في موضع الشك، خاصة بعد أن علمت البارحة بان العيون رصدتك مع (هند) قبل يومين، فهل لك أن تخبريني باي شيء وكل شيء تعرفينه بهذا الخصوص؟**

لم يفاجئني ما قالته، بل على العكس خفف عني عبأ ما كانت قد ذهبت إليه ظنوني بشأن سبب زيارتها، ولعلها لاحظت ذلك، واستبشرت خيراً بأني سأكون صادقة وصريحة معها، فقلت لها:

- **لقد وعدتك (كايتي) بالصدق والصراحة، ولهذا أقول لك بأن لا علاقة لي بتاتاً بهذا الموضوع لا من بعيد ولا من قريب، أما بخصوص ما بيني وبين هند ومن خروجنا معاً، فقد كان ضمن ما تعلمينه من أمر علاقتي الشديدة بها ولا أكثر من ذلك، ولا أظن أن العيون التي كانت ترصدنا خفية، قد فات عليها شيء مما قمنا به في ذلك اليوم..**

- **فقط أحببت أن اطمئن عليك، ولا تحسبي إني غير مهتمة بـــ (هند)، لا بل لأنك الأقرب إليَّ، فقد سمعت بعض التسريبات بهذا الشأن من أحد العاملين داخل السفارة، وأردت أن اتحقق منك، وطالما أن لا صلة لأي منكما بالأمر فلا داعي للخوف.**

شعرت بأنها قد استوثقت من كلامي، ولكن فكرت لبرهة قبل أن اقرر إخفاء حقيقة شكوكي بتورط (هند)، وخشيت أن تفوتني فرصة الاستعانة بـــ (كايتي) لاحتواء الموقف في أي لحظة يمكن أن تثبت فيها مصداقية شكوكي، فآليت على نفسي إلا أن أبوح لـــ (كايتي) بهذا الجانب، فقلت لها وأنا أحاول جاهدة التخلص من حالة التردد والارتباك:

- **لكن ثمة ما أرغب بالإفضاء به إليك بهذا الشأن (كايتي)..**

- **أخبريني، ما هو؟؟ [قالت ذلك بلهجة جادة وصارمة].**

- **في الحقيقة، أنا أشك.. لكن ليس لدي أي دليل حتى الآن على صحة شكوكي بأن (هند) قد تكون على صلة بهروب (شهد)، أو أن لديها ما تخفيه بهذا الشأن، ربما لم تلاحظي أن علاقتي بـــ (هند) قد فترت طوال العام الماضي، وبالكاد بدأنا نتواصل من جديد منذ فترة قريبة، ولهذا فإن (هند) لم تك تفصح لي عن شيء أو أن تفضي إليَّ بشيء..**

- **ألم تحاولي أن تعرفي منها شيء؟!**

- **حاولت صدقيني، وهذا ما كان هدف لقائي الأخير بها، فقد ناقشتها في هذا الأمر وأوعزت لها بحجم المشاكل التي سوف يتسبب بها كتمانها لأي شيء تعرفه ولعلي أتوقع أن تقر لي بذلك قريباً، أو أن تمعن أكثر في التهرب والانكار، ولا أدري ما عسى أن أفعل من أجلها، فأنا خائفة جداً عليها، وخائفة من أن أجد نفسي متورطة في الأمر فقط لأن الجميع يعلمون أنها صديقتي المقربة، هذا كل ما في الأمر لدي، فما عساها مشورتك لي (كايتي)؟!**

- **هذا كلام خطير يا (تيماء)، وإذا صدقت ظنونك وأنا واثقة بحكم علاقتك بها بأن ثمة ما دفعك للشك بـــ (هند)، فستكون العاقبة وخيمة، وستتسبب هي بالكثير من المشاكل لوالديها، يجب أن تخبرنا (هند) بكل ما تعرفه تماماً كما فعلت أنت الآن، يجب عليها ذلك، الآن وبسرعة وقبل فوات الآوان.**

- **[قاطعتها]: ولكن كيف السبيل إلى اقناعها بفعل ذلك؟!**

- **لا أعرف، ولكن أنا أعول عليك بشدة للقيام بهذه المهمة، لعلها إذا فعلت ذلك أمكن لنا أن نفعل شيء يمنع وقوع الكارثة بحق والدتها الطيبة ووالدها المعني بهذا الأمر أمام الأسرة والحكومة، كون الواقعة وقعت في حدود سيطرته، افعلي كل ما بوسعك (تيماء) ولا تتأخري في فعل ذلك أكثر، فكل ما نملكه ليس سوى الوقت، وكوني على اتصال بي على الدوام لتبلغيني بكل شيء من حيث لا يعلم أحد سوانا، اتفقنا.**

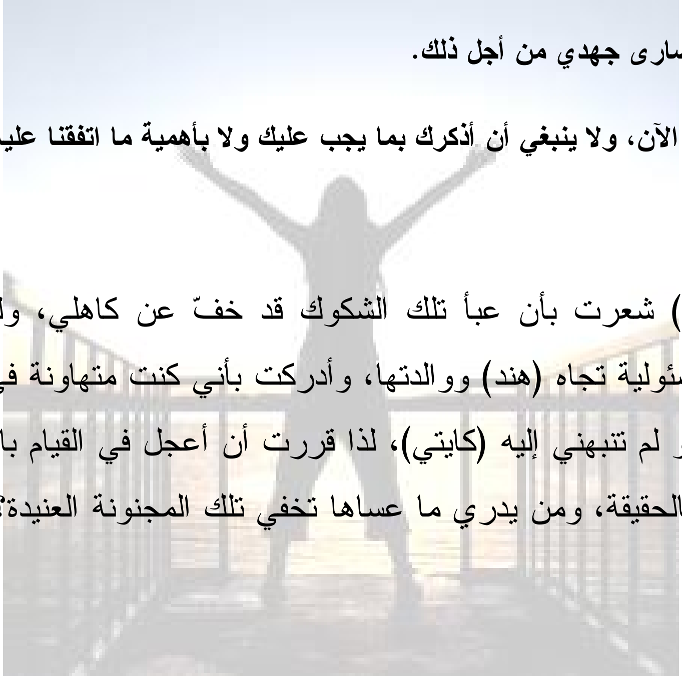

- **اتفقنا.. سأبذل قصارى جهدي من أجل ذلك.**

- **حسناً، سأنصرف الآن، ولا ينبغي أن أذكرك بما يجب عليك ولا بأهمية ما اتفقنا عليه الليلة.. إلى اللقاء.**

- **إلى اللقاء.**

بعد أن رحلت (كايتي) شعرت بأن عبأ تلك الشكوك قد خفّ عن كاهلي، ولكني تنبهت إلى حجم الكارثة، وشعرت بالمسئولية تجاه (هند) ووالدتها، وأدركت بأني كنت متهاونة في هذا الأمر وهذا كان سيكون خطأ فادحاً، لو لم تنبهني إليه (كايتي)، لذا قررت أن أعجل في القيام بالخطوة الثانية من أجل دفع (هند) إلى البوح بالحقيقة، ومن يدري ما عساها تخفي تلك المجنونة العنيدة؟ وكان لابد أن أعرف ذلك بعد فترة وجيزة.

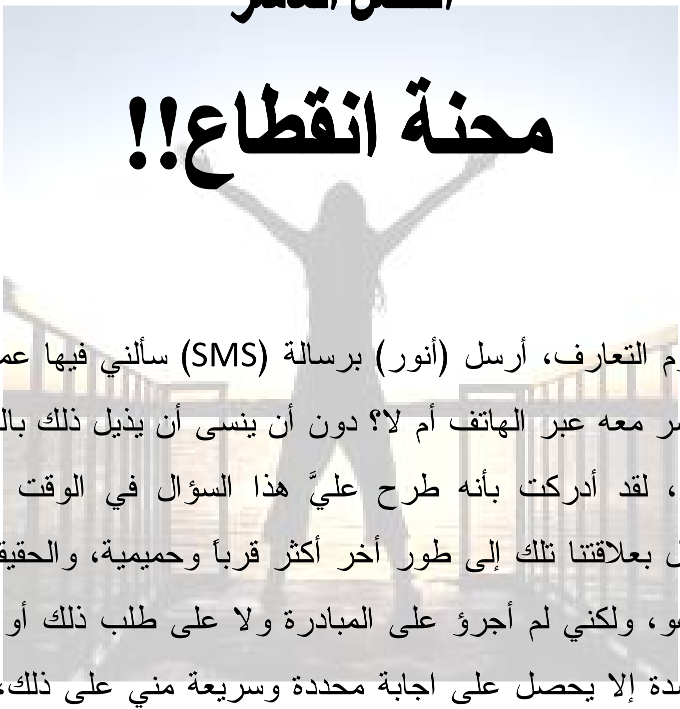

الفصل العاشر

محنة انقطاع!!

بعد فترة وجيزة من يوم التعارف، أرسل (أنور) برسالة (SMS) سألني فيها عما إذا كنت قد أصبحت مستعدة للتواصل المباشر معه عبر الهاتف أم لا؟ دون أن ينسى أن يذيل ذلك بالتأكيد على أنه سيحترم قراري في هذا الشأن، لقد أدركت بأنه طرح عليَّ هذا السؤال في الوقت المناسب، وأنه بالفعل يستدرجني أكثر للانتقال بعلاقتنا تلك إلى طور أخر أكثر قرباً وحميمية، والحقيقة إني كنت راغبة في ذلك أكثر من رغبته هو، ولكني لم أجرؤ على المبادرة ولا على طلب ذلك أو التلميح بأني لن أمانع حدوثه، ولما كنت قاصدة إلا يحصل على اجابة محددة وسريعة مني على ذلك، وجدت أنه كمن قرر أن ينتظر حتى أبلغه أنا بردي، فتوقف عن الاتصال بي تماماً، واستمر ذلك منه قرابة عشرة أيام، أعياني فيها طول الصبر وأنا انتظر أن يعود ويتصل بي مجدداً، أرسلت إليه برسالة قصيرة أسأله عن سبب انقطاعه، فأجاب:

- **أنتظر أن أسمع صوتك؟؟!!**

لا أعرف ما الذي دفعني إلى اعتبار اجابته تلك نوعاً من (الغزل)، بل لعلي اعتبرتها أول غزل يقوله لي، وفي نفس الوقت الذي ساورني فيه هذا الشعور، ذكرت نفسي بأنه ليس إلا ما شعرت به أنا، وأنني لا أملك أي دليل أو حتى مجرد قرينة تشير إلى أن ما شعرت به هو ما كان يقصده ويعنيه هو.

كان عليَّ أن أواجه نفسي إزاء ما اعتبرته بادرة علاقة عاطفية قد تتحول إليها علاقتي بـــ (أنور)، وأن أسأل نفسي: لماذا شعرت بأنه كان يغازلني؟ وهل أنا بحاجة إلى سماع أحدهم و(أنور) على وجه التخصيص يتغزل بي أو يغازلني؟ أم أن ما حدث ليس إلا مجرد خاطر طارئ لا أصل له في مكامن حاجاتي العاطفية ورغباتي الحسية؟ وكيف لي أن أقول بأنه كان بالفعل ذلك الخاطر الطارئ والقليل الأصل والفصل بالنسبة لي، وأنا لازلت قادرة على معايشة تلك اللذة التي خامرت احساسي وتلك الرعشة الخفيفة التي سرت في جسدي، لحظة ما قرأت عبارته تلك التي رد بها عليَّ، ومع الاسترسال في مثل هذه المواجهة، لمست براعم الخشية الأولى وهي تثقب برؤوسها الناعمة سطح احساسي من جهة أعماقي الدفينة، تلك الخشية التي ماطلت قليلا قبل أن أعترف بها، من الانزلاق في حب شخص لا أعرفه ولم أراه أو يخبرني أحد عنه، فضلا عن أنه أيضاً لا يعرف حقيقة من أكون، وأذكر جيداً أني في لحظات التفكير تلك تمكنت من الامساك بطرف خيط يقودني إلى جذر تناقضات الرغبة والرهبة التي سبق لي وأن عايشتها وأحسست بها من قبل، ولكني لم أحرص حينها على أن اقوم بذلك.

لم اكن أجد في نفسي أي مانع من الاستجابة لطلبه، بل أنا من كنت راغبة فيه فعلاً قبل أن يصرح لي بذلك، بقدر ما شعرت بأن ذلك لن يحتمل أكثر مما يحتمله أمر تواصلنا بالرسائل المكتوبة، كما إني واثقة بأني لم أعطي ذلك أي معنى ذاتي يشير من بعيد أو قريب إلى غير ما كانت عليه رؤيتي للعلاقة التي ربطتني به، والتي كنت أصفها بالاستثنائية، ولكن.. ولكن، بعد أن رد عليَّ بأنه ينتظر سماع (صوتي)، لا أعرف كيف أن الأمر في داخلي وبشكل – أقسم بالله إني لم أكن أقصده– اتخذ منحىً أخر؟؟!! وهذا ما جعلني أدفع عنه تهمة أن يكون هو من قصد ذلك، أو أنه تعمد أن يقول ما يوحي إليَّ بشيء من هذا القبيل.

جعلته ينتظر طويلاً وطويلاً جدا، دون أن يبدر مني شيء، لقد كان ينتظر مني أن اتصل به هاتفياً، كان هذا هو الرد والرد الوحيد الذي يطلبه والذي سينتظر إلى أن أقوم به من تلقاء نفسي في أي لحظة بعد ذلك الوقت، كان هذا ممكناً قبل أن تطرأ على ذهني تلك الخاطرة ذات المغزى العاطفي، ولكن بعد

أن خامرني ذلك الشعور المتذبذب والعاجز عن اظهار حقيقة ما يجول في سراديب وجداني وعاطفتي، أصبح الأمر بالغ الصعوبة إلى الحد الذي أصبحت فيه أخشى فعلاً من أي فكرة توحي بأني قد وقعت في شباك الرجل من دون سابق انذار أو حاضر ارادة.

كان كلام العقل يقول لي، بأن الرد عليه بما طلب وكيفما أراد لا يعني أكثر مما كان عليه الأمر أصلاً، فما من عيب أو خطأ أو جرم يكمن في ذلك، أما كلام القلب فكان مراوغاً ومخاتلاً ولا يستقر على رأي، وكأنه يعرض عليَّ أمراً ويساومني عليه، وظللت على هذا الحال بدون أن اتخذ قرار.

داهمني اتصال هاتفي منه ذات ليلة، وفاجأني ذلك بمجرد أن سمعت رنين جهاز الهاتف المحمول، لم يفعل ذلك من قبل، سألت نفسي: ماذا أفعل؟ هل أرد عليه أم لا؟ وطال بي أمد التفكير، وظل هو يكرر محاولاته، وأنا لا أجيب، أبعث إليه برسائل فلا يرد عليها، كنت واثقة بأنه مصمم على ما أراده وطلبه صراحة، ولكن لماذا هذا التصميم على التواصل الهاتفي في الوقت نفسه الذي يصمم فيه على قطع أي تواصل بيننا بالطرق السابقة؟! لماذا كل هذا الاصرار، فقط من أجل أن يسمع صوتي؟! ما الذي قد يعني له صوتي إذا سمعه؟؟

مثل هذا السؤال الأخير، كان لابد أن يوقظ قلبي ليبدأ من جديد في مساومتي باستفزاز عواطفي أو استثارة رغباتي، ولعدة ليال أُخر كان صوت رنين هاتفي يدوي مكتوماً من داخل درج خزانتي المفتوح بما يكفي لتسلل الصوت إلى أذني مرات ومرات وهو يحاول، إلى أن قرر أن يتوقف ويؤول إلى ما وراء حاجز الصمت قدر ما أقرره أنا من الوقت، فالكرة كما لم يقول هو لي أصبحت في ملعبي، وهذا كان يعني لي شيئاً واحداً وهو أنه فقط قرر الانتظار، أما أنا فبقيت في ركن حجرتي وكهف ضميري، قابعة انتظر أنا الأخرى متى أقرر أن افعل شيء.

لولا أن شغلتني أعمال دراستي في تلك الفترة التي توقف تواصلنا فيها، خاصة وأن ذلك صادف فترة الفحوص النصفية، لكان لي أن أغرق في بحر لا قرار له من المعاناة، فقد عوضت نفسي بالتقدم الذي كنت أشعر بأني أحققه في الدراسة، ومر الوقت سريعاً، دون أن يخفت في قلبي بريق الأمل بعودة (أنور) إلى حياتي مرة ثانية.

جاء فصل الشتاء مبكراً في ذلك العام بعد خريف انشغال ثقيل، لم يكن فيه (أنور) حاضراً معي، يخفف بروحه المرحة ودردشاته السحرية من وطأة ذلك الثقل على كاهلي، حينها أدركت بأن ما لم أحسبه هو

زمن انقطاعي عنه، زمن انتظاره سماع صوتي، معقول.. أربعون يوماً مضت؟!! لم يرسل لي فيها رسالة، لم يكتب لي فيها شيء، لم يقرع جرس هاتفي بتنبيه، لم يكن انشغالي بدراستي بذلك القدر الذي يستحوذ على وقتي كله، لقد كانت تمر بي ساعات طويلة من كل ليلة، لا أعرف ما الذي كان يصرفني فيها عن التفكير فيه، بالعكس حدثت أشياء كثيرة على صفحة الواقع، كان لابد أن تشغلني، بالقدر نفسه الذي تجعلني أشعر بالحاجة الماسة إليه، لازلت أتذكر جيداً ما قلته لنفسي وسجلته في دفتر مذكراتي في ذلك الوقت:

- **لماذا تركته ينتظر؟ أهو الشعور بالكبرياء والتعالي أم أنها الخشية من أن تكوني قد وقعت في حبه، أم أنك قصدت من ذلك إثبات حقيقة أنه لا يعني لك شيء، وأنك قادرة على نسيانه والاستمرار في الحياة بدونه، لكي تتخلصي من ذلك الاحساس الطاغي بضعفك وقوته؟! وبافتراض أن واحداً أو جميع تلك الاحتمالات كانت صحيحة، فهذا لا يلغي حقيقة أنه انتظر وأنه لازال ينتظر، تلك اللحظة التي يتوقع أن يثري صوتك احساسه بك، وكذلك صوته بالنسبة لك، وإذن، هل ما أقوم به عادلاً ومنصفاً؟!**

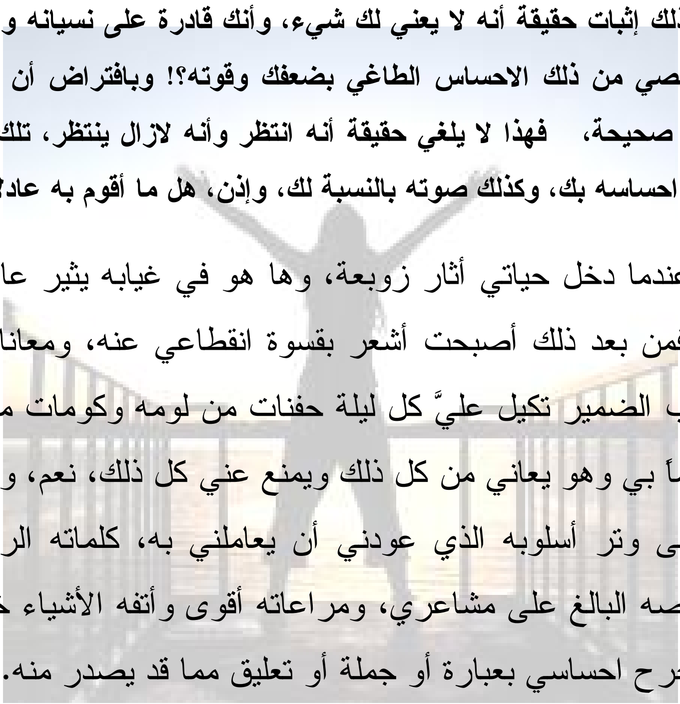

يا لهذا الــ (أنور)!! عندما دخل حياتي أثار زوبعة، وها هو في غيابه يثير عاصفة، حضوره مشكله وغيابه أيضاً مشكلة، فمن بعد ذلك أصبحت أشعر بقسوة انقطاعي عنه، ومعاناة انتظاره واصطباره، وأصبحت مشاعر تأنيب الضمير تكيل عليَّ كل ليلة حفنات من لومه وكومات من عتابه، وكنت أشعر إلى أي مدى كان رحيماً بي وهو يعاني من كل ذلك ويمنع عني كل ذلك، نعم، وأنا أبحث مع نفسي في شأنه، كنت أعزف على وتر أسلوبه الذي عودني أن يعاملني به، كلماته الرقيقة وعباراته المهذبة وتعليقاته المرحة وحرصه البالغ على مشاعري، ومراعاته أقوى وأتفه الأشياء خوفاً من أن يتسبب لي بأي مما قد يؤذيني ويجرح احساسي بعبارة أو جملة أو تعليق مما قد يصدر منه.

كيف كان لي في ذلك الوقت أن أتجاهل تلك العبارة التي هطلت هثيماً بارداً على قلبي بوقع الغزل وطعم العسل، عندما كتبها لي: "أنتظر أن أسمع صوتك"، وأن اتبرأ من كل معانيها التي استعذبتها نفسي واستطابتها روحي، خصوصاً بعد أن مرت بي لحظات لم يساورني فيها شيء من الأمنيات إلا أمنية أن يكون قد قالها لي بنفس المعاني التي فهمتها، أوليس يقال: أن الكلام النابع من القلب يصل فوراً إلى القلب؟! وكيف لي في ذلك الوقت أن ألملم تلك المسافة الشاسعة بين ما كان يؤنبني ضميري عليه من جهة، وبين ما كنت أكاشف به نفسي من شوقي إليه ولهفتي لعودته إلى حيث ما أصبح موضعه في حياتي من جهة أخرى؟! ألم أقل لك وأخبرك بأن هذا الــ (أنور) كان في يوم من الأيام

مشكلة عويصة بالنسبة لي؟ دون أن أنسى أن أضع كل ما طرحته من قبل، في مقابل تساؤلاتي الملحة عما كان يمكن أن يكون عليه حاله هو بالنسبة لي؟! هل يفكر بنفس الطريقة التي أفكر بها؟ هل يشعر بالسعادة والحزن معاً مثلما كنت أشعر أنا عندما يفكر بي؟ هل يواجه مشكلة التحقق مما قد أعنيه أنا بالنسبة له؟! أم أن ما بي على نقيض ما به وأني لست إلا غارقة في دوامة، الله وحده يعلم كم يبعد عنها هو؟!

لم يكن أمامي من بد غير الاتصال به، وهل تراني كنت أجرؤ على الاتصال به هاتفياً؟! في الحقيقة، لم يكن يسعني ذلك في بداية الأمر عندما قررت أن أقوم بخطوة باتجاهه كنت آمل أن تعيده إليَّ، لذا عمدت إلى حل وسط، أو بالأصح إلى القيام بخطوة تقربني من الخطوة التي علق عليَّ مهمة القيام بها في مقابل مهمة انتظاره العسيرة كما كنت أدركها، فكنت أتصل برقمه وأنا عازمة وكلي وجل على اغلاق الخط بمجرد أن يفتحه لي ويسمعني صوته، وكان ما كان في البدء، كان هاتفه دوماً مغلقاً أو خارج نطاق التغطية، كررت محاولاتي مراراً، وفي كل مرة كانت النتيجة هي هي، فضلاً عما كانت تحملني إياه مما لم أكن أطيقه من تلك التساؤلات المفزعة: هل تراه غير رقمه؟ أم تراه تخلى عن الأمر –أمري– برمته؟! هل قصد أن يفعل ذلك معي؟ أم أن هناك ما يمكن أن أعذره لأجله؟! ليس هذا وحسب، بل أضف إليه احساسي بالمرارة والألم وأنا أعايش كل ليلة ذلك الشعور بالندم وعذاب الضمير.

كان الأمر الذي جرى معي على هذا النحو عندما قررت أن استأنف تواصلي مع (أنور)، بمثابة صدمة قاسية ومؤلمة، حافلة بالكثير من الأعباء والأوزار التي ثقلت إليَّ حد انغماسي في مكب الكئابة، خاصة بعد مضي قرابة شهر دون أن أصل إلى نتيجة، حاولت معه عبر الـــ (Facebook) وأرسلت له رسائل عتاب وأسف واعتذار عبر الـــ (E-Mail)، ولكن كما قيل:

قد أسمعت لوناديت حياً *** ولكن لا حياة لمن تنادي

كان انقضاء شهر كامل فشلت فيه في تحقيق هدفي، سبباً كافياً لأن يتملكني اليأس من الوصول إليه أو عودته هو إليَّ، للندم على ما فرطت فيه، أغلقت جهاز المحمول، أهملته، هجرته، وبالكاد استطعت أن اكفكف ما كان قد أساله من ماء احساسي غياب (أنور) عن حياتي، وكرست نفسي للدراسة من جهة، ومن الجهة الأخرى عدت إلى ما كنت أنزع إليه من قبل من لهو ولعب، قدر ما أتيح لي أن أجمع بين

النقيضين، فقط كنت كلما افتقدت نفسي في طرف ألوذ بنفسي إلى نفسي في الطرف الآخر، كنت أتأرجح، أترنح، أقاوم بقوة زائفة ما كان بي من ضعفي، وقد أصبحت حينها على شفا حفرة من سقوط، وكل ما كنت أبديه لكي لا يلحظ الآخرون سر ما بي، كان محض زيف مفتعل ومقصود، أما الحقيقة فقد واريتها في أعمق سراديب النفس، فلم يكن يسعني حينها إلا العودة إلى العيش على سطح قشرة الحياة، بلا عمق، بلا ذات، حتى عالمي الخاص انقطعت عنه، بعد أن زال ما كان يلهمني صنعه، ورحل من كان يربطني به ويحيلني دوماً إليه، ومذكراتي ويومياتي وأن لم اتوقف عن كتابتها إلا أنها أصبحت جوفاء تشكو الخواء.

في تلك الفترة التي تأكدت من أنه رحل دون أن يترك لي بصيص أمل أو اشارة بأنه يمكن أن يفاجئني ذات يوم بعودته، وقعت بين حجري الرحى تطحنني التناقضات مرة أخرى، فلا أنا على امر الدراسة قائمة بثبات، ولا أنا عدت تلك التي كانت تتحصل اللهو والمتعة من حيث كنت أتحصلها، من حياة الترف والبذخ والزهو وحب الظهور، فعندما فكرت في العودة إلى شلة مغامراتي، شعرت بذاك الذي ظل عالقاً على شبكة سلة مكاسبي التي أورثني إياها (أنور) يمنعني، ويخبرني بأن العودة إلى تلك الشلة سيكون بمثابة انحدار مخيب للآمال التي كان حريصاً على أن يحفر أمارات صدقها هو في نفسي، في كل مرة أخبرني فيها بأنني ذات يوم سأكون (أنا) دون لبس أو غموض.

كانت (هند) في تلك الفترة تنشد قربي وتسعى إلى وصلي لحاجة في نفسها، كنت أعلم منها نزراً مما لم تكن تعلم بأني أكتمه عنها، وشعرت بها تعاني من انشغالي عنها، وبأنها وقعت في نفس الموضع الذي تركتني ذات يوم فيه، ولكني المجربة لمرارة الوحدة والخذلان لم أكن لأقوى على الزج بها وحشرها في كوة مظلمة، بل فتحت لها قلبي وبيتي وأعطيتها قدر ما شاءت من وقتي، كانت تريد أن تبوح لي بسرها، وتود لو استطاعت أن تجعلني شريكتها في محنتها، ولكنها رغم ذلك لم تفعل ما كانت ترجوه وتسعى إليه، تركتها لشأنها، وتركت أبوابي مفتوحة لها، فقد صعب عليَّ حالها وهي تحمل فوق كاهلها النحيل غيمة سوداء مشبعة بأطنان من النفط القابل للاشتعال والانفجار بمجرد كشطة برأس عود ثقاب، كنت أعرف أنها في محنة، محنة السر الذي أخفته عني، مذ جعلتني في خانة من لا تأتمنهم على أسرارها، وأنا الذي كنت لا أرى أحدا أقرب إليها مني، وكان عليَّ حينها أن أتركها من حيث تعرف جيداً ما كان ينبغي عليها فعله، ولولا أنه كان لدي ما يشغلني عنها ما أعتقها فضولي الشديد، خاصة وأن ثمة خيوط كانت تدلي بأطرافها نحوي كان يمكن أن أتتبعها وأصل من خلالها إلى حقيقة ما يثقل

كاهلها، كما كنت قادرة على تصور تلك المخاوف التي تكفي لهدم برج لندن مما عساه كان يراودها، وينهب منها السكينة والطمأنينة وحلاوة العيش، وكما آمنت بأن لكل شيء أوان، آمنت بأنه سيأتي اليوم الذي ستنفجر فيه (هند) بثاً وبوحاً أمامي، وما كنت أحسبه إلا قريبا.

الفائدة الوحيدة التي جنيتها من قصة (هند) هذه، هي أني أسقطت وضعها على نفسي، فرأيت أنه سيكون من الأفضل إلا أرتكب خطأ (هند) نفسه، وأن أجد في طلب من أفضي إليه بسري، فكرت أولاً بـــ (جليلة) وقد كانت المقربة إليَّ أكثر في تلك الفترة، لكني تذكرت غلبة شخصيتها المحافظة والمتدينة على فكرها وسلوكها فتراجعت عن ذلك، فكرت بعدها في (جين) التي لم أجدها مناسبة البتة لهذا الأمر، فهي من النوع اللامبالي وقد خشيت لو إني أفضيت لها بأمري أن تجعله كعادتها مثار سخريتها وتندرها في العلن، أما (ربيكا) فقد كانت أقل من تكون لديها الحكمة التي يمكن أن تساعدني بها، فهي فتاة بسيطة وعفوية وكلما اقتربت منها اكثر اكتشفت طفلاً أكثر منها فتاة راشدة، أما (كايتي) فما كنت بذلك الغباء لأختارها هي لهذا الأمر، المهم إني احترت في أمري، وشهقت في وجه السماء ذات يـــوم: يااا الله، أما عاد لي من هو جدير بأن أفضي إليه بسري؟؟

هداني الله في ذلك الوقت إلى (لورا) المشرفة عليَّ في العام السابق، خاصة وأنها الوحيدة التي وجدت فيها التعويض عما افتقدته دوماً في (كايتي)، ذهبت إليها في ظهيرة يوم بارد، وبعد أن بادلتني التحية واجلستني قبالتها، ظلت ترمقني بعين من كنت اتحاشى النظر إلى عينيه، إلى أن حزرتني مع أول لقاء وقع بين عيوننا بنظرة باسمة ومسترخية على إنعطافة جسدي على المقعد المجاور لطاولة مكتبها، وبصوت غنة قصير لم أدري أن كانت اطلقته من فمها أو من أنفها، لفتت انتباهي:

- **هممم؟؟؟**

أدركت مغزى همهمتها وأنني صاحبة الحاجة والمعنية بالسؤال لا هي، فتكلمت متلعثمة بشدة:

- **آنسة (لورا)، لا أعلم أن كنت أجد لديك بعض الوقت لي، أريد أن أتحدث معك..**
- **لك هذا، قدر ما ترين أن الأمر يستحق..**
- **في الواقع، هي مسألة شخصية، وأخشى أنـــ..**

قاطعتني وهي تنهض من فوق كرسيها وتتصرف كمن يعد نفسه للخروج، وقالت:

- **لنخرج من هنا كصديقتين حميمتين، وفي أقرب مكان مناسب ستخبرينني بما تريدين، وهذا بالطبع سيكون في الطريق إلى حيث ستتكفلين بدفع فاتورة الغداء في مطعم جيد..**

قالت ذلك بعفوية عذبة وابتسامة صافية وهي تلف من وراء مكتبها ناحيتي، وجعلتني ابتسم مثلها وكأنها أزالت كل الحواجز بيني وبينها، قلت لها:

- **موافقة!!!**

- **إذن.. هيا بنا.**

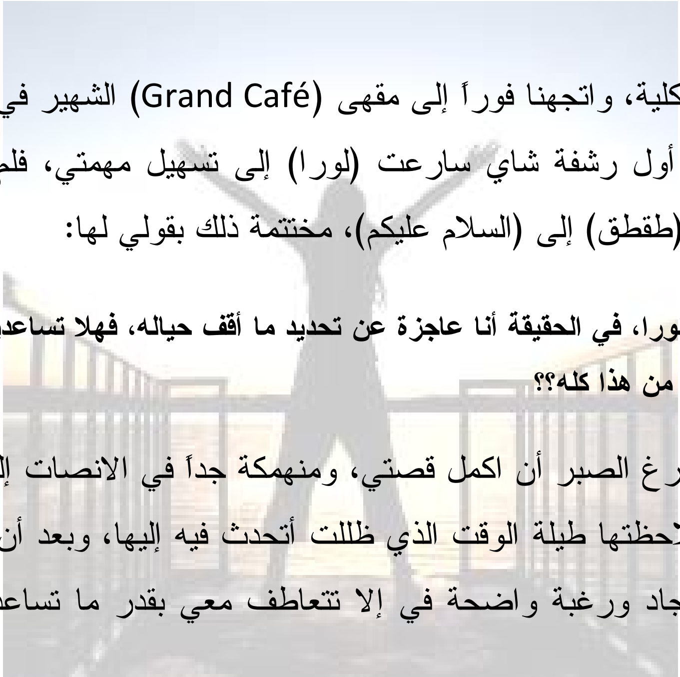

خرجنا معاً من حرم الكلية، واتجهنا فوراً إلى مقهى (Grand Café) الشهير في اكسفورد، واتخذنا لنا ركناً قصياً منه، ومع أول رشفة شاي سارعت (لورا) إلى تسهيل مهمتي، فلم يكن بعد ذلك إلا أن سردت لها قصتي من (طقطق) إلى (السلام عليكم)، مختتمة ذلك بقولي لها:

- **هذه هي القصة لورا، في الحقيقة أنا عاجزة عن تحديد ما أقف حياله، فهلا تساعديني في استبصار ما اعتبرها مشكلتي من هذا كله؟؟**

كانت (لورا) تنتظر بفارغ الصبر أن اكمل قصتي، ومنهمكة جداً في الانصات إليَّ، حتى أنها استعانت بورقة وقلم لتسجيل ملاحظتها طيلة الوقت الذي ظللت أتحدث فيه إليها، وبعد أن طرحت عليها سؤالي الأخير، أجابت بحنو جاد ورغبة واضحة في إلا تتعاطف معي بقدر ما تساعدني في تعقل الأمور. فقالت:

- **تيماء.. بودي أن أطرح عليك سؤالاً، قبل كل شيء..**

- **نعم، سلي ما شئتِ.**

- **ما الذي يمكن أن تعتبريه مشكلة في هذه القصة؟! هل المشكلة هي ظهور (أنور) هذا في حياتك بتلك الطريقة؟ أم في العلاقة التي نشأت بينكما والتي خلت من أي توصيف يطابق بالفعل ما كنتما تشعران به معاً وتتفقان عليه؟ أو أن المشكلة هي رحيله أو اختفائه واحساسك بافتقاده؟! أياً من هذه**

الاحتمالات ترين أنها أقرب إلى تلك المشكلة التي تشعرين بها ولا تستطيعين التحقق منها؟ بصراحة لو سمحتِ.

- **بصراحة، أعتقد أنه الاحتمال الثالث، أي اختفائه الذي لم أكن اتوقعه واحساسي بالندم لأن ذلك قد حدث بسببي، ومع ذلك فالاحتمالات الثلاثة يمكن أن تكون وجوهاً مختلفة للمشكلة عينها..**

- **هل شعرت بالندم لأجله أم لأجلك أنت؟!**

- **وما الفرق؟!**

- **دعك من ذلك، ولنكمل الحوار بطريـــ...**

قاطعتها بإلحاح شديد، فقد أثار حفيظتي ذلك السؤال:

- **لا، لا، لورا، عفواً، اخبريني ما الفرق؟! مهم جداً أن أعرف..**

- **لا، ليس كما تظنين، وليس قبل أن نستوضح الصورة معاً، ليكون لي ما أراه من وجهة نظري، ولا تقاطعينني أو تعترضي على شيء، وقد علمت بأني سأكون قاصدة ما أقوله لك في كل مرة، لنبدأ مجدداً..**

- **حسناً.**

استسلمت لرغبتها، فقد بدت لي جادة ومسيطرة على ما تريد أن توصله إليَّ، فعادت هي لتقول لي:

- **أولاً، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار عدة أمور، وهي الوقت الذي ظهر فيها (أنور) في حياتك، والانطباع الأول الذي كونته لديك عنه الرسائل التي كنت تتلقينها منه قبل أن يحدث أي تعارف بينكما، هذا فيما يخص البداية، أما فيما يخص الطريقة التي انتهى إليه الأمر بينكما فلنأخذ بالاعتبار أولاً، أنه ما من توصيف متفق عليه بينكما للعلاقة التي نشأت بينكما إلا أنها (علاقة استثنائية)، وأمر أخر هو أنه ما من تفسير أخر لرحيله عنك إلا امتناعك عن تلبية طلبه الأخير وانقطاعك عنه لذلك، وفي كل هذه الأمور لا يمكننا قياس الوضع إلا من الناحية التي نملك فيها وجهة نظرك أنت فقط، أما وجهة نظره هو فلا شيء لدينا عنها..**

وعلى أساس أن (أنور) هذا رحل أو اختفى وأصبح من الصعب جداً الوصول إليه أو التنبؤ بعودته هو من تلقاء نفسه، فإن كل المشاكل السابقة التي فهمتها من عرضك للقصة، تصبح بلا معنى ولا داعي لأن تظل مشاكل تؤرقك وتسبب لك المعاناة، هل تفهمين ما أرمي إليه (تيماء)؟

- أشك أنني فهمت..

- سأوضح لك الأمر، أنا افهم المشكلة بأن (أنور) ظهر في الوقت الذي بدأت تشعرين فيه بالميل إلى الجنس الآخر، أو (الفراغ العاطفي) وهذا أمر طبيعي، لا يحمل قطعاً على مقاصد أياً منكما، ثم انطباعك عنه، الذي تكون لديك بفضل رسائله ذات الطابع الشعري، والذي استنهض بداخلك ذلك الميل العاطفي للجنس الأخر، أو (طبيعتك الرومانتيكية) وهذا أيضاً كان قبل أن تصل علاقتك به إلى مستوى القصدية المباشرة، وهذا بنى فهمك الكلي بعد ذلك لعلاقتك به، التي احتجت إلى توصيف لها، يواري ما تخشين من وقوعه وما تخجلين عن البوح به، وبسبب انقطاع تواصلك به وفشلك في استعادته، اكتمل فهمك للمشكلة المرتبطة بك أنت، دون أن يكون لديك ما يدفعك إلى تقدير المشكلة من ناحيته هو، بدليل أنك تساءلت عن ذلك ولم تمعني التفكير فيه، ولأنه لم يعد موجوداً الآن، أنت تفكرين بالأمر على هذا النحو، بينما يمكنك التفكير به بطريقة مغايرة تماماً..

- عذراً، هل تقصدين أن المشكلة في طريقة فهمي لما جرى، وليست في حقيقة ما جرى وما يمكن أن يكون قد نتج عما جرى؟ أم ماذا؟!

- شيء من هذا القبيل، انظري للجزء الممتلئ من الكأس، فكّري في الأشياء الجميلة التي اضافها (أنور) إلى حياتك، في التغيير الجميل الذي أحدثه في شخصيتك وقربك كثيراً من نفسك مهما كان طفيفاً، فكّري بالمأساة التي كان بالإمكان أن تحصل في حياتك لو استمر تواصلك معه، بناء على فهم لا يوجد ما يدل على كونه مشترك بينكما، واستثمري كل ذلك لصالحك وفي تعزيز ذاتك، صدقيني، هذا أفضل ما يمكن أن يرجوه لك شخص بهذا النبل الذي وصفته به، ولعلي أجزم بأنه قطع صلته قاصداً من وراء ذلك ايصال رسالة ما إليك بدافع الحرص عليك..

- وماذا تتوقعين؟! أقصد بشأن ما إذا كان سيعود ذات يوم أم لا؟ أقلها من أجل أن يتحقق مما حرص عليه من أجلي، هل تراه سيعود؟!

- ربما، وربما لا، لا يمكن الجزم بشيء أو التنبؤ بشيء، والأفضل أن نأخذ بحقائق الواقع، وأن كنت تجدين أن الأمل بعودته يحفزك على ذلك فلا ضير في ذلك، أياً ما كان فهمك وشعورك تجاهه..

صدقيني، أنت بحاجة إلى حافز، وها هو ذا حافزك، ومن يدري لعل الأيام القادمة تأتي بما لم نكن نتوقعه، محموداً كان أو مذموماً..

كان أخر ما قالته لي (لورا) متناقضاً نوعاً ما، ولكني استطعت أن أفهم مغزى ما ظننته أنا للوهلة الأولى تنازلاً، أرادت (لورا) من خلاله أن تخفف عني وتيرة الضغط الذهني والعاطفي للفهم السابق الذي كنت اتبناه للمشكلة بحسب تعبيرها، لذا قررت أن تعطيني حافزاً لتدعيم قبولي لنظريتها الجديدة، التي تقول بأن عليَّ أن أصرف نظري عما حدث، وأركز فقط على الأثر الايجابي الذي تركه في نفسي وحياتي، فهمت هذا منها بناءً على ما كنت قد تعلمته من قبل عن نظرية (تدعيم نقاط القوة وتعويض نقاط الضعف)، وكان كلامها أفضل من الناحية العملية مما كنت أتصور أن القاه منها، من حيث كنت أخذ المسألة بمأخذ شخصي، متجاهلة أبعادها الموضوعية، وكان للعمل بنصح (لورا) نتائجه السريعة.

عدت في ذلك اليوم إلى الشقة، وقضيت الليل كله في قراءة رسائل (أنور) وتصفح ما كتبته في يومياتي، وتنعمت بتذكر الأشياء الجميلة التي صاحبت ذلك، وبشيء يشبه السحر، شعرت باستعادة توازني، وقررت بالتمسك بالتغيير الذي أحدثه (أنور) في حياتي، وآثرت الركون إليه في الاستمرار، ولم تكد تمر بضعة أيام إلا وقد استعدت علاقتي الايجابية بنفسي وبالأخرين من حولي، وبدأت أشعر بوضوح بتقبلهم لي، وتأكدت من إني لم أعد أواجه مشكلة في كوني (فتاة عربية) تكشف عن سمات ونمط شرقي، من خلال ملامحي وشكلي ومظهري وملابسي، بل على العكس بدأت أعرف عن كثب وجهة النظر الأخرى، والتي تقوم على قاعدة احترام الاخرين كيفما كانوا، وهي إحدى الفضائل التي تمتاز بها العلاقات الاجتماعية في الغرب، ولكني مع ذلك كنت أشعر بأن الأمر لم يكتمل بعد، وأن هناك ما لايزال من الواجب تعلمه ويكمن في العمق وليس في المظاهر.

غير أن أفضل ما توصلت إليه، بعد ذلك التقويم الرائع الذي أعملته في (لورا)، هو شعوري الحقيقي الذي شعرت به لأول مرة بأن الفروق التي بيني وبين الأخرين كانت تجعلني في الموقع الأفضل، الموقع الذي يتمنى البعض من أبناء المجتمع الأوروبي أن يكون فيه، خصوصاً من ذلك الموضع الذي كنت أجري منه محاولات المماثلة والذوبان في نمط الآخر والتحول إليه، بعد أن تأكد لي أن الآخرين سيحترمونني أكثر كلما أمعنت في احترام نموذجي وثقافتي وهويتي، وأن الحضارة في أدق صورها ليست إلا ذلك السلوك الذي يتحلى بأقصى درجات احترام الذات والالتزام الأخلاقي تجاه الأخرين.

ولكن من أين نبعت هذه التغييرات في الرؤية والموقف لدي؟! وأين ومتى حصل التغيير هذا؟ لقد تطلب الأمر وقفات هادئة مع نفسي، مكنتني من رؤية بزوغ براعم جديدة في سهل حياتي وشخصيتي، تحمل في تركيبها الجيني تلك البصمة التي طبعها (أنور) على صفحات وجداني وأفكاري، لا أنكر أبداً تلك المضمونات التي حبلت بها دوماً كتاباته ومحاوراته التي أجراها معي عبر صفحات الـــ (Facebook)، وهذا ما جعل شعوراً بالامتنان والرغبة بالاعتراف بالجميل لذلك البطل المجهول الذي اقتحم حياتي عنوة، وغادرها طوعاً، ولكم قلت في نفسي مرارا:

- **أنني مدينة لك يا (أنور) وأتمنى أن يأتي اليوم الذي أشكرك فيه وأرد لك الجميل، فأنا لم أتحول إلى شخص أخر، بل بدأت أعرف من أكون، واصبح بمقدوري بعد أن كنت عاجزة على أن اتحسس ذاتي وأقترب من كنه (أناي) بأعماقي، بفضل تلك الأمارات والعلامات التي وضعتها على جوانب طريقي.**

لقد كشف لي (أنور) بكل ما حمله لي من معارفه وفهمه ونبله، كم إني كنت سطحية وأعيش في محيط لا يميزه شيء أكثر من الخواء الذي يلازمه، وأن الذين كانوا من حولي لم يكونوا لينفذوا إلى أبعد مما وراء ملابسي، وكيف أن حياتي كلها كانت مجرد مظاهر محشوة بعبوات تافهة وفارغة من أي مضمون له قيمة، كان (أنور) أبعد شخص عني في هذا الوجود، لكنه الشخص الوحيد الذي دلني على الطريق إلى اعماقي، وهو الشخص الوحيد الذي عرف كيف يخرجني من دائرة المظاهر ويحررني من تلك الرتابة، وتلك العلاقات المسكونة بألاف من المنافقين والمرائين والمتسلقين، لقد كانت حياتي رتيبة، مملة بلا إحداث أو وقائع، فقط لأنها كانت خالية من العمق، فالشخوص من حولي كانت هلامية، مجرد أشكال بلا جوهر أو قيمة، وأنا لم أكن إلا من طينتهم وعلى شاكلتهم، إلى أن جاء (أنور) من أقصى ركن للبعيد في هذا العالم ليعلمني القراءة، ومع ذلك كله فالأمر لم يكن قد اكتمل بعد، أقول هذا بالنسبة لما سيحدث بعد ذلك.

كانت (81) يوماً، تلك التي مضت على أخر تواصل بيني وبين (أنور)، كان لليل فيها هواجسه، وكان لليل فيها ما ينقصه في حجرتي، وفي تلك المسافات الزمنية التي كان الليل يمنحني فيها ساعات للخلوة بنفسي، كنت أكرسها لانشغالات أخرى حاولت أن اتغلب بها على ذلك الاحساس الزمني الذي تأصل في ساعتي الحيوية، والذي كان يجعلني أشعر بحلول الدقيقة الأولى بعد منتصف الليل دون أن ألتفت إلى الساعة المعلقة على الحائط، أو أنظر في ساعة يدي، التي كنت أركنها على هامش وقتي بعيداً، فقط لأشعر تلقائياً بموعد وصول رسائل (أنور) أو موعد دردشتي معه على النت، هل هي

العادة؟! أم أنها نبوءات بأنني لازلت انتظره، وبأنه ذات ليلة سيعود؟! لا أدري متى دفعني هذا الخاطر المتاخم لرغبتي في الحياة، إلى فتح درج خزانتي التي أودعت فيها هاتفي المحمول الثاني الذي هجرته، أمسكت به ذات ليلة، تناولته يدي بحب بالغ وحنان آسر، كما تتناول الأم الرؤوم وليدها لتزرعه في حضنها، فتحته لأول مرة بعد وقت طويل، ولم تكد تمضي غير برهة حتى بدأت تتوالى على مسامعي أجراس التنبيه بوصول رسائل جديدة، وكلها كانت رسائل محولة عن اتصالات واردة خلال الستة الأيام التي سبقت تلك الليلة، ورسالة مماثلة بتاريخ ذلك اليوم الوليد نفسه، حينها بزغت شمس الأمل في قلبي متقدة بما يكفي لطمس ظلمة تلك الليلة الكانونية الباردة، وإشعال الدفء في كل جنبات كياني الأيم بعد فقد عزيز رحل ذات ليلة وظننت أنه لن يعود، كان ثمة رقم واحد هو الذي تنبأ عنه الرسائل، رقم غريب، كوده الدولي من أوربا، بل من ألمانيا، هو؟! وليس أحد سواه؟! تهللت أساريري وانفرجت شفتاي على ابتسامة عريضة، وانتابتني فرحة لا توصف، ماذا افعل؟! ماذا أفعل؟! هل أكتب له رسالة؟ أم أفاجأه بصوتي كما كان يريد؟ تعذرت لنفسي بضرورة التحقق من كونه هو أولاً، فكتبت:

[إذا كنت هو من أعرفه، فأعطني أمارة]

انتظرت ساعات ولم يصل الرد، تحققت من الرقم إذا كان مفتوحاً فوجدته مغلقاً، تحول الفرح إلى استياء صاحبني طوال اليوم التالي، والذي عشته منزوعة عن العالم، لا شيء في رأسي إلا أن يكون هو صاحب الرقم الغريب، وبصيص أمل دفعني إلى الابقاء على هاتفي النقال الثاني مفتوحاً، بل وحملت الهاتف لأول مرة معي طوال اليوم، وأبقيته بالقرب من رأسي كل ليلة، الليلة الثانية، والثالثة والرابعة والخامسة، والسادسة، وأنا أترقب لوحة العداد في عيوني من خلال المرآة، أقرأ كم بقي لدي من وقود الأمل، حتى أفزعني زنين الهاتف في موعده من الليلة السابعة، كانت رسالة:

[هل سأنتظر (90) يوماً أخرى قبل أن أسمع صوتك؟]

تلعثمت، ترددت، ارتبكت، فرحت، بكيت، ساورني الخوف، كل المشاعر اختلطت بداخلي وامتزجت وتشوشت جميع افكاري، والسؤال اللعين: ماذا أفعل؟ مازال يسبب لي الحيرة، وهو أيضاً بعد تلك الرسالة لم يصدر منه شيء، كنت أعرفه، لن يتصل، وبمقدوره أن ينتظر (180) يوماً أخرى، وليس فقط (90) يوماً.

مضى وقت طويل، قبل أن استجمع شجاعتي من كل أشتات أنفاسي الحارة التي كانت تنبعث من صدري وكأنها تنبأ عن ثورة بركان خامد، وهي تتوزع في جهات الفراغ إلى حيث لا يمكن للمرء أن يصل، لململت نثاري من أرجاء الغرفة، أمسكت بالهاتف، أشرت بمحرك القائمة على الرقم الغريب، وضعت ابهامي في وضع الاستعداد قبالة الزر الأخضر، أغمضت عينيَّ، وأنا أشعر بنبضات قلبي وهي تكاد تثقب صدري، ضغطت على زر الاتصال، لأتخلص من التوتر بدأت أعد: [1, 2, 3, 4, 5،] سمعت جرس الاتصال يرن من الطرف الأخر، [6,7, 8, 9, 1...] غبت عن الوعي لا أدري كم من الوقت ولا أين، وصحوت من غيبوبتي تلك، وعداد المكالمة يشير إلى زمن قدره [03 .02 .00] سمعت صوته:

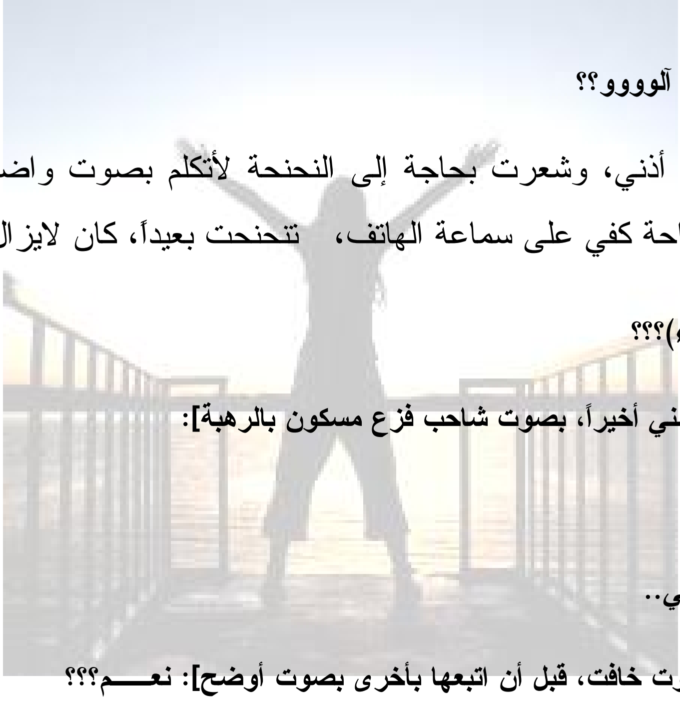

- **آلو.. آلوووو؟؟؟ آلوووو؟؟**

وضعت الهاتف قرب أذني، وشعرت بحاجة إلى النحنحة لأتكلم بصوت واضح، استحيت أن يسمع مني ذلك، فكتمت براحة كفي على سماعة الهاتف، تنحنحت بعيداً، كان لايزال صوته يأتي:

- **ألوووووو (تيماء)؟؟؟**
- **آلو... [صدرت مني أخيراً، بصوت شاحب فزع مسكون بالرهبة]:**
- **نعم، تيماء..**
- **أنا (أنور)، كلميني..**
- **نعم.. [قلتها بصوت خافت، قبل أن اتبعها بأخرى بصوت أوضح]: نعـــــم؟؟؟**
- **أخيراً، سمعت صوتك.. كيف أنت؟! بخير هه؟!**
- **نعم بخير.. [كان هذا ردي الذي قلته بسرعة البرق.. أردفت بعده مباشرة وبقليل من الحدة المصطنعة]: خلاص، سمعت صوتي يكفي.. مع السلامة!!!**

سمعت ضحكته تجلجل وكأنه يطلقها من جوف أذني:

- **هاه هاه هاه، خلاص، خلاص، يكفي الليلة وغداً سوف نتكلم..**

أنهى الاتصال وهو غارق في الضحك، أظنه كان قنوعاً جداً بحيث اكتفى بما سمع مني، بعدها جلست مذهولة في منتصف سريري، لا أدري بأي نظرة سأنظر بها في وجهي لو اقتربت من المرآة، وكأنني ارتكبت جريمة عظمى أو ما شابه، لكن رسالة وردتني منه استحوذت اهتمامي، فعجلت أقرأها:

لازلت أسمع أصداء صوتك

تدب على امتداد الصمت

أمواجاً.. تطوي المسافات

لازلت أشعر بامرأة

تتكاثف بخاراً فوق أرض اليباب

امرأة.. تتساقط مطراً

تتناثر زخات، زخات..

لازلت أسمع أنات قلب يشكو إلى الدهر

قسوة البين..

واغتراب الروح في دنيا الصبابات..

رسالة من هذا النوع، كانت أكثر بكثير من مجرد كافية لتعجنني في صحن احساسي بالأماكن، وتذيقني أصناف العذاب: عرقاً وأرقاً وملايين الهواجس والصور التي ظلت تغزو شواطئ مخيلتي، من حيث لا أدري ولا أقوى على الإدراك في بوتقة الزمان، هكذا قضيت ليلتي تلك حتى صاح الديك، وأشرقت شمس الصباح، فيما تصورت (الخبيث) وقد غرق في أهنئ نومة، بعد إذ نال بعد الصبر مراده، وكأنه (أخيل) عشية فتحه (طروادة)!! ومع ذلك قلت محدثة نفسي: وليكن!! وبدأت القصة مجدداً في الليلة التالية...

الفصل الحادي عشر

علَّمَني القراءة

في الليلة التالية على أول تواصل هاتفي أجريته مع (أنور)، كان عليَّ انتظار وترقب اتصاله في الليلة التالية، فمنذ أن غربت شمس ذلك اليوم وحتى الدقائق العشر الأخيرة التي تبقت قبل أن يدق جرس ساعة لندن معلناً حلول منتصف الليـــل، عكفت على التفكير في الكيفية التي يمكن أن يجري فيها أي حديث بيني وبينه، فقد كنت على يقين بأنه سيتصل بي في موعده كما أبلغني بذلك من قبل، كان التوتر قد أخذ مني ما أخذ، إلى درجة أنني كنت أشعر بقدمي مشدودتان، وعلى أي حال جعلتهما وبأي وضع كنت اتخذه لم يكن يجدي معي شيء يخلصني من ذلك التوتر الشديد الذي أصابني، وكلما نظرت إلى الساعة بين الفينة والأخرى كنت أرى الوقت يمضي سريعاً ببطء شديد تارة، وتارة أخرى أراه يجري بطيئاً ولكن بسرعة الصوت، لا أعرف أن كان التناقض في العبارة السابقة قادر على أن يكشف لك شيئاً عما كانت عليه حالتي في تلك الليلة أم لا، وفي لحظة جادة لا أتذكر من أين ولا كيف امتلأت بمحتـــواها من شجاعتي وجديتي، سألت نفسي وأنا أحدثها:

- **ما بكِ؟! وما ذلك الذي يفزعك إلى هذا الحد؟ كأنك ستتكلمين مع ملك الموت، وليس مع بشر من لحم ودم تفصل بينك وبينه مئات الأميال؟! الأمر عادي، دعيه هو الذي يتكلم واكتفي أنت بالإنصات إليه،**

فالإنصات في مثل هذه المواقف أفضل طريقة لمعرفة حقيقة من يتحدث إليك، أليس هذا هو ما قاله لك ذات يوم؟!

هذا أخر ما توقفت عنده مع نفسي، وأخر ما عزمت عليه، ولعلي بعد هذه النتيجة تعافيت قليلاً من توتري وقلقي وتخلصت من تلك المشاعر التي يعجز المرء أن يُعرفها أو يحدد كنهها، وفي أخر لحظة ودون أن أنظر إلى الساعة، كانت ساعتي البيولوجية قد أنبأتني بموعده، فكان أسوأ ما يمكن أن أضع نفسي فيه هو الانتظار مجدداً، لذا شغلت نفسي بأشياء بسيطة مثل تجهيز أوضاعي بحيث لا أجد ما يدفعني إلى النهوض من فوق السريـــر بعد ذلك، وأطفأت ضوء الغرفة مكتفيـــة بضوء الأبـــاجورة الذي يضيء مساحة كـــافية بالقرب مني، وببساطة شديدة تجاوزت تلك الدقائق التي كان يفترض أن انتظر اتصاله فيها، وانتهى الأمر بسماع صوت نغمة جهاز المحمول، تلك النغمة الخاصة التي خصصتها له: المقدمة الموسيقية لأغنية (سلم لي عليه) للرائعة (فيروز)، على فكرة هو من علمني أن أحبـــها وأعشقها– أقصد (فيروز) وأغانيها، بعكس ما كان عليه ذوقي قبل أن أتعرف عليه.

أمسكت بجهاز المحمول، وأنا أتعمد أن أتأخر في الرد عليه، واتخذت الوضعية المناسبة لي فوق السرير فجلست القرفصاء في منتصفه، وضغطت على زر الإجابة، فجاءني صوته متألقاً:

- **آلو..**
- **آلو..   [قلتها بصوت خافت عمداً]**
- **مساء الخير وصباح الخير.. اختاري منهما ما شئت..**
- **ليس مهماً.. فكلاهما تنفعان؟! [تكلمت أيضاً بصوت خافت]**
- **أووه.. ما هذا؟! ارفعي صوتك قليلاً فأنا لا أسمعك..**
- **لا أستطيع..**
- **لماذا؟!**
- **لست وحدي هنا، ولن أستطيع أن أتكلم، فقط سأسمعك..**
- **حسناً.. حسناً، ولكن هل سيستمر هذا الوضع دائماً؟**

قال ذلك وهو يحاكي طريقتي التي كلمته بها- أي بصوت خافت وحذر، مما جعلني أكتم ضحكة كادت تفلت مني وتفضحني، بقي أن أجيب عليه:

- **ربما نعم، وربما لا.. لا أعلم بالضبط، حسب الظروف، هيا تكلم ودعني فقط أستمع إليك..**

- **حسناً، ما دام الأمر كذلك، فاعطني فرصة كافية حتى أستطيع أن أجد مدخلاً مناسباً يضمن لي أن استمر في الكلام، ولكن، هييه.. أنت، لا تنامي، فأنا لا أحكي لك حكاية ما قبل النوم، وأقسم بالله لو شعرت بأنك نمتِ، إني سأفعل ما لا تتوقعين مني فعله عقاباً لك، وأنا جاد جداً ولست أمزح..**

كنت أسمعه وهو يقول لي ما قاله، وبيني وبين نفسي كنت أحسده على تلك العفوية والبساطة التي تغلب على كلامه، وأتعجب من قدرته على اظهار روح الدعابة وخفة الظل بتلك الطريقة، وأحسست بأنه يحتاج مني أن أجاريه وأساعده قليلاً، حتى يتمكن من الاستمرار في الكلام، على الأقل في البداية، لذا وبصوت مرتفع قليلا وبلهجة متحفظة بادرته مقاطعة:

- **هييه.. أنت، وماذا ستفعل إذا كان كلامك مملاً أو أنا نمت بدون قصد؟**

- **أبداً، سأنام أنا أيضاً!!**

صدرت مني ضحكة صغيرة جاملته بها، لكي يستحسن مني ردوداً غير كلامية تشعره بأني بالفعل أنصت إليه ولست نائمة، لكن صوته تأخر للحظات مما أثار انتباهي أن يكون الخط قد انقطع، أو إني بطريق الخطأ أقفلت الهاتف، فمددت يدي إلى حيث كانت سلك السماعة الخارجية وقمت بتركيبها إلى أذني بينما حشرت قابسها في الطرف الآخر في موضعه من الهاتف، وأنا حريصة في الوقت نفسه على إلا يفوتني شيء إذا تكلم مجدداً، غير أنه تأخر أكثر مما لزمني لفعل ذلك، فأطلقت صوتاً صغيراً:

- **آلوو، ؟؟**

- **[جاء صوته سريعاً]: مازلت معك.. ألم أقل لك بأني أحتاج إلى فرصة كافية؟! ماذا تتوقعين مني أن أقول وأي موضوع سأفتحه، وأنت على هذا النحو تجبريني على ألا أطيل زمن هذه المكالمة؟؟!**

- **أنا متأسفة، لكن صدقني أنا مضطرة لذلك، ومع ذلك أعدك بأني سأتكلم كلما واتتني الفرصة مثلما فعلت الآن معك... [تكلمت معه هذه المرة بصوت مرتفع وواضح]**

- **هذا يخفف عني قليلاً، وطالما أنه بوسعك الآن أن تتكلمي معي بوضوح، فأثيري الموقف أو بمعنى أدق، انقذيني بسؤال من تلك الأسئلة التي تعودت منك طرحها في الــ (Facebook)، أي سؤال لا يهم، أي شيء تجودين به، المهم.. خلصيني من هذه الورطة بحق الله!!**

وافق ما اقترحه عليَّ شيئاً ما أو حاجة في نفسي لم أفطن إليها من قبل، وبشكل مقصود قذفت في مسامعه حزمة أسئلة:

- **حسناً أسمع، لماذا حرصت على أن نتحول إلى هذه الطريقة في التواصل؟ وأين اختفيت طوال تلك المدة؟ وماذا كنت تتوقع مني أن افعل؟ وهذا كله الذي يجري بيننا إلى أين سيفضي في النهاية؟..**

- **[قاطعني فزعاً]: حسبك، حسبك، ما هذا؟ كأنك حاوية أسئلة مستوردة على عجل من الصين؟**

- **هيا أجب على ما سألتك، فقد مللت من دعاباتك المصطنعة، كما أن فرصتي في الكلام انتهت الآن، سأنصت فقط، فقرر ما شئت..**

- **(تيماء) اسمعيني، أعرف إني سببت لك الكثير من المشاكل مع نفسك منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها حياتك بدون استئذان، فقد كان ولازال يراودني إحساس بأنك تحتاجين للمساعدة وبأني سأحسن مساعدتك، هذا هو السبب الرئيسي الذي يقف وراء كل ما حدث بعد ذلك من تواصلي معك... (تيماء) هل تسمعيني؟!**

- **نعم، استمر..**

- **ماذا أريد من ذلك كله؟ هل تتوقعين أني كنت مدركاً ذلك من قبل أو الآن في هذه اللحظة؟ لا، ليس هناك أية مقاصد أو غايات مما أقوم به معك، أعرف أنك لا تستطيعين أو أنك بالفعل كما قلت لي ذات يوم ترفضين أن تخبريني عن حقيقة من تكونين، ولكني في المقابل لا أجد أن هذا مهماً، ولن اشترطه في المستقبل، أن قدر لصداقتنا أن تستمر على هذا النحو من التواصل..**

أثار استغرابي وتحفظي أيضاً كلامه وهو يصف علاقتنا بأنها (صداقة)، فقاطعته على عجل بنبرة استغراب واستنكار قائلة:

- **ماذا قلت؟؟ صداقتنا؟؟!!**

- **نعم، فنحن صديقين، والصداقة هي أقرب ما يمكن أن يوصف به ما بيني وبينك، وليس هناك توصيف أخر باعتقادي. نعم، سبق وأن اتفقنا بأن نعتبرها (علاقة استثنائية) ولكننا لم نتفق على ما يمكن أن**

نصفها به، فما نأخذه بالاعتبار شيء وما نصفه بأنه الواقع شيء أخر، وفي كل الأحوال لا ينبغي أن نجعل من هذا الجانب معضلة، فقط لأننا أنا وأنت لازلنا ننظر إلى انفسنا أو علاقتنا من منظور ثقافتنا ومجتمعنا الذي جئنا منه، لا أقول هذا قدحاً في ما هو بالأصل هويتنا وانتمائنا، بل أقول هذا لأني أعيب على كلانا أن نستمر في التعاطي مع انفسنا أنا وأنت على أساس أنك فتاة وأنا رجل، لقد تكلمنا في هذا من قبل.. وأنا واثق بأنك لست مضطرة أبداً على أن تظلي مجرد مستمعة، كما أني واثق من أنه ما من أحد جوارك، بل وأستطيع أن أتصور المكان والوضع الذي أنت فيه الآن...

- لن اصدق عبارتك الأخيرة ولن أصادق على ما قبلها، فقط سأوضح لك موقفي مما تسميه أنت (صداقة) بين شاب وفتاة، فأنا أعتقد أنه لا يوجد فرق أن كانت تلك الفتاة شرقية أو غربية، كما لا يفرق فيها نوع وشكل ذلك الوجود الذي يتخذه الرجل لنفسه في حياة تلك الفتاة. ما لا أصدقه هو أن ثمة صداقة بين شاب وفتاة يمكن أن تكون وأن تستمر بنفس ما يحدث بين صديقين أو صديقتين، هناك فارق واحد يجب ألا نتجاهله عندما نحاول أن نتحلى بالصراحة والحقيقة، انه ذلك الفارق الذي يفرض أن يُحدث تحول في مسار العلاقة بين الذكر والأنثى، أو أن يجعل هذا التحول ممكناً ومتوقعاً في أية لحظة، إنه فارق (الجنس) وما يترتب عليه من إحساس بالنقص من جهة الذات لدى طرف، واحساس بالحاجة إلى ما عند الآخر ويعوض ذلك النقص، لا تنسى أننا من البداية وحتى النهاية خليط أجساد وأرواح، وكتل مادية لا تستطيع أن تثبت حقيقة أنها حية وبشرية إلا إذا عبرت عن حاجاتها ورغباتها العاطفية والجنسية، التي هي أساس وجذر نشاطنا الاجتماعي، أقول لك دعنا لا نغالط انفسنا، فقط سأسألك، هل تعرف ما الذي يعنيه وجود رجل ما في حياة فتاة؟!

- ما أجمل صوتك حين تتكلمين بإسهاب!! ثم قبل أن أجيب على سؤالك، يجب أن أقدم لك ما يثبت صحة وجهة نظري، ما دمت قد أوضحت بأن الجنس فارق جوهري بين الرجل والمرأة لا يمكن تجاهله، وهو الأساس الذي ينطلق منه رفضك لفكرة أن هناك صداقة يمكن أن تنشأ بينهما، لأنك تفترضين أصلاً أن أي علاقة بين الجنسين لا يمكن أن لا تحتك بالفارق الجنسي، ولكن هل هذا صحيح في الواقع؟ طبعاً لا، فلو صدقنا وعممنا وجهة نظرك على كل العلاقات القائمة على الواقع بين الرجال والنساء، لأنكرنا حقيقة وجود علاقات بين الجنسين لا تحتك بفارق الجنس أو تتصادم معه على الاطلاق، بقدر ما تحيد هذا الفارق وتجعل منه فارقاً شكلياً لا أكثر، بدليل أنك على علاقة بأبيك وأخيك وخالك وعمك ووو، وهذه كلها علاقات قائمة على الصفة لا على اعتبار الفارق الجنسي، فهل تنازعك الحاجة الجنسية أو العاطفية بذلك الشكل المطلق الذي تكلمت عنه في علاقتك مع كل واحد منهم؟ أو هل تتوقعين أن يحدث هذا معهم تجاهك؟ الجنس مسألة تظهر على المستوى الفردي لحياة الناس رجالاً ونساءً، وأي تبادل عاطفي – جنسي لا يمكن أن يحدث إلا في هذا المستوى، هل تتوقعين من الناس بعد أن تتحقق حاجاتهم ورغباتهم العاطفية والجنسية أن تحكمهم نفس الحاجات والدوافع مع بقية الرجال والنساء في هذا العالم.. النساء

موجودات في كل مكان والرجال موجودون في نفس الأماكن، والجميع يختلطون ويتبادلون ويتواصلون من خلال علاقات اجتماعية تحكمها حاجات ودوافع أكبر وأكثر تبادلية من أي فوارق جنسية: اصدقاء، زملاء، معارف، شركاء، باعة ومشترين.. الخ، هذه هي حقيقة الواقع بدون أدنى مغالطة وليس ما تدعين، أرجو أن أكون قد أوضحت.. أما الإجابة على سؤالك فهي أن ذلك الوجود تحدد معناه الصفة التي لا يكفي أن يقررها ويحدد ماهيتها طرف واحد، بل الطرفان معاً يجب أن يحددان ويتفقان على صفة العلاقة بينهما وعلى ماذا يعنيه وجود كل منهما في حياة الأخر، وليس باعتبار الفارق الجنسي القائم بينهما..

لم يتوقف الحوار تلك الليلة عند هذا الحد، ولكن من الصعب أن أنقل تلك الحوارات كلها، يكفي أن أقول هنا بأنه استطاع أن يستدرجني من حيث لم أكن أشعر بأني قادرة على فعل ذلك حقاً، أقصد أن أكون مجرد مستمعة فقط، لقد كان قادراً على إثارة دوافعي للدخول معه في مناقشة من هذا النوع، ولا يجب أن يتوقع أحـد بأن حواراتنا اللاحقة كـانت بنفس هذا الطابع الموضوعي، بل كانت هناك حوارات وأحاديث عامرة بالذاتية والحميمية والعواطف والأحاسيس المتبادلة التي جرت وفق ما أراد أن يقنعني به وأقنعني به بالفعل، فقط لو أمكن للجميع أن يدركوا أن هذا كان ممكناً، وأنه ما يحدث بالفعل بين الكثير من النساء والرجال في هذا العالم وأنه ما حدث بالفعل بيني وبين (أنور)..

(أنور) كما عرفته لا كما عرفني هو عن نفسه، شاب مثقف وواسع الاطلاع، غزير المعرفة إلى درجة يمكن اعتباره معها موسوعة، ومع ذلك لم يساورني أي إحساس بأنه يستعرض ثقافته أو يتباهى بها، لأن تواضعه وثقته بنفسه وحرصه على مشاعر غيره تسبق كل شيء يصدر منه بطريقة تجعل كل من يتعرف عليه يبادله بالمثل، يتحدث بلغة بسيطة تجعله أقرب إلى بساطة وتلقائية الناس العاديين، ويكتب بلغة رفيـعة تجعله يرقى إلى مستوى الأدبــاء والشعراء، مع أنه لا يحب أن يُطلق عليه لقب أديب أو شاعر، فهو كما يقول عن نفسه لم يكن بحاجة إلى ذلك، شخص مؤثر ومقنع إذا حاور وناقش، ومسلٍ ومرفه إذا أظهر روح الدعابة وخفة الظل، قال لي عن نفسه، أنه لا يتذكر أنه قابل الناس ذات يوم بوجه عابس، لأن البسمة هي سلاحه الوحيد في هذه الدنيا، وخلف تلك البسمة التي اعتاد أن يهديها للعالم كل صباح، وطوال كل يوم من عمره، يخفي أحزانه وآلامه العميقة والدفينة، عاش حياة صعبة وخاض تجارب أصعب، لأنه صاحب حلم استكثره الآخرين عليه عندما وصفوه بالواهـم الذي يطلب ما لا يقدر على صنعه ويستحيــل على مثله بلوغه، لديه غايات ورسالة في الحياة، وأهدافه دائماً

نصب عينيه، وهو وحده من كان بوسعه أن يعلمني القراءة، فقد قال لي ذات ليلة كلمات لم أكن لأحفظها لولا أني شعرت بقيمتها فكتبتها:

القراءة، هي الطريقة الوحيدة لاستكشاف عوالمنا، وهي أكثر شيء نقوم به دون أن نعي ذلك، لأننا أقمنا الاعتبار على المعنى الضيق لفعل القراءة، وأفضل القراءات تلك التي تتم بالتأمل والامعان بالنظر، والتفكر في الأشياء والتدبر في الرؤية، العيون لا تقرأ بلغة محددة لأن العالم لم يكتب بلغة محددة، وأفضل طريقة لمعرفة حقائق الناس هي الانصات اليهم، وأفضل طريقة يكتشف بها الانسان ذاته هي البحث في أعماقه، القراءة تتم بطرق كثيرة، وكل ما تقوم به عقولنا وحواسنا ليس إلا تنويعات لفعل القراءة، حتى الكتابة ليست إلا تلك الطريقة التي نقوم من خلالها بإعادة القراءة على ذلك النحو الذي يمكننا من اختبار نتائج ادراكنا وفهمنا السابق..

حدثني في كثير من الموضوعات والقضايا التي كانت تلف وتدور – كما كنت أشعر- حول واقعي وتجربتي الشخصية بشكل أدق وأوضح، حتى أصبح بمقدوري أن الحظ الفرق بين ما كانت عليه شخصيتي من الناحية التي اعتقدت بأني كنت أعرف بها نفسي من قبل، وبين ما بُتُّ أدركه وأعيه عن نفسي والطريقة التي يتم بها ذلك على النحو الذي تظهر فيه مقاصدي وارادتي، بشأن ما أريد وما لا أريد، وباختصار علمني (أنور) كيف أنظر إلى الحياة، وكيف يتعين عليَّ دوماً أن أتوقع وأختار كيف أعيشها، ولماذا ومن أجل ماذا ومن أجل من، وكل ذلك فقط لأنه علمني القراءة أو كما قال ساعدني على استعادة قدرتي الموءودة تحت ركام المعارف والاعتقادات السطحية على القراءة العميقة والمتمكنة..

أنا واثقة بأن لا أحد سيفهم معنى كلمة (القراءة) هنا بالمعنى التقليدي أو الحرفي، كما أكره أن يسيئ أحد الظن بي، ويتصور بأني كنت ذلك المستمع الذي يعتبر كل ما يقوله له الحكيم بمثابة حقائق ومسلمات، أو يتصور بأن (أنور) من ذلك النوع الذي يحب أن يعطي محاضرات تلقينية وأن يحفظ الأخرون كلامه كنصوص مقدسة عن ظهر قلب، يرددونها ويستشهدون بها، لا أبداً، بل هو ضد هذا النمط السائد والطاغي على واقعنا والذي يحكم علينا ويقيــدنا بطريــقة واحــدة نتلقى بها معارفنا وتــراثنا وتاريخنا وديننا وعلومنا، وأغلب الظن أن (أنور) يقود ثورة ضد هذا الواقع ولكن من جهات مختلفة وبطرق متعددة..

قال عن (قراءة الأفكار) بأنها ما نقوم به نحن البشر وما هي عليه طبيعتنا الاجتماعية من حيث تكمن قدرتنا على اكتساب اللغة والكلام والتواصل والحوار، وهي الطريقة التي نوثق بها كل شيء عنا ونكتب بها تاريخنا، أو الطريقة التي تتكون بها مواقفنا وآرائنا واتجاهاتنا ومعتقداتنا وتصبح بشكل أو بأخر (قاعدة فهم مشترك) نبني عليها قوانينا ومعاييرنا وقواعدنا وكل الأنظمة التي تحكم بعد ذلك علاقاتنا.

هناك قاعدة أساسية وهي: أننا نميل دائماً إلى التواصل والتفاهم وقراءة افكار بعضنا البعض والتنبؤ بها قبل التعبير عنها، بناءً على قاعدة المعارف المشتركة تلك، وأننا نقوم دوماً بالتفسير والتأويل والتحليل والتركيب والمقارنة والتشبيه، فقط من أجل أن نفهم ما الذي يخطط له الآخرون، ونقرر ما الذي يجب أن نقوم به نحن في المقابل، ولكن هذه القاعدة تحجب قاعدة أخرى قلما توضع بالاعتبار أو في موضع التحقق والاختبار وهي: أننا نقرأ مواقف وافكار وأراء واتجاهات وانفعالات الآخرين بناءً على ما تكون عليه دوماً مواقفنا وافكارنا وآرائنا واتجاهاتنا وانفعالاتنا نحن، وهذا يعني أن ما نقوم به غالباً ليس إلا قراءة افكارنا واسقاطها على الأخرين، ولكن كيف نكتشف ذلك ونتحقق منه؟

المسألة ببساطة، يمكن أن تتم بطريقة الاستدلال البسيط الذي يمكن إجراءه على نماذج مختلفة بعد ذلك، فما دمنا نتواصل عن طريق اللغة، فقد استطعنا أن نحجب هذه الحقيقة الماكرة بأشكال وطرق مختلفة من خلال اللغة نفسها، لأننا نلجأ دوماً إلى ما يسمى بـ (الحيل الدفاعية) والتي لا أسهل من أن نقوم بها من خلال اللغة والكلام:(الكذب) حيلة دفاعية نلجأ إليها و(الخداع) أيضاً، وتتضح المسألة أكثر عندما يبحث المرء عن مطابقة كل ما قيل ويمكن أن يقال مع معايير الحقيقة من زاوية المقاصد، لا من زاوية المعاني القاموسية، ليكتشف أن ثمة من يمارس عليه وضده بأشكال وصور شتى (التلاعب بالألفاظ) (الخداع التعبيري) (التورية) (المجاز والتأويل) وغير ذلك، ومرة أخرى أقول ولكن ما قيمة أن يعرف الانسان هذا فضلاً عن أن يصدقه ويسعى إلى الاستفادة منه في حياته الواقعية؟!

الحقيقة، أن هذا يمكن أن يكون سؤالاً وجيهاً، ولا أبسط من الإجابة عليه فلو نظرنا إلى حقيقة ما يجري ويحكمنا ويضغط علينا في الواقع، ليس إلا تلك التعاليم والقوانين التي نتلقاها ونرثها ونورثها جيل بعد جيل، وهناك ما نتداوله ونتحدث به ونؤمن به، دون حتى أن نفكر في اختباره أو التحقق منه.

أنظر مثلاً: الخطابات الدينية والخطابات السياسية وهي أقوى أنواع الخطابات حاكمية وتأثيراً، فلا أحد يجرؤ أن يقاطع خطيب الجمعة حتى لو أخطأ لأن الدين يقول ذلك، ولا أحد يجرؤ على أن يُشّكك في نوايا الحاكم إذا أعلن عنها في خطاب تلفزيوني، فضلاً عن أن يكذبه أو يحاسبه عليه إذا حدث العكس مما قال بعد ذلك، لأن الدين يأمر بطاعة ولي الأمر ولأن الله من اختاره ليجلس على العرش، ولأن معه الجيش والشرطة والمخـــابرات والسجـــون وأدوات التعذيب، ولكي لا يبدو الأمر معقداً ومرعباً، لنأخذ أمثلة بسيطة على الطريقة التي قبلنا دائماً أن يتم بها خداعنا وتضليلنا وتزييف عقولنا: الاعلانات التجارية، القصص والروايات والأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية، العرائس والدمى والألعاب التي نفرح بها قلوب الأطفال، وكل شيء، كل شيء، لا يخلو من كذبة، أو خدعة، أو حقيقة محرفة.. وللمرة الثالثة أقول متسائلة: ولكن ما جدوى أن يكتب كل هذا في عمل روائي؟ هل جئت أكتب قصة أم أرغمك على قراءة مقالاتي؟!

لن أجيب على هذا السؤال، ولكني بدلاً من ذلك أقول ما أجمل أن ترى كل شيء بعينيك واضحاً، وما أسوأ أن تجعل بينك وبين الحقيقة حاجزاً سواء كان شفافاً أو معتماً، فالطبيعة لن تكون أجمل مما هي عليه لو رأيتها من خلف زجاج النظارة الشمسية، ومعايشة الحدث ليست كالسماع به، والشك بمنهج البحث والتحري أفضل من اليقين بمنهج التلقي والتصديق، هذه هي الحقيقة، وهذا أول ما علمني إياه (أنور)..

محاضرات ما بعد منتصف الليل، وحوارات ما بعد منتصف الليل، ودردشات ما بعد منتصف الليل، تلك التي جرت بيني وبين (أنور) لأيام وأسابيع وشهور، فيها الكثير مما لا يمكن ايراده هنا، أو يمكن تلخيصه أو اختزاله، فقد كان في كل ليلة يضيف إلى معرفتي شيئاً جديداً، ويضفي على شخصيتي ملمحاً جديداً، ويكسب أفكاري وتصرفاتي سمة جديدة، كان يُغّيرني ويساعدني على تغيير نفسي وحياتي وابتداع حجج التغيير في كل مرة، لأن التغيير لمجرد التغيير مهما كان الواقع حسناً أفضل من البقاء في نفس الواقع.

عندما تجد شخصاً مميزاً في طريقك تلتفت إليه، وعندما تكتشف أن أشياء كثيرة مما تفتقدها وتحتاج إليها لديه ويمكنه أن يمنحك إياها فمن المؤكد أنك سوف تحرص بل ستطمع في أن تتعرف عليه، وعندما تقترب من ذلك الشخص وتعرفه وتعاشره وتتبادل معه همومك وآلامك، عندما يفيض عليك

بكرمه الآسر ويعطيك ساعة وساعات من عمره، فقط من أجل أن تتكلم أنت وينصت هو لك.. ماذا ستفعل إزاء شخص كهذا؟ وماذا عساك ستفكر أن تعطيه؟! لقد قال لي مرة:

أسوأ ما يمكن أن يلاقيه المرء في حياته، أن يشعر بأن أقرب الناس إليه لا يعرفه ولا يقدر ما يقوم به أو يشكره على مجهوده!! وأجمل ما يمكن أن يلاقيه المرء في حياته، أن يصادف شخصاً لم يعرفه ولم يقابله من قبل، جاء من أقصى البعيد وتجشم عناء المسافات من أجل أن يقول له كلمة شكر ويعبر له عن حبه وامتنانه. نعم، في مقابل أكبر ما يمكن أن يقدمه المرء من عطاء، تظل كلمة الشكر أثمن وأغلى من أي مقابل، وكلمة نصيحة أو مشورة صادقة تظل أعظم ما يمكن أن يحظى به المرء في أصعب أزمات حياته وأسوأ أيامه من أحد ما..

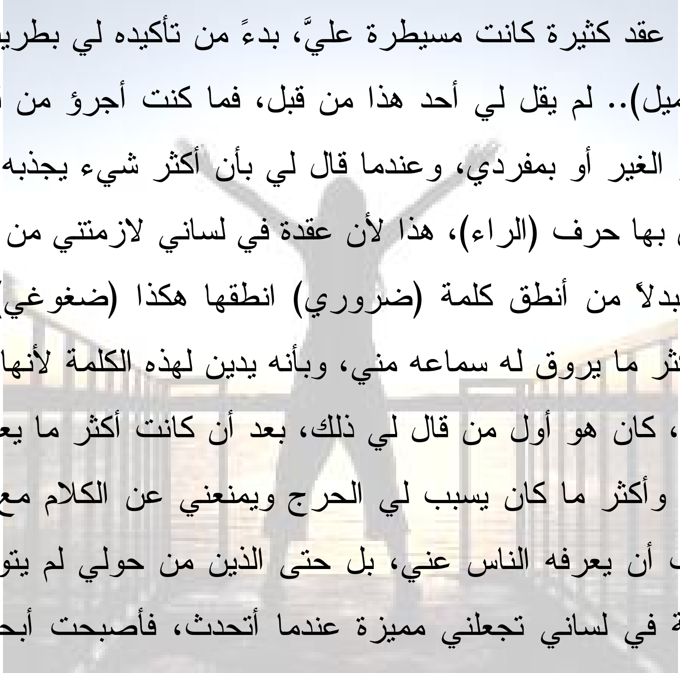

لقد حررني (أنور) من عقد كثيرة كانت مسيطرة عليَّ، بدءً من تأكيده لي بطريقة أوضحت لي صدق معانيه بأن (صوتي جميل).. لم يقل لي أحد هذا من قبل، فما كنت أجرؤ من قبل أن أغني أو أشدو بصوتي سواء بحضور الغير أو بمفردي، وعندما قال لي بأن أكثر شيء يجذبه إليَّ عندما اتكلم معه، هي الطريقة التي أنطق بها حرف (الراء)، هذا لأن عقدة في لساني لازمتني من صغري تجعلني أنطق حرف الراء (غين)، فبدلاً من أنطق كلمة (ضروري) انطقها هكذا (ضغوغي)، وهو الذي قال بأن (ضغوغي) هذه هي أكثر ما يروق له سماعه مني، وبأنه يدين لهذه الكلمة لأنها ساعدته على اكتشاف هذه اللمحة المميزة بي، كان هو أول من قال لي ذلك، بعد أن كانت أكثر ما يعايرني به الآخرون مذ كنا صغار وحتى الآن وأكثر ما كان يسبب لي الحرج ويمنعني عن الكلام مع الآخرين، لكنها اليوم أصبحت أجمل ما أحب أن يعرفه الناس عني، بل حتى الذين من حولي لم يتوقفوا من بعد ذلك عن اخباري بأن تلك اللثغة في لساني تجعلني مميزة عندما أتحدث، فأصبحت أبحث عن كل كلمة فيها حرف الراء بعد أن كنت قد عودت نفسي على مدى سنوات العمر على قاموس كلمات خالية منه، وأصبحت أحظى بتلك المتعة وأنا أردد الأغنيات التي أحبها مع زميلاتي وصديقاتي أو عندما أكون في البيت أو السيارة بمفردي.

كل هذا التأثير الذي كان أشبه بالسحر، أحدثه رجل مجهول لم ألتقي به من قبل في حياتي.. رجل لم يكن يحتاج إلى أكثر من بضعة أيام ليقيم أساساته على ارضية شخصيتي وحياتي، ولم يكن يحتاج إلى أكثر من بضعة أسابيع حتى ينتشر ويطغى على أفكاري وتصرفاتي، وإلى أكثر من أشهر قليلة ليجعلني قادرة على أن أكون ما أصبحت عليه وأحببته.. لم أتغير وأصبح شخصاً أخر، بل بقيت نفس الشخص،

ولكن بشخصية أخرى أكثر جمالاً وجاذبية، أصبحت لدي رؤيتي الجديدة للحياة، وكيف لم يكن بوسعي إدراك ما حدث لي وكل من حولي لمسوه وتعجبوا له وأعجبوا به؟ فلم تستطع (كايتي) إخفاء ما لاحظته من تغيير طرئ عليَّ، فقالت لي ذات يوم:

- **لا أعرف (تيماء).. إن كنت تلك التي عرفتها أو أنك نسخة جديدة منك.. لأني فجأة أصبحت أرى فيك فتاة ناضجة، وكأنك نضجت تماماً بين عشية وضحاها..**

كم شعرت بسعادتها من أجلي، وكم كانت سعادتي أنا لأنها شعرت بذلك وأشعرتني بأنها شعرت به، وأشعرتني بأن ما كنت أشعر به كان حقيقياً، لذا لم يكن كثيراً عليَّ أن أشعر بكل ذلك الجمال والسحر والسعادة والانتعاش والمشاعر الجميلة والأوقات الهادئة والصافية تملئ نفسي وحياتي وتحيط بي من كل الجهات، وأجدها وأشعر بها في كل الأشياء، أصبحت أحب نفسي وأحب كل شيء،، وأصبحت لا أتمنى إلا أمنية واحدة، أن تكون حياتي وأن اعيشها على ذلك النحو طوال العمر، وليتني ما تمنيت ذلك، لأن تلك الأمنية كانت السبب الأول لأوجاعي بعد ذلك لفترة..

لقد بعثت تلك الأمنية في نفسي تلك المخاوف الشريرة من أن تلك السعادة الغامرة قد لا تدوم لي، وأنه قد ينطبق عليَّ قانون الحركة الفيزيائية الذي ينص على أن الأشياء تظل ساكنة ما لم يؤثر عليها شيء أخر يفقدها سكونها ويجعلها تتحرك، وأن التأثير يزول بزوال المؤثر، ماذا يعني هذا؟ حسبتها بالمنطق وبسمكة (ايشيكاوا) وبطريقة بما أن.. إذن..

كل التغييرات الرائعة التي حصلت لي وكل السعادة التي غمرتني وكل شيء أصبحت اتنعم به كان بسبب وجود شخص واحد في حياتي، (أنور).. هو الشخص الوحيد الذي لا أملك أية ضمانات لبقائه في حياتي، وفي أي لحظة يمكن أن يختفي وأغرق أنا في قطرة ماء؟؟

بدأت أعاني من هذه الفكرة المرعبة، أسأل نفسي كل يوم: هل يعقل أنني أدمنت وجود هذا الشخص في حياتي بحيث أنه لن يكون بمقدوري الاستمرار على هذا النحو الجميل بدونه؟ هل يعقل أن يكون ثمن هذا التغيير الرائع والجميل الذي شعرت معه بالخفة والتوازن والقدرة على التحليق، والقدرة على تنفس أول أنسام الحرية والانعتـــاق أن أدخل سجن هـــذا الرجل؟ يا الله.. ألا تستقيم لي الحياة ابدا؟ لماذا كلما ظهر لي في الأفق قبس من أمل أو ومضة من نور تضيء لي الدروب، تظهر لي في الوقت نفسه معضلة تقطع عليَّ الطريق وتمنعني من الاستمرار؟ لماذا كلما تحررت من قيد كبلتني الحياة بقيد

جديد؟ لماذا عندما بدأت أشعر بالسعادة الحقيقية لأول مرة في حياتي داهمتني المخاوف والظنون؟! هل كان ظهور (أنور) ووجوده في حياتي نعمة أم نقمة؟ ولما لا؟ ألم يقل لي هو ذات يوم بلسانه:

العلاقات يمكن أن تكون سجوناً وعوائق، مثلما يمكن أن تكون آفاقاً رحبة ودروب مفتوحة، وذلك يتوقف على مدى قدرة كلا منا على إدراك حقيقة ما يريده ويمكن أن نتفق عليه أو نختلف فيه..

هذه الكلمات القليلة، كانت كافية لأن تُسعر من نار مخاوفي أكثر، فما أريده في الحياة لايزال منقطعاً، وما ادركته حتى ذلك الوقت لم يكن كافياً، ليرشدني بقية الطريق، و(أنور) قد يختفي من حياتي بإرادته أو لأي سبب يدفعه إلى ذلك، وما بيني وبينه أدنى من أن يكون رابطاً قوياً يجعل علاقتي به مستمرة وقادرة على الصمود والبقاء في وجه كل العوامل التي يمكن أن تحول بيني وبينه، الماكر الخبيث، ألم يأخذ باعتباره أنه قد يجعلني أعيش في مثل هذه الورطة والمأزق؟! أم أنه كان بقصد أن يوصلني إلى هذه النقطة منذ البداية؟!

هكذا، لم يعد الأمر يقتصر على معاناتي الناجمة من مخاوفي تلك، بل امتد لتضاعف من حجم معاناتي شكوكي وظنوني السيئة والممكنة في نفس الوقت بـــ (أنور)، وأنا التي كانت عليَّ يقين من أني لو عرضت له الأمر لوجد لنفسه ألف حجة وعذر، ولكان بوسعه أن يقنعني بغير ما أنا عليه، وهذا لن يزيد الطين إلا بلة، يجب أن أتوقف.. يجب أن أعطي نفسي فرصة للتفكير بنفسي من دونه واختبار حقيقة أني لن أكون وقف له وأن حياتي يمكن أن تستمر به أو بدونه.

التفكير وفق هذا المسار، دفعني بقوة إلى الاتجاه نحو نقطة الحسم واثبات الحقيقة، ولم يكن أمامي من بد إلا أن اتوقف عن الاتصال به أو أن أمنعه من الاتصال بي، كان يجب أن تتوقف اتصالاته الملعونة، كما وصفتها في ذلك الوقت، بدأت أتصرف معه واتحدث إليه بجفوة وقسوة، وكنت أقول لنفسي مبررة، إن كان يجيد قراءة الأفكار كما يدعي فعليه أن يقرأ ويفهم ما أعانيه، بدلاً من أن أفضي إليه بسري وأجعله يعرف بأني أصبحت أسيرته ورهينة رحمته، كان يسألني: لماذا؟ وما الذي حصل؟ وأنا أرد عليه بقولي: "إنها مسالة شخصية لا تعنيه"، وسألني عما إذا كان له علاقة بما يحصل؟ فأنكرت ذلك وأخبرته بألا علاقة له بما أواجهه، إلى أن سنحت لي الفرصة عندما سألني عما إذا كنت لا أزال راغبة في استمرار تواصلي معه أم لا؟ فأخبرته بأنه من الأفضل أن يتوقف عن الاتصال بي إلى أن أتمكن من تجاوز المرحلة وكنت واثقة بأنه سيفعل ذلك.

توقف هو عن الاتصال بي وأنا أيضاً لم تراودني الرغبة بالاتصال به، استمر هذا الانقطاع عدة أيام، إلى أن وصلتني منه رسالة أرسلها لي عبر البريد الالكتروني وفي صفحة التواصل الاجتماعي وعلى الهاتف أيضاً، كتب لي فيها:

تيماء..

أعرف أني أنا مشكلتك، أو أنني في الأغلب سببها أو على الأقل أحد أسبابها، ربما المشكلة هي أنك راغبة فعلاً في التخلص من وجودي في حياتك، مثلما هي مشكلتي معك أني لا أعرف كيف أقترب منك أكثر، والمشكلة واحدة، فأنا وأنت كما قلت لك من قبل: وجهان لحقيقة واحدة!!

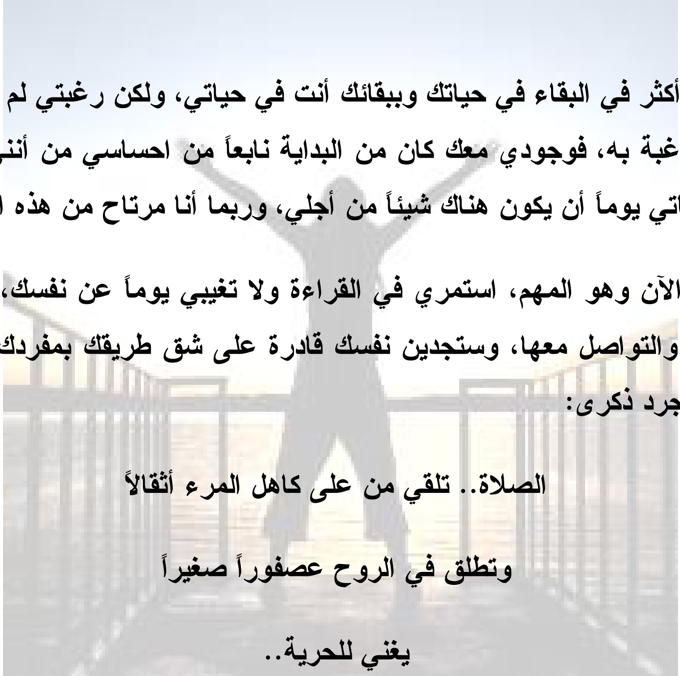

تيماء..

ربما أنا اليوم راغب أكثر في البقاء في حياتك وببقائك أنت في حياتي، ولكن رغبتي لم ولن تكون سبباً يحول بينك وبين ما أنت راغبة به، فوجودي معك كان من البداية نابعاً من احساسي من أنني أفعل هذا من أجلك، لذا لم أضع في حساباتي يوماً أن يكون هناك شيئاً من أجلي، وربما أنا مرتاح من هذه الناحية..

ما أود أن أقوله لك الآن وهو المهم، استمري في القراءة ولا تغيبي يوماً عن نفسك، لا تؤجلي أو تؤخري واجب الالتقاء بذاتك والتواصل معها، وستجدين نفسك قادرة على شق طريقك بمفردك، أما أنا، فلا تخشي عليَّ، فقط اجعليني مجرد ذكرى:

الصلاة.. تلقي من على كاهل المرء أثقالاً

وتطلق في الروح عصفوراً صغيراً

يغني للحرية..

قرأت رسالته، ولم يكن بعد أن تأكد لي صدقه واخلاصه، وسوء ظني به وقسوتي عليه إلا أن أنهار وأسقط، ولولا أن أدركتني (ماغي) في صباح اليوم التالي، لكنت في مصير غير المصير، لا أعرف ما حدث، ولا اتذكر إلا أني فجأة فقدت القدرة على الرؤية، واصبح كل شيء أمامي غارق في الظلام، فسقطت مغشياً عليَّ..

نُقلت إلى المستشفى، وأفقت في ظهيرة ذلك اليوم لأجد (هند) وخالتي (سمية) و(ماغي) حولي و(كايتي) جالسة إلى جواري، اطمئنوا عليَّ بعد أن قال لهم الطبيب بأني تعرضت لإجهاد عصبي، ودخلت في غيبوبة نتيجة لذلك، وحمدوا الله على قدوم (ماغي) في الوقت المناسب، بعدها طلب منهم الطبيب أن

يتركوني أرتاح ويعودوا إلى المنزل، وإن كان لابد من بقاء أحد فليبقى شخص واحد، لكني أصريت على أن يغادروا جميعاً، بعد أن قرر الطبيب أن أبقى في سرير المستشفى ليومين كاملين حتى تستقر حالتي.

في المستشفى، كانت تنتابني بين الحين والآخر نوبات بكاء شديدة، لا صوت لها ولا نحيب إلا من دموعي الغزيرة التي كانت تهطل كالمطر الغزير دون أن املك منعها أو إيقافها إذا بدأت بالسقوط، وكان الاحساس بالوحدة يحاصرني، والحزن والألم والحيرة والندم والقهر وكل ما يمكن أن يسميه المرء مشاعر مؤلمة وسيئة، كانت قواي خائرة طوال الساعات التي قضيتها هناك وافكاري مشتتة وحالتي تثير المزيد من الغرابة والحيرة لدى الأطباء والممرضات يسألونني فلا أجيب، يُقَّدمون لي الأكل والدواء وبالقوة فقط كنت أستجيب وبلا مقاومة أيضاً، حتى فزعت من أن يضطروا لاستدعاء طبيب نفسي، فأبديت ما كان قد تبقى لدي من قليل التعقل..

مرت عليَّ أوقات اصطدمت فيها بجدران اللافهم واللاوضوح، كان السواد يلف كل شيء في ذهني، وعاودتني رؤية الظلمة في أعماقي أكثر من مرة، فكنت لا أرى شيء، كأنني أصبحت عمياء، عمياء فعلاً.. وانتابني فزع شديد هز كياني مما بُتُّ حينها أحسبه المجهول..

في صباح اليوم الثاني جاءت (جليلة وجين وربيكا) وأيضاً (لورا) لزيارتي، وكان معي حينها خالتي وابنتها و(كايتي)، فخفف وجود هذا القدر من الناس حولي مما كان بي، وألهاني عما كنت سأغرق فيه لو أني بقيت وحدي، وفي مساء ذلك اليوم غادرت المستشفى، وعدت إلى شقتي وبقيت معي (كايتي) و(هند)، وبعد أن ذهبت الأخيرة للنوم في الغرفة المجاورة، تحدثت إليَّ وسألتني (كايتي) قائلة:

- **دون أن أهتم بمعرفة حقيقة التغيير الذي حصل لك أو أفهم أسبابه، إلا أني رأيتك سعيدة كما لم تكوني كذلك من قبل أبداً، فجأة أراك بتلك الحالة المؤلمة في المستشفى وأسمع من الأطباء ما أبكاني وأحزنني، فماذا حدث يا عزيزتي؟ أخبريني، فقلبي يكاد يتقطع بين اضلاعي، ما الذي آلمك إلى هذه الدرجة؟**

- **لا أدري... لا أدري**

- **كيف لا تدرين،.. هذا غير معقول؟؟**

- **أنا أريد أيضاً أن أعرف ماذا حدث وأن افهم ما يعتريني في هذه اللحظة.. (كايتي) صدقيني.. صدقيني، أنا لم أفهم ما جرى لي..**

قلت لها ذلك بلهجة غضبى فعاودتني نوبة البكاء تلك، وبكت (كايتي) بنفس الطريقة، ثم القت بنفسها في حضني وظللنا نبكي معاً، إلى أن رحلت سحابة تلك النوبة عن سمائنا، وبعد دقائق صمت نهضت (كايتي) من مكانها بجانبي، وخرجت من الغرفة لبضع دقائق قبل أن تعود وتجلس على طرف سريري، جاعلة وجهها في وجهي في نفس الوقت الذي حاشت عيناها عني، كنت أعرف أنها تريد أن تقول شيئاً، فتركتها حتى بدأت ذلك من تلقاء نفسها، فقالت:

[سأقول لك شيئاً لعله يساعدك في تجاوز محنتك، قبل سنوات طويلة، كنت فتاة في مثل سنك تقريباً، لكني بخلاف ما نشأت أنت عليه، كنت فقيرة ومعدمة، خاصة بعد أن فقدت أخر شخص من أسرتي التي منذ نعومة أظافري عرفتها من حكايات جدتي عن موتاها، وبعد أن صرفت من أجل تربيتي وتعليمي تلك الجدة كل ما ادخرته من المال، كان عليَّ أن أرد لها بعض ما قدمته لي، وأهتم بها لبقية حياتها التي لم تستمر بعد ذلك طويلاً إذ سرعان ما نعيتها..

حصلت على وظيفة صغيرة في احد الفنادق الكبرى في لندن، وخلال العام الأول تمت ترقيتي إلى أن أصبحت مسؤولة عن قسم الضيافات الخاصة، وهناك تعرف عليَّ كهل ثري من أثرياء العرب، وأعجب بي، ولم يمر وقت طويل حتى عرض عليَّ أن أدخل في كنفه مقدماً لي كل المغريات التي لم تكن لترفضها أية فتاة لندنية مثلي، لكني رفضت، فلم يزده رفضي إلا تصميماً على الحصول عليَّ، فعرض عليَّ الزواج، وأعطاني مهلة لأفكر وأعطيه ردي النهائي بعدها، ومضت تلك المدة، وآن أوان إبلاغه بردي، فذهبت للقائه في مكان غير المكان الذي كنت اعمل فيه، وهناك سألني عن قراري، فأجبت على سؤاله بسؤال:

"هل ستقبل بأي قرار اتخذته حتى لو كان هذا القرار هو الرفض؟"

كان رجلا نافذا ومهما بالنسبة للفندق الذي كنت اعمل فيه، وخشيت أن يسعى إلى الانتقام مني بطريقة أو بأخرى تتسبب بطردي من العمل، فأجاب:

" نعم، وأن كان ردك هو الرفض، فلا يجب أن تقولي لي ذلك، إذ لم يعتد مثلي على سماع كلمة رفض لما أراد، يكفي أن تنصرفي فأفهم".

حينها قمت وانصرفت بالفعل، بعد عدة شهور حدث ما أدى إلى خروجي من عملي، ومررت بفترة عصيبة، إلى أن جاء من أبلغني بأن ادارة الفندق الجديدة تطلبني للعمل مجدداً، فذهبت للقاء المدير

الجديد، فلم أجد في مكتب المدير إلا الرجل نفسه الذي طلبني للزواج ورفضته، قال لي أول ما وقفت أمامه:

"ربما خسرت عرضاً بالزواج مني، ولكنك كسبت احترامي، فكيف لي أن أكسب احترامك انت أيضاً؟؟"

"ما فعلته حتى الآن يفي بالغرض"

أصبحت مدينة له بأشياء كثيرة، وتوطدت علاقتي به على نحو متبادل من الاحترام، دون أن يكون بيننا شيء غير ذلك، لكن الأمور لا تستقيم ولحظات الضعف في حياة المرء منا لا تكون واضحة بما فيه الكفاية ليقرر فيها القرار الصائب، كنت حريصة على أن اكسب نفسي، مهما كانت مغرياته، لم أكن أعرف أن الانسان يمكن أن يخسر نفسه دون أن يعطيها، لقد تغيرت المواقع، هو لم يعد ذاك الذي يرغب بي زوجة، وأنا أصبحت تلك العاشقة المغرمة به التي لا تهتم بشيء غيره، رغم كل شيء كان من شأنه أن يباعد بيني وبينه، قرر هو أن يبقيني قريبة منه، لم يتخلى عني أبداً، أعطاني كل ما كان يغريني به ولم يطلب مقابل، وأكرهته أنا على أن أعطيه نفسي فكره ذلك، وعشت أنا وعاش هو وعاش كلانا قريبان بعيدان عن بعضنا البعض في أن واحد؟!!]

كانت هذه حكاية (كايتي) مع ذلك الرجل الذي لم يكن إلا والدي، لم أكن أحتاج إلى أن تقول لي ذلك صراحة، فقد كان لدي من قبل ما أعرفه بهذا الشأن، بعد أن انتهت من حكايتها، قفز (أنور) إلى ذهني، ولم أدري أي مغزى لذلك؟!

تلقيت في صباح اليوم التالي اتصالات من والدتي وشقيقاتي، ولكن المفارقة كانت في الاتصال الذي تلقيته من والدي، الذي قال لي:

- **كوني قوية مثلي، فعندما يداهمني المرض، أعتبره وأتعامل معه على أنه حالة ضعف، أقاومها وأتخلص منها بطريقة سحرية، أنصحك بتجربتها: فقط خذي ورقة بيضاء فارغة وعنونيها بـــ (وصفة دواءي)، بعد ذلك اكتبي مكونات هذه الوصفة في ثلاثة بنود: أحب وجبة طعام إلى نفسك، أجمل شيء تحبين القيام به، أحب شخص إلى قلبك. وقومي بصرف الأدوية وتناولها مباشرة، وستجدين أنك تعافيت واستعدت قوتك..**

تعجبت في البداية من وصفة والدي السحرية، ولكني كنت واثقة بأنها لم تصدر منه على سبيل الدعابة، فمثل أبي لا تكون بهذا الشكل دعابته، فقررت بالفعل أن اعمل بها، كانت وجبة الطعام هي (التبولة)

على الطريقة اللبنانية مع طبق من المخللات التي تفتح دوما شهيتي، أما أحب شيء اردت القيام به، فلم أجد إلا أن أكتب رسالة إلى (أنور)... فكتبت إليه:

في هذا العالم شخص لعله الآن يحتضر، وأمنيته الوحيدة هي فقط أن يراك.

بقي أمامي البند الثالث من الوصفة، وهو كتابة اسم أحب شخص إلى قلبي، فلم أجد إلا اسماً واحداً كان مكتوباً في قلبي، لم أشأ أن يكتب في مكان أخر ويطلع عليه أحد سوى الله؟؟ كان أمنية.. على الأقل في تلك الليلة..

الفصل الثاني عشر

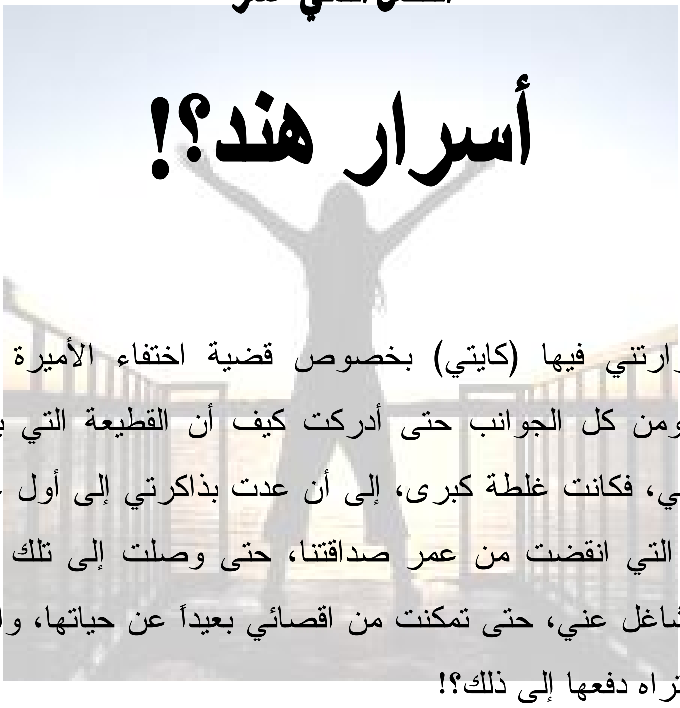

أسرار هند؟!

في تلك الليلة التي زارتني فيها (كايتي) بخصوص قضية اختفاء الأميرة (شهد)، أمسيت أقلب الموضوع كف بكف ومن كل الجوانب حتى أدركت كيف أن القطيعة التي بدأت بها (هند) معي، وأكدتها أنا بسوء مواقفي، فكانت غلطة كبرى، إلى أن عدت بذاكرتي إلى أول عهدي بها، وإلى الأيام والشهور وكل السنين التي انقضت من عمر صداقتنا، حتى وصلت إلى تلك الفترة التي بدأت فيها (هند) تتهرب مني وتتشاغل عني، حتى تمكنت من اقصائي بعيداً عن حياتها، واقصاء نفسها بعيداً عن حياتي، وتساءلت عما تراه دفعها إلى ذلك؟!

كان هذا السؤال كافياً لأن يذكرني بذلك الصباح الذي استرقت السمع خلسة منها، وعرفت أنها على علاقة بشخص ما، وأنها تخفي سر علاقتها تلك عن الجميع، لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، بل كان هناك ما حرصت أنا على اخفائه وعدم التحدث بشأنه أبداً حتى مع نفسي، ولكن اليوم وقد بات عليَّ أن أقف أمام كل ما قد يكون من أسرار (هند)، ما عاد الأمر يحتمل التجاهل ولا التساهل، خاصة وأن ما رأيته منها بعد ذلك وفي ذلك اليوم بالتحديد، كان كافياً وواضحاً لأن أعرف بأنها ماضية في

طريق وعرة، وكان يجب عليَّ حينها أن افكر وأتصرف بمسئولية حيالها مهما كانت درجة رفضها لذلك، ولكن ما عساه ذاك الذي رأيته؟ وعن أي يوم اتحدث؟!

كان ذلك ما كرهت التفكير به، ولكن الضرورة اليوم تفرض حكمها، فقد حدث ذات صباح أني كنت ذاهبة إلى الكلية، وعندما وصلت إلى حيث اعتدت أن أصف سيارتي، وبمجرد أن هممت بالترجل منها، لمحت (هند) على مبعدة مني، وهي تقف بين ثلاث فتيات أخريات يحطن بها في ركن يقع في الجهة الأخرى من الشارع، وما أثار دهشتي في بداية الأمر ما كانت تلبسه (هند) من ملابس تدل أن صاحبتها ليست ممن اعتزمن في ذلك اليوم أن يقضينه كطالبات في الجامعة، كانت ترتدي سروالاً قصيراً جداً وساقيها عاريان تماماً، وأعلاه كانت جميع أزرار ردائها مفتوحة كاشفة عن جزء كبير من مساحة صدرها وملابسها الداخلية التي كانت عبارة عن حمالة صدر قماشية بالغة الفتنة، وكن جميعاً كمن ينتظرن قدوم أخرين، في البداية ظننت أنه قد شُبِّه عليَّ أن تكون تلك (هند)، فقد كنت أعرف جيداً الطريقة التي اعتادت (هند) أن تظهر بها في الجامعة، لذا حاولت أن أقترب أكثر لأتحقق من كونها هي أم أخرى تشبهها، وبمجرد أن خطوت بضع خطوات، كانت هي قد لمحتني وخشيت أن أكون قادمة نحوها، فأدركتُ أنها هي وليست أخرى سواها، فتشاغلت بأمري واصطنعت عدم الملاحظة واتجهت نحو بوابة الكلية الخلفية، وبعد أن اختفيت عن ناظريها، كمنت لها في مرصد غير بعيد منها، ولكن من زاوية أخرى لم يكن لها أن تعرف أني قد أراقبها منها، حينها ظهرت سيارة رياضية حمراء مكشوفة يستقلها أربعة من الشبان، ووقفت إلى جوار الفتيات..

نزل سائق السيارة وشابان آخران، بينما ظل الشاب الرابع ظاهراً في مؤخرة السيارة قبل أن تصعد إلى جواره إحدى الفتيات وتدخل في عناق وقبلات حارة معه، وعلى الأرض رأيت (هند) أيضاً وهي تلقي بنفسها في حضن الشاب الذي كان يقود السيارة، رأيتها تفعل ذلك على طريقة بنات الشوارع وبائعات الهوى، وكأنها لم تكن في يوم من الأيام أميرة تمثل أسرة ملكية عريقة لها شأنها الرفيع في كل الأوساط والمحافل العالمية، وبالمثل فعل الأخرين..

لم تمكث المجموعة كثيراً من الوقت قبل أن يحشروا أنفسهم في السيارة، جلس الشبان على المقاعد وجلست كل فتاة في حضن فتاها، وطبعاً جلست (هند) وقد بدا لي أنها كانت تمثل زعيمة الفتيات في حضن من بدا لي أنه زعيم الشبان، كانت تطلق ضحكتها بطريقة مائعة وكان صوتها المرتفع يصل

إلى مسامعي، وهي تهتف بشكل مقزز لا يصدر من بنت (ذوات)، بل من بنت مواخير تربَّت في شوارع العشوائيات وبيوت الصفيح..

تخليت في ذلك الصباح عن فكرة حضور برنامجي الدراسي، فذهبت إلى القسم وقدمت اعتذاراً عن عدم حضوري في ذلك اليوم، واتجهت فوراً ناحية الكلية التي تدرس فيها (هند) ولم تكن بعيدة كثيراً عن مقر كليتي، لذا قطعت الطريق إليها مشياً على قدمي، وعقلي كله شارد فيما كنت قد رأيته، وفي مكتب مشرف القسم الذي تدرس فيه (هند)، أخبرني موظف شئون الطلاب بأن (هند) باتت منذ بداية تلك السنة تتغيب عن حضور برامج دراستها لثلاثة أيام في الأسبوع على الأقل، وأنها تفعل ذلك مع أن زملائها يؤكدون بأنهم يشاهدونها كل صباح في محيط حرم الكلية، قبل أن تختفي ولا يرونها بعد ذلك في قاعة الدرس، وأخبرني بأنه سبق وأن رفع أمرها إلى مجلس القسم، والذي أقر بضرورة توجيه انذار لها، وأنها بعد ثلاثة إنذارات سوف تواجه مجلس الكلية نفسه، والذي يمكن أن يقرر توقيفها للعام القادم، وربما يقضي بحرمانها من المقعد الدراسي وطردها من الكلية، ومن شأن قرار كهذا أن يحرمها من فرصة إكمال دراستها في أي جامعة أخرى في انجلترا، عملاً بقوانين ولوائح الجامعات البريطانية.

كنت أعرف (هند) طالبة مجتهدة ومثابرة ولطالما كانت حريصة على أن تكون من الأوائل، حتى أنها لم تكن تعتمد على أي من الامتيازات التي كان يمكن أن تحصل عليها بفضل كونها ابنة رجل ديبلوماسي، واحترت، بل وفزعت مما عساه يكون قد غير طريقتها، خاصة وأنها كانت في السنة النهائية التي يتوقع والداها والجميع بأن يحتفلوا في نهايتها بتخرجها وحصولها على شهادة (الليسانس) في القانون الدولي، وبينما أنا منهمكة في التفكير على هذا النحو، اقترح عليَّ موظف القسم أن أوصل إليها خطاب الانذار الأول، فلم أجد بُداً من القيام بذلك، خشية أن يقوم به غيري ويصل الخطاب إلى من لن يحتمل الصدمة، مع أني لم أكن قد اهتديت إلى طريقة واضحة ومناسبة لإيصاله إليها، نظراً لتدهور العلاقة بيني وبينها، فقد خشيت أن تعتبر اطلاعي على أمورها أمراً مقصوداً بعد أن رأيتها في ذلك الموقف، ولربما اعتبرت أني قمت بذلك لغرض انتقامي أو شيء من هذا القبيل، فأزيد بذلك من توتر العلاقة بيننا، لذا قررت أن أرسل إليها الخطاب مع رسالة كتبتها آلياً لكي لا تهتدي إلى خطي لو كتبتها بيدي، عن طريق البريد بحيث تكون المرسلة زميلة مجهولة تريد مصلحتها، وفي ذلك الخطاب حذرتها من أن الإنذار الثاني ربما سيصل إلى والدتها، أما الثالث فسيكون موضوعاً على مكتب سيادة السفير والدها، في حال رغبت هي أن تحصل عليهما، وبعد أن تأكدت من وصول الرسالة إليها،

راقبت ردة فعلها وظللت أتابعها لعدة ايام وأسأل عنها بشكل سري من وقت لأخر زملائها ومشرف القسم الذي تدرس فيه، وقد لاحظت أن رسالتي حققت مفعولها، وأنها التزمت مجدداً ببرنامج دراستها، وهذا كل ما اهتممت به في ذلك الوقت، أما بشأن علاقتها ورفقتها، فلم يكن بوسعي القيام بشيء حيال ذلك، غير أني كنت قانعة بما حققته خطتي من نجاح في إلزامها بالعودة إلى صفوف الدراسة.

ثمة ملاحظة غريبة تحققت من أمر وجودها في حياتي في ذلك الوقت، وهي أن أي شيء أكون مهتمة بالتفكير به أكثر، أجد أن الأحداث والظروف التي تحدث لي خلال فترة تفكيري به تأتي مطابقة ومتممة له، بل وتكشف لي عن أشياء جديدة بشأنه، أقول هذا لأنه يتطابق مع ما حدث معي كثيراً، وحدث معي في ذلك الوقت الذي كنت منهمكة فيه بالتفكير بأمر (هند)، ففي ذات يوم كنت أقوم فيه بالتسوق في (هايبر ماركت) يقع في وسط لندن، حيث أعتدت أن أشتري منه كل لوازم البقالة، التقيت على طريق المصادفة بإحدى صديقات (هند)، من اللاتي كنتُ قد تعرفت عليهن من قبل، ولم يروق لي الاستمرار معهن، الفتاة اسمها (رندا) وهي مواطنتنا أنا و(هند) أيضاً، ولكنها منافقة ومتسلقة دائماً ولهذا كرهت رفقتها، المهم أني التقيت بها بعد عصر ذلك اليوم، وبمجرد ما أن رأتني علقت بي كأنها كانت قد عجنت نفسها بعلبة غراء من الأصلي، ألقت بنفسها فوقي تحضنني بتملق وتقبلني وتداعبني وكأنها صديقة طفولتي، وقبل أن ألتمس لي حيلة للتخلص منها، فوجئت بها تدخل معي في حديث ارتأيت أن أستفيد منه بشكل أو بأخر، علماً بأن هذه الفكرة طرأت على بالي في تلك اللحظة فقط، إذ سارعت بالقول تخاطبني:

- **هل تصدقين يا (تيماء)؟؟ عندما عرفتك أول مرة رأيت فيك فتاة جريئة وشجاعة، فحسبتك أسهل من قريبتك (هند)، التي أعيتنا كي تشاركنا في كل ما تقوم به الشلة، ولكنك مع الوقت أظهرت العكس وهي كذلك أظهرت العكس بعد ذلك تماماً..**

- **عفواً عزيزتي (رندا) – قلتها على مضض – لم أفهم ماذا تقصدين..**

- **كيف لم تفهمي قصدي بعد؟! فــ (هند) اليوم لا تفارق الشلة وكل يوم تقريباً نقضي معاً أوقاتاً ممتعة ورائعة وحافلة بالجنون والمغامرات، سهر وحفلات وهيصة خليها على الله، بل ولعلك تعرفين أيضاً أنها أدخلت شقيقها معنا، وهما الآن زعيما الشلة..**

- **[صرخت بتعجب شديد في وجهها]: يزيييييد؟ معها ومعكم في الشلة؟؟!**

- نعم، لماذا تتكلمين وكأنك لا تعرفين ذلك؟! فأنا واثقة من أنك على إطلاع كامل بعلاقة (يزيد) الغرامية والملتهبة بصديقتنا (مي)، حتى أنهما لا يطيقان الافتراق عن بعضهما البعض إلا في اوقات النوم، لا تدعي بأنك لا تعرفين ذلك فهذا لم يعد أبداً سراً، لأن الجميع لا حديث لهم ولا سيرة إلا سيرة العاشقين (يزيد ومي) و(مي ويزيد)..هههههه..

- [جاريتها فيما قالت]: وكيف يخفى عني أمر كهذا؟! صدقيني، لا شيء أحفل بمتابعته ومعرفة تطوراته مثلما أفعل إزاء ذينك العاشقان الرائعان، قصتهما تذيب القلوب قبل أن تشعل فيها النار مرة أخرى، يا لها من قصة يحسدان عليها.. فليوفقهما الله...

- ومع ذلك فقصة (مي ويزيد) هذه في كفة وقصة (هند) وحبيبها الوسيم والأنيق (جيمي) في كفة أخرى، قريبانك هذان رائعان.. شقيقان متفاهمان وفوق هذا كله فكل منهما أستاذ في فن الغرام..

- [قلت لها]: وأنت (رندا) أخبريني عنك، وعمن استولى على قلبك ومشاعرك، فأنا أعرفك فتاة جريئة وكيدك يفل الحديد، ماذا عنك؟

- [قالت وهي تتنهد]: أنا، آآآآآآآآه، يا (تيماء) ماذا أقول لك؟ وماذا أكتم عنك؟ تعرفينني، فأنا هائمة في بحر الحب وغارقة فيه من رأسي حتى أخمص قدمي، لا أنام الليل قبل أن أسمع صوت حبيب قلبي والمفدى بروحي (عزوزي)، قصة هوانا تكبر يوماً بعد يوم..

- والله، (عزوز) هذا محظوظ بك..

- وأنا والله (تيماء)، محظوظة به أكثر..

- حسناً (رندا) كان بودي أن أقضي معك بقية اليوم ولكن كما ترين فأنا مشغولة بشراء البقالة، لكن هذا لا يعني أننا لن نلتقي بل سأخذ الآن موعداً معك، ولن اتخلف عنه أبداً.. (O K) حبيبتي (رندا)..

- Suuuure... My Life... Sure, never forget you....

- [استدركت قائلة لها]: ولكن لي طلب صغير أصغر من حبة الكرز الجميلة هذه [أشرت بإصبعي إلى شفتيها)، عديني أن تلبيه لي..

- حبيبتي (تيماء) أنت لا تطلبين بل أنت تأمرين، وعد مني بأني سأفعل ما تأمريني به، ولو كلفني ذلك حياتي، قولي فأنا رهن أمرك..

- سلمت لي، فقط عديني ألا تخبري (هند) بأني التقيت بك، أو دار بيننا ما دار، لعلك علمت أنني على خلاف معها في الأيام الأخيرة، ولا أريد أن تشعر بأني اتجسس عليها أو شيء من هذا القبيل، تعرفينها (هند) حساسة ولا تتحمل شيء من هذه الأمور التافهة..

- لا عليك.. سأتدخل بينكما وأصلح ذات البين..

- لا، لا، لا (رندا)، فما بيننا خلاف عائلي لا يصح أن يطلع عليه أحد، فقط عديني بأنك لن تخبريها بأننا التقينا أو تحدثنا، وأن هذا سيبقى سر بيني وبينك، وأنت تعرفين عنوان شقتي، تعالي ولن أبخل عليك بشيء، أعرفك صاحبة ذوق رفيع في كل شيء، هه، ماذا قلت؟!

- أكيد.. أعدك، فأنا لم أراك ولم أتحدث إليك أبداً، ومن عساه سيقول غير ذلك، أما بخصوص ذوقي الرفيع، فلن أتأخر عن زيارتك أبداً..

- على الرحب والسعة،، حبيبة قلبي أنتِ يا (رندا)..

- حسناً.. سأتركك الآن، فأنتِ مشغولة، ولا أريد أن أعطلك أكثر، بااااي.

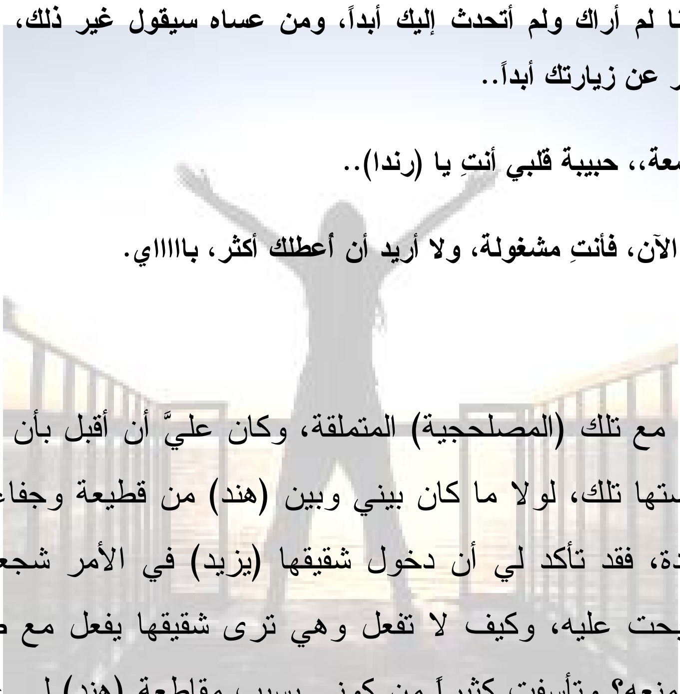

من المؤكد أن تورطت مع تلك (المصلحجية) المتملقة، وكان عليَّ أن أقبل بأن تبتزني على أمر تافه، فما كنت لأعطيها فرصتها تلك، لولا ما كان بيني وبين (هند) من قطيعة وجفاء، ولكن ما عرفته من (رندا) تلك ساءني بشدة، فقد تأكد لي أن دخول شقيقها (يزيد) في الأمر شجعها على أن تفلت عن عقالها وتصبح ما أصبحت عليه، وكيف لا تفعل وهي ترى شقيقها يفعل مع صديقتها ما يفعله دون حياء أو وازع يرده ويمنعه؟ وتأسفت كثيراً من كوني بسبب مقاطعة (هند) لي عاجزة عن فعل شيء، من شأنه أن يردها عما هي فيه ويعيدها إلى جادة الصواب.

"كلنا نريد أن نتحرر يا (هند)، ولكن هذا لا يعني أن نفرط بشرفنا، وأن نجعل من أنفسنا رخيصات إلى هذه الدرجة"

هذا ما قلته لنفسي وكأني أخاطب به (هند) ولكم تمنيت لو أن صوتي يصل إليها في ذلك الوقت.

استمر الأمر على هذا المنوال، إلى أن جاءت إليَّ (هند) ذات مرة، وكأنها راغبة في استعادة وجودي في حياتها، وفي البوح لي بأسرارها التي تحمل عبأها الثقيل على كاهلها النحيل، ولكنها امتنعت عن ذلك في اللحظة الأخيرة، لم أشأ أن أضغط عليها لتفعل ذلك، بل أردت أن تفعله هي عن كامل ارادة واقتناع، إلى أن لاحت في الأفق مؤخراً قضية هروب الأميرة (شهد)، والتي جعلتني أرى كل خيوط الأزمات والكوارث القادمة، وقد اجتمعت وانعقدت عقدتها في نفس البؤرة التي تمثلها (هند) وأسرارها، فكنت أدعو الله وأطلب منه اللطف والستر؟؟.

كانت خطتي، أن أنقل (هند) إلى دائرة الإحساس بالتهديد، فكان لابد من أن أشعل مخاوفها، وأحاصرها بها من حيث لا تدري، فاتصلت بها في تلك الليلة، ودعوتها إلى شقتي في صباح اليوم الثاني، بحجة أني متوعكة وبحاجة إلى وجودها معي، وبالفعل جاءت في الصباح، ورأتني وقد اتخذت وضع من يعاني الرشح والزكام، ومن كلمة إلى كلمة ومن موضوع إلى أخر، حتى تمكنت من اسقاطها في الفخ الذي نصبته لها، وأنا أقول لها بطريقة الغير مهتم بأمر ما يتحدث عنه:

- **إلا بحق يا (هند)!! هل بلغك ما بلغني مؤخراً بشأن (شهد)؟!**

رأيت الفزع يطل من عينيها وقد جحظتا وكادتا أن تخرجان من محجريهما، وهي تسألني بلهفة مرعوبة:

- **ماذا؟ ماذا سمعت؟!**

- **أبداً، كل ما في الأمر أنه وفي صباح الأمس اتصلت بي شقيقتي (نجلاء) وبعد أن تجاذبت معها اطراف الحديث وصلنا إلى موضوع (شهد)، فأخبرتني ما فهمت منها بأنها سمعت والدي وهو يتحدث إلى عمك عبر الهاتف من قصرنا، وقالت أنها فهمت من ردود أبي، أنهم ربما وصلوا إلى معلومات قد تدلهم على المكان الذي تختبأ فيه (شهد)، مسكينة (شهد) يبدو أنها ستكون (مشاعل) الثانية؟!!**

- **(مشاعل)؟؟ الثانية؟؟؟ ماذا تقصدين يا (تيماء)؟!**

- **ما فهمته يا (هند)، ما فهمته، فماذا تتوقعين أن تواجه (شهد) إذا قبضوا عليها، لو صدق ما بلغنا فإنه بمقدورنا أن نترحم منذ الآن عليها، أي والله؟؟**

- **والحل؟؟؟؟ [سألتني والخوف ينهش لحمة قلبها]..**

- **لقد فكرت كثيراً يا (هند) بالحل، سألت وبحثت واستشرت، حتى اهتديت إلى حل يمكن أن ينقذ (شهد) من الذهاب إلى ساحة الإعدام، ولكن ما فائدة ذلك، ولا أحد يعرف أين هي، ولا كيف يمكن الاتصال بها، قلبي يتقطع عليها، ليتني فقط أعثر على من يدلني عليها؟؟**

- **[قالت بتلكأ]: أأأأأكيد هناك طريقة، يجب أن تكون هناك وسيلة للوصول إليها، ولكن هل أنت متأكدة من الحل الذي تدعين؟**

- **كل التأكيد، فقط كيف نقوم بذلك الحل ونحن لا نعرف عنها شيء؟ أنا الآن أفكر في البحث عنها، والوصول إليها قبل أن يسبقني إليها غيري، وأنت تعرفين ماذا أعني بـــ (غيري)؟؟**

- **حسناً، أخبريني ما هو الحل؟؟**

- **لا، لن يطلع أحد على ما أخطط له أبداً، فهذا الحل لا قيمة له ما لم أصل إلى (شهد) نفسها، وأعرضه عليها، قبل ذلك لن أنطق بحرف واحد قد يعرض أشخاص عديدون للخطر، وأنت، لا أريد أن يعرف أحد أن بنيتي مساعدة (شهد) حتى الذباب الأزرق، وبصراحة أنا لا أعرف لماذا تبدين هكذا باردة؟ وكأنها ليست ابنة عمك ومن لحمك ودمك، المفروض أنت من يفعل ما أسعى إليه..**

سكتُ عن الكلام لأختبر ردة فعلها، وكما توقعت طلبت الإذن بالإنصراف لقضاء حاجة لها، واتجهت صوب الطابق السفلي من الشقة، أما أنا فتأخرت قليلاً قبل أن ألحق بها، فوجدتها وقد توارت خلف ستائر شرفة الصالة، وهي تمسك هاتفها النقال بيدها وتنوي الإتصال بأحد ما، كنت أعرف بأنها ستجري اتصالاً بـــ (شهد) أو بشخص ما يعرف مكان هذه الأخيرة، تسللت خلسة منها واختبأت وراء خزانة الزاوية القريبة من الشرفة، وبينما كنت أهم بالنظر إليها، لمحتها تلتفت إلى الخلف وتزيح طرفاً من الستارة لتتأكد من خلو الصالة وعدم وجود أحد، فتواريت بسرعة خشية أن تلمحني هي الأخرى، لكنها سرعان ما بدأت تتحدث عبر الهاتف، حينها سمعتها تتكلم مع (شهد) لا أحد سواها، وهي تقول لها:

- **اسمعيني، اسمعيني، ليس هذا وقت سلام وكلام، هناك أمر طارئ، اسمعيني يا غبية، اسمعيني، هناك أخبار بأنهم، هل تفهمين من أقصد؟ أخبار بأنهم وصلوا إلى معلومات ربما دلتهم على مكانك يا بلهاء......... أنظري فيما أحدثك وأنت بما تقاطعينني... أقول لك أنهم عرفوا مكانك، ويمكن أن يصلوا إليك في أي لحظة، أخبريني أين هو (أريك) ولماذا لا يرد على اتصالاتي [توقفت عن الكلام وأنصتت لمن تحدثها وبعد قليل تكلمت]: حسناً، هذا هو أفضل حل، أن تغيرا مكانكما فوراً، وأن تتصلا**

بي بنفس الطريقة، اسمعيني يا بلهاء، هناك أمر أخر.. هناك حل لمشكلتك، ولكنه بيد شخص أخر لا يعرف أني على اتصال بك.......... نعم، نعم، تعرفينه ويمكننا الثقة به...... إنها (تيماء)، ما رأيك؟ أخبرها إذا لزم الأمر أم لا؟! ...... حسناً، سأتأكد من الأمر وبعد ذلك سأقرر، لا، لا، هذا فقط، سأنهي الاتصال الآن باي مع السلامة؟!!

في تلك اللحظات وبمجرد ما شعرت بأنها ستنتهي اتصالها، هرعت ناحية المطبخ، وتسلقت سلم الأمان الخلفي إلى الطابق الثاني، لكي لا تراني أصعد من السلم الرئيسي، وفوراً دخلت إلى الحمام، واصطنعت أني كنت منشغلة منذ ذهبت، عندما سمعتها تناديني من باب الغرفة، لذا أسمعتها صوت دندناتي من الحمام وكأني لم أكن أسمع ندائها فلا تشك بشيء، ونجح الجزء الثاني من الخطة، وأصبح بمقدوري الانتقال إلى الجزء الاخير منها.

تركت (هند) لعدة ساعات غارقة في بحر صمتها وشرودها مدعية أني نائمة، قبل أن استأنف خطتي مجدداً، عندما تفتح الموضوع هي معي، وخلال ذلك الوقت كانت جالسة في الصالة، بينما استغللت ذلك الوقت لأجري اتصالاً مع (أنور)، لا أعرف فقد شعرت حينها بأنني بحاجة إلى أن أُشركه معي بالأمر بطريقة أو بأخرى، وفي اتصالي به حكيت له طرفاً من القصة وأوضحت له ما هي المشكلة بشكل عام، وطلبت منه أن يسايرني ويدعمني في كل ما اطلبه منه ولقنته الدور، وبقيت أنتظر (هند) وهي جالسة على الجمر حتى تستوي ويلين لحمها، إلى أن جاء وقت الظهيرة من ذلك اليوم، حينها خرجت عليها وأنا أُمثّل دور المتوعكة المتكاسلة، ووجدتها ممددة على ظهرها فوق الأريكة تضرب أخماسٍ في أسداس، وقبل أن تحس بوجودي، تظاهرت بأني أبحث عنها، وناديتـــها كمن يجهل أين هي، فانتفضت من مرقدها كما تنتفض الدجاجة التي رأت أفعى تاركة ريشها يتطاير في الأرجاء من حولها، حتى أني لما رأيت وجهها الشاحب وشعرها المنكوش وحالها الغير مرتب أشفقت عليها، فقد بدت لي كالمخبولة، وهي تقول لي بصوت مفزوع يعتريه الوهن:

- **هه.. هنا، أنا هنا...**

قدمت لنا (ماغي) شيئاً نأكله، وبينما كنت أنا أكل بنهم، كانت هي عازفة عن تناول مجرد لقمة واحدة، طبعاً، كنت انتظر اتصالاً هاماً في ذلك الوقت، إذ لم ألبث غير قليل قبل أن أسمع جرس الهاتف، ولكي أُتقن الدور كان يجب عليَّ أن أتحدث في ذلك الاتصال باللغة الانجليزية، والا فكيف لـــ (Mr. Edward) أن يفهم ما أقوله:

- **Hello, Yes، Mr. Edward، yes, I am with you… talk now…**
- **(……………………………….)**
- **Mr. Edward, please, you have to be sure of the plan success and the achierevment of its aims.**
- **(…………………………………..)**
- **I know, I know… I will do my best to find her or contact with her of anywhere ، you must sure about that,…**

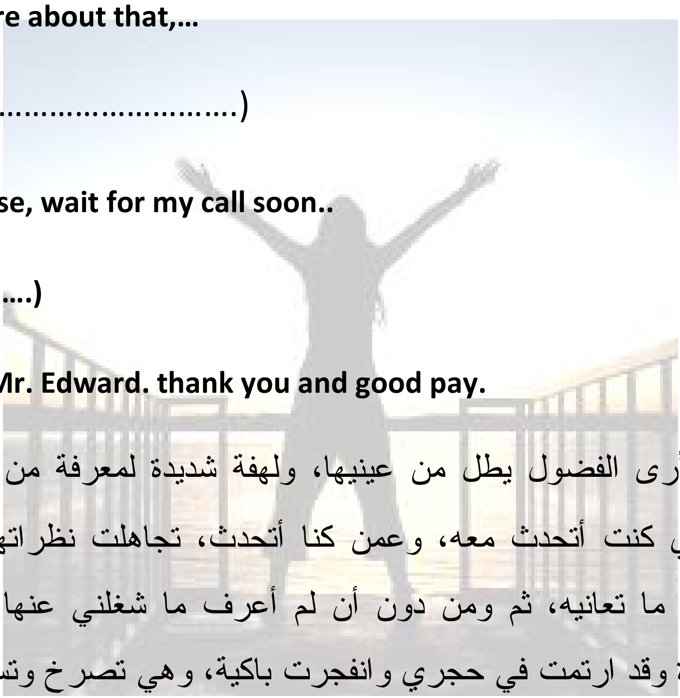

- (……………………………………….)
- **well, of course, wait for my call soon..**
- **(……………………)**
- **Thank you, Mr. Edward. thank you and good pay.**

أنهيت المكالمة، وأنا أرى الفضول يطل من عينيها، ولهفة شديدة لمعرفة من عساه يكون ذلك الـــ (Mr. Edward) الذي كنت أتحدث معه، وعمن كنا أتحدث، تجاهلت نظراتها، وإن كنت لا أزال مشفقة عليها من هول ما تعانيه، ثم ومن دون أن لم أعرف ما شغلني عنها أو متى غفلت عنها، فاجأتني على حين غرة وقد ارتمت في حجري وانفجرت باكية، وهي تصرخ وتستجير بي قائلة:

- **(تيماء)، كوني معي، أرجوك دعيني أتخلص من هذا الثقل.. ساعديني..**
- **لا تخافي، أنا معك ولن أتركك أبداً، فقط اهدأي.. اهدأي..**

حكت لي بعد ذلك (هند) كل شيء حول هروب (شهد)، فلم أشأ أن افتح معها بقية موضوعات أسرارها الخفية، إذ لم يكن الوقت ملائماً لذلك، شرحت لي كيف أن (شهد) كانت تعيسة ومحطمة في بيت زوجها، وكيف عاشت الشهور الأربعة تلك التي قضتها في لندن، وكيف كان الوغد يعاملها، ويسرف في إذلالها وإهانتها، بكل الوسائل والأساليب الرخيصة والمقيتة، وكيف أخفت كل ذلك، فقط لأنها

تعرف أن والدها لن يحميها مما هي فيه، وأن ذلك سيزيد من جبروت الرجل وطغيانه، كما وأخبرتني بشأن (أريك) وكيف تعرفت عليه (شهد)، وكيف خطط لها وساعدها على الهروب، ودور (هند) في هذا الأمر. المهم أنها حكت لي القصة من أولها إلى أخرها بتفاصيلها المملة، غادرت بعد ذلك (هند) وقد تمكنت من طمأنتها وتهدئة أعصابها، بل ولعلي أعطيتها جرعة كافية من التشجيع والتحفيز.

والآن، كيف كان عليَّ أن أخرج من تلك الورطة التي أقحمت نفسي فيها؟ أي حل وأي معالجة يمكن أن توجد وتعصم دم (شهد) وحياتها من الموت الذي بات يحلق فوق سماءها؟! وأنى لي الحل؟! فكرت أن أُبلغ (كايتي) بما حصل، ولكني ارتأيت أن أؤجل ذلك قليلاً، حتى أجد لي مخرجاً من هذا المأزق الذي وضعت نفسي فيه، بدون تفكير أو روية..

اتصال (أنور) المعتاد في تلك الليلة، كان بداية مشجعة مكنتني من إيجاد من أعرض عليه مشكلتي، كانت تلك أول مرة أقرر فيها أن أعتمد على مشورته ورأيه بشكل جدي، طبعاً هذا في مقابل أسئلته الملحة عن حقيقة ما أشترك معي به، دون أن يعلم ما الغاية والهدف، وكان هذا لب ما دار بيني وبينه في تلك الليلة، بدءً مما قلته له أولاً:

- **اسمعني، سأعطيك الأجوبة كلها على أسئلتك،، ولكن بعد أن أعرض عليك المأزق الذي وضعت نفسي فيه، طبعاً، لن أشرح لك كل شيء على وجه الحقيقة، بل سأعرض الأمر عليك على وجه العموم..**

- **مرة أخرى ستقولين لي بشكل عام، (تيماء) أريد أن أفهم فقط؟؟ فهلا تفهمينني الأمر؟؟**

- **حسناً، فقط أعطني الفرصة، وسأخبرك كل شيء بطريقة مناسبة،**

- **لك هذا، ولكن بدون مقدمات أرجوك..**

- **الأمر وما فيه، يتعلق بقصة صديقة مقربة مني يهمني أمرها، هذه الفتاة من أسرة ثرية ومعروفة في بلدي، اجبرتها الظروف ووالدها على أن تقبل بالزواج من رجل أكبر منها بثلاثين سنة على الأقل [على هذا النحو.. حتى انتهيت من سرد القصة – قصة (شهد) طبعاً، بعدها قلت له]: هذه هي القصة.. ولعلك فهمت المشكلة الآن..**

- **حسناً، فهمت مشكلة صديقتك.. فما هي مشكلتك في هذا القصة كلها؟**

- مشكلتي بدأت من [الجزء المتعلق بي من القصة] .. والآن أنا ملزمة بتقديم الحل الذي سينقذ صديقتي من حبل المشنقة أو حد السيف، فهل هناك مأزق أسوأ من أن تجد نفسك مسئولاً عن حياة أو موت شخص عزيز؟ والآن، وبعد أن تعشمت صديقتي بي وركنت إليَّ في أن أجد الحل لمشكلتها، كيف لي أن أتصرف؟!

- يا لها من مشكلة صعبة ومعقدة، إلا إذا كنتِ قد بالغت في نقل الصورة لي..

- صدقني، لم أبالغ في شيء، وكل ما قلته لك هو ما حدث ويمكن أن يحدث، بل أن حادثة مثل هذه في مجتمعنا وأسرتنا سبق وأن وقعت بالفعل، وراحت ضحيتها فتاة مثل صديقتي هذه التي حدثتك عنها، إذ حكم عليها بالموت، ونفذ ذلك الحكم على الفور، فهل ترى لصديقتي ولي من خلاص من هذا كله؟! (أنور) أنا جادة جداً في كل ما قلته لك، والوقت ليس في صالح أحد، وأنا وصديقتي بحاجة ماسة إلى المساعدة..

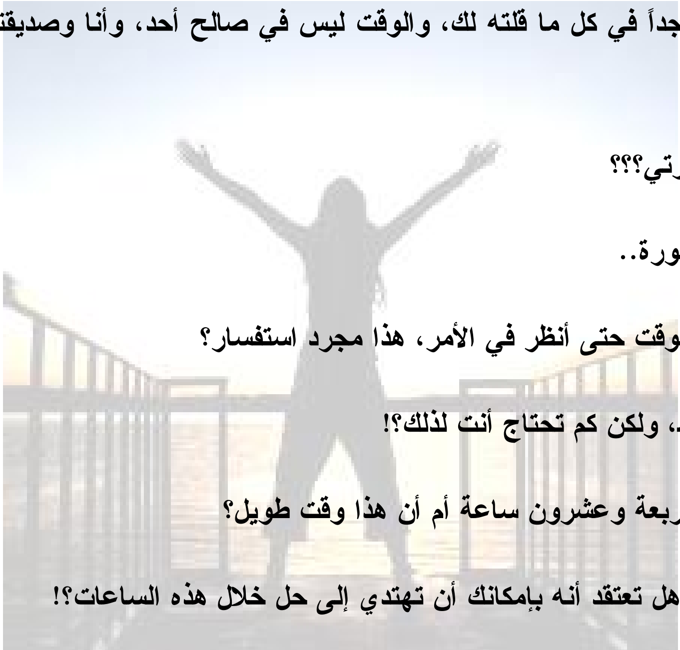

- هل تطلبين مشورتي؟؟؟

- نعم.. أرجو المشورة..

- كم تعطيني من الوقت حتى أنظر في الأمر، هذا مجرد استفسار؟

- لا أعرف بالضبط، ولكن كم تحتاج أنت لذلك؟!

- حسناً، أمهليني أربعة وعشرون ساعة أم أن هذا وقت طويل؟

- لا أعرف، ولكن هل تعتقد أنه بإمكانك أن تهتدي إلى حل خلال هذه الساعات؟!

- سأحاول، فلا توجد مشكلة في هذا العالم دون أن يكون لها حل في المقابل، أعدك بأني سأفعل كل ما أستطيع القيام به، من أجل أن أحمل إليك الحل والرد في نفس هذا الوقت غداً، فهل تثقين بي؟!

- لن أكذب عليك، ولكني من أجل هذه المشكلة سأحاول أن أثق بك..

- يكفي هذا منك، ولكن كيلا أجعلك تنتظرين طويلاً، سأعطيك بارقة أمل، فثمة فكرة خطرت على بالي للتو، ويمكن أن تتضمن حلاً حقيقياً وواقعياً لمشكلة صديقتك وبالتالي مشكلتك..

- هل تسخر مني؟

- الله المستعان؟؟ أبداً..

- وإذن، ما هي تلك الفكرة؟!

- الفكرة بكل بساطة واختصار، أن تتوجه صديقتك إلى أقرب محكمة بريطانية وتتقدم بطلب اللجوء السياسي إلى الحكومة البريطانية، طبعاً.. هذا سيتطلب وقتاً وجهداً، لذا يمكن أن تضمن نفس الطلب بطلب أخر لحمايتها حتى تصدر المحكمة حكمها، لأن الأمر قد يشهر للعلن مما يعرض حياتها للخطر، لذا أقترح أن تطلب الحماية خلال فترة تداول القضية، ويمكن أن تحول القضية من خلال الصحافة إلى قضية رأي وحقوق إنسان، وستجد صديقتك عشرات المنظمات الدولية وثلة من الجماهير واقفة إلى صفها، هذه هي الفكرة بشكل أولي، أما التفاصيل العملية فيمكن الحصول عليها من خلال عرض القضية على محامٍ مختص... ما رأيك؟!

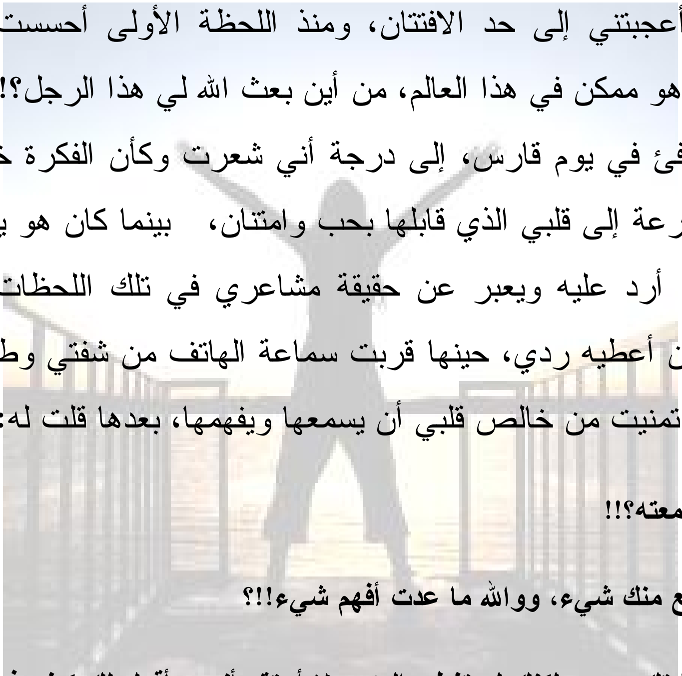

أدهشتني الفكرة، بل أعجبتني إلى حد الافتتان، ومنذ اللحظة الأولى أحسست بأنها الفكرة الوحيدة الموجودة في إطار ما هو ممكن في هذا العالم، من أين بعث الله لي هذا الرجل؟! كنت أتساءل والتفاؤل يغمرني كماء حمّام دافئ في يوم قارس، إلى درجة أني شعرت وكأن الفكرة خرجت من بين شفتيه، وقد عرفت طريقها بسرعة إلى قلبي الذي قابلها بحب وامتنان، بينما كان هو ينتظر ردي، ماذا أقول لهذا المجنون؟! وبماذا أرد عليه ويعبر عن حقيقة مشاعري في تلك اللحظات؟! كان لازال صوته يدوي، عندما قررت أن أعطيه ردي، حينها قربت سماعة الهاتف من شفتي وطبعت عليها قبلة عميقة ودافئة، محبة وصادقة تمنيت من خالص قلبي أن يسمعها ويفهمها، بعدها قلت له:

- هذا ردي، هل سمعته؟!!

- أي رد؟! لم أسمع منك شيء، ووالله ما عدت أفهم شيء!!؟

- ههههه.. لقد أعطيتك ردي ولكنك لم تفطن إليه، ولا أعتقد أني سأقول لك كيف فعلت ذلك، وما دمت مصر على معرفة رأيي فأعلم أنك مجنون، لا لست مجنون، أنت داهية، أنت عبقري، أنت ملاك الرحمة الذي ارسله الله إليَّ ليخرجني من حالة اليأس إلى دنيا الأمل الواسعة والرحبة، أنت رائع والفكرة التي أعطيتني إياها رائعة.. فهل فهمت كيف كان ردي عليك في البداية.. يا أغبى رجل في العالم؟!

- ما هذه اللخبطة؟؟ هل أصابك مس أم اعتراك الجنون؟! أخبريني بوضوح ما رأيك بالفكرة؟!

- رائعة..

- ممتاز، عجلي في استشارة قانونيين.. اتفقنا؟!!

- **أكيد، من النجمة سأبدأ في ذلك..**

لا أستطيع أن أصف حالي ومشاعري في تلك الليلة، فكما أعرف وأسمع دائماً من الناس فإن هناك قمة لكل شيء، وقمة الشيء هي أقصى ما يبلغ إليه ارتفاعه وينتهي إليه علُّوه، أما أنا فقد كنت في تلك الليلة في قمة كل القمم، بل في أعلى قمة على الاطلاق، من السعادة والفرحة والحب والحبور والأمل والرغبة في الحياة وفي العناق وفي القبل، وكل شيء يمكن أن يضفي الفرحة والبهجة إلى نفس المرء، لا أعتقد أن تلك المشاعر مما هو شائع لدينا وبيننا نحن سكان الأرض، بقدر ما اعتقدت أنها كانت نفحة ربانية جاءت بالحل على لسان (أنور)، إنه الإحساس بخالص الحب لمن قابلك بخالص الصدق، إنها حالة أهل الجنة مفعمة أرواحهم بالرضا على الله، ومترعة قلوبهم بالشكر والامتنان له، وما بينهما ليس إلا خالص ما كانت عليه مشاعري آنذاك، ولا أظن أنني سأعيش مثل تلك اللحظات مرة أخرى في حياتي القادمة، فهل كان صحيحاً؟؟ أم ماذا؟

الفصل الثالث عشر

الهدوء بعد العاصفة

ماذا يفعل الواحد منا عندما يكتشف بأن الكارثة التي تواجهه من ذلك النوع المنتج الولود الذي يتناسل كوارث أخرى على نفس الطريق تباعاً؟!

في إحدى الصالات الخارجية للفندق في (More Camp)، في مدينة (Lancaster)، وعلى بُعد (80) كم شمالاً من مدينة (Liverpool)، وهو المكان الذي اتفقنا على أن يتم لقائنا السري أنا و(هند) و(كايتي) بـــ (شهد)، التي لم تكن وحدها، لا.. حاشا لله، بل كان معها (أريك).. من ذاك؟ هذا ما ستفجر غضبي إلى أقصى درجاته المعرفة به بعد قليل من وصولنا وبدء اللقاء.

كانت (شهد) تبدو بحالة طبيعية من الناحية النفسية، إلا من شحوب داهم وجهها بأثر لا يخفى على من عرفها من قبل، عرفت بعد ذلك سر ذلك الشحوب ومبعثه، وما أسوء ما عرفت، فقد كانت المشكلة حتى ذلك الوقت حسب فهمي، مشكلة هروب فتاة من جحيم الاضطهاد الذي صنعه لها زوجها العاجز جنسياً، لسبب بسيط هو أنها فتاة شابة وجميلة، وهو من كان قبل (عجزه)، ذلك الفحل الغزير إدراره للسوائل الحية، كان كذلك قبل أن يكتشف عجزه معها، ليكون ذلك ذريعته لتعذيبها وسومها سوء

العذاب، فتاة مظلومة ومجبورة مثلها، سيكون الحق معها أن تهرب طلباً للنجاة لنفسها من تلك العيشة، ولكن، يبدو أن هذا لم يكن إلا العنوان العريض الذي يخفي ورائه تفاصيل الكارثة والفضيحة،،، فكيف كان ذلك؟!

فجأة، أكتشف وبكل بساطة أن لــ (شهد) دوافع أخرى للهروب، غير تلك المتعلقة بمعاناتها في قصر زوجها، فقد تعرفت خلال فترة إقامتها وعذابها هناك على شاب انجليزي أشقر ووسيم، وأيضاً لاعب كرة قدم محترف في أحد الأندية، ما من أحد سوى ذلك الــ (أريك) الذي كان يجلس بجلالة قدره وجمال طلعته بالقرب من (شهد)، وماذا بعد؟! وقعت الفتاة المتزوجة حديثاً في غرام ذلك الشاب، وبعد أن كانت تواعده وتهرع للقائه بين الحين والأخر على الطريقة العذرية، استسلمت لوسامته وفتنة شبابه وواقعته على الطريقة المثنوية!! لم أصدق ما كنت أسمعه منها – أقصد (شهد) – وهي تخبرنا بقصة حبها وغرامها الحار جداً بعشيقها، أو حبيبها كما وصفته مراراً وتكراراً، وعزمها على الحياة معه لبقية العمر ولو كان ثمن ذلك أن تعيش منفية عن أهلها ووطنها، وكيف أنه رقيق وحساس وشجاع وكيف أنه فعل ما فعل وصنع ما صنع من أجل إنقاذها وحمايتها، وكيف أنه الرجل الذي وجدت معه الأمان!!

أرأيت؟!! هكذا أصبح للمشكلة بعد أخر؟ فالكارثة تناسلت وتمخضت عن أخرى بنتها وألعن منها؟! فماذا تتوقع مني أن يكون شعوري وردي في موقف كهذا؟

كانت (هند) واقفة خلفي، بينما أنا جالسة على أريكة جلست على توأمها (كايتي)، أسمع ما أسمع وأنا أجزم بيني وبين نفسي بأن الملعونة (هند) كانت على علم بكل ذلك ولم تخبرني، وأنها في الخلف ترتجف وتتصنع الغباء والبراءة، طيب.. حسابك سيكون فيما بعد يا (هند)؟ كرعت (شهد) ما كان بجعبتها، وبدا لي أنها اكتفت بما قالته حتى تلك اللحظة التي تحدثت فيها عن الأمان، فالتفتُ أنا ناحية (كايتي)، وأومأت لها بأن تلحق بي إلى حيث يمكن أن اتكلم معها على انفراد، لعلي أسمع منها شيئاً يخفف من شدة الغضب الذي كان قد اعتراني، وبالكاد قاومته وأنا ممسكة بأعصابي، خشية أن أقوم بضرب (شهد) حتى أقضي عليها، ابتعدنا أنا و(كايتي) ووقفنا في ركن الصالة التي كنا فيها، تبادلنا النظرات لبرهة، قبل أن تسألني هي بما زاد من سخطي وغضبي وأشعل حنقي عليها، قالت:

- **والآن، ما رأيك بالمصيبة الجديدة التي حصلنا عليها من ابنة عمك البريئة؟!**

- (كايتي).. هل تعايرينني بها؟ أم تشفين غليلك منها بإهانتي أنا؟

- لا هذا ولا ذاك، فقط أردت أن أبين لك إلى أي درجة أنا مصدومة ومذهولة؟

- وأنا والله، هاءنذا أمامك أكاد أميز من الغيظ، ولا أقدر على إفراغ جام غضبي على رأس تلك الموبوءة وصاحبتها التي جلبتنا إلى هنا، فضلاً عن ذاك العلج السمج الذي تعسنا برؤية شدقيه المنفوخين،

- وإذن؟

- آآآآآآآآآآآآه.. آآآآه [كانت نهدة عميقة وطويلة سحلتها سحلاً من قاعة صدري وزفرتها في الجو بحّرها وسعيرها]: لا أدري

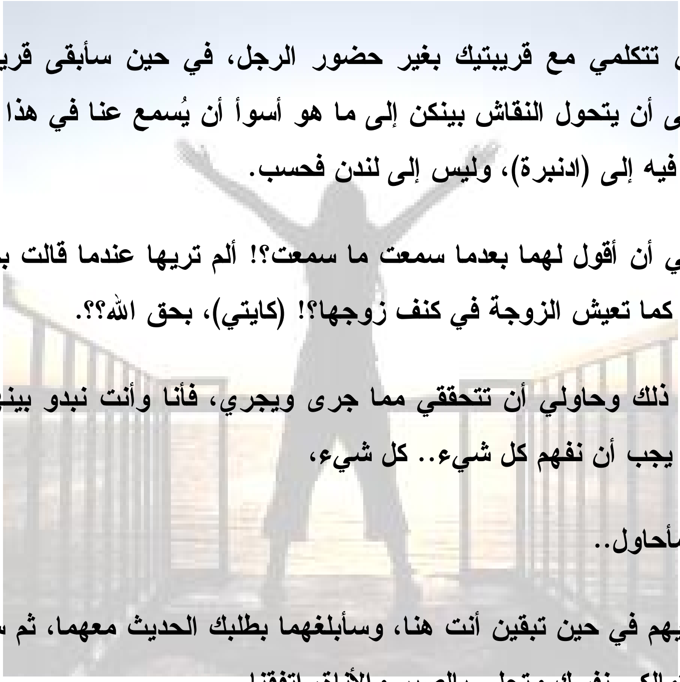

- اسمعي، أرى أن تتكلمي مع قريبتيك بغير حضور الرجل، في حين سأبقى قريبة منك تحسباً لأي طارئ، فأنا اخشى أن يتحول النقاش بينكن إلى ما هو أسوأ أن يُسمع عنا في هذا المكان، الذي يصل صدى أي صوت فيه إلى (ادنبرة)، وليس إلى لندن فحسب.

- وماذا تريدين مني أن أقول لهما بعدما سمعت ما سمعت؟! ألم تريها عندما قالت بكل وقاحة أنها تحبه وأنها تعيش معه كما تعيش الزوجة في كنف زوجها؟! (كايتي)، بحق الله؟؟.

- لا مناص، افعلِي ذلك وحاولي أن تتحققي مما جرى ويجري، فأنا وأنت نبدو بينهم وكأننا من العمي والصم البكم، لذا يجب أن نفهم كل شيء.. كل شيء،

- أمري إلى الله، سأحاول..

- حسناً، سأعود إليهم في حين تبقين أنت هنا، وسأبلغهما بطلبك الحديث معهما، ثم سأتكفل بالشاب أثناء ذلك، ومن الآن تمالكي نفسك وتحلي بالصبر والأناة، اتفقنا.

- [قلت مستسلمة]: وهو كذلك..

ذهبت (كايتي) وسرعان ما قامت بما اتفقنا عليه، ورأيت (هند) و(شهد) وهما يقبلان صوبي، وشرارة الغضب في نفسي تتوقد أكثر كلما أمعنت النظر في وجهيهما، ومع ذلك، فقد كان ذاك الذي لابد منه، فبعد أن وصلتا إلى حيث كنت واقفة، قلت بامتعاض:

- هذا المكان لا يصلح، فلنجد مكاناً أفضل نتحدث فيه..

قلت لهما ذلك وأنا اتحرك جهة باب مفتوح ظننت أنه يؤدي إلى حديقة أو ما شابه، قبل أن أكتشف أنه مدخل يؤدي إلى صالة طعام واسعة، كانت خالية ومناسبة من حيث امكنني أن أجد باباً أغلقه علينا، لم تخالفاني الأمر، بل لحقا بي وأنا اتخيلهما يتغامزان ورائي، ثم وقفت لهما عند الباب، وانتظرت حتى دلفا إلى الصالة، فأغلقت الباب علينا، واتجهت نحو أقرب مقعد وجلست عليه، وفعلتا هما ما فعلت وجلسا على مقعدين قريبين، استعدتُ رباطة جأشي وتعمدت أن أظهر تماسكي وأن أتكلم بما يدل على أني خالية مما بي من الغضب، وقلت:

- **والآن يا (شهد) بصدق، هل ما قلته لنا قبل قليل بشأن علاقتك بذلك الرجل صحيح؟ أم أنك تتعمدين اللهو بأعصابنا؟؟**

غضت طرفها عني باستحياء وتواضع مصطنعين، وهي تقول:

- **ما قلته من قبل هو ما سأقوله لك مرة أخرى لو طلبت مني ذلك، وهو ما سأقوله حتى لو كنت مجبرة على قول خلافه، فتلك كانت الحقيقة.**

- **أفهم من كلامك أنك وهو مارستما كل شيء، تفهمين ما أقصد..**

- **نعم، ولم يبقى شيء لم نقم به كأي حبيبين أو زوجين..**

- **[بصوت عالٍ قاطعتها]: مجنونة أنت، أم تدعين الجنون؟؟ هل تدركين معنى هذا يا (شهد)؟ أم أنك غافلة عن ذلك؟**

- **[بجسارة زائفة، أجابت]: وماذا يعني؟!**

- **[قلت لها بنبرة استهتار]: لا، لا شيء!! أنه فقط مجرد (زنا) بسيط، وأقصى ما يمكن أن يعاقب به المرء في ديننا عند ارتكابه هذا الذنب التافه، ليس سوى الجلد بالسوط مائة جلدة..**

[ثم قلت لها بصوت حازم وغاضب هذه المرة]: لكن هذا في حالة الزاني غير المحصن، وأنت محصنة بزواجك من قبل من ذلك المخفي لا أم له (سلمان)، وهذا يعني أن عقابك هو حد الرجم حتى الموت، يا مدام (رجوب) أم أنك تحبين أن أناديك: يا مدام ذاك الذي لم تخبريني باسم عائلته بعد لأنسبك إليه؟!!

- **[بشيء من الضعف والتبرير]: أعلم هذا، ولهذا قررت الهروب..**

- **[قاطعة كلامها]: ليته كان الهروب فحسب.. ليته كان كذلك، إنها فضيحة يا مجنونة، فضيحة بكل المقاييس يا (شهد) أن تتخلى اميرة عربية مسلمة عن زوجها وتفر إلى عشيقها، فضلاً عن كونها فضيحة مجلجلة في عرفنا نحن العرب، إلا أن تكوني قد نسيت أننا من بلد تحكمنا فيه عادات وأعراف القبائل، التي لن ترى فيما تنوين فضحنا به غير وصمة عار، لن يمحوها فعل خير من بعد أو يواري سوأتها عنا الدهر مهما يطول، فكيف وأنت أميرة من أمير من ملك، يقضي في بلاده بحكم الله وشريعته؟!**

[يممت بصري صوب (هند) مخاطبة إياها]: أحُضرينا يا (هند)، قولي لها شيئاً يرد لها عقلها.. هذه المجنونة،

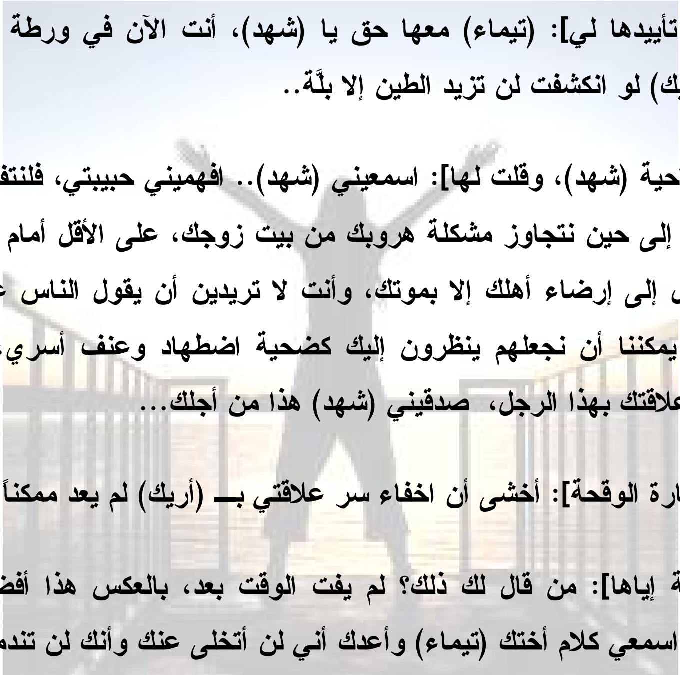

- **[(هند) متصنعة تأييدها لي]: (تيماء) معها حق يا (شهد)، أنت الآن في ورطة بسبب هروبك فقط، وعلاقتك بـــ (أريك) لو انكشفت لن تزيد الطين إلا بلَّة..**

- **[يممت بصري ناحية (شهد)، وقلت لها]: اسمعيني (شهد).. افهميني حبيبتي، فلنتفق على إبقاء مسألة علاقتك به سراً، إلى حين نتجاوز مشكلة هروبك من بيت زوجك، على الأقل أمام العالم، فجميعنا نعلم بأنه ما من سبيل إلى إرضاء أهلك إلا بموتك، وأنت لا تريدين أن يقول الناس عنك بأنك هربت إلى عشيقك، بينما يمكننا أن نجعلهم ينظرون إليك كضحية اضطهاد وعنف أسري، صدقيني، بعد ذلك سننظر في أمر علاقتك بهذا الرجل، صدقيني (شهد) هذا من أجلك...**

- **[قالت بتلك الجسارة الوقحة]: أخشى أن اخفاء سر علاقتي بـــ (أريك) لم يعد ممكناً...**

- **[قلت لها مطمئنة إياها]: من قال لك ذلك؟ لم يفت الوقت بعد، بالعكس هذا أفضل حل ممكن الآن، صدقيني حبيبتي اسمعي كلام أختك (تيماء) وأعدك أني لن أتخلى عنك وأنك لن تندمي...**

- **[قاطعتني (شهد)]: أنا حامل، وحملي من (أريك) ولا أحد سواه.**

وقعت العبارة على أم رأسي كالصاعقة، صاعقة ماذا؟ بل كنيزك جاء من أبعد نقطة في فضاء هذا الكون، فقط من أجل أن يقع على رأسي أنا، لم أدري من بعد ما أقول ولا ما أفعل ، بل نهضت من فوق مقعدي كالبلهاء، كل منهما ملتصقة بمقعدها، وكأن الأمر بنظرهما أيسر من رمي حصاة في البحيرة، وبقيت أردد بعلو صوتي:

- **هذا جنون.. هذا جنون، جنووون، والله جنون؟؟؟**

آويت إلى ركن الصالة المطل على المنظر الطبيعي في الخارج، متعمدة أن أقف على مبعدة منهما، كان ذلك لعدة دقائق استسلمت فيها للصمت والشرود، ولذلك الإحساس المرير بالانتكاس، كنت بيني وبين نفسي أصوغ رثاءً لنفسي وأسرتي وأولياء نعمتي لمصابهم هذا الجلل، والذي قدر لي وحدي أن أعيش فداحة اللحظات الأولى بمعرفته، ولعلي شعرت برغبة عارمة ومحمومة بالانتقام لهم جميعاً بقتلها قبل أن تصل أياديهم إليها، أو تنأى هي بجرمها بعيداً دون عقاب، وكانت الدموع تسفح من عيني حارة غزيرة شديدة الملوحة، وقد سرى خطها على قبة خدي كنهر جارف وجارح، والألم الأشد لم يكن إلا بأعماقي، من دون أن أدري أكان ذلك منها أم عليها، بعد ذلك شممت عطر (هند) قريبة مني، وقبل أن يلامس كفها كتفي، التفَّتُ ناحيتها وأنا أصدها وأمنعها من الاقتراب مني، وأقول لها وأنا مغاضبة ولائمة:

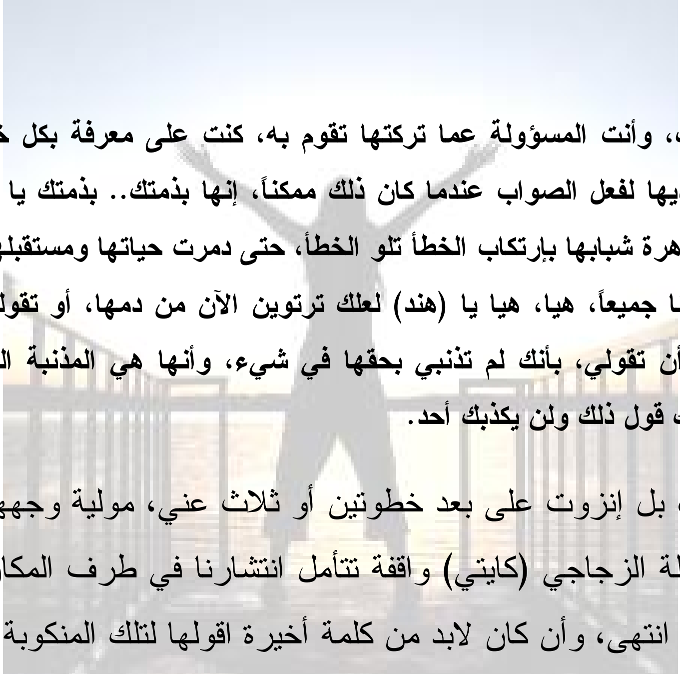

- **هذه الفتاة بذمتك، وأنت المسؤولة عما تركتها تقوم به، كنت على معرفة بكل خطوة قامت بها ولم تمنعيها أو ترشديها لفعل الصواب عندما كان ذلك ممكناً، إنها بذمتك.. بذمتك يا (هند)، تركتها تدمر نفسها وتمحق زهرة شبابها بارتكاب الخطأ تلو الخطأ، حتى دمرت حياتها ومستقبلها، وشوهت سمعتها وسمعتك وسمعتنا جميعاً، هيا، هيا يا (هند) لعلك ترتوين الآن من دمها، أو تقولين هل من مزيد؟!، ولعله يحق لك أن تقولي، بأنك لم تذنبي بحقها في شيء، وأنها هي المذنبة المجحفة بحق نفسها وغيرها، يحق لك قول ذلك ولن يكذبك أحد.**

لم تنطق (هند) بحرف، بل إنزوت على بعد خطوتين أو ثلاث عني، مولية وجهها شطر الجدار، عندما لمحت خلف باب الصالة الزجاجي (كايتي) واقفة تتأمل انتشارنا في طرف المكان، بلا كلام أو حوار، حينها أدركت أن الأمر انتهى، وأن كان لابد من كلمة أخيرة اقولها لتلك المنكوبة التي كانت تحبس بول فجيعتها بنفسها وأهلها في جوفها كرهاً، جوفها الذي كان جنين الخطيئة يتلوى فيه بريئاً وقد خالط العفن لحمه الواهي، فقلت:

- **اسمعيني (شهد)، اسمعاني كلاكما، يعلم الله أني جئت إليك ناصحة معينة، جئتُ أحمل إليك أحسن ما أردت أن تسمعيه مني، فوجدتك لاهية مغرورة وأسمعتني أسوأ وألعن ما كان عندك، ومع ذلك سأظل كما جئت وسأعمل بحق الرحم وصلة الدم والقربى، إن كنت لازلت ترتضين أو تنتظرين مني المساعدة، غير أني قد قلت ما عندي وما عداه فالخيار لك، أقول لك هذا قبل أن اعود ادراجي مكرهة غير راضية على أي حال، عسى ربي أن يساعدني على تجاوز هذه المحنة، بقدر ما ادعو لك أنت أيضاً بذلك، فاسمعيني أخر القول منك قبل الرحيل؟!**

انتظرت وأنا أحدث نفسي بأمل، عسى أن ترد (شهد) أو أن تتفوه بخير تلك المأفونة، وكنت لا أزال أرى (كايتي) في مكانها، فانتهزت فرصة وقوع عيناها في عيني وأشرت إليها بجماع رؤوس اصابع يدي أن تنتظرني قليلاً، وبعد مرور دقائق ظننت أن الصمت قد أضحى ردها وأن لم افهم له معنى، فقررت أن أمضي، ولكن وقبل أن اتم خطوتي الأولى وأشرع في الثانية، سمعت نحيب (شهد) من ورائي، فالتفت إليها ورأيتها وقد سقطت على الأرض تكوم نفسها وقبضة يدها أيضاً، وقد بدأت تضرب بطنها بقبضتها بعنف، ألتفت ناحية (هند) فرأيتها هي الأخرى قد الصقت ظهرها المعقوف من خاصرتها على الجدار وكفاها يغطيان وجهها، رَقَّ قلبي في البدء لهما، لكني اصطنعت القسوة على مضض وأنا امضي راحلة صوب الباب، لأسمع نحيب (شهد) يعلو ويتحول إلى عويل يقطع الأنفاس وصراخ يشق الحلوق ويثقب الأذان، سمعتها مع ذلك تناديني وتستجديني:

- **لا تتركيني، أرجوك، فأنت من تبقى لي من أهلي.. لا تتركيني، أسألك بالله لا تتركيني..**
- **[صوت هند من الناحية الأخرى]: (تيماء) أرجوك لا تتركيها وتتركيني، لم يعد لها بعد الله سوانا، فلا تخذليها..**

كنت أسمعهما تتوسلان، وأنا أنظر إلى (كايتي) التي كانت قد فتحت أحد مصراعي الباب الزجاجي وهي تشير إلى أن أعود اليهما، ولم يكن بوسعي إلا أن أستجيب لما كان منها ويطابق رغبتي.

بعد عدة أيام كنا خلالها قد رتبنا كل شيء مع محام شهير ومتمكن، والذي تولى بالفعل البدء بإجراءات طلب الحصول على حق اللجوء السياسي لـــ (شهد)، مع ما يترتب عن ذلك من حقها في الحصول على الحماية القضائية، كما نجح المحامي في انتزاع موافقة المحكمة على عدم الافصاح عن اسم وهوية (شهد) الشخصية، في جميع مداولات القضية العلنية داخل المحكمة، وكذلك بالنسبة للتصريحات التي يمكن أن يدلى بها أحد لوسائل الاعلام، وكان في هذا ما خفف من وطأة التناول الاعلامي للقضية، خاصة وأن الأمر سرعان ما ذاع خبره وانتشر عبر الصحف والقنوات الفضائية، طبعاً تم كل هذا بعد أن محينا أي دليل يكشف عن أي صلة لي أنا و(هند) و(كايتي) بالموضوع، فقد توارينا جميعاً وابتعدنا قدر ما كنا مطمئنات على انفسنا، بينما كانت تصلنا المعلومات من المحامي بشكل سري للغاية لم ينكشف أمره لأحد أبداً.

صحيفة الــ (**Independent**) البريطانية، أولت القضية اهتماماً مطلقاً فجعلتها في صدارة الموضوعات التي حرصت على تغطيتها ومتابعتها عن كثب، كما حرصت على إثارة الجانب الأخلاقي، إذ نشرت ما يفيد بأن (الأميرة تعتبر في نظر المجتمع الذي جاءت منه زانية) وأن (زوجها كان قد صرح بأنه لاحظ على زوجته الفارة بعض السلوكيات المريبة، وأنه كان يشك فعلاً في أخلاقها)، وهذا ما كنت أحذر منه عندما رجوت (شهد) أن لا تصرح بأي شيء عن علاقتها بذلك الشاب الانجليزي وعن حملها منه، ولكنها للأسف لم تستجب لكلامي.

الجانب الأخلاقي هذا اصبح موضع تندر الصحف والقنوات الاعلامية، وكان افضل جانب استغله المعارضين لنظام الحكم في المملكة والناقمون على الأسرة المالكة أحسن استغلال، فقد اعتبروا كل ما قيل في هذا الشأن دليلاً جديداً، يثبت الفساد الأخلاقي والاجتماعي بين أفراد العائلة المالكة من الجنسين على حد سواء، وكان هذا أكثر ما ساءني..

تواعدت مع كل من (هند) و(كايتي) بعد عدة أيام من بدء اجراءات المحكمة على أن نلتقي لأمر ما بخصوص القضية، والتقيت بــ (كايتي) أولاً، وقد كان الخوف واضحاً على ملامح وجهها، إلى درجة أنها أكدت عليَّ قبل ذلك بأن لقاءنا يجب أن يكون في مكان عام، وهذا بحد ذاته افزعني وزرع الرعب في قلبي، وكنت خائفة جداً من أن تضعف (هند) أمام أي ضغط وتخبر بحقيقة صلتنا بالموضوع، ولعلي خشيت أن يكون شيئاً من هذا قد حدث بالفعل، مما دفع (كايتي) إلى طلب اللقاء بي وبــ (هند)، لم أطق صبراً ونحن ننتظر وصول الأخيرة، فسألت الجالسة أمامي:

- **(كايتي)، ماذا هناك؟**
- **الأمور تتطور بشكل عاصف يا (هند)، ولا أخفي عليك بأني أشعر بالخوف الشديد..**
- **الخوف واضح عليك، فقط أخبريني ما نوع التطورات التي حصلت، أخبريني، قبل أن تصيبني سكتة دماغية، ما بك؟**
- **لقد وصل البارحة موفدون من طرف حكومة المملكة من أجل هذا الموضوع..**
- **وماذا بعد؟**

- هؤلاء لم يأتوا لكي تسير القضية في المسار الذي نتمنى أن تسير فيه، فأول ما سوف يقومون به هو منع المحكمة من اصدار قرار يقضي بمنح قريبتك حق اللجوء، ومن المؤكد انهم جزء من عملية ضغط شديدة على الحكومة البريطانية لدفعها في اتجاه تسليم الأميرة اليهم وارجاعها إلى المملكة.

- [مقاطعة]: وهل هذا ممكن؟ أقصد- هل من الممكن أن تستجيب المحكمة أو الحكومة البريطانية لذلك؟

- كل شيء ممكن، إذا ما نظرنا إلى طبيعة العلاقات السياسية بين الدولتين، فالحكومة البريطانية ستحرص أيضاً على صيانة علاقتها ومصالحها المشتركة مع المملكة، وإذا ما طرحت القضية للنقاش بين الطرفين بناءً على ذلك، فمن الممكن جداً أن يحدث اتفاق تسوية لا يستبعد أن يتضمن تسليم الاميرة إلى السفارة، بشكل سري وغير معلن، خاصة وأن الأخبار تتحدث عن توتر في العلاقات..

- أوووف يا ربي، وكيف نتفادى حصول هذا؟!

- لا أعرف، ولكن لا أمل لدينا إلا بنزاهة المحكمة، مع أني متأكدة من أن الموفدين قد يدفعون رشاوى باهظة ومغرية، مقابل تحقيق هدف مهمتهم..

- حسناً، ما الذي يمكن أن نقوم به؟

- علينا أنا وأنت و(هند) أيضاً، أن نثبت على كتمان ما جرى، وأن نكون على اطلاع بكل جديد قد يطرأ، وألا نستهين بأي معلومة مهما بدت لأي منا تافهة وغير مهمة، ولكن هذا يتوقف على ما أرادت أن تخبرنا به (هند)..

- ماذا؟ وهل مازال هناك شيء أخر عندها؟

- نعم، فأنا أتوقع ذلك لأن الموفدين عقدوا اجتماعاً فور وصولهم مع السفير وكبار مسؤولي السفارة، وأغلب الظن أن الاجتماع انعقد في القصر، ها هي تلك قادمة..

كانت (كايتي) قد لمحت (هند) قادمة إلينا، عندما أشارت إليها وتوقفت عن الكلام، إذ بدا أن (هند) وصلت في وقتها، وبمجرد أن سلمت علينا وجلست، لم تمهلها (كايتي) فسألتها:

- هاه، (هند) أخبرينا ما الجديد لديك؟

كانت (هند) مشغولة بترتيب وضع جلوسها والتخلص من شيء ما أزعجها، عندما فرغت (كايتي) من قول سؤالها، ولولا أنها عجلت وانهت ما كان يشغلها، لكنت إتهمتها بالبرود واللامبالاة، غير أنها تكلمت أخيراً:

- **أعتقد أنكما سمعتما بخبر وصول فريق الداخلية من المملكة..**

- **[قلت لها مقاطعة]: نعم، وقد ناقشناه قبل مجيئك، فقط أخبرينا ما الجديد لديك؟**

- **اجتمعوا في القصر ليلة أمس وسمعتهم يتحدثون عما بدا لي أنها خطة لاختراق نظام الحماية القضائية واختطاف (شهد)، ويبدو أنهم على اتصال بأشخاص يعملون في الاستخبارات البريطانية، قد يتواطؤون معهم لتنفيذ هذه الخطة..**

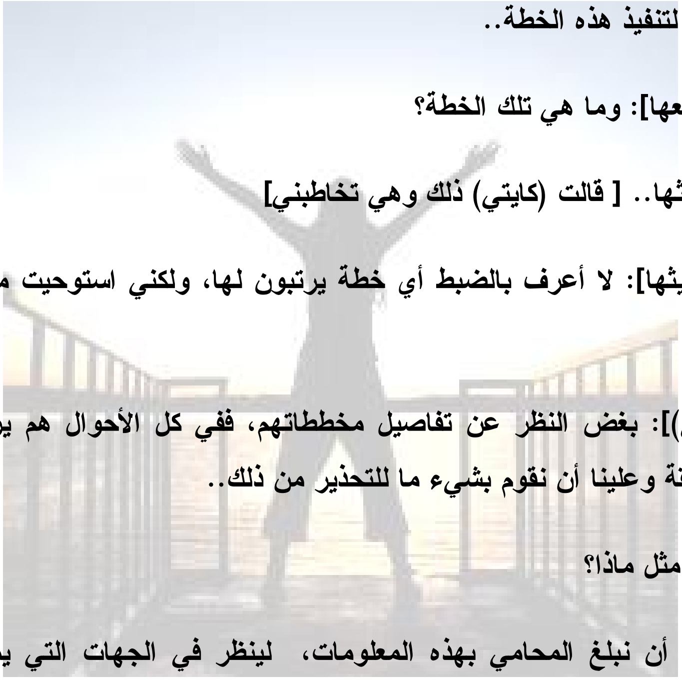

- **[مرة أخرى أقاطعها]: وما هي تلك الخطة؟**

- **دعيها تنهي حديثها.. [قالت (كايتي) ذلك وهي تخاطبني]**

- **[(هند) تكمل حديثها]: لا أعرف بالضبط أي خطة يرتبون لها، ولكني استوحيت من كلامهم ذلك، هذا كل ما عرفته..**

- **[تحدثت (كايتي)]: بغض النظر عن تفاصيل مخططاتهم، ففي كل الأحوال هم يريدون الوصول إلى (شهد) باي طريقة وعلينا أن نقوم بشيء ما للتحذير من ذلك..**

- **[سألتها (هند)]: مثل ماذا؟**

- **[ردَّت (كايتي)]: أن نبلغ المحامي بهذه المعلومات، لينظر في الجهات التي يمكنه التواصل معها والإجراءات التي يمكن أن تتخذ للتأكد من عدم وجود ثغرة في نظام حماية (شهد)، وهذا ما سأعتني بالقيام به، أتركا هذا الأمر لي.**

أثارت قضية الأميرة (شهد) عاصفة مريعة، كادت أن تشعل ناراً تأكل الأخضر واليابس، لولا أن الله تداركنا بلطفه وبرحمته، لكان الأمر قد سار بنا نحو الهاوية، أقول هذا وأنا أنظر لما كانت عليه حقيقة صلتنا به، فقد استجابت المحكمة إلى التماس المحامي برفع درجة الحماية، والقيام بكل ما يلزم لمنع سير القضية في غير طريقها، وتم ذلك كله بالفعل..

كان من ضمن حيثيات الدعوى التي دعمت موقف (شهد) وأدت إلى اقتناع هيئة محكمة اللجوء والهجرة البريطانية بضرورة الحكم لصالحها وقبول طلبها ومنحها حق اللجوء (Asylum)، ما جاء في عريضة الدعوى ونص عليه قرار الحكم بعد ذلك، بأن (شهد) إذا عادتْ إلى بلدها هي وطفلِها، ستَكُونُ معرضة لمواجهة حكم بالإعدام، تقضي به الشريعةِ الاسلامية المطبقة هناك – وبالتحديد عقوبة الرْجمَ حتى الموت. بالإضافة إلى ما عبرت عنه المحكمة في قرارها، من أنها تشعر بالقلق أيضاً من إمكانيةِ تعرض (شهد) للقتل، في إطار ما يسمى بجرائم الشرفِ على يد أحد من أسرتها أو مدفوع منها، ولهذا قررت المحكمة مُنِحها حق الإقامة الدائمة والبَقاء في المملكة المتحدةِ..

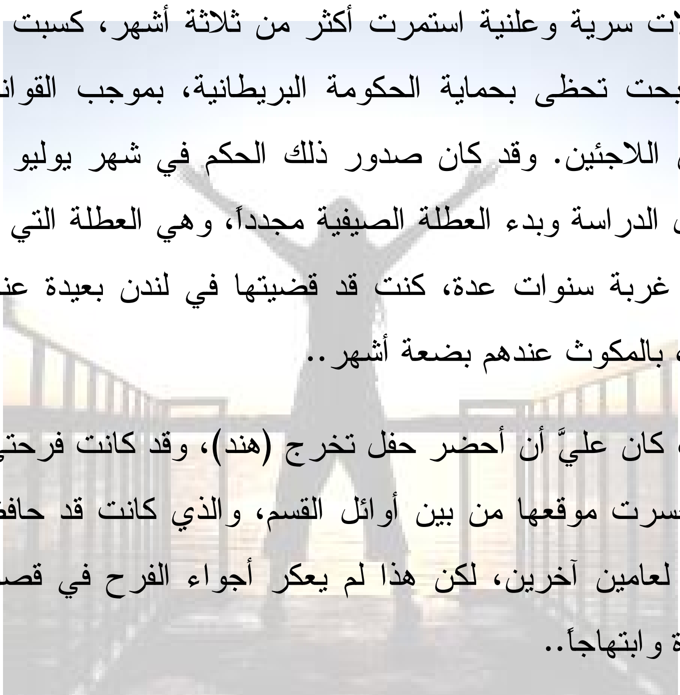

هكذا إذن، وبعد مداولات سرية وعلنية استمرت أكثر من ثلاثة أشهر، كسبت (شهد) القضية وصدر الحكم لصالحها، وأصبحت تحظى بحماية الحكومة البريطانية، بموجب القوانين الوطنية والمواثيق الدولية المتعلقة بحقوق اللاجئين. وقد كان صدور ذلك الحكم في شهر يوليو من ذلك العام، والذي تزامن مع انتهاء أعمال الدراسة وبدء العطلة الصيفية مجدداً، وهي العطلة التي قررت أن أقضيها بين أهلي وفي وطني بعد غربة سنوات عدة، كنت قد قضيتها في لندن بعيدة عنهم، وأوجبت عليَّ أن أعوضهم وكذلك نفسي، بالمكوث عندهم بضعة أشهر..

قبل سفري إلى الوطن، كان عليَّ أن أحضر حفل تخرج (هند)، وقد كانت فرحتي بنجاحها لا توصف، على الرغم من أنها خسرت موقعها من بين أوائل القسم، والذي كانت قد حافظت عليه لعامين على التوالي وتراجعت منه لعامين آخرين، لكن هذا لم يعكر أجواء الفرح في قصر خالتي (سمية) التي كانت أكثر الناس سعادة وابتهاجاً..

حضرت في البدء حفل تخرج (هند) ودفعتها في الكلية، في الوقت نفسه الذي بدأت فيه أجهز نفسي مثل الجميع للحفلة التي ستقام في القصر بهذه المناسبة، كانت (هند) في تلك الفترة في قمة سعادتها، وقد لاحظت ذلك وتأكدت منه فعلاً، وقد أخبرتني بأن الحفلة ستكون على نمط الحفلات التي يقيمها سكان لندن في مثل هذه المناسبات، أي حفلة على الطراز الغربي في كل شيء، والحقيقة أن هذا كان سيكون له وقعه على قلبي لولا ما حصل من تغيير في طريقة تفكيري ونظرتي للأمور، ألم يذكرني هذا بـــ (أنور) في ذلك الوقت؟ – بلى!!

كانت الحفلة رائعة للغاية، حضرن فيها معظم صديقات وزميلات (هند)، بالإضافة إلى المدعوين من طرف والديها، وجلهم من أقاربنا من الأمراء والأميرات الذين كانوا متواجدين في لندن أو جاءوا إليها لهذا الغرض، كما حضر أيضاً ديبلوماسيون مع زوجاتهم، وبعضاً من رموز عائلات وجالية بلدنا المقيمين في انجلترا.

أجمل ما حدث في تلك الحفلة، كان تلك المفاجأة التي حرصتُ على أن تكون كذلك للجميع بدون استثناء، والتي تمثلت بالطريقة التي ظهرت بها في تلك الليلة، أقصد ملابسي وشكلي وما إلى ذلك مما يتعلق بمظهري، فقد ظهرت بزي شرقي ومع الحجاب أيضاً، الذي تعاملت معه في تلك الليلة من وجهة نظر جمالية، وتأكد لي وقوع ذلك، ما كان واضحاً من ردود أفعال الآخرين وآرائهم إزاء مظهري، فقد استعنت بخبرة اثنتين من أشهر وأمهر المتخصصات العربيات في الأزياء وخطوط الموضة، مصممة الأزياء البحرينية (سلوى كنور) وخبيرة التجميل اللبنانية (دينا طرابلسي).

ارتديت في تلك الليلة حلة مكونة من زي مغربي أسود من الحرير اللماع، مرصعة حواشيه ببلورات من الكريستال، ومزين بنقوش وزخارف في منطقة الصدر والحواف الأكمام، مع حزام في وسطي من نفس خامة الزي، غير أنه مزين بسلسلة مزدوجة من الذهب الأبيض، تتراخى وتتسدل على شكل أقواس ناحية الأسفل ما بين عقدة وعقدة، أما غطاء رأسي (الحجاب) فقد كان عبارة عن طرحة سوداء نصف شفافة مثبتة بـــ(شاشية) فضية مزينة بطوق ذهبي مصمم على شكل تاج، وبالنسبة لزينة الوجه فقد كانت خالية من الألوان والأصباغ، إلا من جزء بسيط من الرمادي المائل إلى السواد فوق أجفاني، بالإضافة إلى الكحل وأحمر شفاه خفيف، فقد كانت فكرتي أن أظهر كأميرة شرقية بكل ما تعنيه هذه الصفة من قيم وجماليات، مع ما كنت أرجو أن أناله من التميز والتفرد في إبهار الآخرين، وهذا بالفعل ما عبر عنه الكثيرين منهم.

وفي نفس تلك الليلة حدث أمر أخر، وهو أن (هند) قررت أن تكاشفني بسر علاقتها بشاب من أسرة عربية ثرية، كانت قد تعرفت عليه منذ اكثر من عامين، وظلت على تواصل به ولقاء مستمر معه، وأخبرتني أيضاً بأنهما كانا قد بدءا يناقشان مشروع زواجهما في الفترة الأخيرة، وأنها أرجأت أي خطوة في هذا الاتجاه حتى تنتهي من إكمال دراستها، وأنهما خلال الفترة القادمة سيبحثان في ترتيب

تقدم الشاب لخطبتها من والدها، وكما فهمت منها فإن لا أحد على علم بهذا الأمر سواي أنا – كانت تكذب في ذلك طبعاً إذ قصدت أن تهيب بي عدم الاعلان عن ذلك لأحد.

لم أشأ أن أعلق على ما قالته لي (هند) بهذا الشأن، خشية أن أبدي من رأيي ما كنت أعرف أنه قد يسوئها، أو أن تعرف بأني كنت على علم بشيء حول ذلك، فضلاً عن كوني وجدتها قد فكرت بالأمر وحسمته بطريقة غير صحيحة وغير موضوعية، وكأنها هي المعنية بالأمر وحدها، فهي لم تنظر إلى المسألة من الناحية التي يمكن أن ينظر منها والداها إلى شخصية الشاب الذي تحبه، والذي سبق لي وأن لمحته معها، وليس عندي أدنى شك بأنه ليس من نوع الشباب الجادين، كما لم تأخذ بأيٍ من تلك الاعتبارات التي تتعلق بالشروط الاجتماعية، التي سوف تكون عاملاً جوهرياً في حصول ذلك الارتباط أو منعه، لاسيما وأنها أميرة وتنتمي إلى أسرة حاكمة، بينما ما فهمته منها يؤكد أنها لا تعرف عمن تود الزواج به، أكثر من مجرد كونه شاب وسيم وأنيق وابن أسرة عربية ثرية؟!! وكل شيء كانت تفكر به بالنسبة لما يوجبه الواقع كان على النقيض.

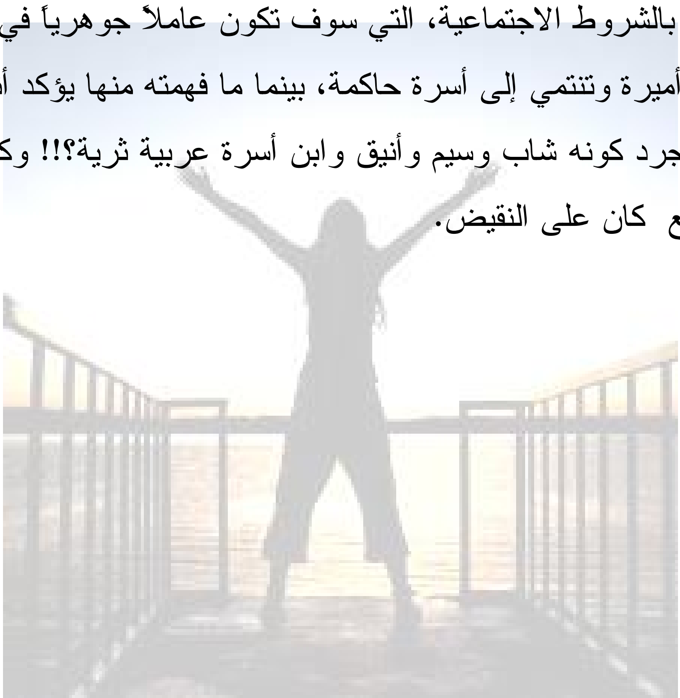

الفصل الرابع عشر

بين العودتين!

على النقيض تماماً مما كان سيسير عليه الأمر لو أني بقيت في لندن، عشت أيام العطلة الصيفية في قصر العروض مع أمي وشقيقاتي، فقد جعلتني تلك الفترة القصيرة أعاين عن كثب حقيقة الحياة التي كنت أعيشها من قبل، تلك الحياة التي لم يكن ينبض فيها شيء حقيقي وصادق من الأعماق، والتي لم تكن لي فرصة فيها أن اصنع حدثاً أو أثير جدلاً، أو أن يكون لي ما أعتز بأن تحفظه ذاكرتي، كل شيء ظل كما هو في قصر العروض، بل وفي الرياض بأسرها، فكيف لا تكون الحيـــاة مملة وبائسة وأنت لا تلمس فيها أدنى درجات التغيير والإثارة؟

الحقيقة، أن ما من شيء غير عادي بالنسبة إلى قد حصل أثناء وجودي هناك، إلا ما كنت قد خضت فيه مع نفسي بشأن علاقتي بـــ (أنور)، إذ لا أعرف لماذا شعرت بالضيق أو شعور من هذا القبيل منذ اللحظة التي استمعت فيها إلى (هند) وهي تحدثني بأمر علاقة الحب التي تعيشها، وكان عليَّ أن أمعن النظر جيداً وأتحقق من حقيقة ما شعرت به خلال تلك الفترة التي كنت فيها بعيدة عن لندن، وهناك واجهت نفسي بالحقيقة، فكل فتاة تحب أن تعيش هذه التجربة، وتتمنى أن تتعرف إلى الشاب الذي يمكن أن تجد فيه فارس أحلامها والرجل الذي ستحبه وتعيش معه بقية حياتها، وكان التفكير بهذه المسألة

يقودني إلى معايشة ذلك الشعور بالحرج أمام نفسي، جراء التفكير بما اعتبرته حالة فراغي العاطفية، خاصة عندما أجد نفسي في النهاية منساقة للتفكير في الجوانب الجنسية، التي كنت أتحرج من وصفها بيني وبين نفسي واعتبارها (حاجات) بالنسبة لي، ولم يكن ثمة مكان أفضل من (قصر العروض) يذكرني بحقيقة أن العلاقات بين الجنسين في مجتمعي، أبعد ما تكون عن أي وضع أو مرحلة يمكن أن تكون فيها أمراً مقبولاً، فكل الحسابات الاجتماعية بهذه الشأن موكل بها إلى قواعد العرف وشرائع الدين، وهما إطاران عريضان لهما حاكميتهما القوية والنافذة على كل شيء في مجتمعنا، الذي بدوره لا يعترف إلا بعلاقة واحدة هي (الزواج)، وهي العلاقة التي لا تتم ولا يقبل بها ما لم تتجاوز القيود الدينية والاجتماعية، التي لا تولي الجانب العاطفي أي قيمة أو تضعه في أي اعتبار. إذن، أنا في هذه المرحلة، وعلى أن افكر بهذا الأمر على نحو لا تكون فيه الحاجات التي بُتُّ ادركها في نفسي أكثر من يقودني، كما أني بدأت أشعر بأن قيود المجتمع يجب أيضاً إلا تكون قيود بالنسبة لي، وأن غاية الأمر في التعاطي مع هذه المسألة، هي الوصول إلى نوع من التوسط والرؤية المعتدلة..

كان عليَّ أن أنظر إلى طرفين مختلفين ومتصادمين على نحو فظيع، وأن أقرر إلى أين يجب أن يكون انتمائي، فأنا في الطرف الأول (أميرة) تنتمي إلى أسرة ومجتمع لهما قواعدهما الصارمة التي لن يكون لي من أمر نفسي شيء لو احتكمت بحكمها وامتثلت لها، وأنا في الطرف الثاني (امرأة) لها طبيعتها الخاصة التي جبلت عليها، وما زرعه الله فيها أصدق مما اصطنعه البشر لأنفسهم من عادات وأعراف، علاوة على أن السنوات التي قضيتها في اوروبا علمتني الكثير مما قد تعنيه تلك المفاهيم التي تعنى بحقوق المرأة وحريتها ومساواتها بالرجل وغير ذلك، وبين هذا وذاك، لم يكن امامي إلا الاعتراف بأني إذا ما كنت أشعر بحاجاتي العاطفية وأنزع إلى حب رجل ما يحقق لي كل حاجاتي ورغباتي، فلابد أن يكون هذا الرجل (رجلاً حقيقياً) قادراً على أن يجعل من وجوده في حياتي جوهراً وحقيقة ممتدة، لا أن يبقى تفكيري في هذا الجانب دافعاً إلى البحث عن تعويض مؤقت أو تجربة عابرة، ولا أعرف من أين جاءت تلك العبارة التي وجدتني أقولها لنفسي:

[أنها ليست أزمة فيما أنا عليه وما هو بالأصل طبيعتي، بل هي أزمة رجولة غائبة أو نادرة الحضور في هذا العصر].

اهتديت إلى حقيقة أن ما كنت أعتبر نفسي قد تجاوزته، كان أكثر شيء حاضر في حياتي، وأن ما قلت عنه بأن الحياة – حياتي- يمكن أن تستمر بدونه ولذا ما من شيء سيحصل لو أني تخليت عنه

وتركته، هو أكثر ما أنا بحاجة إليه في تلك المرحلة من عمري، ولم أكن أجد أني مدفوعة إلى مغالطة نفسي بتلك الفكرة التي سوغت لي أن أعتبر (أنور) مجرد رمز للرجل الذي أفتقده وأسعى إلى إيجاد نموذجه، وليس أنه هو ذاتـــه وعينه الرجـــل الذي أريـــده، لا لشيء إلا لأدفع عن نفسي تهمة أني ربما كنت قد وقعت في حبه أو لكي لا أظهر أمام نفسي وكأني أعاند وأمتنع عن الإعتراف بحقيقة أني بالفعل أحبه..

لقد اكتشفت أيضاً بأني أتبنى موقفاً رافضاً وناقماً على الطريقة التي كانت ولازالت تتم بها معظم الزيجات في القصور الملكية، وخاصة تلك التي تتزوج بها الأميرات دون الأمراء، فقد كانت معرفتي بحقيقة وواقع ما كان يجري كافية لأن تجعلني قادرة على تصور نماذج الرجال الذين يمكن أن يُفرض عليَّ أحد منهم، أو ذاك الذي يمكن أن تحظى به وفق قواعد ومعايير أسرتي (أميرة) مثلي، وأنا في الحقيقة لم أعد في ذلك الوقت مستعدة للقبول بأي من تلك النماذج الذكورية، حيث سيكون من رابع المستحيلات أن أجد فيهم ومنهم من يمكن أن أعطيه ثقتي، فضلاً عن أن أملّكه نفسي، ولكن كان عليَّ أن أسأل نفسي، هل أنا جادة بالفعل وبمستوى الشجاعة والجُرأة التي تجعلني أعلن هذا الموقف المتمرد والرافض والعمل بموجبه؟. هل أنا مستعدة للدخول في أتون معركة طاحنة وأن أخوض مواجهة عنيفة ومزلزلة أقف فيها في وجه سلطة النموذج الذكوري في محيطي وبيئتي الاجتماعية ودائرتي الطبقية في سبيل تحقيق إرادتي وتأكيد حقي في أن أعيش حياتي وفق قناعاتي وتصوراتي؟! وتساؤلات أخرى كثيرة، كان من شأنها أن كشفت لي عمق المأساة المتجذرة في أعماقي، وحقيقة أن معاناتي التي ظننت أنها قد انتهت لم تبدأ بعد..

ما نجم عن هذه الحالة الشعورية والفكرية والمشحونة بتفاصيل مؤلمة ونزعات كامنة، هو أني أدركت انقسامي بين شعورين، شعور بالضعف واليأس والعجز اقترن بما كانت تعنيه فكرة بقاءي في حدود العالم الذي أنتمي إليه دون أي تجاوز أو اختراق، وهي الفكرة التي أقمتها على أساس ما هي عليه قوة السلطة وجبروتها، كان هذا من جهة ومن جهة ثانية كنت أشعر بالقوة والأمل والإرادة والتحدي، والذي اقترن بفكرة كانت تتسلل من ركن سحيق بأعماقي بأن أتصور نفسي وأنا اخوض معركة شرسة ودامية، من أجل الانتصار لنفسي ولكل بنات جنسي وإسقاط كل ذلك الظلم الواقع علينا في مجتمع الرجال، وبين هذا الشعور وذاك، لم أجد مانعاً ولم أجد دافعاً، غير أنني بنوع من الحياد وجدت بأن

أصدق ما يمكن أن تكون عليه مواقفي ليس إلا الشعور بالانحياز لذاتي، والانطلاق من إيماني بأن الظلم هو ما تعانيه كل امرأة في مجتمعي، وأن العدل هو منح ما تفتقده كل امرأة في بلدي..

لماذا تمنيت من خالص قلبي أن أراه؟! كان هذا من أصعب تساؤلاتي، بل كان الأصعب على الاطلاق، وهو السؤال الذي نبع دوماً من نفس ذلك الركن السحيق في أعماقي الذي كانت تتسلل منه إلى وعيي مشاعر القوة والأمل والتحدي، لم أكن أُزيّن الأمر بهذا القول لنفسي، بل كنت كارهة إلا أكون واضحة مع نفسي وأمامها، نظراً لما كان يحتمه عليَّ هذا الخيار الصعب والمؤلم، في كل مرة كنت أذكر نفسي فيها بأن أي نتيجة قد أخلص إليها في هذا الشأن ستظل من جهتي التي لن تكون كافية لحدوث تحول، ترجح فيه كفة طرف على الطرف الآخر بما يكفي لأقرر إلى أين أتجه بالضبط.

بيد أني وأنا أهيم في مفترق الطريق بين جهتين، وبعد أن قررت سلفاً أن السير في الجهة الثانية من ناحية قلبي وإرادتي سيكون صعباً ومؤلماً، سألت نفسي أيضاً: ومتى كان الخيار الأول من جهة واقعي ومجتمعي سهلاً ومحبباً؟ فهل يمكن أن أقبل بأن أتخلى عن نفسي، وأجعل منها مجرد شيء ينتقل بقوانين البيع والشراء من ملكية رجل إلى ملكية رجل أخر، كل ما أتوثق أن يكون فيه ليس إلا أنه ذلك الذي سأكون متعته أو جزء من متعه التي لا تنتهي عند امرأة واحدة، بقدر ما يضاعف امتلاكه لي طموحه في امتلاك غيري، وأنا أعرف بأن هذا لا يرضي الله أو أي آلهة أخرى عبدها الناس، فحتى الحيوانات قد تأنف أن تكون بهذا الرخص!!! وإذن، فالحقيقة هي أني أمام خيارين كل منهما أصعب من الأخر وأشد إيلاماً..

كان عليَّ أن أحـــمل معي كل هذه الـــتناقضات وأنا في طريقي إلى لندن للمرة الثانية في حياتي، فهي بالأصل جاءت معي من هناك، كما كان عليَّ أن أخذ باعتباري فارق المكان وتأثيره على طريقة تفكير المرء، وكل ما كان يجعلني متسرعة ومتلهفة للعودة إلى لندن، لم يكن إلا ذلك الخوف الشديد من أن يكون قد حاول الاتصال بي في أية لحظة طوال فترة غيابي، ولم يجد من يرد عليه.

ألم أقل لك من قبل بأن هذا الشخص مثل الضوء قادر على النفاذ، ولكني أنا من كنت لفترة طويلة عشتها بعد إذ عرفته، أتأرجح بين الشفافية والإعتام، من حيث لم يتغير من أمر حالي شيء من بعده رغم محاولاتي، فقد كان دائماً المشكلة بالنسبة لي وكان أيضاً هو الحل، كان مثار الأسئلة وفضاء الأجوبة، فعندما أكون على وفاق معه يكون ذلك الغائب الذي أشعر بطغيان حضوره، وعندما أُقصيه

عن حياتي أجده ذلك الحاضر الذي لا يشقيني إلا غيابه، كل هذا فقط لأني عزمت على أن أراه، فكان هذا العزم هو أثقل ما حملته في طريق السفر.

غير أن هناك ثمة ما حدث ودفعني أكثر إلى أن أتعجل في سفري إلى لندن، كان في البدء خبراً سيئاً نما إلى علم الجميع، بعد فترة لا تتعدى ثلاثة أسابيع من عودتي إلى الرياض، وكان مفاد الخبر أن شقيق (هند) الأكبر الأمير (ناصر) مرض بشكل مفاجئ وأصبح في حالة صحية صعبة وحرجة، الأمر الذي استدعى نقله على الفور بطائرة ملكية إلى مستشفى متخصص في الولايات المتحدة، ولكن وبعد مرور عدة أيام تضاربت فيها الأخبار حول حالتــــه، جاءنا الخبر الأكيد بوفاته إثر إصابته بذبحة قلبية مفاجئة، وطبعاً هذه كانت الصيغة الرسمية التي قرر الديوان الملكي في الرياض أن تُنشر، أو بالأصح فقد كانت هذه هي القصة الرسمية التي نشرت حول حقيقة وفاة الأمير (ناصر)، ولعلك تسأل عما إذا كانت هناك قصة أو حقيقة أخرى؟! أقول لك ومن أجل هذا كنت متعجلة للسفر إلى لندن.

بين واقعة وفاة الأمير (ناصر) وسفري إلى لندن، بقيت قرابة أسبوع في الرياض، استقبلت فيه خالتي (سمية) و(هند) وقد جاءتا مع من جاءوا من لندن حاملين جثمان الفقيد الشاب الذي لم يكن قد أتم الثلاثين من العمر، وبقيت معهما طوال فترة العزاء، وعدت معهما مرة أخرى على نفس الطائرة إلى لندن.

عشية اليوم الذي وصلت فيه إلى لندن، قابلتني شقتي بشوق ولهفة شديدين حتى أني بكيت من شدة ما شعرت به من حرارة الحب الذي بادلتني إياه تلك الشقة، كان كل شيء فيها كما تركته محبباً لقلبي في كل التفاصيل التي من الصعب أن تنسخ ذات يوم من ذاكرتي، ولعلي شعرت في ذلك اليوم بالامتنان لــــ (ماغي) التي لم أجد لها دوراً مهماً في حياتي، إلا في تلك اللحظة التي وجدت فيها الشقة عامرة بدفء الحياة وكأني لم أفارقها للحظة، لقد أحسنت تلك اليونانية أن تفي بوعدها وتتقن عملها.

ومن حيث بدا خط الزمان متصلاً اتجهت صوب حجرتي وأنا أزفر من صدري غبار السفر وأتنفس عطر عُشي ومسكني الحبيب، وبعد ساعات تأمل في غرفتي تذكرت أني لم أبدل بعد ملابسي، وبعد أن قمت بذلك وأنا أسبح في بحر نعيم الألفة والحميمية التي تنشأ بين الدار والانسان، استلقيت على فراش سريري وأنا في غاية السكون، كان ذلك قبل دقائق من اللحظة التي داهمني فيها ما كنت قد عزمت عليه، فهرعت ناحية الخزانة التي أودعت فيها هاتفي المحمول الثاني، لم يكن هناك وقت لأن أنسى أين

كنت قد خبأت مفتاحها، وعلى عجل حصلت على المفتاح وفتحت الخزانة واحتضنت الهاتف براحة يدي، وقربته بدعة وحنان من موضع القلب في الصدر، فتحته.. فتشته؟؟؟ ولم يكن فيه شيء غير الصمت مفجوع بطول الأمد، فقد مضت ستة أشهر منذ طلبت من (أنور) أن يتوقف عن الاتصال بي، وامتنعت أنا عن الإتصال به، وبالقسوة المشاعر والحال من بعد هكذا صدمة مؤلمة؟!

كم كنت غبية، عندما ظننت أنه قد يفكر بالاتصال بي، وكأني لم أكن قد عرفته وخبرته، فما كان سيتصل مادمت أنا من طلبت منه إلا يفعل، ومن ثم فلا سبيل أمامي إلا أن أتصل به وأبلغه بأني عدت راغبة في وجوده مرة أخرى في حياتي، ولكن، كيف أقول له ذلك؟ وبأي معنى؟ ألن يثير هذا في نفسه شيء من حيث يجدني بعد كل مرة أطلب منه الرحيل عني أعود وأطلب منه العودة إليَّ؟ أحتاج الأمر مني عدة أيام حتى تمكنت من إتخاذ قرار بالاتصال به، وكم كانت صدمة أخرى عندما حاولت الإتصال به مرات ومرات، ولكنه لم يرد عليَّ في أي مرة منها؟! لماذا؟ لم أكن أحتاج إلى طرح هذا السؤال، وأنا الوحيدة في هذا العالم الذي كان يعرف الإجابة عليه، حينها شعرت بأنها النهاية وأنه ليس أمامي إلا أن اقبل بالأمر الواقع.

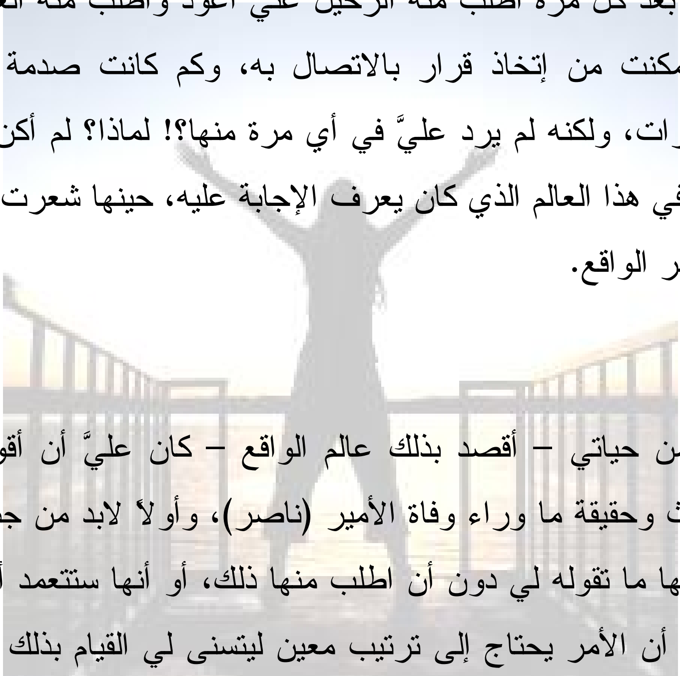

على الضفة الأخرى من حياتي – أقصد بذلك عالم الواقع – كان عليَّ أن أقوم بمهمة أخرى وهي معرفة تفاصيل ما حدث وحقيقة ما وراء وفاة الأمير (ناصر)، وأولاً لابد من جس نبض شقيقته (هند) ومعرفة ما إذا كان لديها ما تقوله لي دون أن اطلب منها ذلك، أو أنها ستتعمد أن تسقط أمر مكاشفتي من بالها، ولعلي رأيت أن الأمر يحتاج إلى ترتيب معين ليتسنى لي القيام بذلك التمهيد، لذا قررت أن أتعذر برغبتي في إخراج (هند) من حالة الحزن التي كانت غارقة فيه، فذهبت لزيارتها في القصر، وبعد أن التقيت بخالتي (سمية) وواسيتها وصبّرتها مع أني كنت على يقين بأن ما قمت به لم يجدي في شيء، استأذنتها بما كنت عازمة عليه، فأذنت لي، بل ورحبت بالفكرة كثيراً..

كانت (هند) في جناحها حيث التقيت بها لأول مرة بعد عودتنا إلى لندن، ولا أعرف لماذا بدا لي ما تقوم به وتحرص على إظهاره من الحزن مصطنعاً ومتكلفاً، ربما لأني لم أعد أثق بما تظهره بعد أن صدمتني بما اكتشفته وكانت تخفيه عني، ومع ذلك تعمدت أن أتصرف وفق ما تتوقعه مني، عانقتها عناقاً خفيفاً، وأجلستها بإيعاز على مهل فوق سريرها، وبعد أن مددت يدي ناحية وجهها لأمسح دمعة

يتيمة سقطت من عينها، تحدثت مرتجلة بكلمات مواساة ورثاء، قبل أن أشعر فجأة بتأثير ما كنت اقوله، عندما خطر على بالي سريعاً ما ذكرني برهبة الموت وعظمة الفقد، فشعرت إثر ذلك بغصة في حلقي، حبست خلفها كلماتي التي كنت أعدها وأنظمها تباعاً، وسرَت في جسدي قشعريرة أرخت لدموعي أن تطلق ركابها وتنساب عبر افلاجها على وجنتَّي، حينها كانت (هند) قد حشرت رأسها في حضني، وبدا الموقف صادق لا يلابسه شك أو تملق.

كنت أنظر في وجه (هند) بعد أن رفعت رأسها أمامي وتخفف شيئاً مما كانت عليه من مظاهر الحزن، وألتمس فرصة سانحة لأستدرجها بما أعياني إيجاده من مناسب القول، فقلت لها:

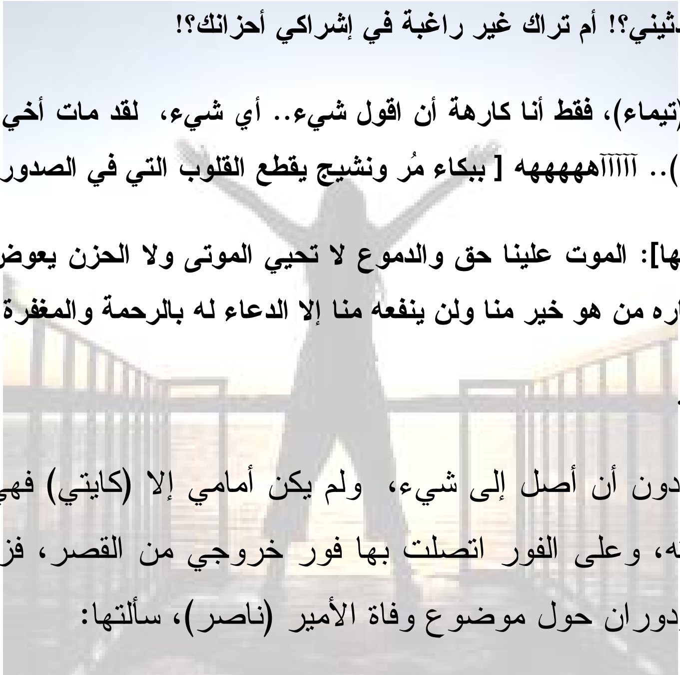

- **(هند)، لما لا تحدثيني؟! أم تراك غير راغبة في إشراكي أحزانك؟!**

- **لا تسيئي الفهم (تيماء)، فقط أنا كارهة أن اقول شيء.. أي شيء، لقد مات أخي (ناصر) يا (تيماء)، (ناصر).. (ناصر).. آآآآآههههههه [ببكاء مُر ونشيج يقطع القلوب التي في الصدور].**

- **[واسيتها قائلة لها]: الموت علينا حق والدموع لا تحيي الموتى ولا الحزن يعوض فقدهم، و(ناصر) أخونا جميعاً اختاره من هو خير منا ولن ينفعه منا إلا الدعاء له بالرحمة والمغفرة..**

- **رحمة الله عليه..**

انتهى لقائي بـــ (هند) دون أن أصل إلى شيء، ولم يكن أمامي إلا (كايتي) فهي التي لا يختفي عليها شيء أن أرادت معرفته، وعلى الفور اتصلت بها فور خروجي من القصر، فزارتني في نفس الليلة، وبعد مراوغات ولف ودوران حول موضوع وفاة الأمير (ناصر)، سألتها:

- **هل تعرفين شيئاً (كايتي)؟ أعني بخصوص وفاة الأمير (ناصر).. ماذا جرى؟**

- **[قالت وهي ترمقني بخبث]: لا تفعلي معي ذلك يا (تيماء) وأدخلي في صلب الموضوع؟؟**

- **بصراحة، يساورني إحساس بأن هنالك سراً وراء موت الأمير (ناصر) المفاجئ، وزاد شكي أكثر عندما قالوا أنه توفي بنوبة قلبية، مع أن الأطباء يقولون بأن الذبحة الصدرية المميتة لا تحدث إلا لمن تجاوز الأربعين من العمر، هل تعرفين شيئاً؟**

- **(تيماء)، وكيف لي أن أعرف أنا ما عساك به تجهلين؟**

- **لا تتلاعبي بأعصابي (كايتي) ووفري حذقك هذا لتمارسيه على غيري، فلا أحد يعرف شيء غير ما قيل.. أنا وأمي وشقيقاتي.. والجميع تقريباً..**

- **حسناً، سأخبرك بشيء يوفر عليَّ عناء تحقيقك هذا معي، كل ما أعرفه هو أن الأمير (ناصر) كان هنا في لندن ليوم أو يومين، وأن المرض داهمه في الطائرة التي كان يفترض أن يعود بها إلى الرياض، قبل أن يقرر هو أن تتجه طائرته إلى أمريكا..**

- **ولماذ غير مسار رحلته؟**

- **هناك من يقول بأن خلافاً عائلياً وقع بينه وبين والديه..**

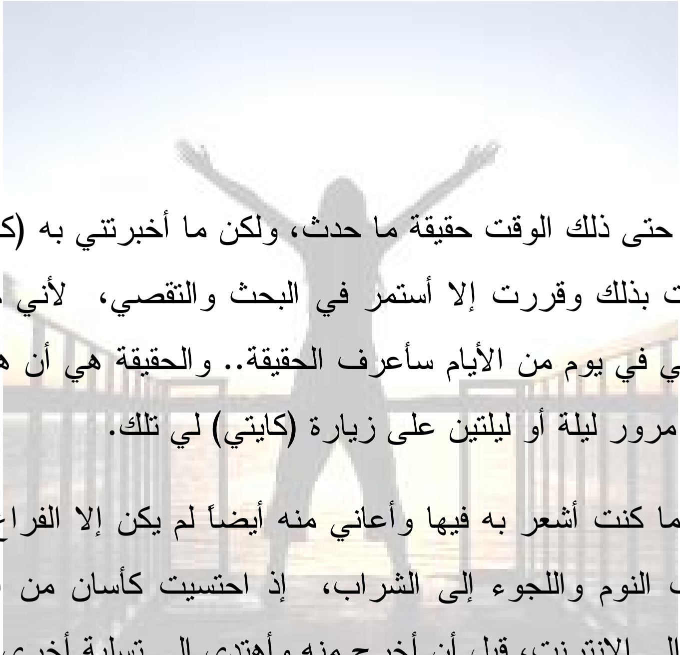

- **ما هو؟**

- **لا أدري..**

صحيح أنني لم أعرف حتى ذلك الوقت حقيقة ما حدث، ولكن ما أخبرتني به (كايتي) أكد إلى حد بعيد صحة شكوكي، فاكتفيت بذلك وقررت إلا أستمر في البحث والتقصي، لأني كنت واثقة بأن ما من شيء سيظل سراً، وأنني في يوم من الأيام سأعرف الحقيقة.. والحقيقة هي أن هناك ما حدث وصرف اهتمامي عن ذلك، بعد مرور ليلة أو ليلتين على زيارة (كايتي) لي تلك.

كانت ليلة عادية، جل ما كنت أشعر به فيها وأعاني منه أيضاً لم يكن إلا الفراغ والملل، الذي لم أجد منه ملاذاً إلا في طلب النوم واللجوء إلى الشراب، إذ احتسيت كأسان من النبيذ الفرنسي العتيق، وتسليت قليلاً بالدخول إلى الانترنت، قبل أن أخرج منه وأهتدي إلى تسلية أخرى، وهي اكتشاف أسرار وطلاسم جهاز الــ (أي باد) الذي كنت قد اشتريته حديثاً أنذاك، فقد كان ذلك الجهاز أخر صرخة في عالم التكنولوجيا، مستعينة في ذلك بكتيب دليل الاستخدام الخاص به..

فجأة، ومن دون سابق انذار، سمعت جرس الهاتف الثاني في الخزانة، ظننت لوهلة أن ذلك مما قد أتوهمه، فنظرت إلى ساعة الحائط وكانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلاً، ولم يكن هذا بالعادة ابداً موعداً، ثم سمعت رنين الجرس مرة أخرى، وبدون أن أتحقق من شيء، التويت بجسدي ناحية الخزانة وأخرجت الجهاز، فكان هناك بالفعل من يتصل بي، ولكنه رقم محلي من لندن، حسبته اتصال بالخطأ، ولكن الأمر تكرر على نحو مثير للاستغراب، مما دفعني إلى مخالفة عزمي على تجاهل ذلك وعدم

الرد، وبمجرد ما أن رن جرس الهاتف وتحققت من أنه الرقم نفسه، ضغطت على زر الاجابة، ولم تكن تلك لحظة قد مضت قبل أن يأتيني صوته، نعم، صوت (أنور) نفسه.. لا أحد سواه من الطرف الآخر، قائلاً لي:

- **(تيماء).. أنا (أنور) أنا معك على الخط..**

- **(أنور)؟؟**

- **نعم.. نعم، أنا (أنور) ألم تتحققي بعد من صوتي؟؟**

- **بلى، أعرف صوتك، ولــ.. من أين تتصل؟**

- **أنا هنا في (لندن)..**

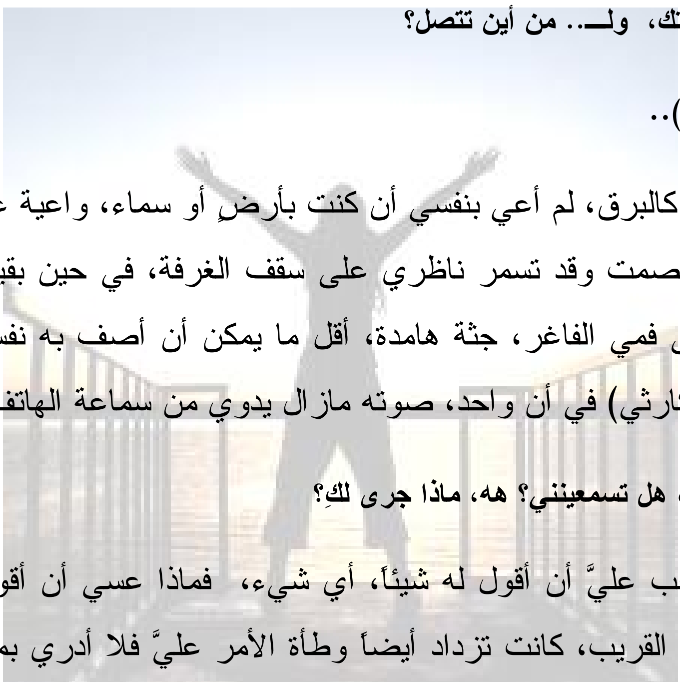

حلت كلماته على قلبي كالبرق، لم أعي بنفسي أن كنت بأرضٍ أو سماء، واعية عالمة أو واهمة حالمة، فلم أحره جواباً غير الصمت وقد تسمر ناظري على سقف الغرفة، في حين بقيت أثار شهقة كنت قد أطلقتها عفواً ثابتة على فمي الفاغر، جثة هامدة، أقل ما يمكن أن أصف به نفسي في تلك اللحظات، ياله من خبر: (سار وكارثي) في أن واحد، صوته مازال يدوي من سماعة الهاتف..

- **آلووو.. (تيماء)، هل تسمعينني؟ هه، ماذا جرى لكِ؟**

كنت أحدث نفسي: "يجب عليَّ أن أقول له شيئاً، أي شيء، فماذا عسي أن أقول؟" وكلما كنت أسمع صوته القادم من البعيد القريب، كانت تزداد أيضاً وطأة الأمر عليَّ فلا أدري بماذا أجيب، وكلما طال الوقت عليَّ ازدادت سرعة أنفاسي ونبضات قلبي.. يالله، ألهمني ما أقوله، يالله.. واستجاب الله لدعائي على الفور، وشعرت بالكلمات تخرج من فمي تلقائياً وأنا أقول له:

- **نعم، نعم، لازلت معك على الخط، اسمح لي ببضع دقائق وسوف أتصل بك..**

- **لا تهتمي لأمري.. المهم أن تكوني أنت بخير.. [قال لي].**

- **اطمئن سأكون بخير، فقط أمهلني بضع دقائق وسوف أتصل بك؟**

- **نعم، هذا رقمي ويمكنك الإتصال بي متى ما شئت.. متى ما شئت.**

- **شكراً..**

أنهى اتصاله على الفور، ولبضع دقائق أو ساعات – لم أدري- أم بضع سنوات، تشبه الغيبوبة تلك التي كانت حالتي، لم أدرك شيء في تلك المسافة القصيرة أو الطويلة من محيط الوقت، إلا إنني كنت لا أزال ممسكة بالهاتف، كانت خيوط أشعة الشمس مشرقة قد بدأت تتسابق في الوقوع على الأشياء على امتداد مساحة حجرتي، ورأسي ثقيل للغاية، وأصعب من كل شيء أن أفتح عيناي، فركت بكلتا يداي وجهي ومحاجر عيناي، بينما كان ذهني يجتهد في استدراك ما تبقى من أخر ما حدث ووعيت به، قبل أن أغرق في برزخ الغياب ذاك الذي أفقت منه، لم أعرف حينها ما الذي يجب عليَّ فعله، مع أن ما غاب عن بالي بأسرع من لمح البصر كان قبل ذلك على ناصية إدراكي المتصل بذاكرتي، والتي كانت أشبه ما تكون بشرارة كانت لاتزال طائرة في أفق الرؤية، وقبل أن أحس بحاجتي إليها انطفأت وتلاشت أو انسربت لا شيء في كنه الغبار، الذي كنت أرى بوضوح ذراته وهي تسبح في مجرى الضوء وهو يشق ما تبقى من العتمة..

حاولت أن أنهض، فلم أقوى على ذلك إلا بعد أن جعلت من يداي دعامتين حتى أصبحت جالسة فوق السرير وساقيّ ممددتين بلا حراك، فأفزعني ذلك الخاطر بصيغة (لو).. أنني أُصبت بالشلل، والمسافة بين ظهري وما أردت أن أستند إليه كانت تتطلب مني جهداً لردمها، ولعدة كرَّات اجتهدت من أجل أن أكون بوضعية مريحة، وإن لم يكن بمقدوري بلوغ ذلك الإحساس بالارتياح..

راودني في تلك اللحظة، شعور الشخص بأنه ربما أضاع شيئاً أو افتقده، كل ذلك كان كافياً لشحذ إحساسي بالغيظ والغضب، لماذا كل هذا العناء؟ عثرت أخيراً على جهاز الهاتف الذي كان قد اختبأ في ثنيات غطائي، الذي سحبته من تحتي وكوَّمته وألقيت به جانباً، حملقت في جهاز الهاتف، فشعرت برعدة شديدة في جسدي وانتفاضة عارمة في قلبي، ودربكة صاخبة في أنحاء كياني، فقد كنت حتى تلك اللحظة في نصف استفاقة مني، عندما توهجت شاشة الهاتف لتعلمني برسالة واردة، كان قد كتب لي رسالة نصية، هي ذي:

الليل مساحة مسروقة من وطني

والنهارات انعكاس أحلامي

وعلى سمت الوجود

وقائع بطولات في دفاتر الزمن

البسملات حواجبي

ونظراتي الحروف مقطعات في فواتح السور

نبضات قلبي آيات

وكل أنفاسي عهود مقدسة

أحملها وتحملني

تنأى عن كل صفات العشق مشاعري

ليس إلا الحب مجرداً

من كل المعاني والدلالات

يزفني في موكب الأمنيات،

في الطريق إليك، كيفما كانت

الفصل الخامس عشر

لقاء ووعد

كانت الساعة السادسة صباحاً، عندما قررت أن أفزع (كايتي) باتصال، وأن أفزعها أكثر عندما تعرف أني من يتصل بها في تلك الساعة المبكرة، أجابت وهي فزعة بالفعل بلغة عربية انجليزية،

- **(Yeeees)، نعم.. آلوو.. (تيماء)**
- **(كايتي)، لا تفزعي هذه أنا (تيماء).**
- **[سمعتها تطلق انفاسها]: ما الأمر؟؟!**
- **ليس هناك ما يدعو إلى القلق صدقيني، فقط أريد أن ألتقي بك الآن وبأسرع وقت ممكن، سأتحرك الآن باتجاه شقتك، وحبذا لو تكوني جاهزة للخروج حال وصولي..**
- **ماذا هناك؟؟ ولما كل هذه العجلة، أخبريني؟**
- **عندما نلتقي.. عندما نلتقي.. مع السلامة.**

كان من الضروري في ذلك الوقت أن أخبر (كايتي) بكل شيء، إذ لم يكن أمامي خيار أخر، فقد كنت في أشد الحاجة إلى مساعدتها، فهي وحدها من كان بإمكانه مساعدتي، أخذت معي جوالي الثاني ضمن

أشيائي الأخرى، وخرجت من الشقة، وما أن ركنت سيارتي قبالة بوابة العمارة التي تقع فيها شقتها، اتصلت بها وطلبت منها أن تنزل إلى الشارع، وبعد وقت قصير، رأيتها تحث الخطى مسرعة، كما أنها أسرعت أكثر بمجرد ما أن لمحتني في السيارة بانتظارها، وقبل أن تغلق باب السيارة وتُحسن جلوسها بجواري، سألتني بخوف وفضول ولهفة، وبسوء ظن أيضاً:

- **ماذا هناك؟؟**

قلت لها وأنا أنظر إليها مبتسمة وأنتظر منها أن تغلق باب السيارة:

- **ما بك؟؟**

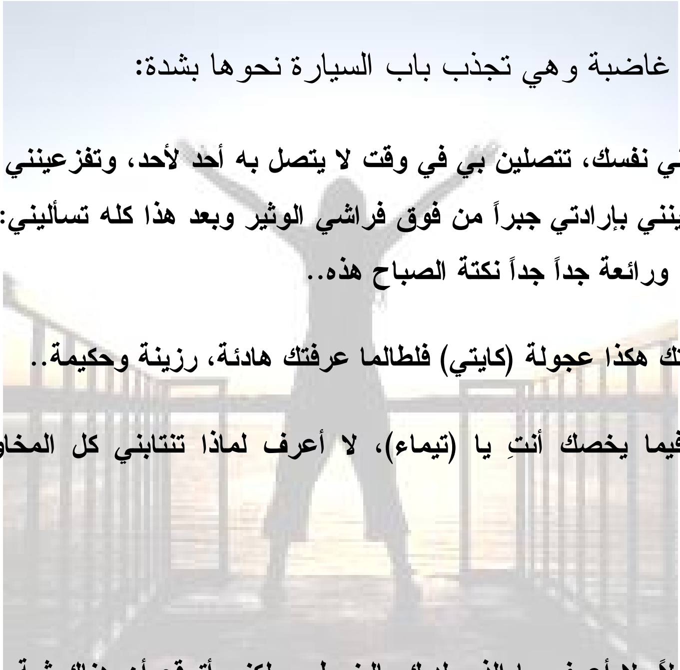

سألتها، فأجابت بلهجة غاضبة وهي تجذب باب السيارة نحوها بشدة:

- **تسأليني أنا؟؟ سلي نفسك، تتصلين بي في وقت لا يتصل به أحد لأحد، وتفزعينني وتحرمينني من أهنأ منام، ثم تختطفينني بإرادتي جبراً من فوق فراشي الوثير وبعد هذا كله تسأليني: ما بي؟ رائع، رائع جداً هذا الصباح، ورائعة جداً جداً نكتة الصباح هذه..**

- **غريب!! ما عهدتك هكذا عجولة (كايتي) فلطالما عرفتك هادئة، رزينة وحكيمة..**

- **[قاطعتني]: إلا فيما يخصك أنتِ يا (تيماء)، لا أعرف لماذا تنتابني كل المخاوف وتظهر بي كل المساوئ..**

- **أوووف.. ولما؟**

- **(تيماء)، كفى هزلاً، لا أعرف ما الذي لديك بالضبط، ولكني أتوقع أن هناك ثمة ما حدث، ومن المهم جدا بالنسبة لك أن تخبريني بشأنه، وإلا لما أنتِ هنا..**

- **نعم، هناك شيء من هذا القبيل، لكنه لا يستدعي أن تكوني قلقة بتاتاً، أو أن تذهب بك الشكوك والمخاوف بعيداً، هناك بالفعل ما أود اطلاعك عليه، ولأنني من طرق بابك من أجل ذلك فأخبريني أين أفضل مكان في لندن يمكن أن نجلس فيه معاً في هذا الصباح الرائع والجميل.**

- **صباح رائع وجميل، أي أمر طارئ ومهم هذا الذي لم يحرمك من متعة الشعور بروعة الصبح وجماله؟؟ ءأنت واثقة..**

- **[بابتسامة توحي بالسعادة]: (Suuuuuure) ألم اقل لك كوني مطمئنة؟؟**

- حسناً، لننظر خاتمة هذا كله، انعطفي يساراً نحو (Kings Road) وسيري باتجاه منطقة (Victoria) فهناك على ضفة النهر مقهى رائع يفتح (24) ساعة ويمكن أن نجلس فيه..

في مقهى (The Mather Queen) المطل على النهر جلسنا، وحكيت لــ (كايتي) القصة كلها من الــ (أ) إلى الــ (ي) كما يقولون، وبعد أن أسمعتني ما سمعته منها، من عبارات اللوم والعتاب، قلت لها:

- دعك من هذا كله، فهو الآن هنا في لندن ينتظر أن اتصل به في أية لحظة، فما رأيك؟؟ ما العمل؟؟،

- [سألتني بجدية]: هل هي علاقة حب؟؟

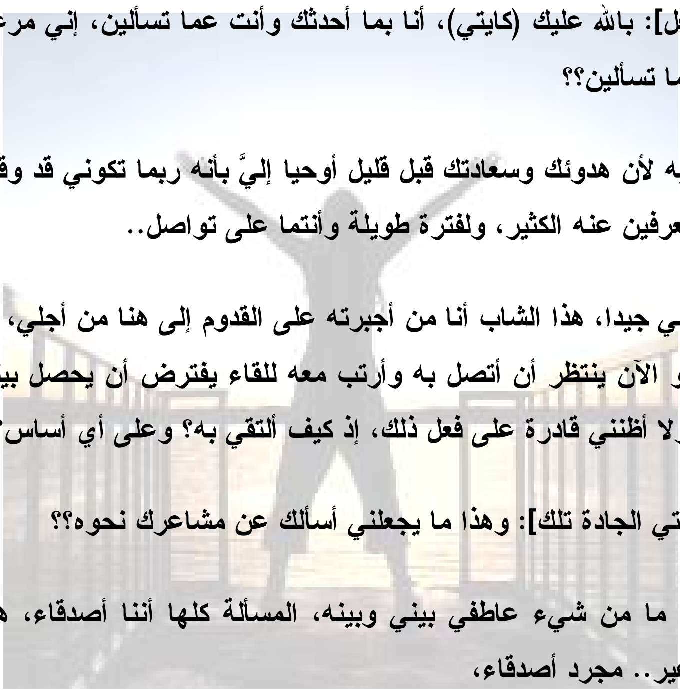

- [بضجر.. وتشاغل]: بالله عليك (كايتي)، أنا بما أحدثك وأنت عما تسألين، إني مرعوبة من فكرة لقاءه حقاً، فأين هذا مما تسألين؟؟

- أبداً، سؤالي وجيه لأن هدوئك وسعادتك قبل قليل أوحيا إليَّ بأنه ربما تكوني قد وقعت في حبه، خاصة وأنك قلت بأنك تعرفين عنه الكثير، ولفترة طويلة وأنتما على تواصل..

- اسمعيني وأفهميني جيدا، هذا الشاب أنا من أجبرته على القدوم إلى هنا من أجلي، وأنا من أرسلت إليه أطلب لقاءه، وهو الآن ينتظر أن أتصل به وأرتب معه للقاء يفترض أن يحصل بيني وبينه، وأنا والله مرتبكة وحائرة ولا أظنني قادرة على فعل ذلك، إذ كيف ألتقي به؟ وعلى أي أساس؟؟

- [قالت بنفس لهجتي الجادة تلك]: وهذا ما يجعلني أسألك عن مشاعرك نحوه؟؟

- صدقيني (كايتي) ما من شيء عاطفي بيني وبينه، المسألة كلها أننا أصدقاء، هكذا اتفقنا أن نكون أصدقاء فقط لا غير.. مجرد أصدقاء،

- حسناً، دعيني أفكر بالأمر قليلاً أرى ما يمكننا عمله..

هناك في ذلك المقهى، تناولنا إفطاراً خفيفاً وشربنا القهوة، في حين كنت أنتظر من (كايتي) أن تسعفني بحل للمعضلة التي وقعت فيها، وبالطبع، فقد تغير حالها وموقفها بعد أن عرفت بالأمر، وأظهرت ما عهدته من هدوئها واتزانها، مما طمأنني قليلاً، وبعد أن فرغنا من الأكل، نظرتُ إلى الساعة بقلق

وتوتر فوجدتها تشير إلى ما بعد أكثر من نصف الساعة من تمام الثامنة صباحاً، بينما رأتني هي أفعل ذلك، وأظنها فهمت أني أردت أن أستعجلها، فسألتني:

- **هل تتوقعين أن يكون الآن مستيقظاً؟**

- **وما أدراني أنا؟**

- **أريد أن أتصل به، أقصد أن تتصلين به، لنرى أين هو وكيف وأين يتوقع منك أن تلتقين به، هذا كل شيء، ولتفعلي ذلك الآن لنعرف إذا كان كما تقولين يتوقع وينتظر إتصالك في أي لحظة، أم لا؟**

- **حسناً..**

اتصلت به فوجدته يقظاً تماماً، فشجعني ذلك أن أسأله عن موقعه، فأخبرني أنه مكان ما أعرفه في وسط المدينة، وكما علَّمتني (كايتي) قلت له بأني سأكون في نفس المكان بعد أقل من نصف ساعة، وأن ينتظر قدومي هناك، فيما كانت خطة (كايتي) بعد ذلك أن تذهب هي بدلاً عني، ونفذنا الخطة بالفعل، حيث ذهبت هي إليه وبقيتُ أنا على مبعدة منهما أراقب ما يجري من حيث لا يدري هو بشيء..

كان من حيث كنتُ قادرة على رؤيته، شاباً جالساً بمفرده في ركن المساحة الخارجية للمقهى الشهير الذي يقع في محيط ساحة (Trafalgar)، رأيته عندما لاحظ اقتراب (كايتي) منه، وهي على ما بدا لي ترسم ابتسامة على محياها، ولعلي أجزم بأنها كانت تنظر إليه مباشرة وكأنها كانت قد عرفت أنه هو المقصود.

أثناء سيرها صوبه، وبمجرد أن أصبحت على مقربة منه، نظرت إليه وهزت رأسها هزة خفيفة تومأ له بأنها من ينتظر قدومها، كما فهم هو ذلك فوقف منتظراً وصولها، ثم تحرك وخطا خطوتان أو ثلاث باتجاهها، وأطلق عدة عبارات للترحيب بها، في نفس اللحظة التي مد يده فيها مصافحاً إياها، ظلا لبرهة واقفان، قبل أن يسارع هو ليهيئ لها مقعدها الذي جلست عليه، ثم عاد فجلس على مقعده قبالتها، كان هذا ما أمكنني رؤيته، أما ما حدث بعد ذلك فقد أخبرتني به (كايتي)..

قالت لي أنه بعد أن قابلها بترحاب وابتسامة هادئة، صمتَ قليلاً وأطرق رأسه، وهو واضع يديه على سطح الطاولة ومشبكاً أصابعه، لكنه بعد ذلك عاد ورفع رأسه ونظر إليها وسألها:

- **لماذا لم تأتي؟؟**

باستغراب ودهشة أجابت (كايتي):

- **(Sorry!!)..**

أردفت بعدها بلهجتها العربية:

- **عفواً، لم أفهم سؤالك؟**

- **سألتك عن (تيماء)، لماذا لم تأتي؟**

- **آسفة، ولكنك لم تراني أو تعرفني من قبل أن كنت أنا بالفعل (تيماء) أم أخرى غيرها، فما الذي يجعلك تظن بأنني لست هي؟**

- **عفواً، ولكن لا شيء مما أراه يوحي لي بأنك هي، كما أني أستطيع أن أشعر بـــ (تيماء)، ولربما أنها أرسلتك لمقابلتي بالنيابة عنها..**

- **وكيف تثق بما تشعر به؟ ربما أنك بمجرد أن رأيتني اكتشفت بأني أقل جمالاً وأكبر سناً مما كنت تتوقع أن أكون عليه، أو ربما أنني لست من النوع الذي تفضله، لا؟**

- **[مبتسماً وواثقاً]: لا، ليس صحيحاً، ومازلت مصمماً على أنك لست تلك التي جئتُ للقائها هنا في لندن، وأتمنى إلا يطول أمد هذا العرض، وبالمناسبة أنتِ امرأة جميلة ولا يبدو عليك كبر السن كثيراً، وتعرفين ذلك، كما أنك تجيدين الحديث بالعربية، ولكن برجاء أن نتجاوز هذه المقدمات، ولنتكلم عن المهمة التي جئت من أجلها، فما هي الرسالة التي تحملينها إليَّ من طرف الآنسة (تيماء)؟**

أدركت (كايتي) أنه ما من مفر أمامها، إلا أن تفعل كما قال وتكشف عن نفسها، وأيضاً أن تبتكر رسالة يفترض أن تحملها مني إليه، وتقدم له تفسيراً لما يجري، فقالت له:

- **في الحقيقة.. نعم، أنا لست هي، فقط اسمح لي أن أعرفك بنفسي، أنا (كيث بروان) ولكن (تيماء) تناديني بـــ (كايتي).. فأنا صديقتها المقربة..**

- **تشرفت بك.. وأنا (أنور) صديق (تيماء) عن بُعد..**

- **أووه نعم، لقد حدثتني (تيماء) عنك كثيراً سيد (أنور)، وحكت لي قصة العلاقة التي نشأت بينكما عن طريق الهاتف والانترنت، وأعجبتني بشدة، إلى درجة أني رغبت فعلاً في التعرف عليك..**

- **أشكرك..**

- **صحيح، كان يفترض أن تأتي هي بنفسها للقائك، لولا أن طرأ ما منعها من ذلك، لذا كلفتني بالمجيء إليك وإبلاغك شديد اعتذارها..**

- **غريب!! مع أنها اتصلت بي من نصف ساعة أو أكثر قليلاً وأكدت لي بأنها ستأتي بالفعل، فما الذي حدث؟**

- **كما أخبرتك، ولن أنسى أنها أوصتني بالقيام بواجب الضيافة معك، طبعاً دون أن يكون لديك أي حق بالرفض أو الإمتناع، ريثما تتمكن هي من الإلتقاء بك في وقت لاحق..**

- **لا أفهم بالضبط ما الذي يجري؟ ولكن هلّا أسديتني معروفاً؟**

- **بكل سرور.. قُل ما تريد؟**

- **أرغب في التحدث إليها ولكني بعد ما حدث حتى الآن لا أرى أنه سيكون من المناسب أن أتصل بها، خشية أن أتسبب لها بالحرج، فاتصلي بها أنتِ الآن وابلغيها برغبتي في التحدث إليها لو سمحتِ..**

- **لك هذا.. فقط أستأذنك قليلاً وسأعود..**

اتصلت بي (كايتي) وأخبرتني بما طلب منها، فطلبت منها أن تعود إليه وتعطيه الهاتف لأتكلم معه، قال لي:

- **من المؤكد أنني تسببت لك بمشكلة وجعلتك في موقف حرج حتى امتنعتِ عن المجيء، ولكن يجب أن تكوني واثقة من أني هنا في لندن من أجلك كما فهمت ذلك من رسالتك الأخيرة، وليس لأي سبب أخر.**

- **[بحرج وحياء]: أعرف ذلك (أنور)، ولكن صدقني فقدومك بالنسبة لي كان مفاجأة لم أتوقعها مطلقاً، ولم يكن من السهل عليَّ أن آتي للقائك، قبل أن أحظى ببعض الوقت لأتمكن من ذلك فعلاً، وأرجو لو أنك فقط عذرتني..**

- **وهل يسعني غير ذلك..**

- حسناً، أرجوك دع (كايتي) تقوم بما كلفتها به من واجب ضيافتك ولا تمتنع عن شيء مما ستقوم به، اتفقنا..

- على عيني، حاضر؟؟

قامت (كايتي) بعد ذلك بنقله من حيث كان قد استقر، وحجزت له جناحاً في فندق أخر قريب من منطقة سكني في (My Fair)، بينما عدت أنا إلى شقتي وانتظرتها هناك، حتى جاءت هي إليَّ في منتصف نهار ذلك اليوم، فقد كان من المهم جداً بالنسبة لي، أن أسمع منها وأعرف رأيها وانطباعها عن الرجل الذي قابلته، هذا بالتأكيد بعد أن تخبرني بالتفصيل الممل ما دار بينها وبينه، ولذا سألتها بمجرد انتهائها من سرد ما جرى بينهما:

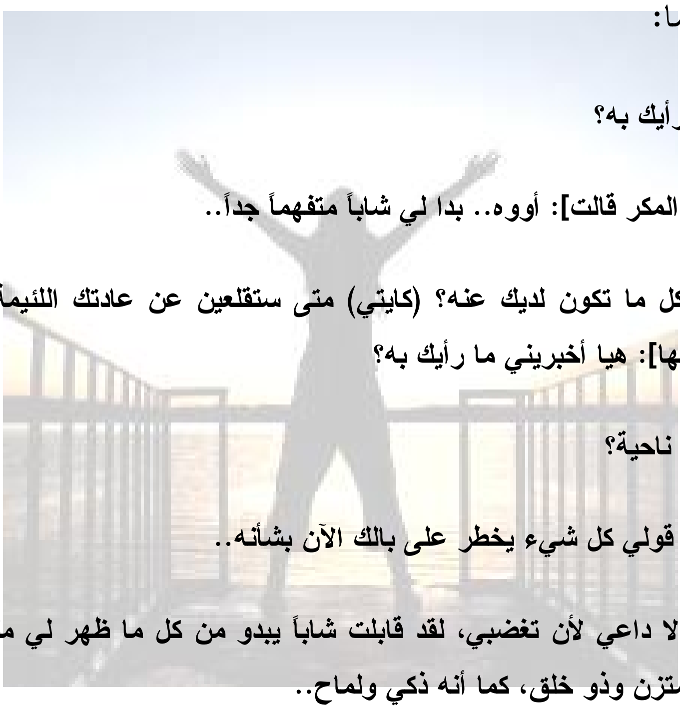

- هه (كايتي)، ما رأيك به؟

- [بتورية تنم عن المكر قالت]: أووه.. بدا لي شاباً متفهماً جداً..

- هذا فقط؟! هذا كل ما تكون لديك عنه؟ (كايتي) متى ستقلعين عن عادتك اللئيمة هذه؟؟ [ثم بصوت عالي قليلا قلت لها]: هيا أخبريني ما رأيك به؟

- رأيي به، من أي ناحية؟

- من كل النواحي، قولي كل شيء يخطر على بالك الآن بشأنه..

- حسناً.. حسناً.. لا داعي لأن تغضبي، لقد قابلت شاباً يبدو من كل ما ظهر لي منه وأظهره هو، إنه شخص ناضج ومتزن وذو خلق، كما أنه ذكي ولماح..

- [قاطعتها]: والشكل؟ ماذا عن شكله؟

- [بأسلوبها الخبيث أبدت تعجبها من سؤالي]: وفيما يهمني أنا شكله؟!

- [قلت لها متضجرة]: كاااااايتي؟؟؟؟

- حسناً، في الحقيقة أنا لم أمعن النظر إلى وجهه، ومع ذلك فهو ليس بالوسيم ولكني لم أراه قبيحاً، يمكن أن تقولي أنه مقبول الشكل..

- مقبول الشكل!! وماذا بالنسبة للقاءي به؟ ماذا تقترحين عليَّ؟

- أقترح أن تلتقين به.. فما من سوء في ذلك..

- أفهم من كلامك أنك تشجعينني على ذلك؟

- ولما لا؟ فلن يكون بوسعي أن أمنعك إذا أردت فعل ذلك..

(الخبيثة الماكرة) - كما اعتبرتها في ذلك الوقت- كنت أعرف بأنها تتلاعب بأعصابي، وتختبر ردود افعالي، لتتأكد من حقيقة مشاعري ناحية (أنور)، فقد اعتقدت أني ربما كنت واقعة في غرامه، لم تكن تعرف بأن هذه المسألة بالذات لم تكن واضحة لي أبداً قبل ذلك، ومع ذلك فكل ما كان يشغلني حينذاك، هو كيف سيكون لقائي به وأين ومتى؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تدور حول ذلك، إذ كان لابد من ترتيب حدوث ذلك اللقاء شئتُ أم أبيت أنا، فبعد قدومه إلى لندن لهذا السبب، لم يكن من اللائق أبداً أن أخذله.

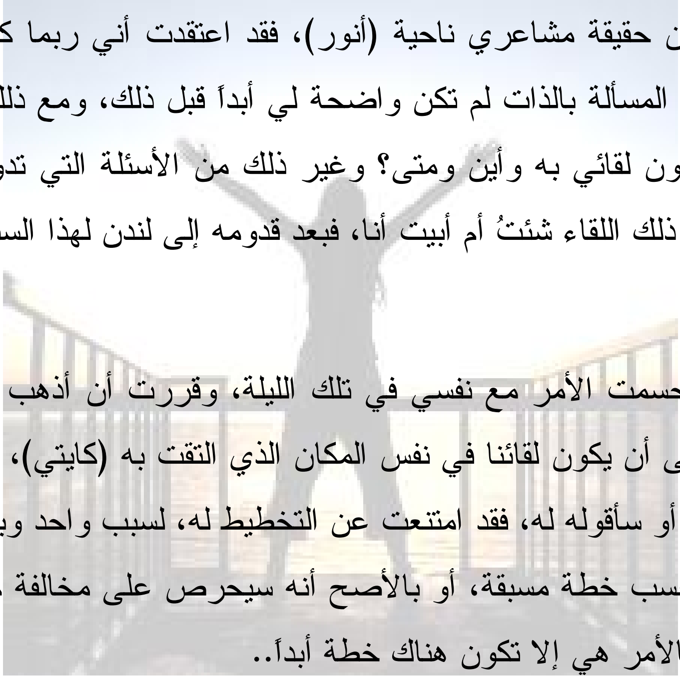

المهم أني وبعد تردد حسمت الأمر مع نفسي في تلك الليلة، وقررت أن أذهب للقائه في صباح اليوم التالي، واتفقت معه على أن يكون لقائنا في نفس المكان الذي التقت به (كايتي)، حصل هذا الاتفاق قبل أن أفكر فيما سأقوم به أو سأقوله له، فقد امتنعت عن التخطيط له، لسبب واحد وبسيط وهو أنني أعرف بأن الأمور لن تسير حسب خطة مسبقة، أو بالأصح أنه سيحرص على مخالفة كل توقعاتي، لذا رأيت أن أفضل خطة للقيام بالأمر هي إلا تكون هناك خطة أبداً..

في الصباح، حرصت على الاستيقاظ مبكرة، فصحوت قبل الموعد بساعتين، ارتديت ملابساً متواضعة- في الحقيقة لم تكن متواضعة أبداً- ولكني حرصت على ألا أكون مبالغة في الأناقة أو متكلفة بالزينة، واتجهت صوب المقهى، وفور وصولي لمحته جالساً في نفس المكان، فتعمدت أن يكون مجيئي إليه من الخلف، وفعلت ذلك ولم يكن إلا أن رآني وقد أصبحت واقفة أمامه مباشرة، أما هو فلم يستغرق كثيراً حتى أدرك ما حدث فنهض من فوق مقعده على عجل، وقبل أن ينتهي من رسم ابتسامته، قلت له بلهجة جافية لم أكن أتوقع أن أكلمه بها:

- **هاءنذا.. (تيماء)..**

- **[تجاهل الأمر وقال]: (تيماء)؟؟ هذه أنتِ.. صحيح؟ صباح الخير..**

مد يده لمصافحتي فامتنعت عن ذلك وأنا لا أزال واقفة، فتجاهل الأمر مرة أخرى، وسارع إلى تهيئة المقعد لي، فلم يجلس حتى جلست، عاد وجلس قبالتي، حينها شعرت بالحياء والخجل، ما منعني من النظر إليه، فقد كان تصرفي معه في أول لقاء بيننا غير لائقاً، بينما كان هو ينظر إليَّ والبسمة لم تغادر وجهه، حتى عندما تشاغل بأمر طلب شيء لنا، وهو يسألني:

- **ماذا تشربين؟؟**

- **[بنبرة أقل جفاءً والحياء يغمرني قلت له]: أي شيء.. لا يهم.**

طلب لنا قهوة تركية، وانتظر حتى أحضرها لنا النادل، رأيته يقرب فنجاني ناحيتي أكثر، ثم رفع فنجانه وارتشف عدة رشفات منه، لوقت أمكنني فيه أن أرفع نظري إليه سريعاً وأعود إلى ما كنت عليه، علق هو بعد ذلك:

- **أنا أشربها ساخنة، وأنت ألا تشربين قهوتك؟؟**

كان يريدني أن أفعل، ولعلي فهمت من أجل ماذا أراد ذلك، فقد شعرت حينها بأن طريقتي تلك ستكشف عن ضعف ما بي، أو تجعلني في موقف الطرف الأضعف، وكان من الأفضل أن أستعيد شجاعتي، فبدأت بشرب القهوة، وأنا أتهرب من النظر إليه حتى فاجئني قائلاً:

- **(تيماء)، أنظري إليَّ، فأنا لم آتي لخطبتك ولا أنوي فعل ذلك حتى!!!**

أخجلني الجزء الأول مما قاله إلى حد لا يوصف، حتى أني رغبت بالإنصراف خجلاً، لكن عبارته الأخيرة أغاظتني وجعلتني أمعن في استشعار غضبي عليه بطريقة شجعتني على الكلام، فرفعت له رأسي ونظرت في وجهه مباشرة وقلت له بنبرة جادة:

- **أسمع (أنور)، لا أريدك أن تسيء فهمي في هذا الوقت، فأنا لست معتادة على مثل هذه اللقاءات، وأؤكد لك أن هذه هي المرة الأولى التي تهيأ لي فيها لقاء مثل هذا، أقصد مع رجل، لذا فكل ما يصدر مني الآن ليس إلا من أجل ذلك..**

شعرت بأن ما قلته يتضمن اعتذار أو ما شابه، لكنه جعل كلامه في وجهة أخرى غير التي كان إليها كلامي، إذ قال:

- **عندما قرأت رسالتك، شعرت بأنك تواجهين ظروفاً صعبة أو شيئاً من هذا القبيل. صحيح أني لم أتمكن بعدها من الإتصال بك، لأني احترت ولم أعرف ما الذي يمكنني القيام به، حتى قررت أن أعمل بموجب ما جاء في تلك الرسالة حرفياً، ومن أجل هذا جئت إلى لندن، وأخشى أني وصلت متأخراً..**

- **وأنا أقدر لك مجيئك إلى هنا من أجلي، ولكن صدقني فالأمر لم يكن كما كنت تظن، ربما كتبت تلك الرسالة في لحظة تأثر..**

- **قد يكون هذا صحيحاً، ولكن هذا لا ينكر أنك كنتِ راغبة بلقاء مثل هذا يجمع بيننا.. أوليس كذلك؟؟**

- **[قاطعته وسألته بعيداً عما كان قد سألني]: (أنور)، ماذا تعرف عني؟!**

- **[بدون استغراب]: لا شيء أكثر مما أخبرتني به أنت عن نفسك؟؟!**

- **وهل يكفي ذلك بغض النظر عن كوننا كنا على اتصال لأن تتجشم عناء المسافات وتكاليف السفر من أجل أن ترى شخصاً لا تعرفه إلا كما أخبرك هو عن نفسه، ودون أن تتحقق من كونه كان صادقاً معك أو كاذباً؟ هل هذا منطقي؟!**

- **آسف (تيماء)، ربما ساورتك الظنون بي بسبب قدومي للقياك هنا في لندن، فظننت أنه قد يكون لي من وراء ذلك هدفاً أو غرضاً أو لحاجة في نفسي..**

- **ولما لا؟ أولم تكن أنت أيضاً ترغب بلقائي؟**

- **في الحقيقة، نعم.**

- **إذن، كلانا سواء..**

- **لست مضطرة لقول أي من هذا، فبالنسبة لي يكفيني أني ألتقيت بك وحسب، وأنا واثق من أنني سأكون راضياً كل الرضا إذا انتهي الأمر كله بانتهاء هذا اللقاء العابر..**

كان جاداً فيما قاله، فشعرت بأنني أفسدت الموقف كله، فلم أدري ما أقول له بعد ذلك، كما كان من الصعب عليَّ جداً أن أستمر معه على ذلك النحو الذي لم تكن تطاوعني نفسي عليه، لذا ارتأيت أنه من

الضرورة أن ألطف الجو قليلاً، وأن أتخلى عن ذلك الكبرياء الذي كان واضحاً من طريقة حديثي معه، فقلت له وأنا جازمة وصادقة:

- **أنا آسفة، أعرف أني أبدو لك الآن على غير ما كنت عليه عندما كنا نتواصل عن بعد، ولكني...**

- **[قاطعني وهو واثق بأنه يعرف ما يدور في ذهني حينها وقال]: ولكنك خائفة من أن أعرف حقيقة من تكونين؟**

انتظر أن أقول أنا شيئاً، ولما تحقق من أني لا أميل إلى ذلك أردف قائلاً:

- **سبق وأن أكدت لك بأن هذا لم ولن يكون ضمن اهتماماتي، وبأني لن أطلب منك ذلك، أما إذا رغبت أنت فهذا موضوع أخر، يجب أن تكوني واثقة من ذلك..**

- **(أنور)، لا أنكر ابـداً أني ارتحت لك وأعجبـتُ بكل ما عرفتــه عنك ومنك، ومن المناسب الآن أن أعبر لك عن جزيل شكري وامتناني لما قدمته لي وساعدتني في الوصول إليه، كما لا أنكر صدقك واخلاصك، ولكن الأمر فيما أعتبره مشكلة يتعلق الآن بي وليس بك وهذا ما أريد أن تفهمه، لا أعرف كيف أقوله لك بشكل واضح، ولكني أعول على قدرتك دوماً على فهم حقيقة ما يدور في نفسي..**

- **كنت واثق من أنني سببت مشاكل كثيرة لك، ولهذا كان لابد من أن أراك، لعل هذا سيساعدك في تجاوز ما يمكن أن أكون قد سببته أنا لك، ولربما أني فطنت إلى جوهر المشكلة بالنسبة لك، والذي قد يكمن في كونك لم تستوعبي جوهر العلاقة التي نشأت بيننا بشكل واضح، وهذا ما أوقعك في دائرة الالتباسات التي قد تثير شكوكك ومخاوفك إزاء وجودي في حياتك، كما وأن ابتعادي عنك لن يحل المشكلة، أليس هذا صحيحاً؟**

- **بصراحة، قد يبدو الأمر على نحو من هذا الذي قلته للتو..**

- **حسناً، وماذا تتوقعين أن يكون الحل في هذه الحالة؟**

- **لا أعرف بالضبط؟**

- **(تيماء)، هاءنذا أمامك الآن مباشرة فماذا تريدين مني أن أفعل؟؟**

- **[نظرت إليه وأنا أنكر عليه ما سألني]: هل أنت جاد بطرح هذا السؤال لي؟**

- **نعم، ولكن من الزاوية التي يفترض أن ننظر منها إلى الواقع معاً، فالحل لن يكون من طرف واحد، بل يجب أن نصنعه نحن –الاثنين– معاً..**

- **أنت تقول هذا فقط لأن المشكلة تتعلق بي، أما أنت فلا مشكلة لديك، مع أنك جئت إلى لندن لمقابلتي فعلاً، مع أني لست واثقة بأنك كنت ستفعل هذا لو لم أكن بالأصل (فتاة)، ولكنك لم تحاول أن تعرف السر الذي دفعني إلى أن أطلب رؤيتك، لأنك حتى الآن تعتقد بأن لا شيء يتعلق بك..**

- **أخبريني وقولي كل ما تمتنعين عن قوله، لماذا تصرين على صنع الحواجز بيننا؟ وفي نفس الوقت تلمحين إلى كوني أتحمل مسؤولية مشكلة ما لديك؟؟ أخبريني أولاً، ما هي المشكلة؟**

شعرت بقسوته للمرة الأولى مذ عرفته، فاستحضرت مأساتي ومشاعري تلك التي كانت تسبب لي القلق والأرق، وأنا أشفق على نفسي، ولم أستطع مقاومة رغبتي في البكاء، حينها تركت لدموعي أن تسيل، وأنا أخشى أيضاً أن يظنني أستعطفه بذلك، لذا أطلقت لساني وانفجرت أمامه قائلة له:

- **لقد دخلت حياتي سراً، لا أعرف من تكون ولا من أين جئت، ومن دون أن أشعر بدأت رسائلك وكلماتك تؤثر بي وتطغى على تفكيري كالسحر، ورويداً رويداً أصبح صوتك يسكن أعماقي ويتردد في كل جنبات كياني، كأنه الصوت الوحيد الذي يجب عليَّ سماعه في هذا العالم، لقد جعلتني أكتشف أن كل ما كنت أعتبره من قبل حقيقة كان مزيفاً وخادعاً، وبأنني كنت واهمة في فهم كل شيء، كل شيء، حتى نفسي التي لم أشعر يوماً بأني أحببتها مثلما جعلتني أنت أشعر بذلك..**

أنت يا (أنور) من جعلني أصطدم بكل شيء، وأعيد النظر في كل شيء، وأتحقق من تلك التي كنت أعتقد أنها (أنا) بأعماقي، فوجدت ذاتي واكتشفت عوالمها التي تخصني أنا وحدي، قد يكون الجهل مشكلة ولكن في حالتي أنا وبسبب وجودك في حياتي أضحى الاقتراب من الحقيقة مشكلة..

قبل أن توجد أنت في حياتي، كانت كل الخيارات متاحة أمامي وممكنة، ولكن وبسبب وجودك وتأثيرك الطاغي عليَّ، وجدت أني في مفترق بين طريقين، إما أن أسلك طريق حياتي السابقة فأعيش مجرد لاحقة مستسلمة، ليس لها وجود أو قيمة أو إرادة، أو أن أسلك الطريق الأخرى التي أنحاز فيها إلى ذاتي وأنحو نحوها، حيث ينبغي عليَّ أن أخوض حرباً مدمرة وأن أدخل في معارك طاحنة ضد كل شيء في الواقع، حرب لا أقوى عليها، لأني مجرد فتاة لا حول لها ولا قوة، فأنت لم تخبرني كيف لمن لا تستطيع أن تدفع الضُر عن نفسها، أن تزج بنفسها في غمار حرب كهذه؟ فضلاً عن أن تكون تلك معركتي..

هل تعرف لماذا تمنيت من خالص قلبي أن أراك؟ هناك أسباب كثيرة يمكن أن أسردها لك، ربما لأني أردت ذلك حقاً، وربما لأني احتجت إليك فعلاً، لأنك الشخص الوحيد الذي ساعدني على تغيير نفسي والتحرر من كثير من قيودي التي كانت تكبلني، ولأنني أحببت الحياة كما كنت تصفها لي وتحدثني عنها، وعرفت معنى الحرية من خلال صوتك وكلماتك، ولكن ما هو ثمن هذه الحرية؟؟

أن أخرج من سجن إلى سجن أخر؟ أن أبدل سجون حياتي السابقة بسجنك أنت؟ ثم كيف لي أن أكون سجينة شخص لا أعرفه ولا أمتلك أي ضمان لبقائه معي أو حتى مجرد وجوده بالقرب مني؟

هذا ما لا تشكو منه أنت، لكنه بالنسبة لي ما يجعل وجودك في حياتي وغيابك عنها مشكلة، فأين تلك الحواجز التي تقول بأني صنعتها؟ وكيف أكون مسؤولة عن هذا كله، ألست أنت من طرق بابي أولاً؟ ألست أنت من استدرجني إليه؟ ألست أنت؟؟ ألست أنت؟؟

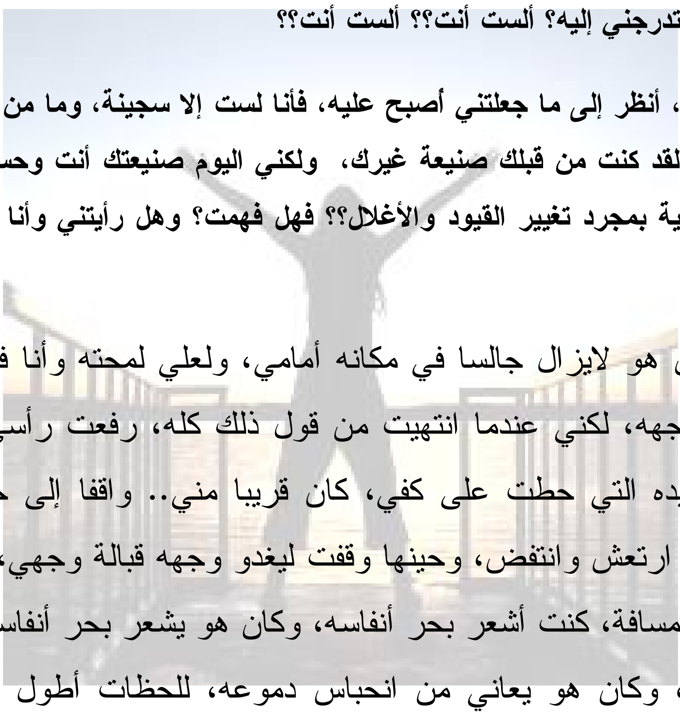

(أنور)، أنظر إليَّ، أنظر إلى ما جعلتني أصبح عليه، فأنا لست إلا سجينة، وما من سجن بُتُّ فيه اليوم إلا سجنك أنت، لقد كنت من قبلك صنيعة غيرك، ولكني اليوم صنيعتك أنت وحسب، فما الذي تغير؟ وهل تتحقق الحرية بمجرد تغيير القيود والأغلال؟؟ فهل فهمت؟ وهل رأيتني وأنا أكسر الحواجز الآن بيني وبينك؟؟

عندما بدأت الكلام كان هو لايزال جالسا في مكانه أمامي، ولعلي لمحته وأنا في منتصف ما قلته له والتأثر واضح على وجهه، لكني عندما انتهيت من قول ذلك كله، رفعت رأسي فوجدت مكانه خالياً وفجأة شعرت بدفء يده التي حطت على كفي، كان قريبا مني.. واقفا إلى جواري، سرت حرارة جسده في جسدي الذي ارتعش وانتفض، وحينها وقفت ليغدو وجهه قبالة وجهي، ولا أعرف رجلاً من قبل اقترب مني لتلك المسافة، كنت أشعر بحر أنفاسه، وكان هو يشعر بحر أنفاسي، كان قد خفف عني إطلاق سراح دموعي، وكان هو يعاني من انحباس دموعه، للحظات أطول من خط الزمان ظلت عيناي في عينيه، قبل أن يجرف بيديه كلي إلى حضنه، وسمعت ذلك الضجيج والصخب الذي كـــان يدوي في أعمـــاقه، قبل أن أسمع صوتـــه الدافئ والصادق والحنون في أذني، وهو يقول لي:

- **لن أتركك أبدا ولن تكوني مضطرة من بعد للبحث عني، أعدك (تيماء)، أعدك بأن أقف إلى جانبك حتى يأتي الوقت الذي تصبحين فيه حرة وقوية..**

في حضنه كنت أتشبث بوعده الذي أطلقه لي، ووددت لو كان هناك مليون وعد يعدني بها تباعاً، فقط لأبقى في حضنه، ولكن للأسف لم يكن لديه من الوعود إلا وعداً واحداً. أتاح لي بعد ذلك أن أفارق

حضنه برفق ثم أمسك بيدي وجذبني لأمضي معه، ومع ذلك لم يكن بوسعي الانقياد له إلى أبعد من تلك المسافة التي قطعتها معه إلى الشارع، فاستوقفته وأنا أنظر في عينيه، وقلت له:

- **إلى هنا يكفي، دعني أرحل..**

ترك يدي وأطلقني دون أن يقول شيء، فتركته واتجهت مبتعدة عنه إلى حيث أمكنني أن أجد لي سيارة (Taxi)، كانت سيارتي بالقرب مني، ولكني فعلت ذلك خشية أن يلحق بي، لكني ومن نافذة السيارة رأيته وهو لايزال واقفا في نفس المكان الذي تركته فيه، واضعاً يديه على الحاجز المعدني وعينيه تحدقان إلى البعيد، أما أنا فعدت إلى ما سبق؟!

الفصل السادس عشر

حصار الفضائح

سبق وأن طرحت تساؤلاتي بشأن (القضاء والقدر)، ودون أن أتمادى مرة أخرى في التقديم بموجب ما تعنيه هذه المسألة، أود أن أوجز القول بسؤال لن أقف عنده، فقط أكتفي بطرحه:

لماذا عندما يقرر المرء أن يسلك طريقاً أخرى في الحياة يكتشف لاحقاً بأنه يواجه في طريقه الجديدة ما كان يهرب منه؟

أرجو ألا يقاس ما قلته آنفاً عليَّ وحدي، فقط لأني أوردته في السياق الذي أسرد فيه قصتي، بقدر ما أتمنى أن ينظر كل منا إلى وجود ما يستدعي تنزيل هذه المشكلة على نفسه وحياته، ولا أعتقد أن الأمر سيكون صعباً؟؟

هناك فرق بين أن تفكر لتصل إلى الحل والجواب بنفسك، وبين أن تبحث عن الحلول الجاهزة وتعتمد على الأجوبة المعلبة والمغلفة، تماماً كالفرق بين أن تعيش حياتك كما تحب أنت، وبين أن تعيشها كما يريد الآخرون.

إنها المشكلة التي نعاني منها دائماً فقط لمجرد كوننا (أفراد)، نعيش معاً وننتج تلك المنظومة التي نمنحها السلطة والحاكمية على أنفسنا، ليجد كل منا نفسه وهو مضطر لمواجهة هذه السلطة والاصطدام بها، ولكن بمفرده، فلماذا ننتج (ضدنا) بصيغة الجمع ليحاربه كل منا بعد ذلك بصيغة الفرد؟

يضع علماء النفس والاجتماع وعلم الانسان هذه المشكلة، على محك تلك المسميات التي نتداولها للحرية والعلاقات والمجتمع والثقافة والهوية والانتماء.. الخ، وتلك التفسيرات التي تصف ظاهرتنا البشرية، وكأننا على احاطة كاملة بحقيقة أنفسنا، بينما الواقع لايزال يقول الكثير عما نجهله.

يقال: (أن الأسماء لا تقربنا من الحقيقة.. بل الأسماء تبعدنا عنها)، كما أن السير على هذا المنوال سيجرنا من سؤال إلى سؤال، ومن مشكلة إلى اشكالية، دون أن نفضي في النهاية إلى حقيقة، وهذه هي المشكلة؟

كنت أسترق السمع وأجمع (طراطيش) الكلام من هنا وهناك، بعد عودتي إلى لندن بشأن (هند) وعلاقتها الغرامية، ربما لأنه أصبح لدي دافع جديد للقيام بذلك بعد لقاءي بـــ (أنور)، وبدون أن أُغالط نفسي أو أرواغ تفكيري بتفكيري، كان يجب عليَّ أن أفكر بشكل جاد وصريح بعلاقتي به، ولم أظن بأني كنت أحتاج إلى قياس أو معيار مما يجري، أبني عليه تقييمي ورؤيتي لما يمكن أن يصبح بيني وبينه كعلاقة واضحة، فاعتبار أي علاقة بين شاب وفتاة شيئاً محرماً وممنوعاً بحكم قواعد المجتمع الذي جئت منه، كان مجرد الأخذ به هو ذاته ما يكبتني ويدفعني في نفس الوقت، كما أن الأخذ بقواعد المجتمع اللندني وضعني في المأزق نفسه أيضاً، كان عليَّ أن أفكر بهذه الطريقة على الأقل، فما حدث في لقائي الأول به يمكن أن يضعني في موضع الوصف بالآثمة، مع أنني واثقة من براءة ما حدث عندما حضنني واستسلمت أنا للبقاء في حضنه، ولكن هل كنت لأفكر بهذا الشكل فيما لو أني رأيت (هند) في مكاني؟ لذا تساءلت عما إذا كنت أتناقض مع نفسي وأكيل بمكيالين؟ لقد كان من حسن حظ (هند) أنني فكرت بهذه الطريقة!!

بيد أن المسالة فيما عاصرته من إحداث في تلك الفترة لم تكن تخص (هند) وحدها، بقدر ما توالت الوقائع وتكاثفت الأحداث فيما يشبه إعصار فضائح أميرية ذكورية وأنثوية، اجتاح لندن في ذلك الوقت واستمرت نوباته طوال العام كله، ولدواعي كنت ولازلت أتجاهلها، سأتغاضى عن فضائح الأمراء الذكور، ربما لأن فضائح الأميرات فقط هي التي كانت ولاتزال تهز العرش، ولكن، هل في هذا ما

يبرر أن أتعاطف مع أخطاء الأميرات المفضوحات، فقط لأنهن من يوفرن لي المقاييس والدوافع والحوافز للتفكير جدياً بعلاقتي بشخص ما، وهي العلاقة التي يمكن أن تضعني في حال اكتشافها في نفس الموضع الذي لن أختلف فيه عن أي اميرة مفضوحة، ربما، ولكني بصدق فكرت هكذا.

في البداية، جاءت صديقتي الأميرة (مها) مرة أخرى إلى لندن، كان ذلك أثناء تلك الفترة التي قضيتها في الوطن، وهي التي كانت تمتنع عن أي ظهور اعلامي لسبب بسيط وهو أنها لم تكن ترى نفسها جميلة ومثيرة، ولكن بعد أن نجحت عمليات التجميل التي أجرتها في الولايات المتحدة، أصبحت جميلة الوجه، منفوخة الصدر، وذات خلفية بارزة، تلفت الأنظار وتمارس فعل الإغراء حد الغواية، وربما أشعرها ذلك التغيير بالحاجة إلى حملة دعاية تسويقية تعيد تقديمها للعالم بالشكل الجديد، فسمحت لوسائل الإعلام أن تلحقها، وتعمدت الظهور في كل مكان يمكن أن تلتقطها فيه عدسات التصوير، كانت قاصدة ذلك، لأنها أرادته!!

غير أن ما حدث بعد ذلك كان معروفاً سلفاً، فسرعان ما نُشرت صورها في الصحف، ونشرت مقاطع الفيديو التي تظهر فيها ثملة بملابس السباحة المواقع الالكترونية، حتى أصبح ظهورها بالشكل الجديد حديث القاصي والداني، في نفس الوقت الذي جسد فيه اضافة جديدة إلى رصيد العائلة من الفضائح، نعم أصبحت تلك المادة الوثائقية من الصور ومقاطع الفيديو دليل فضيحة جديدة، تكشف عن الفساد الأخلاقي لأفراد العائلة المالكة، التي كانت في ما مضى من الزمن تقتصر على الأمراء الذكور وحسب، قبل أن تدخل الأميرات هذا الميدان بقوة في السنوات الأخيرة، لتستمر بعد ذلك سلسلة الفضائح الأميرية دون انقطاع، وللأمانة هذا هو الحاصل!!

لم تكن فضيحة الأميرة (مها) قد فقدت أهميتها وصدارتها بعد، عندما نشرت إحدى الصحف البريطانية العريقة في هذا المجال، خبر فضيحة أخرى تتعلق بأميرة أخرى اتهمها سائقها الخاص بأنها تحرشت به جنسياً، والله وحده من يعلم ما الذي فعلته بالضبط قريبتنا تلك، مع ذلك الرجل الذي لم يكن يتبلى أو يفتري عليها، حتى عندما صرح بأنها فعلت ما فعلته معه وهي واقعة تحت تأثير الكحول والمخدرات، ومع ذلك فقد اقتصر الأمر على إبراز معنى (التحرش الجنسي) كسلوك منافٍ للأخلاق في تلك الحادثة، لوصف ردة فعل الأميرة الغاضبة على عدم استجابة السائق المسكين لدعابتها ومداعباتها الحسية المغرية، وربما تكون ظاهرة العقاب بـــ (الرفس) سلوك أميري انثوي يقابل سلوك العقاب بـــ

(الصفع) عند الأمراء الذكور، وفي كلتا الحالتين يكون يمكن استيضاح الكيفية التي يُعاقب بها كل من تسول له نفسه أن يقول (لا) لصاحب أو صاحبة السمو!!

من المهم جداً هنا أن أنوه إلى أنني لا اتبنى رأي أو مواقف الطرف الآخر إزاء ما يمكن أن أعتبره – من وجهة النظر الرسمية المضادة – بأن تلك الموضوعات تمثل هجمات ملفقة وادعاءات كاذبة تهدف إلى تشويه سمعة وصورة الأسرة المالكة، انطلاقاً من مواقف عدائية تتبناها جهات واطراف معروفة وغير معروفة، على أساس انني انتمي إلى هذا الطرف، ولكني أحببت أن أتعامل مع هذا الجانب من الناحية التي أؤكد فيها على ملامح وسمات الصورة الشائعة عنا نحن أبناء وبنات الأسرة المالكة في عيون وأذهان الأخرين، وللأسف هذه هي صورتنا!!

كنت على ثقة بأن هناك مشكلة أكبر وراء كل ما يحدث، فهناك الآلاف من النساء اللاتي يظهرن في كل وسائل الإعلام بملابس فاضحة، ومنهن من يقمن بأفعال خادشة للحياء، ويمارسن كل صور وأشكال التحرش الجنسي على مشهد ومسمع من العالم بأسره، ومع ذلك يلاقين الرضا والقبول من الجميع على ما يقمن به، ولا أحد يمكن أن يوصمهن بعار من أي نوع، أو أن يعتبر ذلك فضيحة!!

(الفضيحة)، ما هي؟ تجيب معاجم اللغة على هذا السؤال بقولها أن الفضيحة هي: كل شيء سيء يُشَّهر بصاحبه، ويكون المرء مفضوحاً إذا ركب أمرا سيئاً فاشتهر به، فقد تعني الفضيحة (الهتك) وكشف المستور، كما تعني الإشهار والتشهير والشعور بـــ (الخزي)، وهي أيضاً ما ينكشف للناس من عوراتنا وأسرارنا وخطايانا، وأن يعرف عنا الناس غير ما نظهره لهم وندعي أننا عليه، وهذه هي المشكلة؟؟

والمشكلة هي أن كل ما تقوم به الأميرة يعتبر (فضيحة)، ليس باعتبار ما قامت به، فلو قامت به امرأة أخرى عادية لما ألتفت إليه أحد أو استنكره طرف أو شهَّرت به صحيفة أو قناة أو موقع، وإنما يقع مناط التأكيد فقط على كونها (أميرة)، أقدمت على هذا الفعل أو ذاك السلوك الذي يتناقض ويتصادم مع انتمائها إلى منظومتها الاجتماعية والعقائدية المناقضة، وهذا هو مبعث الفضائح، على أساس أن (السيئة تعم)، فإشهار مثل هذه الوقائع الفردية يستهدف بالأساس إشهار المنظومة كلها بصورة مناقضة للصورة التي تعتمد الظهور بها دوماً، وهكذا تنتهي الأمور إلى غاياتها السياسية الدنيئة والحقيرة التي

يُوظف كل شيء وأي شيء فقط من أجل تحقيقها، بأي طريقة وبأي ثمن مهما كان فادحاً ومجحفاً بحق أشخاص..

أمام تلك الصورة المريعة التي تكاد أن تصبح لصيقة بل ورديفة لحقيقة كل من يحمل ذلك اللقب الملكي والأميري، والتي تضعنا في دوائر السقوط والانحطاط القيمي والأخلاقي، كان لابد أن أتساءل: هل هذه صورتنا التي تطابق حقيقة ما (نحن) عليه؟ أم أنها الصورة التي لا وجود لها إلا في عيون اولئك الذين لا يحبون أن يرى العالم غير الجانب السيء منا؟! هل نحن هكذا فعلاً؟ أم أن هناك من تتحقق مصالحه من خلال تشويه صورتنا وسمعتـــنا؟ وإذا كانت سلوكيات بعض أفراد الأسرة المالكة أو كثير منهم أو أغلبهم تثبت حقيقة هذه الصورة، فهل يعني هذا بالضرورة أن الجميع على هذه الشاكلة بلا استثناء؟ وهل ينطبق عليَّ أنا شخصياً شيء من تلك الصورة، أم أن الصورة كلها تنطبق عليَّ؟ خاصة بعد أن حدث معي ما حدث والذي لولا أن الله سترني، لكانت اليوم صوري في كل مكان وأنا أتلذذ بالمتعة الحرام في حضن (أنور)، وهو الرجل الذي التقيت به لأول مرة وسلمته نفسي بدون تفكير أو مسؤولية، هل هذا يجعلني بتلك الصورة المريعة؟!

كل هذه الأسئلة خطرت على بالي، ووجدت نفسي ملزمة على الوقوف أمامها والبحث عن إجابات لها طوال الفترة التي قضيتها في لندن، من حيث كان يجب عليَّ أن اضع في مقابلها كل ما لقنوني إياه في قصورنا الملكية وخيامنا البدوية عن الشرف والعيب والحلال والحرام والعار، وغيرها من تلك المفاهيم التي رأيتها تتهاوى ويتلاشى وجودها وتأثيرها بمجرد أن يخطو الواحد أو الواحدة منا خطوته الأولى فوق تراب لندن، فهل تعتقد أن وضعاً وموضعاً تجد نفسك فيه ويماثل هذا الوضع وهذا الموضع لن يؤثر عليك أو يسبب لك المعاناة؟!

لهذا أقول بأن عليك أن تتخيل كيف كان لي أن أعيش في مدينة، كل العيون فيها لا تراني إلا بتلك الصورة، وكل الأذهان لا تتوقع مني إلا أني أتصرف وأسلك وأعمل وأعيش وفق ذلك النموذج، الذي لو أمعنت النظر فيه من الناحية الأخلاقية لوجدت أن العاهرات اللاتي يعرضن بضاعتهن في النواصي والمواخير، ويبعن أجسادهن على قارعة الطريق وفي أسواق اللحم البشري الرخيص، أفضل وأشرف من هذه الأميرة أو تلك، ومن كل الأميرات، فالمومسات على الأقل يعملن كذلك من أجل المال اللاتي

لا يملكنه ويحتجن إليه بحكم ضرورات العيش، ولكن ما هو عذر الأميرة الثرية المتزوجة؟!! وهل ترى لها من عذر إذا عرفت أنها (عازبة)؟!!

يستيقظ الناس جميعاً في لندن كل صباح على أخر الأخبار، وكل الناس في لندن يقرأون، وقلما تجد أحداً يفوته شيء جديد، الصحف تصل إلى المنازل قبل أن تصل إليها قناني الحليب واللبن، وعادة الناس هناك أن يفطروا بعناوين الصحف ومشاهدة نشرات الأخبار، قبل أن يتناول الواحد منهم طعام افطاره، ولأن موضوعات الفضائح وملفات التشهير أكثر ما تحب العامة أن تقرأ عنه دوماً، فقد أصبحت هذه القاعدة منطلقاً لسياسات الترويج والجذب والبيع، ولهذا تجد أن موائد النميمة الصحافية عامرة في كل صباح بفضائح جديدة، حتى اعتادت عامة الناس في لندن أكل لحوم الخاصة، فلا تصيب أو تهنأ شبعاً من مأكل أو رياً من مشرب، ما لم تكن هناك مقبلات نميمة، هذا ما اكتشفته في لندن، ففي كل مرة نشرت فيه صحيفة (فضيحة) وجدت الناس كلهم لا يتكلمون إلا بشأنها، يناقشونها ويربطونها بسوابقها، ويخضعونها لكل مناهج التحليل والتفسير والتأويل، وهلم جرا!!.

اشتدت وطأة هذا الأمر عليَّ بشكل فظيع في بداية السنة الدراسية الأخيرة، وأحسست بالفعل حينها بأن حصار الفضائح يطوقني من كل الجهات، ويفسد عليَّ الكثير من جوانب حياتي المشرقة، بل ولعلي شعرت بفداحة الثمن الذي يتوجب عليَّ أن أدفعه لسبب واحد فقط وهو أني (صاحبة السمو الأميرة)، وهو اللقب أو الصفة التي بُتُّ أقرأ معانيها ودلالاتها في نظرات الآخرين إليَّ وصورتي المتكونة في اذهانهم، على أنها النقيض اللغوي والموضوعي لــ (الشرف)، حتى عندما أدركن زميلاتي في الكلية كيف أن هذا الأمر بات يثير لدي حساسية شديدة، ويدفعني إلى النفور من كل من كانوا حولي، وحاولن أن يؤكدن لي بأنه مهما كان ومهما حصل فإنه لن يغير شيء من نظرتهن الجميلة إليَّ، ولن يؤثر أبداً على علاقتهن بي، مثل هذا الموقف الجميل والرائع تحول إلى أسوأ مواقف حياتي، عندما شعرت بأنهن كن يقلن لي ذلك بدافع العطف والشفقة، حسناً – قلت حينها لنفسي– هذا ما كان ينقصني؟! وحينها لم أكن أعرف ماذا كنت أنتظر.

كانت الساعة العاشرة من صباح أحد الأيام، وهو الوقت الذي كنت على بعد خطوات من باب قاعة المحاضرات التي كنت أهم بالدخول إليها، عندما اتصلت بي (هند) بسموها وجلالة قدرها، لتبلغني

بالخبر السعيد، اتصلت بي من (مركز الشرطة)؟! التي ألقت القبض عليها في ذلك اليوم بتهمة محاولة القتل، وإليك القصة!!

كانت (هند) في الفترة الأخيرة تجري مناقشات مع حبيب القلب (جيمي) بشأن مشروع زواجهما، ويوماً بعد يوم بدأت تشعر بأنه يماطلها ويتعلل لها بأعذار واهية، ولم يمضي وقت طويل حتى بدأت تلاحظ بأنه يتشاغل عنها ويتهرب من لقائها، وكان هذا كافياً لإثارة غضبها عليه، قبل أن يصبح كافياً لإثارة جنون غيرتها، فقد علمت من إحدى معاريفها بأن (جيمي) يواعد صاحبتها (مروى)، وليس هذا وحسب بل وأنه بات يقيم مؤخراً في جناح فندقي يستضيف فيه كل ليلة اثنتين أو ثلاث من البنات اياهن، كونه من المولعين جداً بالجنس الجماعي، طار عقلها – أقصد (هند) – وجن جنونها مما سمعته وعرفته عن حبيب قلبها، فالرجل خاصتها وحدها، وحدها هي فقط، حينها لم تفكر غلا فيما كانت قد قالته له ذات يوم على سبيل الدعابة، من أنها ستقتله لو علمت بأن في حياته أخرى سواها، إذ سولت لها نفسها أمراً، قضت الليل كله تدبره وثُبِّتت النية لفعله: سوف تداهمه في الفندق وتتأكد بنفسها من الحقيقة.

خرجت (هند) من قصرها الفخم بكرة، قبل عدة ساعات من اتصالها بي في ذلك اليوم، وذهبت لتنفذ ما خططت له وعزمت عليه طوال ليلتها تلك التي لم يغمض لها جفن فيها، حتى اشرقت عليها شمس الصباح، وفي صالة الاستقبال بالفندق أفاد موظف الاستعلامات بأن من تسأل عنه ينزل بالفعل في الجناح (611) من الدور السادس، ولكنه لن يسمح لها بالصعود إليه، قبل أن يبلغه برغبتها لقاءه ويحصل على إذناً منه بذلك، فأخرجت (هند) ورقة نقدية من فئة (100_{Euro}) ثم اقتربت وهي تناول الموظف إياها خلسة من العيون، وقالت له:

- **أريد أن أجعلها مفاجئة.. ما رأيك؟؟**

واقفة أمام باب الجناح (611)، الذي فتحته من الداخل فتاة نصف نائمة ونصف عارية، وقبل أن تنطق الأخيرة بحرف، دلفت (هند) إلى داخل الجناح ومضت في طريقها متجاوزة الفتاة التي لفت غطاء السرير حول منتصف جسدها وظلت ممسكة بطرفه عند صدرها كي لا يفلت منها كاشفاً عن جسدها العاري بأكمله، لحقت خلف (هند) وهي تحاول أن تسبقها وتمنعها من الدخول:

- **Hee heee… you, What you think you do??**

تجاهلتها (هند) واتجهت نحو الغرفة التي عرفت أن (جيمي) فيها، ولكن الفتاة أمسكت بها من ورائها وجذبتها إلى الخلف بشدة وصرخت بوجهها بصوت مرتفع:

- **Who are you?**
- **Where is Gemi? Where is he? I know, he is here…**
- **Wait… wait, you can't ……**
- **What??? What?**

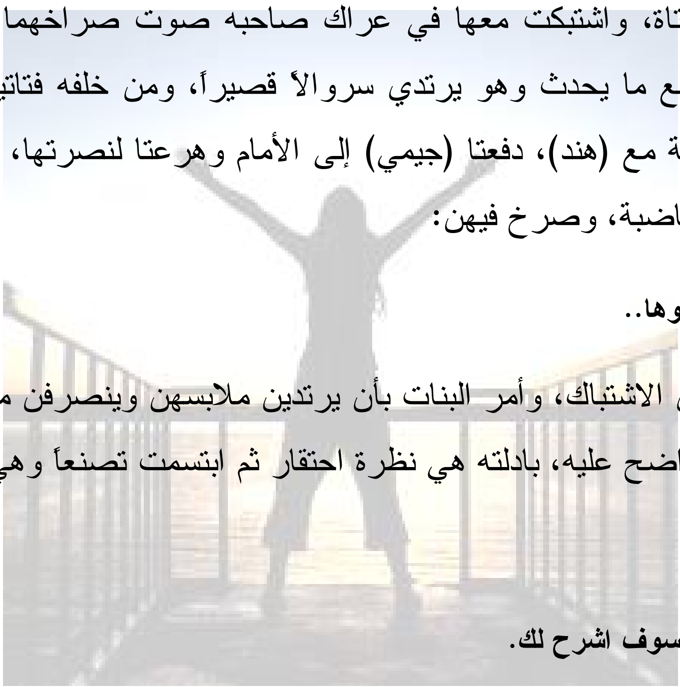

تجاذبت (هند) مع الفتاة، واشتبكت معها في عراك صاحبه صوت صراخهما، فظهر (جيمي) واقفاً عند باب الغرفة يستطلع ما يحدث وهو يرتدي سروالاً قصيراً، ومن خلفه فتاتين أخريتين بمجرد أن شاهدتا صاحبتهما عالقة مع (هند)، دفعتا (جيمي) إلى الأمام وهرعتا لنصرتها، لكنه لحق بهما بعد أن تحقق من أنها (هند) غاضبة، وصرخ فيهن:

- **كفى.. كفى.. دعوها..**

تمكن (جيمي) من فض الاشتباك، وأمر البنات بأن يرتدين ملابسهن وينصرفن من المكان، وعاد ينظر إلى (هند) والارتباك واضح عليه، بادلته هي نظرة احتقار ثم ابتسمت تصنعاً وهي تقول له:

- **مفاجأة، لا؟**
- **لللللـــ.. لحظة، سوف اشرح لك.**
- **[قاطعته]: الأمر واضح، لا شيء يحتاج لشرح، فأنت هنا تقضي الوقت الذي قلت لي بأنك ستكون مشغول فيه ببعض أعمال والدك المهمة، يبدو أن أعمال والدك مزدهرة إلى حد وفرة العاهرات اللاتي قد لا يعلمن بأنك تدفع لهن من المال الذي تسولته مني، أهذا هو الأمر العاجل الذي تذرعت به لي لأعطيك (40000 Euro) من أجله؟!**
- **(هند)، لا تتسرعي بقول شيء ولا تكيلي الاتهامات لي هكذا جزافاً..**

- **اتهاماااااات؟؟!!! كل ما أراه الآن أمامي وبأم عيني، وفقط اتهاااامات!!! إني أرى حقيقتك الآن كاملة أمامي، فأنت لست إلا مجرد شخص حقير وتافه، متسول انتهازي ببزة أنيقة، وأنا المغفلة.. أنا [تنفجر باكية].. كيف أمكنك أن تفعل بي هذا؟**

- **[بتعالي وعجرفة]: ماذا فعلت بك؟؟ هه، ماذا؟ كل شيء بيننا كان بإرادتك ورضاك ولم أرغمك على فعل شيء..**

- **[باكية]: (جيمي)، كنا على وشك الزواج؟؟**

- **[قاطعها]: هذا ما منيت به أنت نفسك، أما أنا فلم أعدك بشيء..**

- **لقد كنت تتلاعب بي إذن، كنت تخدعني وتستغلني.. أيها الخائن الحقير..**

- **[صارخاً بوجهها]: كفى، لا داعي لأن تتحدثي عن الخداع والخيانة والاستغلال، فما فعلته معك ليس إلا بعض ما عندكم، أم أنه حلال على شقيقك (يزيد) أن يغتصب فتاة، وحرام على (جيمي) بضع أحضان وقبلات ولقاءات حصلتُ عليها منك مثلما حصلت أنت عليها مني، كفى، لن أسمح لك بإهانتي ولو بكلمة أخرى، وهيا غادري هذا المكان فوراً، هيا، قبل أن أطلب من رجال الأمن أن يرموك رمياً إلى الشارع هيا، غادري..**

قال ذلك وهو يدفعها بشدة إلى الخلف، فسقطت إلى الأرض على ظهرها ولم يسعها أن تمنع عن نفسها ذلك، وعندما تمكنت من نفسها وبدأت تحاول النهوض، كان الغضب والقهر واضح بشدة على ملامحها، فضلاً عن الدموع الغزيرة التي كانت تهطل من عينيها وتنم عن ضعفها وخوفها من أن يتجرأ على فعل ما هو أسوأ من ذلك، لو أنها عاندته وقررت البقاء، فلملمت نفسها وقررت أن تمضي في حال سبيلها، ولكن إحساسها بالذل والإهانة، كان كافياً لأن تسول لها نفسها الدفاع عما خسرته للتو بسكينة الأكل تلك التي لمحتها فوق الطاولة القريبة منها في منتصف صالة الجناح، وبدون تفكير سارعت وتناولتها وأشهرتها في وجه (جيمي)، الذي تفاجأ بما رأى وتملكه الخوف، فمد ذراعيه نحوها وهو يقول لها:

- **(هند)، ارمي السكين من يدك لا داعي لكل هذا، (هند) لنتفاهم أفضل..**

ظلت (هند) تتقدم نحوه وهو يتراجع إلى الخلف خائفاً مذعوراً، ولكنه تعثر بشيء ما فسقط على الأرض وهو ينظر إليها ويحاول الوقوف والهرب منها، ولكنها وبمجرد ما أعطاها ظهره متجهاً نحو

الغرفة، تمكنت من غرز السكينة في ظهره وطعنه بها مرتين، دون أن تتمكن من إنفاذ الثالثة، إذ انحبست السكينة في ظهر الرجل الذي بدأ بالصراخ، والدم يتقاذف منه بما يكفي لأن يصيب الفتيات الواقفات عند باب الغرفة بالذعر والهلع ويعلو منهن الصراخ مدوياً في أرجاء المكان، حينها قررت (هند) الانسحاب والهرب، ولكن عناصر أمن الفندق تمكنت من القبض عليها قبل أن تخرج من حجرة المصعد الكهربائي في صالة الاستقبال، ومن بعد ذلك تم تسليمها إلى لأفراد الشرطة.

من حسن حظ (هند) – لا أدري- أو من حسن حظ والديها، أنهما كانا قد سافرا قبل ذلك بعدة ايام إلى (ملبورن) (Melbourne) بـــ استراليا، حيث ألقت الشرطة هناك أيضاً القبض على ابنهما (يزيد) والذي كان قد فر إلى هناك هرباً من الشرطة الانجليزية التي كانت تطلبه على ذمة قضية أخرى، الاعتداء على فتاة واغتصابها، لم تكن تلك الفتاة إلا (مي) صديقة (هند)!!!

في مركز الشرطة كانت (هند) قيد التوقيف في زنزانة صغيرة، رأيتها و(كايتي) بجانبي واتجهت إليها بينما بقيت رفيقتي مع ضابط المركز تسأله عن الوضع، سمح لي شرطي بأن أجلس مع (هند) بضع دقائق في زنزانتها، حاولت هناك طمأنتها والتخفيف من وطأة الخوف عليها، وهناك أخبرتني بالقصة، وبعد انتهاء مدة الزيارة أجبرت على تركها هناك وحيدة، واتجهت ناحية (كايتي) التي كانت تجري اتصالات، في حين كان المحامي الذي استدعته هي من قبل قد فرغ من لقاءه ضابط المركز وجاء قائلاً لنا:

- **للأسف، لن يكون بوسعنا اخراجها من الحبس، فقد ألقي القبض عليها وهي تلوذ بالفرار، وهناك شهود بأنها اعتدت على الرجل بسكين الطعام، ومن المؤكد أن بصماتها ستكون عليها، فالتهمة ثابتة عليها..**

- **[(كايتي) مصممة]: مستحيل، هذا مستحيل، لن تبقى الفتاة لحظة واحدة في هذا المكان، يجب أن تجد طريقة لإخراجها، هل تفهم ذلك؟؟**

- **[المحامي، بهدوء]: ثمة طريقة واحدة..**

- **[قاطعته أنا]: أخبرنا ما هي؟؟**

- **[المحامي]: أن نسارع إلى المجني عليه، ونحاول أن نتفق معه على معالجة الأمر ودياً، وإقناعه بسحب البلاغ، لا حل إلا بهذه الطريقة، لقد أكد لي الضابط أن جروحه ليست خطيرة وأن حالته مستقرة، وهو الآن في المستشفى..**

ذهبنا إلى المستشفى، وتركنا للمحامي مهمة الخوض في النقاش مع (جيمي)، الذي كان متعاوناً إلى درجة أنه لم يوقع على طلب سحب البلاغ، إلا بعد أن أحصى بيديه (**100000** Euro)، ولم ينتهي نهار ذلك اليوم إلا و(هند) بين أيدينا، وبقي الخوف الأكبر أن تكون إحدى الصحف قد اطلعت على الأمر، فكان علينا أن نحصي اللحظات التي سبقت صباح اليوم الثاني، وكان ما لابد من حدوثه، لقد تطاير الخبر بأسرع مما يمكن تصوره فما كانت صحيفة الـــ (Sun) لتفوت على سكان لندن والعالم برمته، نكهة فضيحة من هذا النوع في صباح جميل مثل ذاك الصباح، إنها لندن والأجر على الله!!!

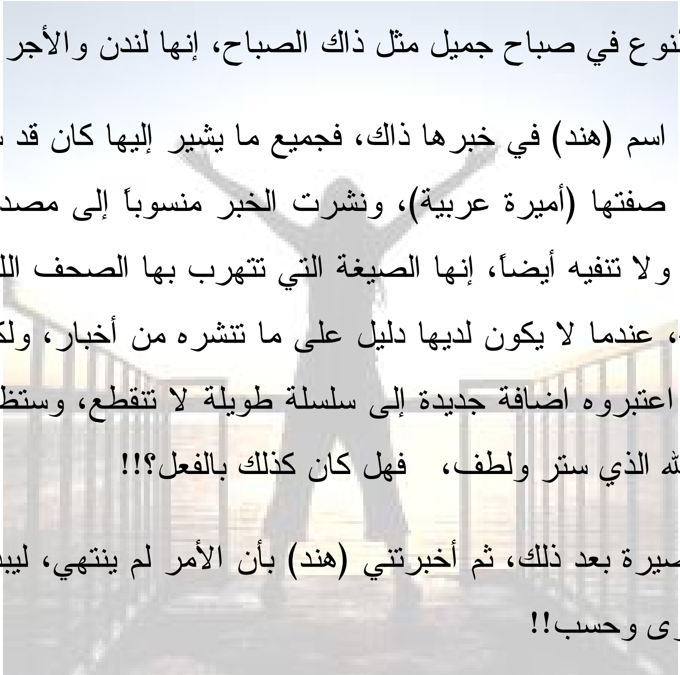

لم تكشف الصحف عن اسم (هند) في خبرها ذاك، فجميع ما يشير إليها كان قد سُحب وأُتلف ولكنها – الصحف– اكتفت بذكر صفتها (أميرة عربية)، ونشرت الخبر منسوباً إلى مصدر لم يكشف عن نفسه بصيغة لا تؤكد وقوعه ولا تنفيه أيضاً، إنها الصيغة التي تتهرب بها الصحف اللندنية من الوقوع تحت طائلة المسائلة القانونية، عندما لا يكون لديها دليل على ما تنشره من أخبار، ولكني كنت على ثقة بأن جميع من قرأوا الخبر اعتبروه اضافة جديدة إلى سلسلة طويلة لا تنقطع، وستظل دوماً مستمرة، ومع ذلك قلنا حينها: الحمد لله الذي ستر ولطف، فهل كان كذلك بالفعل؟!!

لم تمضي غير فترة قصيرة بعد ذلك، ثم أخبرتني (هند) بأن الأمر لم ينتهي، ليبدأ فصل أخر أسوأ من سابقه؟؟ فماذا بعد؟؟ لنرى وحسب!!

كنت أتوقع الكثير من الشر بمجرد أن يصل والد (هند) إلى لندن ويعلم من مصادره بما حدث وبما كانت ابنته متورطة فيه، وكنت أتوقع أن يكون شديداً وقاسياً معها بقدر ما وددت أنا ذلك، ومع ذلك فقد كنت أظن أنه سينظر إلى الأمر أيضاً من وجهة نظر الأب الذي يخاف على ابنته ومما كان سيحدث لها في مثل هذه الظروف والوقائع، ولكني تفاجأت مما حدث بعد ذلك، ففي أول لقاء جمعني بـــ (هند) بعد لقاءها بوالدها سألتها:

- **ما الذي حدث؟**

- [بهدوء وبدون أي تأثر]: لا شيء!!

- (هند) لا تغضبيني ولا تثيري جنوني، واخبريني بما جرى بينك وبين والدك، حتى أني أخشى أن يكون قد أساء إلى خالتي (سمية) وهي المسكينة التي لا شأن لها، فاخبريني ما الذي دار بينكم، هيا.

- طبيعي جداً، غضب والدي وهاج وماج وصرخ وتعالى صوته، سب وشتم ولعن..

- [بفارغ صبر قلت لها]: ثم؟؟

- ثم انتهى الموضوع!!

- كيف انتهى؟ وبهذه السرعة؟ (هند)، لا داعي لكل هذا وأخبريني، ماذا قال؟ وكيف قال؟ وماذا سألك وبما أجبت؟ وكل شيء بالتفصيل الممل قبل أن انفجر في وجهك..

- يا عزيزتي، كل ما أمكنك تصوره حدث ولكني أعرف كيف أتصرف في مثل هذه المواقف، لا تخافي عليَّ، لقد تدبرت الأمر ونجحت..

- كيف؟ كيف؟

- [بتكبر وتعالي قالت (هند)]: تركت أبي يفرغ غضبه وسخطه، باللعن والسب والشتم والتهديد وأنا واقفة أمامه كالصنم لا أنطق بشيء، بل خفضت له جناح الضعف والخوف والشعور بالذنب والندم، فقد كان عليَّ امتصاص غضبه واستدرار عطفه، وهذه خبرتي؟ فضلاً عن أني أعرف كيف أحول الموقف لصالحي، لأني أعرف ما الذي يهتم له أبي..

- [بصوت عالي صرخت في وجهها]: (هنننننننند)؟؟؟

- [بطريقة لامبالية]: ما بك؟

- أريد قصة بحق الله وإلا تركتك ورحلت ولن تري وجهي مرة أخرى، أعدك بذلك.

- حسناً، تركت أبي يفرغ شحنات غضبه.

- [قاطعتها بحدة]: وأنت صامتة، أعرف، ماذا بعد ذلك؟

- طيب، دعيني أتكلم ولا تقاطعينني، المهم، اقتنصت اللحظة المناسبة عندما قال لي: هل تعرفين كيف يمكن لفضيحة كهذه أن تدمر سمعتي ومكانتي في الديوان الملكي وربما أزاحتني من وظيفتي؟؟ فقلت له بخضوع وفخر: أعترف أني مخطئة، ولكن هذا لا يعني أني لم أكن اتعامل بمسؤولية تجاهك وتجاه سمعتك أبي، لقد كنت أدافع عن شرفي، وقمت بالمستحيل من أجل إلا يشهر بي في الصحف، لقد تعلمت منك الكثير، وتصرفت كما لو كنت ستتصرف من أجل إلا يتطور الأمر ويتحول إلى فضيحة معلنة، حتى الصحف لم تتجرأ على ذكر أسماء، وهذا بفضل ما تعلمته منك أبي، لك الحق أن تعاقبني، ولك أيضاً أن تفخر بما قمت به أيضاً..

- [كانت مبتسمة وفي عينيها تلمع نظرة خبيثة،عندما قلت لها]: وكيف كان رده؟

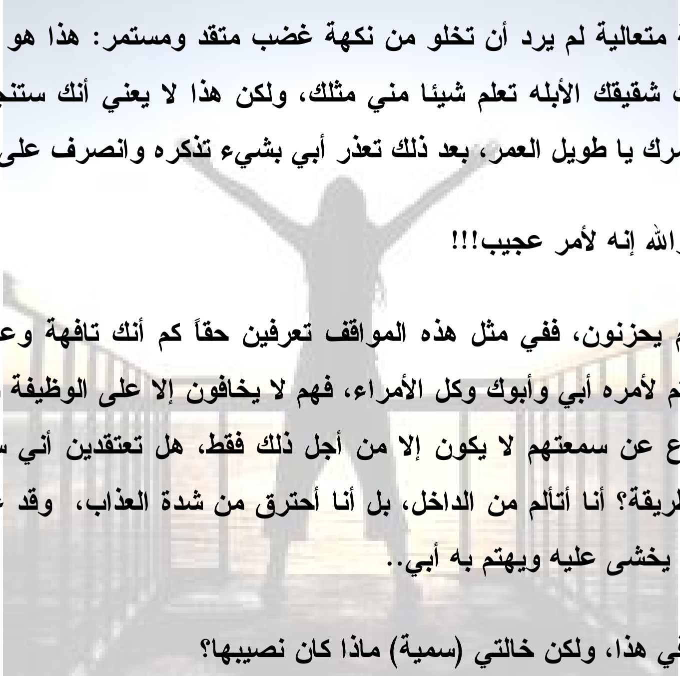

- هدأ، وقال بلهجة متعالية لم يرد أن تخلو من نكهة غضب متقد ومستمر: هذا هو الشيء الوحيد الذي أصدقك به، وليت شقيقك الأبله تعلم شيئا مني مثلك، ولكن هذا لا يعني أنك ستنجين من العقاب هه، فقلت له: رهن أمرك يا طويل العمر، بعد ذلك تعذر أبي بشيء تذكره وانصرف على عجل..

- [قلت متعجبة]: والله إنه لأمر عجيب!!!

- لا عجيب ولا هم يحزنون، ففي مثل هذه المواقف تعرفين حقاً كم أنك تافهة وعديمة القيمة أمام ما يخاف عليه ويهتم لأمره أبي وأبوك وكل الأمراء، فهم لا يخافون إلا على الوظيفة والمنصب والمصالح والأموال، والدفاع عن سمعتهم لا يكون إلا من أجل ذلك فقط، هل تعتقدين أني سعيدة لأني تجاوزت الموقف بهذه الطريقة؟ أنا أتألم من الداخل، بل أنا أحترق من شدة العذاب، وقد عرفت إلى أي درجة كنت فيها أخر ما يخشى عليه ويهتم به أبي..

- ربما أنت محقة في هذا، ولكن خالتي (سمية) ماذا كان نصيبها؟

- أمي حصلت المسكينة على نصيبها بما يكفي لأن تبكي طوال ذلك اليوم وتلك الليلة، وهذا ما ضاعف من شدة عذابي، فلم أجد بداً من الجلوس بجانبها والاعتذار لها والتودد إليها حتى هدأت نفسها..

ما أخبرتني به (هند) في ذلك اليوم، كان يتضمن ما هو أكثر من ذلك، ومن الصعب إدراك معانيه كما كنت قد ادركتها أنا، أقول هذا من حيث يصدق المثل القائل: (ليس من يده في الماء كمن يده في النار)، لقد شعرت حقاً بعذابات (هند) الخفية، وكنت قادرة على استشعار معاناتها في تلك اللحظة، كيف لا أفعل ذلك؟ وقصة الأميرة (مشاعل) مازالت تمثل الدليل التاريخي الذي يثبت كم هي المرأة رخيصة وتافهة في عالم القصور وفي عالم السلطة والكهنوت، ولعلي قادرة على التماس العذر لكل أميرة فيما

قامت به ويمكن أن تؤاخذ عليه، وأن أفسر المشكلة الجوهرية الكامنة في صلب الواقع، والتي تقف وراء كل تلك الفضائح والمخزيات التي باتت تنشرها الصحف بين الحين والآخر، ولي أن أتساءل: ما الذي يدفع امرأة/ أميرة إلى البحث عن حريتها في لندن؟؟؟؟ وبالطبع كل الإجابات محكومة بـــ ربما، وربما!!

الفصل السابع عشر

الحب.. وربيعٌ عربي؟!

ربما لازلت تتذكر – والخطاب موجه إليك – كيف أني واجهت صعوبة بالغة في التحكم بنفسي وبمشاعري وأفكاري، فقط لأنه – أقصد (أنور)– عبر لي عن رغبته في سماع صوتي، أنوه إلى هذا وأذكر به لأني أحتاج إلى تقدمة مناسبة، تساعدني على شرح ما حدث لي وما اعتراني بعد لقاءي الأول به، وخصوصاً ذلك الذي حدث ويمكنني أن أضعه بين حاصرتين: حاصرة من جهة اليمين وتتمثل بتلك اللحظة التي شعرت فيها بدفء يده تمسك بيدي بعد أن أكملت حديثي معه، وحاصرة من جهة اليسار وتتمثل بتلك اللحظة التي طلبت منه فيها أن يترك يدي ويدعني أرحل، فما بين الحاصرتين كان كثير وكثير جداً، لاسيما وأن الموقف بلغ ذروته في تلك اللحظات التي قضيتها لأول مرة في حياتي وأنا في حضن رجل..

لن أهتم كثيراً بشكوكك بي، ولن أتوقف من أجل صدها ودفعك إلى تصديقي، أقصد أن تصدق ما قلته لك آنفاً، من أني كنت طوال حياتي وحتى تلك اللحظة التي انتهى فيها لقاءي الأول بـــ (أنور): (بتـــول) لم يمسسني قبله إنس ولا جان..

ما عدا الاتصال الذي أجريته مع (كايتي) بعد ذلك، لم أقم بأي شيء في ذلك اليوم، بل عدت إلى شقتي وانهمكت في إعادة شريط ما حدث مرات ومرات، في محاولات بائسة وغير يائسة لفهم حقيقة ما جرى، لاسيما من الناحية الشعورية، وما الذي يمكن أن يعنيه كل ذلك بالنسبة لي وبالنسبة له، وبقدر ما كنت حريصة على ذلك فإني بالقدر نفسه وربما أكثر وجدت نفسي مدفوعة برغبة شديدة إلى معايشة ما حدث طوال اليوم، وكان عليَّ أن أراقب عن كثب مقاصدي، ولعلي تمكنت من اقتناص أول اعتراف ضمني سجلته بيني وبين نفسي وطويته سراً دفيناً، من أني وقعت في حب الرجل، وأصبحت مغرمة به، فما حدث بيني وبينه قبل ذلك اللقاء ينطبق عليه قول الشاعر الذي اصبح مثلاً: (والأذن تعشق قبل العين أحيانا)، بينما طابقت مشاعري بعد اللقاء الأول مع القول السائد عن (الحب من النظرة الأولى)، ولكني مع ذلك راوغت نفسي حينها وأظهرت بعض الالتزام بروح الموضوعية، فقلت لنفسي بأن هذا يظل مجرد احتمال قابل للصدق والكذب معاً، وأن عليَّ أن أتحقق من صحة كل الاحتمالات وليس ذلك الاحتمال وحسب، ربما لأني كنت مدركة تماماً مخاطر الانجراف وراء عواطفي ومشاعري، وإلى أي مدى كنت وفي كل الأحوال محتاجة إلى ضبط هذا الجانب في حياتي على أسس موضوعية يشترطها واقع كوني (أميرة)، وهو ما وضع أمامي الكثير من الاعتبارات التي ما كان بالإمكان تجاهلها أو اهمالها إزاء أي خطوة قد أقدم عليها في اتجاه أي علاقة عاطفية يمكن أن تنشأ بيني وبين أي رجل (أنور) كان أو أحد سواه.

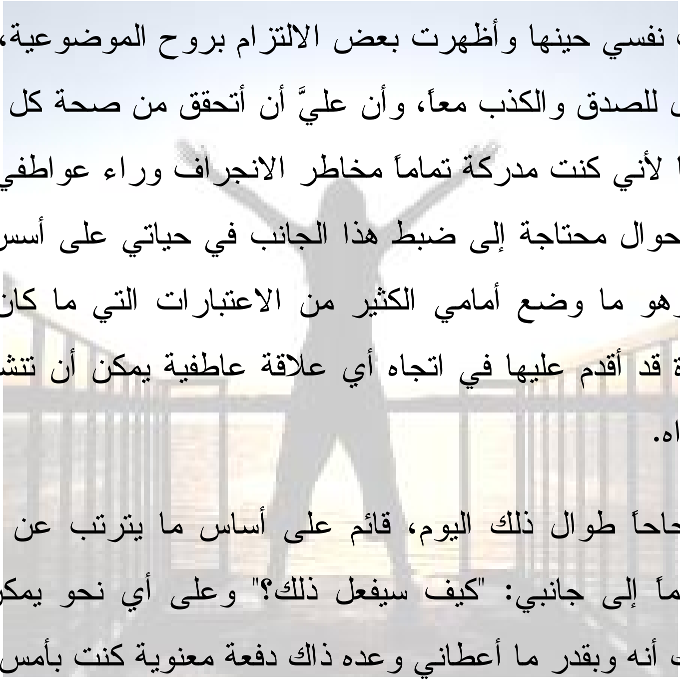

كان السؤال الأكثر إلحاحاً طوال ذلك اليوم، قائم على أساس ما يترتب عن الوعد الذي أطلقه لي (أنور) بأنه سيبقى دائماً إلى جانبي: "كيف سيفعل ذلك؟" وعلى أي نحو يمكن أن يظل به وجوده مستمراً في حياتي؟ ذلك أنه وبقدر ما أعطاني وعده ذاك دفعة معنوية كنت بأمس الحاجة إليها منه على وجه الخصوص، بقدر ما أثار لدي تلك التساؤلات التي سرعان ما تحولت إلى عوائق ذهنية منعتني من التفكير بالأمر، خاصة وأني شعرت بمدى الحاجة إلى قراءة الأبعاد المستقبلية للعلاقة التي سوف تربطنا معاً، فقد كانت حاجتي إلى تحديد ملامح تلك العلاقة واستيضاح طبيعتها متوقفة على ما كنت أجهله ويجسد إجابة لتلك الأسئلة، فقد كنت أجهل بالضبط ما هي خططه ونواياه التي ستحدد كيف سيلتزم بوعده لي، لذا قررت أن أستفيد من الحرص الشديد الذي كانت قد أبدته (كايتي) على معرفة ما جرى في صباح ذلك اليوم مني أولاً، وعلى الإلتقاء بـــ (أنور) بعد ذلك، وهذا بالفعل ما رغبت منها أن تقوم به، فبعد أن أخبرتها على الهاتف بما جرى بطريقتي، سألتني نفس السؤال: وكيف سيفعل ذلك؟

فقلت لها بأن هذا هو ما أجهله وما أرغب بمعرفته في نفس الوقت، وأخبرتها بأني أعتمد عليها في ذلك، وأن كنت حينها واثقة ومتأكدة من أنها تطلب لقاءه لمآرب أخرى لها، المهم أنها رتبت معه للقاء بينهما، قبل على أساسه دعوتها لزيارتها في بيتها، فكان لقاءهما بعد عصر اليوم نفسه هناك.

بادرت (كايتي) بالحديث معه بتهكم سقراطي.. موجهة إليه سؤالها:

- **هه سيد (أنور)، كيف سارت الأمور معكما صباح اليوم؟ أقصد معك أنت و(تيماء)، أرجو أن يكون اللقاء الأول مثمراً..**

- **الحمد لله كان لقاءً طيباً..**

- **خبر رائع، ولكن هل لي أن أسمع منك بشيء من التفصيل كيف كان لقاءكما، لا لشيء إلا لما أعرفه عن سابق علاقتكما الغريبة، ولأنه كان اللقاء الأول، ومع ذلك فأنت لست مضطراً على ذلك سيد (أنور)؟**

- **لا، لا أجد أي مانع، ولكني أود لو أنك تخليت عن التكليف في حديثك معي، فلا داعي لأن تناديني في كل مرة بـــ (سيد عليَّ)..**

- **كما تشاء، وأنت أيضاً ناديني بـــ (كايتي) بدون ألقاب ورسميات.. هه؟؟**

- **سيكون لك ما تريدين، ولكن قبل ذلك ثمة ما أود أن أعرفه منك..**

- **ماذا تقصد؟**

- **علاقتك بـــ (تيماء)؟؟**

- **أووه، أنا آسفة، فقد فاتني هذا حقاً وكنت أظن أني اوضحت لك هذا الأمر في لقاءي السابق بك، في الحقيقة، علاقتي بها تعود إلى سنوات طويلة مذ كانت (تيماء) لاتزال طفلة، فقد كانت ولازالت تربطني بأسرتها علاقة صدقة قديمة، ولطالما كانت (تيماء) ربيبتي من صغرها وحتى اليوم فنحن مقربتان من بعضنا البعض، وأنا هنا في لندن أعتبر نفسي المسؤول الأول عنها، هل يكفي هذا؟**

- **[بأسوب مهذب وجاد قال لها]: اسمعيني جيداً آنسة (كايتي)، أنا شخص يكره أن يتعامل مع الآخرين بمقتضى شكوكه، وأعرف أن هناك أموراً تتعلق بـــ (تيماء) تعمدت هي إلا تخبرني بها، كما فعلت أنت**

أيضاً قبل قليل، ولست معترضاً على ذلك، فقط أريد أن أعرف الحد الأدنى مما يجب أن أعرفه عنها وربما عنك أنت أيضاً، بما يكفي لأن أفهم ما يدور..

- [قالت له (كايتي) بمنتهى الثقة والهدوء]: سيد (أنور) أو (أنور) كما اتفقنا، أقدر ما أنت فيه وما قلته للتو، ولكني لا أجد أحداً سواك يتحمل مسؤولية هذا الوضع الذي آلت إليه الأمور بينك وبين (تيماء)، وإن كانت إحدانا أو كلانا ملزمة بالشرح لك، فيجب أولاً أن تشرح لي ما حصل منذ اللحظة الأولى التي تعرفت فيها عليها وحتى اليوم الذي حدث فيه أول لقاء بينكما، هل أنت معي في ذلك؟ أم لا؟

- ربما تكونين محقة فيما ذكرته عن المسؤولية، ولعل وجودي الآن هنا قائم على إثبات شيء وحيد وهو حقيقة إلتزامي بما أنا ملزم به، لقد جئت إلى لندن لأني عرفت كم أن لقاءي بـــ (تيماء) مهماً بالنسبة لها، وهو مهم لدي على هذا الأساس، لقد عرفت (تيماء) وعاشرتها بطريقة ما وعرفت إلى أي مدى هي بحاجة إلى من يقف معها ويدعمها لكي تكون متوائمة ومنسجمة مع ذاتها والآخرين..

- [(كايتي) باستغراب تسأله]: لم أفهم شيء مما قلته، فهلا كنت أكثر وضوحاً في التعبير بشكل أبسط عما قلته قبل قليل؟

- منذ البداية فهمت مشكلة (تيماء) وبالضبط ما يمكن أن تعاني منه أي فتاة عربية قادمة من مجتمع محافظ ومتزمت وربما متشدد إزاء الكثير من الجوانب، غير أن المشكلة اتضحت لها أكثر وأفرزت معاناة أشد هنا في لندن.

- ما نوع تلك المعاناة؟ وكيف حصلت لها؟

- لقد كانت (تيماء) تعيش قبل ذلك في إطار ما كانت ملزمة به ولا تستطيع تجاوزه، قوانين الأسرة والمجتمع مثلاً، وهذا ما خلق بداخلها دوماً نزعة إلى التحرر والتمرد للتعبير عن ذاتها المستقلة، ولكنها لم تستطع أن تفعل ذلك هنا في لندن، أو ربما كانت تجهل كيف تقوم به غالباً، هذا ما فهمته في بداية تعارفنا.

- سأقول لك شيئاً، يمكنني أن أفهم ما قلته على نحو مجمل، غير أني أعجز عن إدراك أو تصور تلك التفاصيل الدقيقة..

- آنسة (كايتي) ألمح في عينيك سؤالاً تودين طرحه عليَّ، وأعتقد أنك تودين أن تعرفي كيف عرفت ذلك عن (تيماء) دون أن تجمعني بها سابق معرفة مباشرة، فهل هذا ما تودين أن تسأليني عنه حقاً؟

- في الحقيقة، نعم!!!؟ [أجابت (كايتي) وكل علامات التعجب واضحة على ملامحها، أما هو فقد استأنف حديثه].

- كانت الصدفة ولا شيء غيرها من ربطني بـــ (تيماء)، فلعدة مرات تكرر معي ورود اتصالات من رقم هاتفي، وفي كل مرة كنت أجيب على الاتصال لا أجد أحداً يرد، لكن في إحدى المرات فتحت سماعة الهاتف لأرد على اتصال من نفس الرقم، ظللت أنصت لعلي أسمع أي صوت من الطرف الآخر وصادف أن ظل الخط مفتوحاً، وسمعت صوت فتاة تتحدث إلى شخص ما عن أمور الدراسة وأشياء أخرى عادية، وكانت تتحدث بلهجة عربية، بدأت بعد ذلك أحاول الاتصال بها، ولما لم تفلح محاولاتي قررت أن أقوم بذلك عن طريق الرسائل النصية..

- عذراً، ولكن ما الذي دفعك إلى ذلك؟

- لن تصدقيني لو قلت لك بأن ما دفعني كان مجرد شعور غامض جذبني نحوها، شعرت بأنها تبحث عن منفذ لها في هذا العالم، وبأنها كانت تناديني بطريقة أو بأخرى، هذا ولا شيء غيره.

- لكل شعور مقدماته أو دواعيه، فما كانت تلك لديك؟

- أمور عدة، بالنسبة لفتاة شرقية تعيش في لندن، ومن المؤكد أنها ترتاد إحدى الجامعات، يتراوح عمرها بين العشرين والخامسة والعشرين، من لهجتها عرفت من أي منطقة عربية جاءت، ثمة ما دفعها لتكرار الاتصال برقم تجهل صاحبه، وكان من السهل أن أستدل على تناقضات عديدة في شخصية فتاة بمثل هذه الظروف، وهي تناقضات عميقة في شخصية فتاة تغلق هاتفها المحمول طوال اليوم وتفتحه لممارسة هوايتها في ساعة متأخرة من الليل، لذا قررت أن ألفت انتباهها، فاحتفظت بموعد زمني واحد كنت أرسل فيه رسائلي إليها..

- أي نوع من الرسائل كنت ترسلها لها؟ فأنا لم أطلع على شيء منها بعد.. [سألته (كايتي)]

- رسائل عادية، تتناسب مع ما ترغب بقراءته أي فتاة في سنها، فالفتيات في هذا السن يحببن قراءة النصوص الشاعرية ذات الطابع الأدبي والانساني القريب من لغة العواطف والمشاعر، كانت رسائل من هذا النوع..

- عفواً، هل أنت دارس علم النفس، أو ما شابه؟ فقط أريد أن أعرف!!

- تستطيعين افتراض شيء من هذا القبيل، ولكني لست كما تعتقدين بالضبط، فأنا متخصص في علم الأنثروبولوجيا.. وهو علم يحتك كثيراً بعلم النفس، لكن تجربة حياتي هي أكثر شيء علمني كيف أنظر إلى الأمور فيما يتعلق بي وبالآخرين في نفس الوقت...

- (أنور)، لا أخفي عليك مدى اعجابي واندهاشي مما سمعته منك حتى الآن، ولكني أريد أن اقول لك بأني بالفعل لاحظت وبشكل مفاجئ تغير في شخصية (تيماء) وصارحتها بملاحظتي تلك، وهذا ما يجعلني أصدق ما قلته لي، كما أنه يدفعني لطرح سؤال أخر، بشأن ما انتهى إليه الأمر بينكما، ماذا ترى؟!

- أرى أن (تيماء) مدفوعة وراء الكثير من التساؤلات لمعرفة الحقيقة، إنها تبحث عن ذاتها ولكنها اليوم تواجه صعوبات جمة..

- حقيقة ماذا؟

- حقيقة وجود إرادتها الحرة، هي تريد أن تعرف بالضبط ماذا تريد، والحقيقة التي يجب أن تعيش وفقها وبموجب حقها في أن تكون كما تحب وتريد هي، حقيقة أن كل القواعد والقوانين التي تربت فيها وعليها أصبحت قيوداً تكبلها وتغل إرادتها، حقيقة أن لها ذات وهوية وشخصية تنزع بالفطرة إلى التحرر والاستقلال، وحقائق أخرى من هذه الشاكلة..

- وأين المشكلة؟

- كما فهمت منها اليوم، فالمشكلة بالنسبة لها تكمن في ضرورة مواجهة هذه الحقائق، الاقرار بها ومن ثم العمل بموجبها، وهذا يعني أنها أمام طريقين لا ثالث لهما: طريق التحرر والانعتاق وهذا يعني الدخول في صراع مع الواقع الذي جاءت منه وتتوقع أن تعود إليه، والطريق الثاني طريق الخضوع والبقاء في حدود النظام المفروض عليها، وهذا يعني انكار الذات وقمعها والغائها والوقوع تحت طائلة الكبت والحرمان والقهر..

- وكيف تكون متأكداً هكذا من صدق ما تقول؟

- سوف اسألك سؤالاً كم توجد في نظرك (تيماء)؟ طبعاً الجواب: واحدة، ولكن الحقيقة ليست كذلك، هناك (تيماء) مزدوجة، (تيماء) الفتاة العربية التقليدية التي لم تتعدى أسوار المنزل وجدران الحجرة التي تعيش فيها، و(تيماء) الفتاة التي تعيش وتدرس في لندن، هل تتوقعين أن تعود الأخيرة إلى موطن الأولى لتخضع لنفس النمط السائد هناك؟

- هل تقصد أنها تعاني من فصام في الشخصية؟

- لا، لا ليس بهذا السوء بعد كما أني لست بطبيب نفسي، أنا أقول أنها تعاني من صراع داخلي مرير، يجب أن تحسمه باتخاذ قرار، إما بالانحياز لذاتها أو بالانقياد لواقعها، هل ستختار (تيماء) العربية أم (تيماء) الغربية؟؟ هذا هو سر معاناتها؟ وهذا أمر طبيعي..

- وأنت لا علاقة لك بكل ذلك؟ هل هذا ما تود أن تقوله لي؟

- طبعاً لا، فأنا الشخص الذي وجدته (تيماء) في تلك المرحلة، عندما كانت تبحث عن نفسها، وعن طريق تمارس فيها نزوعها التحرري، والمشكلة بالنسبة لي أنها صادفتني أنا، وكان هذا شأنها معي وشأني معها..

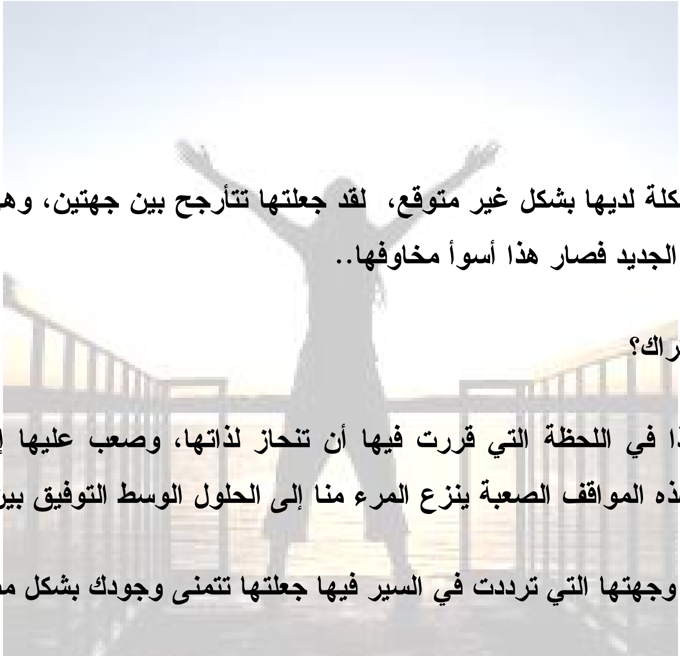

- وإذن؟

- لقد تطورت المشكلة لديها بشكل غير متوقع، لقد جعلتها تتأرجح بين جهتين، وهي اكتشفت فجأة أني أصبحت سجانها الجديد فصار هذا أسوأ مخاوفها..

- ولهذا طلبت أن تراك؟

- بالضبط، كان هذا في اللحظة التي قررت فيها أن تنحاز لذاتها، وصعب عليها إتخاذ القرار وتنفيذه وغالباً في مثل هذه المواقف الصعبة ينزع المرء منا إلى الحلول الوسط التوفيق بين الأضداد.

- هل يعني هذا أن وجهتها التي ترددت في السير فيها جعلتها تتمنى وجودك بشكل مباشر في حياتها؟

- هكذا يبدو الأمر لأنها اعتقدت ولازالت تعتقد انني السبب وراء التغيير الذي طرأ على شخصيتها وطريقة تفكيرها، وجل ما تخشاه إلا تجدني من بعد لأي سبب، لقد أرادت من حيث لا تشعر أن ترى نفسها التواقة للتحرر في مرآة الحياة الواقعية بصورة (الرجل)، ولعلها لاشعورياً اعتبرتني صورتها الذكورية، أو أنها صورتي الأنثوية، وهذا مسلك تبحث فيه عمن تستمد منه القوة التي تمكنها من مواجهة الواقع، خصوصاً وأنها باتت تدرك أن هذه المعركة ليست معركتها الشخصية، بل معركتها الشمولية من أجل نفسها وبنات جنسها في مجتمعها وبلدها..

- معنى هذا أنها لا تدرك أي بعد شخصي لعلاقتها بك وعلاقتك بها أقصد بالضبط المعنى العاطفي.. أليس كذلك؟

- للأسف ليس هذا ما فهمته منها أثناء لقاءي بها هذا الصباح..

- ماذا تقصد؟

- ما تعاني منه (تيماء) هو هذا الأمر.. العلاقة بيننا؟؟

- (أنور)، اسمح لي أن أسألك بصراحة وأن اطلب منك أن تجيب بمنهى الصراحة: هل يمكن أن تتخذ العلاقة بينكما مسلكاً عاطفياً؟ على الأقل من جهتها هي، كأن تحبك فعلاً؟

- هذا احتمال وارد في ظل انجذاب متبادل ولكن صدقيني، ما بيننا لا يمكن أن يكون أساساً لعلاقة من هذا النوع..

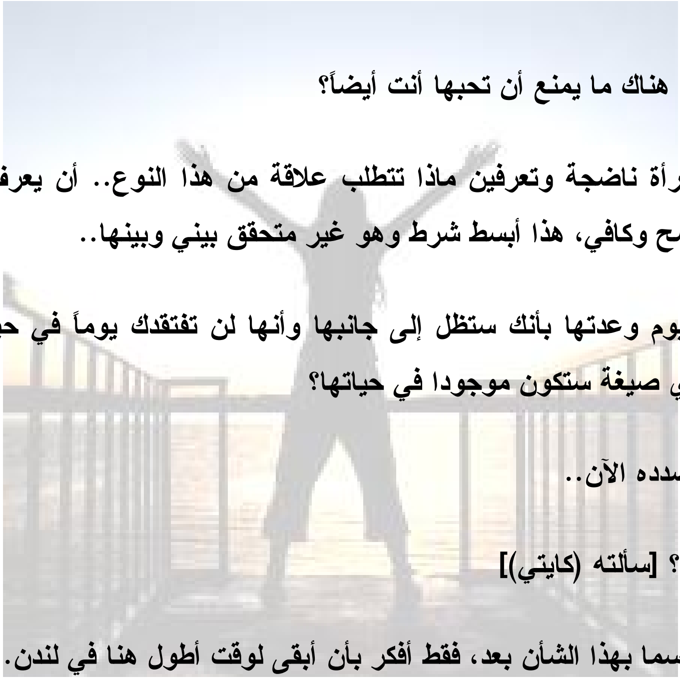

- أصدقك ولكن هل هناك ما يمنع أن تحبها أنت أيضاً؟

- (كايتي)، انت امرأة ناضجة وتعرفين ماذا تتطلب علاقة من هذا النوع.. أن يعرف كل طرف الطرف الآخر بشكل واضح وكافي، هذا أبسط شرط وهو غير متحقق بيني وبينها..

- صحيح، لكنك اليوم وعدتها بأنك ستظل إلى جانبها وأنها لن تفتقدك يوماً في حياتها، فكيف ستلتزم بهذا الوعد؟ وبأي صيغة ستكون موجودا في حياتها؟

- هذا هو ما أنا بصدده الآن..

- أعلم، ولكن كيف؟ [سألته (كايتي)]

- لم أتخذ قراراً حاسما بهذا الشأن بعد، فقط أفكر بأن أبقى لوقت أطول هنا في لندن..

- حسناً، أعتقد أنه يكفي إلى هذا الحد وسوف تستمر لقاءاتنا لاحقاً، وتأكد أنني سأكون إلى جانبك طيلة ذلك الوقت.. من أجل (تيماء)..

- أثق بذلك..

- حسناً..

هكذا سارت الأمور وأفضت إلى تأكيد ما لا مناص من القيام به، فأهم شرط لإحداث تحول في مسار علاقتي بـــ (أنور)، أن نتعارف بشكل أفضل وأوضح، وأن يعرف كل منا الآخر على نحو ما هي حقيقة الأمر في الواقع، ولأنه كان قد تجاوز هذه المشكلة، فكل ما قاله عن نفسه كان صحيحاً، فقد ظلت المشكلة.. مشكلتي، فأنا لست تلك الفتاة التي يناديها وهو يعلم باسم مستعار، ولا يعرف أي شيء عن حقيقة من أكون، وكان عليَّ أن أسأل نفسي: ماذا سيكون موقفه مني حينما يعلم بأني من السلالة الملكية؟

أصبح هذا السؤال أكثر ما يؤرقني، خاصة بعدما أخبرتني (كايتي) بما دار بينهما، مما جعلني أشعر بأنه أدرك منذ اللحظة الأولى من أني منجذبة إليه، وربما توقع أني كنت قد أصبحت مغرمة به بالفعل، واني من أجل هذا طلبت لقاءه، إذن، وعلى افتراض صحة توقعاته فإنه حينما يكتشف حقيقة أني (أميرة)، فمن المؤكد أنه سينظر إليَّ وكأنني أفرض نفسي عليه، مثل هذا التصور جعلني أؤكد على إمكانية حتمية بأني سأزج بنفسي داخل الاطار نفسه التي تتشكل فيه تلك الصورة النمطية المتكونة في الأذهان، والتي ترانا بها العيون نحن الأميرات العربيات اللاتي يأتين إلى لندن، زد على ذلك أن وجوده في لندن كان متزامناً مع ذروة الأحداث التي شكلت مادة دسمة لصحف الفضائح البريطانية، كما أنه سيكون من السيء جداً أن أعتبره من نوع الرجال الذي يمكن إغراءه بحقيقة كوني (أميرة) وثرية، ولكن – كما سألت نفسي حينذاك- لماذا أفكر وحسب بهذه الطريقة؟ لماذا لا أرى الأمر إلا من هذه الناحية؟ لماذا لا أبحث عن نمط وجود أخر له في حياتي غير هذا النمط العاطفي بكل معوقاته الواقعية، التي تفترض أيضاً مواجهة تحديات الفوارق الاجتماعية والطبقية، والتي ستكون حتماً عوائق تحول دون بلوغ مثل هذه العلاقة إلى نهاياتها المتوقعة والمفضلة، فكما قال (نزار قباني): (الحب ليس رواية شرقية في نهايتها يتزوج العشاق)، ومن ثم فلا مناص من أن أترك الأمر لما يمكن أن تسفر عنه لقاءاتنا التالية، فكيف سارت الامور؟! تعال لنعرف!!

صارحتني بعد ذلك (كايتي) من أنها تخشى أن أكون قد أحببته أو أن تتطور علاقتي به إلى علاقة حب سواء من طرف واحد أو من كلا الطرفين طالما وأن المشكلة قائمة في كل الأحوال، وكان عليَّ أن أوضح لها هذا الجانب ليس رضوخاً لرغبتها، بل لأني كنت بحاجة إلى هديها ومشورتها، فقد أصبحت (كايتي) الشخص الوحيد في العالم الموصول بهذه القصة من جذورها والمعني بتداعياتها، وكان لابد من وجودها معي في هذا المسار الصعب، لذا كانت مصممة على حسم الأمر بشكل عملي إذ رأت أنه

بات من الضروري أن يعرف (أنور) حقيقة من أكون، ففي نفس الليلة زارتني في شقتي واطلعتني بكل شيء دار في لقاءها به، وبعد أن فرغت من ذلك، قالت لي:

- **يبدو أني مضطرة أن اناديك بـــ (تيماء)، وأن أعود لساني على ذلك خشية أن تزل بما يشي بالحقيقة قبل أن تقرري الكشف له عن حقيقتك،**

كنت أدرك مقاصدها، ولكني تجاهلت إبداء ذلك، فقلت لها:

- **ومن يدري؟؟ ربما لو أني أطلعته بالحقيقة، لعرف بأن (تيماء) التي كانت تمثل بالنسبة له مشكلة لم تعد موجودة فيقرر الرحيل..**

- **[ردت عليَّ بمكر وخبث]: ولما عساك راغبة في بقاءه.. هل تنوين احتكاره أم اعتقاله؟ إلا أن كان هناك تفسير لذلك ومازلت ترفضين البوح به؟**

- **أي تفسير هذا؟**

- **(تيماء)، هل تحبين هذا الرجل فعلاً؟ أم أن لك شأناً غير هذا معه؟ يجب أن تعترفي بالحقيقة التي تكتمينها في داخلك على الأقل دعينا نناقشها بشكل جاد.**

- **وماذا عساي أقول لك؟ أني أحبه أم أني أنوي كما تسخرين مني اعتقاله؟**

- **أخبريني فقط بماذا تشعرين؟!**

- **ما من شعور واضح حتى الآن، فكل مشاعري محبطة بالكثير من القيود والعوائق، أولها جهله بشخصيتي الحقيقية، وآخرها وجوده غير المعلن في حياتي وارتباطي به على أي نحو سيكون..**

- **أنت إذن معجبة به، أو في الحد الأدنى ليس لديك أي مانع للاستسلام لشعور من هذه النوع إزاءه، حتى وأن لم تعترفي بذلك أو كما تقولين لم تتضح لك الأمور بعد فيما يخص مشاعرك نحوه فلا ضير من الاعتراف بذلك، فليس بوسع أحدنا التحكم بمشاعره وعواطفه ولهذا تأكدي بأني لن ألومك إذا أكدت لي أنك أحببته بالفعل..**

- **[باستحياء وضعف مصطنع سألتها]: وماذا لو كان الأمر كذلك؟؟؟**

- **حينها سيكون كل شيء منوط بما يبادلك به ولهذا أنصح بسرعة ترتيب الأمور بما يسهل عليك أمر الاعتراف له بحقيقة من أنت..**

- **وكيف أفعل ذلك؟**

- **لا أعرف، ولكني سأنظر في ذلك حتماً وحتى ذلك الوقت يجب أن تحسمي الأمر مع نفسك وأن تتحلي بالشجاعة للاعتراف بحقيقة ما يدور في اعماقك..**

في تلك الأثناء، استجد شيء خطير على الواقع، لم أعره انتباهاً في بادئ أمره، لكنه سرعان ما تحول إلى إعصار يجتاح المنطقة العربية بسرعة خارقة، بدأ الأمر بتظاهرات واحتجاجات شعبية في تونس، سرعان ما تحولت إلى ثورة منتصرة من حيث أمكن لجموع الشعب أن تسقط النظام السياسي الذي كان يحكم البلاد طوال أكثر من عشرين عاماً، والمفارقة الأدهى أن يفر رأس النظام على متن طائرته الخاصة، وتمتنع كل الدول عن قبول لجوئه إليها، بينما تقبل بذلك دولة واحدة فقط، ولم تكن تلك الدولة إلا التي يجلس على عرشها صاحب الجلالة الملك (عمي)..

انتقلت عدوى الثورة إلى شوارع القاهرة، ولم تمضي غير أيام حتى سقط النظام الثاني في المنطقة، ثم الثورة في (اليمن) و(ليبيا) ومظاهرات أخرى في (المغرب) و(الجزائر) و(الأردن) و(البحرين) و(عُمان)، بل ووصلت الموجة إلى مدن ومحافظات المملكة، وطني، ماذا؟ هل يمكن أن يتطور الأمر ويحدث مثلما حدث في (مصر) و(تونس)، وأجد نفسي بين عشية وضحاها (أميرة) من جيش جرار من الأمراء والأميرات، واقعين تحت رحمة العامة من الشعب الذي كنا على مدى قرون حكامه وملوكه؟ أو محكوم علينا بالفرار أو النفي بعيداً عن بلدنا ووطننا؟

كل شيء بدأ يجري على نحو متسارع، والعالم يرقب ذلك كله مدهوشاً مصعوقاً مذهولاً دون أن يقوى أحد على فهم حقيقة ما يحدث، فضلاً عن أن يمنعه أو يقف في صفه، بينما عايشت الرعب الحقيقي في تلك الأجواء، كل القنوات والصحف والمواقع وكل الناس في الشارع وفي كل المدن والقرى على سطح هذا الكوكب لا حديث لها ولا سيرة تخوض فيها إلا حديث الثورات العربية، والموجة التي تجتاح المنطقة، ففي كل ليلة كنت أسأل نفسي عن مصيري فيما لو خرج الناس في بلدي إلى الشارع ضد الملك والحكومة والنظام الملكي، فما عساه يكون المصير؟ يا الله، لماذا كلما تفتحت لي أبواب الحياة، تفتحت معها أبواب عذابات جديدة؟ قلت لنفسي حينها: هذا ما كان ينقصني، أن يأتي الوقت الذي اضطر فيه إلى تخيل نفسي مرمية في الشارع ومنفية، مجردة من كل شيء، الإمارة، الثروة، العز، الجاه، السلطان؟؟ هل يعقل أن يحدث هذا؟؟ ولما لا؟ (فتلك الأيام نداولها بين الناس)، هذا ما قاله

الله تعالى في القرآن الكريم، وهو القائل فيه أيضاً: (يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء) ولما لا؟ وقد رأيت بعيني وشهد العالم أنظمة تسقط بين عشية وضحاها، وحكام يفرون بجلودهم طلباً للنجاة من انتقام الشعوب، بينما زُج بحكام أخرين إلى السجون التي كانوا يعتنون ببنائها ويأمرون بزج كل المعارضين لهم فيها لسنوات وسنوات، ولما لا؟ وقد رأى العالم (عميد الزعماء العرب وملك ملوك أفريقيا وأمام المسلمين) وهو يؤسر ويقتل بأحذية الثائرين عليه هو وأبنائه، بينما أضحت نسائهم وبناتهم منفيات يرقبن ما يحدث ولا يقدرن على دفع الضرر عنه ذويهن أو عن أنفسهن. هكذا، صار للحياة في لندن بعداً جديداً لم يكن في الحسبان مطلقاً، وكان لزاماً عليَّ أن أدرجه ضمن اهتماماتي وأن أحسن استيعابه، وأنا التي لم أتخيل نفسي إلا (اميرة) ولدت (أميرة) وعاشت (أميرة) وستموت (أميرة).

بيد أن موجة الثورات العربية، لم تتضح ملامحها إلا بعد فترة لا بأس بها، بحيث لم يكن لذلك اثراً مباشراً على ما فرضه عليَّ وجود (أنور) في لندن، التي صارت مرادفة لقولي بوجوده في حياتي، فعدة لقاءات جمعتني به بمفردنا، ولقاءات أخرى حضرت فيها (كايتي) التي أعجبت بالرجل، وأيما إعجاب، إلى حد لم أنكر معه أنني شعرت بالغيرة والخشية من أن (تكفته) لنفسها، ومع ذلك، لم أجد الفرصة مناسبة لأخبره بحقيقة من أكون، خاصة وأن التطورات التي كانت حاصلة بقدر ما كانت مستحوذة على أغلب اهتماماته، بالقدر نفسه الذي شكلت أمامي عائقاً جديداً يحول دون أن أكاشفه بتلك الحقيقة، أضف إلى ذلك موجة الفضائح الأميرية التي كانت مستعرة هي الأخرى في لندن.

ولكن كيف كانت تجري الأمور بيننا خلال ذلك الوقت العصيب؟ في الحقيقة، كان (أنور) في الجهة الأخرى التي أمكنه فيها أن يكون في قمة السعادة والفرح إزاء ما كان يحدث، فلم يتوانى للحظة واحدة عن التعبير عن سعادته تلك وعن آرائه ومواقفه السياسية المؤيدة لثورات الشعوب، وعن آماله وأمنياته التي قال بأنها أوشكت على أن تتحقق وتصبح واقعاً، بأن تتحرر كل الشعوب العربية من أنظمتها القائمة، التي تستحق – بنظره – أن تسقط جميعاً، وأسوأ ما في الأمر بالنسبة لي أن أسمع منه أمنياته تلك وفيها ومنها ما صدمني، أن تسقط جميع الأنظمة الملكية والأسرية في المنطقة، حتى النظام الملكي في بلدنا هو الآخر يجب أن يسقط، وأن أسمعه وهو يحرضني على أن أكون في صفوف الثورة هناك في بلدي، ألم أقل لك أني تعيسة الحظ؟! فلتنتظر ماذا جلب لي الدهر والقدر؟ عدو؟؟!! بل عدو حقيقي؟؟!!

في لقاء جمعني به ذات صباح، كان من السهل عليَّ أن أعرف كم هو مهتم بالثورة التي انطلقت في بلده، ولكن كم كان سيئاً للغاية أن يبلغني هو بطريقته تلك بأن الأمر بدء أيضاً في بعض المناطق والمدن داخل المملكة، إلى درجة لم أتمكن معها من مقارعته ومهاجمته، وهو الذي استفزني من حيث لا يشعر، فبعد أن تملكني الغضب الشديد بما يكفي لأن أكره في تلك اللحظة مجرد النظر في وجهه، سألته:

- **لماذا تصر على الحكم على جميع الحكام والأنظمة العربية بحكم واحد وعقاب واحد؟؟ ولماذا تبلغ بك هذه الدرجة من السعادة عندما تشاهد وتسمع عن وقائع القتل وسفك الدماء؟ أن كنت مؤمنا بالثورة إلى هذا الحد، فلماذا لازلت هنا في لندن؟ لماذا لا تسافر إلى بلدك وتنضم إلى الثوار هناك، بدلاً من الجعجعة عندي هنا؟؟**

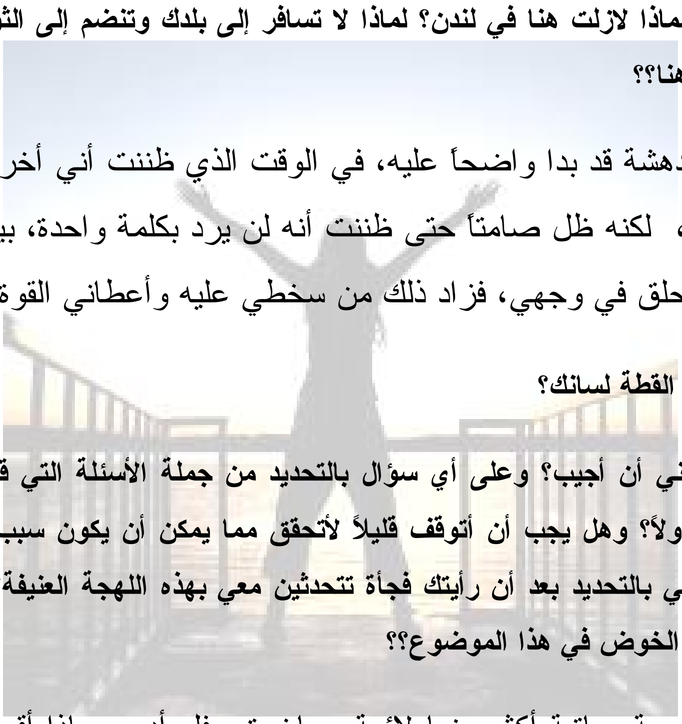

نظر إليَّ وشيء من الدهشة قد بدا واضحاً عليه، في الوقت الذي ظننت أني أخرسته وكففت لسانه عما كان يؤذي به مسامعي، لكنه ظل صامتاً حتى ظننت أنه لن يرد بكلمة واحدة، بينما كنت أشيح بوجهي عن مرآه، وكان هو يبحلق في وجهي، فزاد ذلك من سخطي عليه وأعطاني القوة لأنهره متسائلة:

- **ما بك؟ هل أكلت القطة لسانك؟**

- **بماذا تتوقعين مني أن أجيب؟ وعلى أي سؤال بالتحديد من جملة الأسئلة التي قذفت بها في وجهي يجب أن أجيب أولاً؟ وهل يجب أن أتوقف قليلاً لأتحقق مما يمكن أن يكون سبب غضبك هذا؟ ماذا؟ ماذا تنتظرين مني بالتحديد بعد أن رأيتك فجأة تتحدثين معي بهذه اللهجة العنيفة؟! ألم يكن يكفي أن تطلبي مني عدم الخوض في هذا الموضوع؟؟**

قال لي ذلك بهدوء وبلهجة معاتبة أكثر منها لائمة وساخرة، فلم أدري ماذا أقول له، ولا بماذا أعتذر له غير ما وجدتني أقوله له معللة:

- **سياسة... سياسة.. سياسة.. مللت من ذلك.. لقد مللت، ألا تفهم؟؟**

- **بلى أفهم، ولعلي مدين لك بالاعتذار وأرجو أن تقبلي اعتذاري..**

قال ذلك وهو يرسم ظل ابتسامة خفيفة على وجهه تعمد بها مراضاتي، بقدر ما شعرت بصدقه، شعرت أيضاً بالخوف منه، فقلت له:

- لا داعي للأسف، فأنا من يتوجب عليه ذلك فأعذرني أرجوك..

- لقد سبق وأن فعلت ذلك..

- (أنور) أنا آسفة، أرجوك ألا تأخذ عليَّ شيء في نفسك..

- وأنا أقول لك،لا ضغينة ولا شيء في نفسي، هل تريدين أن أقسم على ذلك؟؟

- لا، ليس إلى هذا الحد

- وإذن؟

- إذن ماذا؟

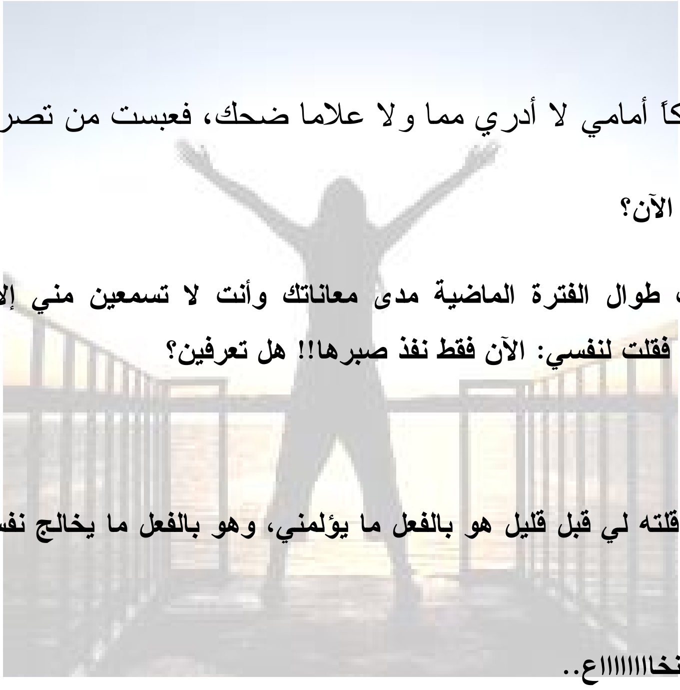

نظر إليَّ وانفجر ضاحكاً أمامي لا أدري مما ولا علاما ضحك، فعبست من تصرفه هذا وسألته:

- ما الذي يضحكك الآن؟

- أبداً، فقط تخيلت طوال الفترة الماضية مدى معاناتك وأنت لا تسمعين مني إلا الحديث نفسه في الموضوع نفسه، فقلت لنفسي: الآن فقط نفذ صبرها!! هل تعرفين؟

- أعرف ماذا؟

- شيء واحد مما قلته لي قبل قليل هو بالفعل ما يؤلمني، وهو بالفعل ما يخالج نفسي وأرغب به حتى النخاع..

- ما هو؟؟ يا سيد نخاااااااع..

- أني هنا فيما هناك في بلدي الشباب قائمون على أمرهم يواجهون الرصاص والقنابل بصدورهم العارية، لقد كنت محقة فأنا يجب أن أكون هناك..

قال ذلك بتأثر شديد حتى أني لمحت الدموع تكاد تسقط من عينيه، فقلت له:

- أعرف أني جرحتك ولكني لم أقصد ذلك، صدقني..

- لا عليك، فهذا كما قلت لك ما أرغب به فعلاً،

- هل تنوي السفر؟!

- **نعم، وأرجو أن تسمحين لي بذلك..**

- **ومن أنا لكي أسمح أو لا أسمح لك؟؟**

- **أنت السبب الوحيد لوجودي وبقاءي حتى هذه اللحظة في لندن..**

- **وهل أنا مهمة بالنسبة لك إلى هذه الدرجة؟؟ [سألته وأنا ممتنة له على ما قاله لي]**

- **نعم، بل وأنت الأهم هنا..**

- **لماذا؟**

- **؟؟؟؟؟**

لم يقل شيء فقد كان جوابه الصمت، وتلك النظرات التي كانت جديدة عليَّ حتى تلك اللحظة..

فجأة تغير الحال إلى النقيض وصرت أرى الأمور على عكس ما كانت عليه، فقد تملكني الذعر من قوله بأنه ينوي السفر والعودة إلى بلده، خاصة بعد أن أخبرني بأنني الأهم لديه، وبعد أن أصبح هناك ما أمتنع عن قوله والبوح به، لماذا أنا الأهم لديه؟ لماذا؟ هل تراه يحبني؟؟ هل يحبني؟؟ ماذا لو أنه يحبني؟؟؟ ولكن الإجابة على مثل هذا السؤال كانت غير متوفرة على نحو قطعي في تلك اللحظة حتماً وغالباً..

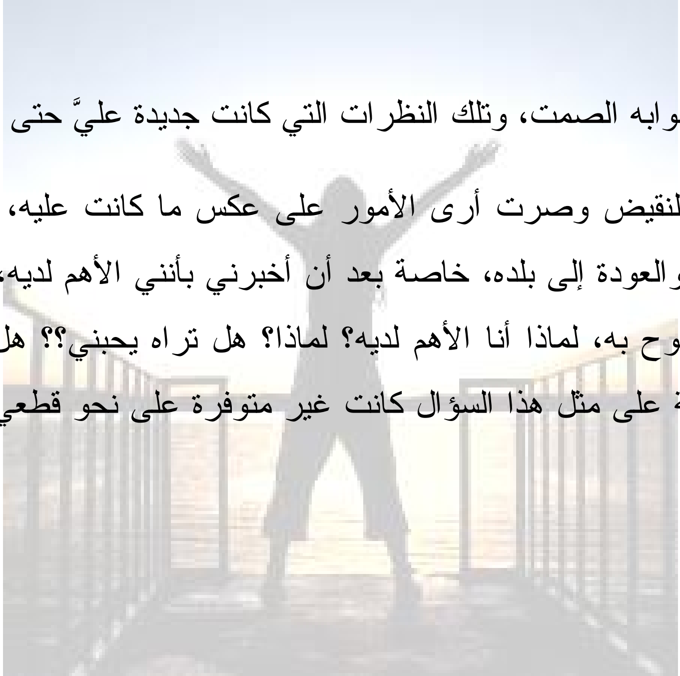

الفصل الثامن عشر

أزمة شرف؟!

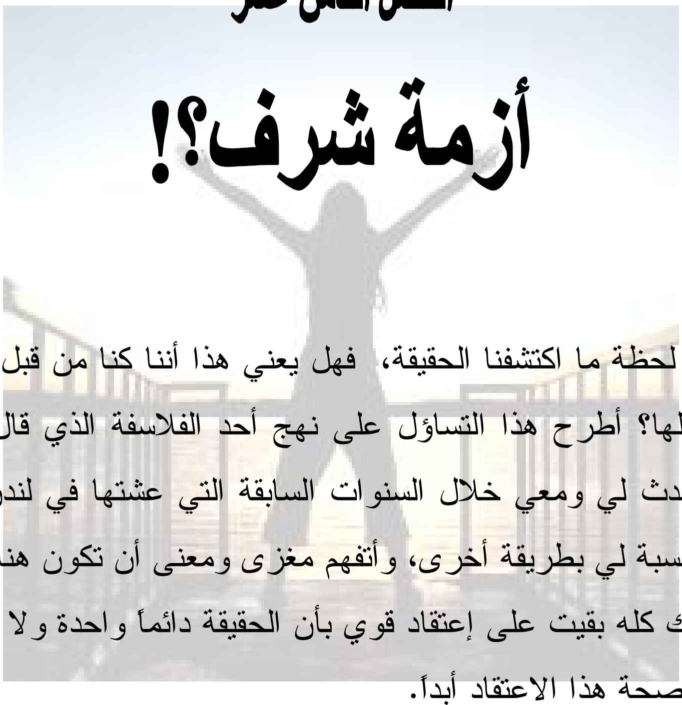

غالباً ما نقول بأننا في لحظة ما اكتشفنا الحقيقة، فهل يعني هذا أننا كنا من قبل نجهل بهذه الحقيقة أو تلك؟ أم أننا كنا نتجاهلها؟ أطرح هذا التساؤل على نهج أحد الفلاسفة الذي قال: [الحقيقة؟ ترى ماذا يعنون بها] ولعل ما حدث لي ومعي خلال السنوات السابقة التي عشتها في لندن، جعلني أرى الكثير من الأمور المألوفة بالنسبة لي بطريقة أخرى، وأتفهم مغزى ومعنى أن تكون هناك وجهات نظر وأراء مختلفة، ولكني مع ذلك كله بقيت على إعتقاد قوي بأن الحقيقة دائماً واحدة ولا يختلف فيها اثنان، ولم يخطر ببالي أن أختبر صحة هذا الاعتقاد أبداً.

ما اكتشفته متأخرة في لندن، هو أن الحقيقة بالفعل واحدة، ولكنها تخضع في نفس الوقت لكل المعايير النسبية، لا سيما تلك التي تظهر من خلالها التباينات والاختلافات بين الناس والشعوب والثقافات والأفكار، ولهذا السبب تبدو الحقائق محاطة بالعديد من الملابسات والجوانب المبهمة والغامضة، وما نتعامل معه ونعمل بموجبه في أغلب الأوقات ليس الحقيقة ذاتها، وانما الفهم الذي تكون لدينا لها، إنها المسافة الشاسعة التي تفصل بيننا وبين الحقائق، فالحقيقة لا تحتاج إلى تفسير أو ترجمة، لأنها بينة واضحة ومدركة بذاتها، وحيثما نجد الحقيقة لن نكون بحاجة إلى (الأسماء أو المعاني)، نعم.. هكذا

أدركت كيف أن الحقيقة هي ذلك اللامعنى الحاضر دائماً والبين دائماً، ولكن المعاني تحجبها والتفاسير تحرفها، الحقائق لا تغيب عن محيط وعينا وادراكنا، بل يتم تغييبها عن وعينا وادراكنا، ومن الطبيعي جداً أن تكون لكل منا حقيقته الغائبة أو المغيبة، واكتشاف تلك الحقيقة والوصول غليها يجب أن يكون على رأس أولويات المرء منا، والآن سأعود إلى القصة.

بشيء من المنطق كان عليَّ في البداية أن أعيد الأمور إلى بؤرتها الأصلية فيما يخص علاقتي بـــ (أنور)، لذا وبنوع من التجريد احتجت إلى أن أسأل نفسي: ما الذي أريده بالضبط من وجود هذا الرجل في حياتي؟ وما الفارق الذي يمكن أن يحدثه اعترافه لي بأنه بالفعل يحبني؟ خاصة وأني حتى ذلك الوقت لم أكن قادرة على حسم هذا الجانب من ناحيتي، وفي المقابل كان يجب أن أفهم حقيقة الالتزام الذي يبديه نحوي والغاية الحقيقية من وجوده هو في لندن، غير أن هذا النوع من التفكير لم يكن له طائل، لأنني في قرارة نفسي كنت مدركة بأنني كنت بذلك أرواغ واتهرب من مواجهة الأسئلة الجوهرية، والتي لم أجد بداً من مواجهتها.

تكونت لدي هذه القناعة، بعدما رأيت ذلك العزم القوي على السفر في عينيه، وشعرت بالخوف من أن يحدث ذلك، ولا يسعني على الاطلاق منعه والحيلولة دونه، ولكن ما الذي يجب أن اقوم به بالتحديد؟ هو ما كان يمثل بالنسبة لي سؤال لم أجد له اجابة، أو السؤال الذي يجب أن أستعين بأحد ما من أجل أن أقرر الاجابة عليه.

كانت (لورا) بمثابة الشخص الوحيد الذي بإمكاني اللجوء إليه، لذا كان لقاءها والتحدث إليها مهمتي الرئيسية في صباح اليوم التالي، ولم تخيب هي ظني أو تشعرني بما قد يقلل من حسن اختياري لها، كان ذلك عندما قمت بزيارتها في مكتبها وطلبت منها أن تخصص لي مساحة كافية من وقتها في ذلك اليوم، فردت عليَّ بدماثة خلق وتواضع جم بأنها لن تدخر وقتاً لنفسها تعلم أنني قد أحتاج إليه، فأعطتني فترة المساء كلها وواعدتني أن تزور شقتي في الرابعة بعد العصر.

عادة ما يقال: (وعـــد انجليزي) وهو مثل يعبر عن مدى احترام الانجليز لوعودهم وتعهدهم المطلق بالوفاء بها، ولولا هذه الخصلة الأخلاقية الرفيعة التي يتمتع بها شعب انجلترا لما قامت لليهود الصهاينة دولة في فلسطين العربية، وليس هذا فحسب بل ويحترم الانجليز مواعيدهم ويتوخون دوماً الدقة فيها، يا له من شعب رائع!! لقد قلت هذا فقط من أجل أن أقول أن (لورا) وفت بوعدها وجاءت

في موعدها بالضبط، حتى أني لم أشك للحظة بأنها يمكن أن تكون قد جاءت مبكرة، وظلت واقفة أمام باب الشقة تنظر لساعتها وتوقت للحظة التي سوف تضغط فيها على مفتاح جرس الباب، في حين أني كنت مستعدة تماماً لاستقبالها ولقائها، فقد قابلت خصالها الانجليزية تلك بما يناسب الموقف من خصالنا العربية الأصيلة، التي يمثل اكرام الضيف وحسن وفادته تاجها واكليلها، وبعد اتمام مراسيم الضيافة كان يجب الفراغ إلى ما كان سبباً لتلك الزيارة والغاية منها، ولكن بعد مبادرتها هي، إذ سألتني:

- **والآن تعالي واجلسي لأسمع منك..**

ارتحت كثيراً، وجلست على أريكة قبالتها وأنا مبتسمة والسرور يخالج روحي ويدغدغها برقة وعذوبـــة، وهي التي كانت تنظر إلى وجهي مبتسمة وتنتظر أن أتم جلوسي، وما أن تم لي ذلك حتى عادت وسألتني:

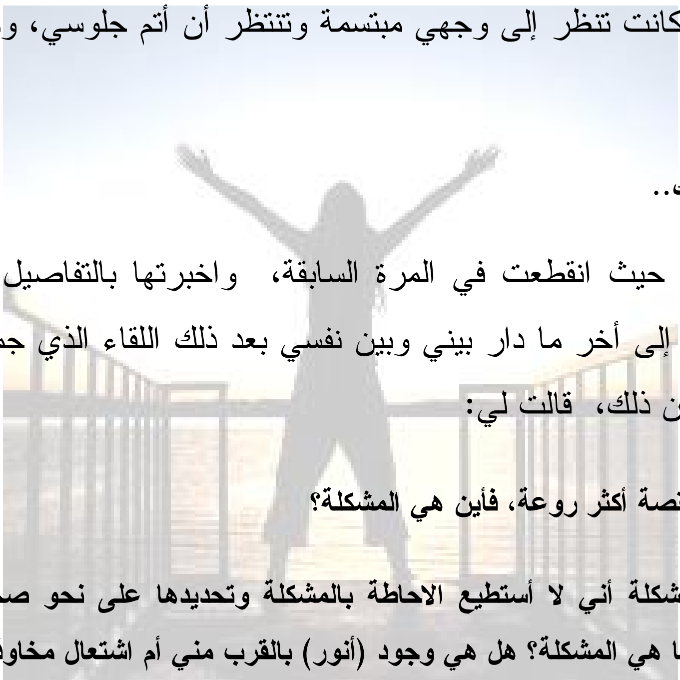

- **أخبريني ما عندك..**

سردت لها القصة من حيث انقطعت في المرة السابقة، واخبرتها بالتفاصيل الجديدة من أول وجود (أنور) في لندن إلى أخر ما دار بيني وبين نفسي بعد ذلك اللقاء الذي جمعني به في اليوم السابق، وبعد انتهيت من ذلك، قالت لي:

- **تطورات رائعة لقصة أكثر روعة، فأين هي المشكلة؟**

- **في الحقيقة، المشكلة أني لا أستطيع الاحاطة بالمشكلة وتحديدها على نحو صحيح (لورا)، فأنا لا أعرف بالضبط ما هي المشكلة؟ هل هي وجود (أنور) بالقرب مني أم اشتعال مخاوفي مجدداً من رحيله وابتعاده عن دائرة حياتي كلها؟ وهل يجب عليَّ أن أفعل شيء ما من أجل ذلك أم انتظر منه هو أن يفعل؟ هل أتركه يرحل أم أمنعه من ذلك؟ ولماذا في كلا الحالتين؟ وهكذا، اسئلة كثيرة تراودني ولا أعرف بأيها أبدأ؟؟**

- **ولماذا كل هذا التعقيد؟ [سألتني بهدوء وتطمين].**

- **نعم؟؟؟ [لم أعي غاية سؤالها]**

- **نعم (تيماء)، ألم تقولي لي قبل قليل بأنك تتهربين من مواجهة الأمر؟! هذا بالفعل ما تقومين به من خلال البحث عن المشكلة بهذه الطريقة، مع أنه بإمكانك أن تنتهي من الأمر بدون ذلك كله.**

- **كيف ذلك؟**

- **دعيني أسألك أولاً وقبل أي شيء، هل بقي شيء لم تخبريني به وتعتقدين بأنه من الضروري أن أعرفه؟؟**

- **لا أعتقد ذلك، وإذا تذكرت شيئاً من ذلك فسأخبرك به حتماً..**

- **حسناً، المشكلة يا عزيزتي هي أنك أحببت هذا الرجل ولا تريدين الاعتراف له بذلك وربما للأخرين، فما فهمته من كلامك يجعلني أعتقد بأنك تعرفين ذلك..**

- **عفواً أن قاطعتك، كيف لي أن أتأكد من أن ما أشعر به تجاهه هو (حب)؟؟**

- **عزيزتي (تيماء)، لا داع للمكابرة والعناد، كل ما قلته ويبدو عليك لمجرد ذكر اسمه والحديث عنه فقط يؤكد بأنك بالفعل عاشقة ومغرمة، بل ومفتونة به إلى العظم، فأن تحب الواحدة منا بقاء رجل ما بالقرب منها وتكره فراقه أو بعده عنها يعد دليلاً كافياً، ومع ذلك ثمة دليل فعلي أهم وأعمق، وهو وضوح تأثير هذا الرجل عليك بقوة، فعندما كنت تصفين لي الطريقة التي يتحدث بها، كنت أنت تتحدثين بنفس تلك الطريقة، نعم!!! [صمتت لبرهة ثم أردفت]: عزيزتي، أنت تحبين (أنور) هذا، أؤكد لك ذلك وستعترفين لي بذلك الآن؟؟**

لم أتوقع أن تطلب مني ذلك الاعتراف، ولكني كنت واثقة من أنها كانت تقصد أن أفعل ذلك، بأن تدفعني غليه، ولأني لم أكن لأشعر بالحرج مما كنت قد اعترفت به لنفسي، بقدر ما كنت مدركة مدى حاجتي للاعتراف، حينها أطلقت لساني وأعترفت لها:

- **نعم، أنا أحبه..**

- **اعترفي له بذلك، هذا ما يجب عليك فعله وبمجرد ما تنتهين من ذلك ستجدي أن كل شيء سيكون واضحاً، ولن تواجهي أي مشكلة من بعد معه أو بسبب بقاءه أو رحيله سوف تحسمين الأمر معه كما حسمته الآن مع نفسك، لا شيء أمامك غير القيام بهذه الخطوة..**

- **(لورا)، من الصعب جداً على فتاة مثلي أن تصارح شاب بحبها له قبل أن يسبقها هو إلى ذلك، ماذا؟ ماذا لو لم يكن يبادلني نفس الشعور؟**

- على الأقل ستعرفين حقيقة مشاعره تجاهك وتتخلصين من كل هذه المعاناة التي جعلتك تلجئين لي وتنشدين مني الرأي والمشورة بحثاً عن طريق للخلاص، مع أنك في قرارة نفسك كنت تعرفين ما عليك القيام به، أما ما قلته بشأن من يبدأ بذلك الشاب أم الفتاة، فهذا مما عفا عليه الدهر..

- ولكن ثمة أمور أخرى لا يمكنني تجاهلها تجعلني أفكر ألف مرة قبل أن أقوم بهذه الخطوة التي لا أعرف أن كنت أنت تنصحيني بالقيام بها أم لا؟

- اسمعيني جيدا، طالما وأنك اعترفت بالحقيقة فإن تفكيرك سيكون في المسار الصحيح، لأنه ينطلق منها، فلا تخشي شيء وماعدا تلك الأمور التي تودين ايضاحها لي فإنني لا أنصحك إلا باتخاذ هذه الخطوة، ولكن لأسمع منك أولاً..

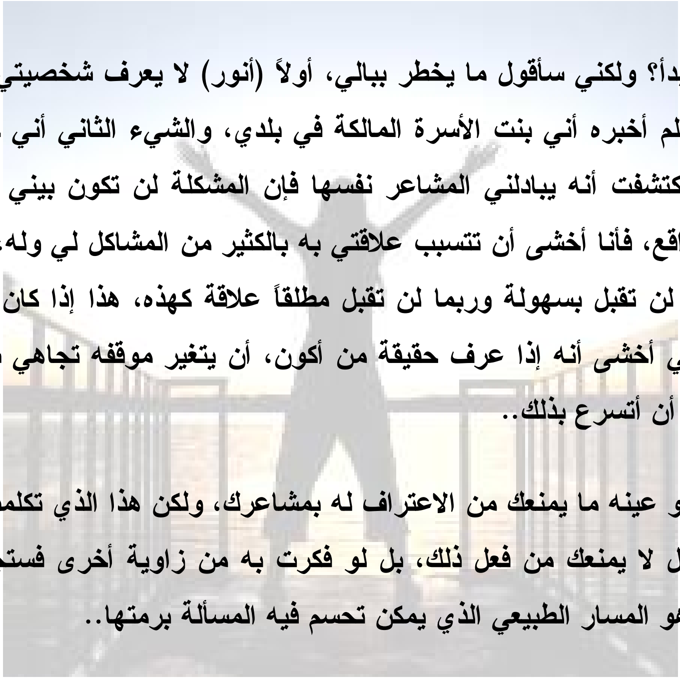

- لا أعرف كيف أبدأ؟ ولكني سأقول ما يخطر ببالي، أولاً (أنور) لا يعرف شخصيتي الحقيقية، لا يعرف عني أي شيء فلم أخبره أني بنت الأسرة المالكة في بلدي، والشيء الثاني أني حتى لو أقدمت على هذه الخطوة، واكتشفت أنه يبادلني المشاعر نفسها فإن المشكلة لن تكون بيني وبينه بل بيننا نحن الاثنين وبين الواقع، فأنا أخشى أن تتسبب علاقتي به بالكثير من المشاكل لي وله، وهذا أمر لن يكون بالهين، فأسرتي لن تقبل بسهولة وربما لن تقبل مطلقاً علاقة كهذه، هذا إذا كان يحبني فعلاً وصرح لي بذلك، كما أني أخشى أنه إذا عرف حقيقة من أكون، أن يتغير موقفه تجاهي سواء كان يحبني أم لا، لا.. لا ينبغي أن أتسرع بذلك..

- هذا ما يقلقك وهو عينه ما يمنعك من الاعتراف له بمشاعرك، ولكن هذا الذي تكلمت عنه وأغلب الظن أنه صحيح بالفعل لا يمنعك من فعل ذلك، بل لو فكرت به من زاوية أخرى فستجدين أنه يدفعك إلى نفس المسار، وهو المسار الطبيعي الذي يمكن تحسم فيه المسألة برمتها..

- وكيف ذلك؟؟

- سأقول لك مع أن الأمر واضح، أنت ستعترفين له بأنك تحبينه كما وسيعرف منك حقيقة من تكونين، حينها سيقول لك ما يشعر به نحوك، فإن كان يحبك فعلاً فسيكون معني بكل العوائق التي تحدثت عنها مثله مثلك وسيكون كل شيء في موضع النظر والنقاش منكما انتما الاثنين، ومن المؤكد أن هذا سيكون له دوره في المرحلة التالية، وأما إذا كانت مشاعره نحوك مختلفة، فهذا سيحسم الأمر مبكراً ولن يكون بوسعك إلا احترام موقفه دون الانتقاص من نفسك بشيء..

- ولكنه.. أقصد أنـــــ...؟؟

- **ولكنه ماذا؟ ماذا؟**

- **لا، لا شيء، فقط ما يتعلق بتفكيره في بعض الأمور ولولا أنه لا يعرف حقيقة من أكون لما كان لي أن أعرف عنه ذلك..**

- **(تيماء)، ما هو هذا الذي تتحدثين عنه؟**

- **ما أردت قوله لك هو أن (أنور) يفكر بطريقة، لا أعرف كيف أقول لك ذلك، أقصد لقد سمعت منه وتحدث أمامي بأشياء تجعله (عدواً) بالنسبة لي بل هو على ذلك النحو عدو حقيقي لي ولبلدي وأسرتي إنه يحرض على الثورة في بلدي، الثورة على من؟ طبعاً على حكم أسرتي ونظام الدولة الذي أقامه أسلافي، لقد قلت لك من قبل لا أعرف كيف جعلني هذا أنظر إليه كعدو، فإذا كنت أتوقع معارضة شديدة من قبل أسرتي لعلاقتي به فكيف سيكون الحال وهو يتبنى ذلك الموقف المعادي؟**

- **سأقول لك شيئاً قد لا تكوني مدركة له، وهو أنك تقحمين السياسة والقضايا العامة بالمسألة العاطفية الشخصية وشتان بين الأمرين، فهذا ليس صحيحاً من الناحية الموضوعية، وثقي بأنه لن يكون عادلاً بحق أي منكما، لذا أسألك: هل تعتقدين أن آرائه تلك ومواقفه يمكن أن تؤثر على مشاعرك نحوه؟ وحبذا لو كان جوابك صريحاً..**

- **في الحقيقة، لا أعرف وربما هذا ما يؤرقني أكثر.**

- **حسناً، هل عبرت له عن وجهة نظرك وموقفك ودار بينكما نقاش بخصوص تلك المسائل؟**

- **كان بالإمكان ذلك ولكني منعت حدوثه..**

- **اسمعيني إذن (تيماء)، هل تريدين النصح مني؟**

- **نعم..**

- **سيق ونصحتك بأن تعجلي مكاشفته بحقيقة هويتك وأن تصارحيه بمشاعرك نحوه ومازلت أؤكد على ضرورة قيامك بذلك أياً ما كانت مخاوفك، ولكني أنصحك بأن تستبقي الأمر بعدة لقاءات معه، حاولي فيها أن توضحي له أرائك ومواقفك المقابلة وتخضعان موضوعات الاختلاف تلك للنقاش، هذا سيكشف لك عن تأثير ذلك على علاقتكما كما أنه سيمهد أمامك الطريق لإخباره من أنت في الحقيقة ولتكن البداية بهذه الخطوة..**

لم أحصد ما كنت أرجوه من حديثي مع (لورا)، ولكني رأيت أنه سيكون من الصعب عليَّ جداً مواجهة الأمور بذلك الشكل الذي بدت به، ففي تلك الليلة فكرت بـــ (أنور)، وجهه الذي تكسوه مُلحة تجعله وسيماً في نظري، ومنظره الأنيق والمرتب، وصوته النافح رشداً ورزانة، جرأته ولباقته، نبله ودماثة أخلاقه وحسن معشره، وابتسامته الودودة التي لا تفارق صورته في معظم الأوقات، وحنانه الذي أحسن دائماً أن يغدق به عليَّ، وكأني من خاصة أهله وذويه، فضلاً عن ثقافته وغزارة معرفته، في الحقيقة، كل هذه الصفات فيه كانت تجذبني إليه، وأنا التي كنت ولازلت على ثقة بأن من هم على شاكلته قليلون جداً في هذا العصر، بل ويمكن القول بأنه يمثل نوعاً نادراً من الرجال، ولأن الأمر لم يعد مقصور على الانجذاب، بقدر ما بُتُّ حينها متأكدة تماماً من أنني أحبه بالفعل، أحبه إلى درجة تصورت معها بأني لن أجد رجلاً مثله في حياتي مرة أخرى..

ولكن وآه من هذه (لكن)، فلطالما شعرت بها تعطفني وتنعطف بي خارج كل مسار أحببت السير فيه، كانت الأحداث المتسارعة في الشارع العربي تبعث الخوف والرعب في نفسي على ملك آبائي وأمجاد أجدادي، لاسيما وأني كنت أسمع وأرى وأشهد عن كثب كيف أن تلك المخاوف التي كانت تراودني، كانت تراود جميع أبناء الأسرة المالكة، فهناك الكثيرون ممن بدأوا يتحدثون عن اقتراب نهاية حكمنا وملكنا وعرش دولتنا، وهناك الكثير ممن يحرضون ويؤججون نيران الحقد والعداء ضدنا في المملكة، ويعملون عياناً جهاراً ومن وراء الكواليس من أجل اشعال فتيل الثورة ضد الدولة في بلدي، الذي روي ترابه بدماء وعرق أبناء أسرتي وعشيرتي، ومن سوء حظي أن الرجل الوحيد الذي أحببته يقف على الناصية مع ذلك الطرف. نعم، لقد سمعته ووعيت ما كان قد قاله، فهو يكن العداء الشديد لحكم أسرتي ويتمنى من خالص قلبه أن يعيش اليوم الذي تتهاوى فيه عروش ملكنا ومجدنا، فكيف لي من بعد أن أناقشه وأن أحاول اقناعه بغير ما هو مقتنع به أصلاً؟ وكيف لي أن أسمح له بأن يُلقي على مسامعي سموم حقده وعدائه لأهلي وذوي القربى من دمي ولحمي؟ وهل سأسمح لنفسي بأن أمكن عدوهم منهم فقط لأنني أحبه؟ وهل هو سيحبني ويحترمني أن فعلت أنا من أجله ذلك؟ وأنا أعرف بأنه يعرف أن من لا خير فيه لأهله فلا خير فيه لغيرهم؟

طال بي أمد التفكير كأني أمضيت فيه عصوراً وأحقاباً لا ساعات قليلة من ليلة قصيرة، دون أن أجد لنفسي مخرجاً آمناً من مآزق كثيرة كنت مدركة أني واقعة فيها، وبأن التهرب والتجاهل والتسويف ما عاد يجدي، وأنه لا مفر من المواجهة، نعم، فلم أنم تلك الليلة إلا وقد ثبت عزمي واتخذت قراري بأن

انتهي من ذلك كله مهما حصل، ولكن سبق ذلك ما لم أكن اتوقعه، فمرة أخرى كان عليَّ أن أواجه فضائح أبناء وبنات عمومتي..

لازلت لا أعرف ما الذي دفعني بعد عصر اليوم الثاني، إلى أن أتصل بخالتي (سمية) وأبلغها بأني في الطريق إلى القصر لزيارتها والاطمئنان على (هند) التي كنت في أشد الشوق إليها، وهناك التقيت بالخالة أولاً، وبقدر ما رأيتها فرحة بقدومي، بالقدر نفسه الذي شعرت بانها مهمومة أو أن هنالك خطب ما عكر صفو حياتها، وبعد أن احتفت بي طلبت الإذن منها عازمة على الصعود إلى جناح (هند)، فأذنت لي في البداية، ولكنها وقبل أن أضع قدمي على أول درجات السلم استوقفتني قلقة سائلة، وكأن علامات القلق محفورة على وجهها منذ آلاف السنين:

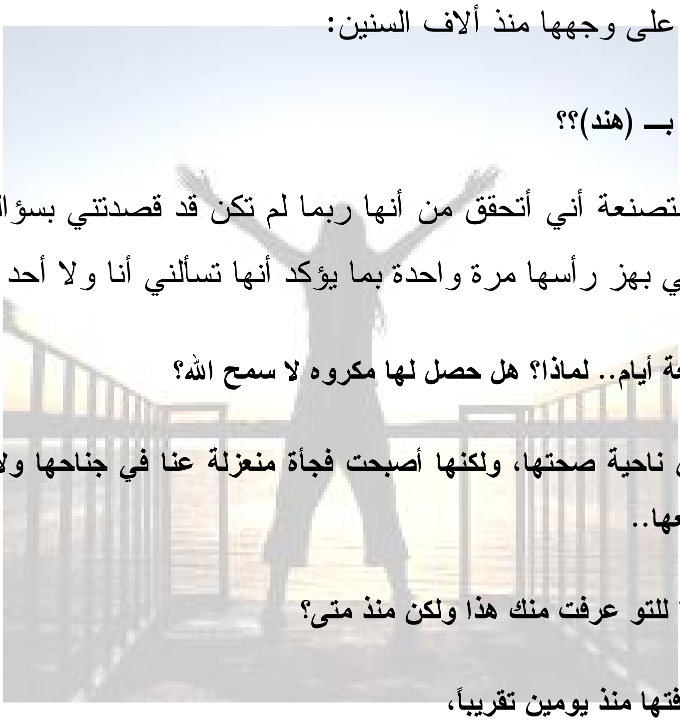

- **منذ متى لم تلتق بـــ (هند)؟؟**

أدرت وجهي ناحيتها متصنعة أني أتحقق من أنها ربما لم تكن قد قصدتني بسؤالها، وبمجرد ما وقعت عيني بعينيها، أومأت لي بهز رأسها مرة واحدة بما يؤكد أنها تسألني أنا ولا أحد سواي، فأجبتها قائلة:

- **منذ ثلاثة أو أربعة أيام.. لماذا؟ هل حصل لها مكروه لا سمح الله؟**
- **لا فهي بخير من ناحية صحتها، ولكنها أصبحت فجأة منعزلة عنا في جناحها ولا تخرج منه وبالكاد نراها أو نتكلم معها..**
- **عفوا خالتي، فأنا للتو عرفت منك هذا ولكن منذ متى؟**
- **لم تخرج من غرفتها منذ يومين تقريباً،**
- **لا تقلقي، سأصعد وأرى ما الأمر..**
- **اصنعي لي معروفاً ولا تعودي إلا بالخبر اليقين فقلبي يخبرني بأن هنالك مكروهاً قد حصل لها والظنون تكاد تفتك بي وأخشى أن يشعر والدها بشيء ويحدث ما لا يحمد عقباه..**

كانت (هند) ممددة على سريرها بما يوحي بأنها لم تغادره منذ ساعات، وجهها كان شاحبا يغلبه الضمور، وكأنها استيقظت من نوم طويل، بينما كان الحزن طاغياً على نظراتها التي رمقتني بها، جلست إلى جوارها من حيث مكنتها من معانقتي، وبعد أن فرغنا من العناق، سألتها:

- **(هند)، ما كل هذا الذي أراه والذي سمعته من خالتي؟ ما بك؟**

- **أبداً، لا شيء؟؟**

- **لا شيء!! كل هذا عندك فقط لا شيء؟!! أخبريني ما الخطب؟**

- **قلت لك لا شيء فأنا فقط متوعكة..**

لم أصدقها، بل تأكدت بأنها تخفي أمراً سيئاً، فظللت ألح عليها وأحاصرها بالأسئلة إلى أن أخبرتني بالأمر، قالت:

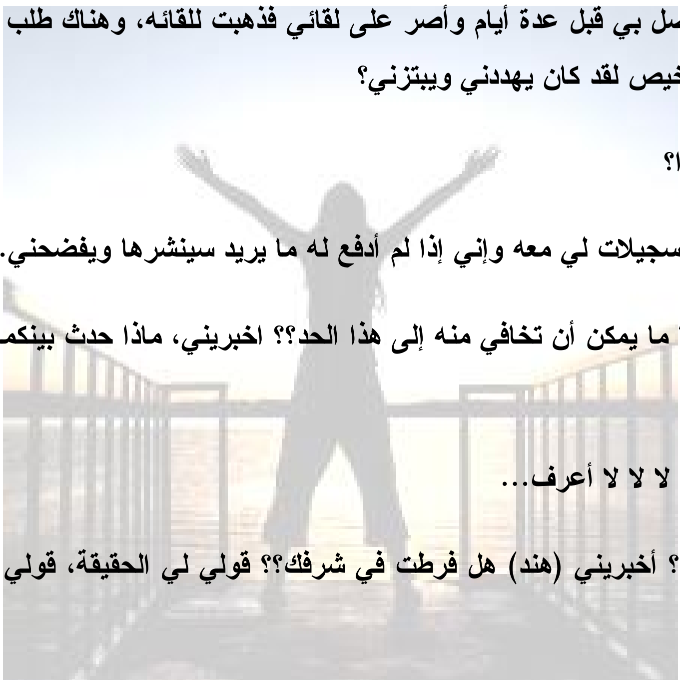

- **عاد (جمال) واتصل بي قبل عدة أيام وأصر على لقائي فذهبت للقائه، وهناك طلب مني مبلغاً كبيرا من المال بأسلوب رخيص لقد كان يهددني ويبتزني؟**

- **بماذا؟ وعلى ماذا؟**

- **قال أنه يحتفظ بتسجيلات لي معه وإني إذا لم أدفع له ما يريد سينشرها ويفضحني..**

- **وهل حدث بينكما ما يمكن أن تخافي منه إلى هذا الحد؟؟ اخبريني، ماذا حدث بينكما ويجعله يبتزك بهذا الشكل الوضيع؟؟**

- **لم يحدث شيء.. لا لا لا أعرف...**

- **هل سلمته نفسك؟ أخبريني (هند) هل فرطت في شرفك؟؟ قولي لي الحقيقة، قولي لي يا (هند) أن هذا لم يحدث؟؟**

كان الموقف قد بلغ ذروته وصرت اتصبب عرقاً من شدة الخوف، وهي منهارة أمامي تبكي وتذرف عيناها الدموع ولا تنوي قول شيء، فجذبتها بشدة وأدرت رأسها لتنظر إليَّ وأنا أسألها بغضب شديد:

- **هل فرطت بشرفك أيتها المجنونة؟**

- **[صرخت باكية]: لا لالا لم أفرط بشرفي.. أقسم بالله أنا مازلت عذراء..**

- **إذن، مجرد قبلات؟ أحضان؟ مداعبات؟؟ هل حصل بينكما أشياء مثل هذه فقط يمكن أن يكون قد سجلها دون علمك؟؟**

- **[.......] ؟؟؟؟**

اعترفت وليت الأرض انشقت وبلعتني قبل أن أسمع منها ما سمعته، فقط وجدت نفسي وأنا أنفخ في وجهها كلمات غضبي وتساؤلات لومي وسخطي..

- **كيف سمحت أن تفعلي بنفسك ذلك؟ كيف استسلمت لنزوات ذلك الساقط اللعين؟ وكيف طاوعك ضميرك أن تتركيه يعبث بجسدك كما فعل؟ أم أن هذا كان برضاك وإرادتك؟ ماذا تركت للساقطات؟ يا هذه، حتى الساقطات يأبين في كثير من الأحيان أن يؤتين من [....] فلماذا فعلت بنفسك هذا يا (هند)؟؟؟ عن أي شرف لم تفرطي به تتحدثين؟ لقد لطخت شرفك وشرف العائلة بالعـ....**

فجأة، رأيتها تنظر إليَّ وعيناها تقدحان الشرر من شدة الغيظ، وما لبثت أن قاطعتني قائلة:

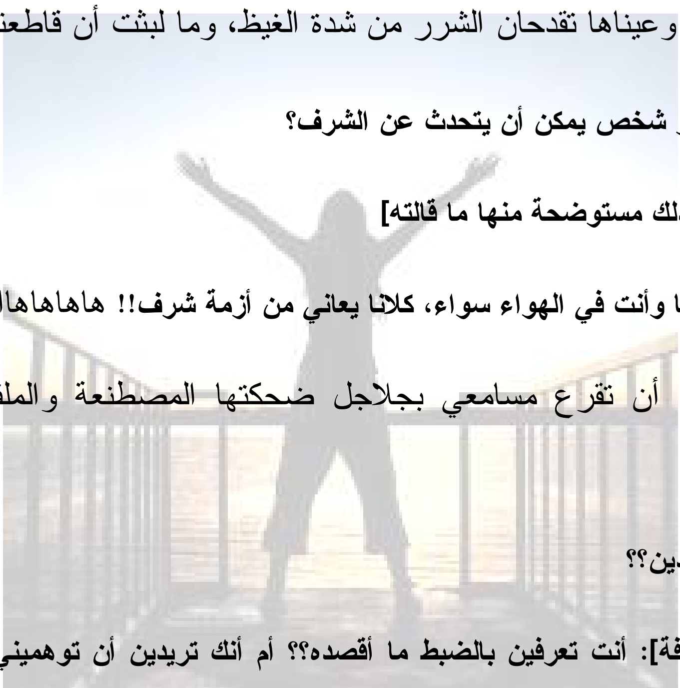

- **اسمعي، أنت أخر شخص يمكن أن يتحدث عن الشرف؟**
- **نعم؟؟ [قلت لها ذلك مستوضحة منها ما قالته]**
- **نعم الله عليك، أنا وأنت في الهواء سواء، كلانا يعاني من أزمة شرف!! هاهاهاهااااااها**

قالت ذلك وهي تتعمد أن تقرع مسامعي بجلاجل ضحكتها المصطنعة والملفقة، مما جعلني أشك وأرتبك، فسألتها:

- **ماذا؟؟ ماذا تقصدين؟؟**
- **[بسخرية متعجرفة]: أنت تعرفين بالضبط ما أقصده؟؟ أم أنك تريدين أن توهميني كما يتوهم الجميع بأنك لا تعرفين شيء؟؟**
- **أعرف ماذا؟ ووهم ماذا هذا الذي تنبزيني وتلمزيني به من حيث لا أدري؟؟ أفصحي عما تتحدثين؟**
- **عن الشرف، شرفك أنتِ؟**

أدركت بأنها تنبزني طاعنة في شرفي، وهي التي كانت قد اعترفت لي قبل ذلك بقليل بأنها سلمت نفسها لذلك الشاذ الذي كان يخدعها، فلم أستطع أن أتمالك نفسي من شدة الغضب، فصفعتها بشدة على وجهها وأنا أقول لها شاتمة:

- **أنا أشرف منك يا مفظوظة الـــ [....]؟**

- **[بفضاضة وخبث رسمت ابتسامة ساخرة وقالت]: بل أنت يا [بنت الحرام] كله؟؟؟**

- **أنا بنت الـــ...**

شددتها من شعرها ونزلت عليها لكماً وركلاً وضرباً، وهي تقاومني وتحرص على أن تفعل مثلما أفعل بضراوة وعنف شديد، فدار بيننا عراك احتدم لبضع دقائق، قبل أن نشعر كلانا بوجود أحد أخر معنا في المكان، ولم يكن هنالك غلا خالتي (سمية)، كانت واقفة عند باب الحجرة مذهولة ومصعوقة مما رأت، ولم أعلم كم مضى من الوقت وهي هناك.

كانت تتأمل إلى وجهينا وكأنها لا تعرفهما، أو تتكر علينا أنها كانت ترى فيهما من تعرفهما، والدموع من عينيها تتساقط غزيرة غير منقطعة، حينها توقفنا أنا و(هند) عن العراك، عندما شاهدناها في مكانها واقفة، وبينما ارتمت (هند) على وجهها فوق السرير، متصنعة البكاء الذي تتزلف به قلب أمها وتستعطفها، كأنها هي المظلومة التي تجبرت أنا عليها، لم أدري أنا ما أفعل ولا ماذا أقول، غير أني اضطررت أن أقول لخالتي متلعثمة:

- **خالتي، هل سمعت (هند) تشتمني؟؟**

نهضت (هند) كاللبوة من فوق سريرها...:

- **هي من بدأت بذلك أمي، شتمتني وضربتني، فقلت لها ما تستحق أن تسمعه؟ أخبريها أنت أيضاً من تكون هي؟ أخبريها الحقيقة يا أمي؟**

رأيت تصميم (هند) على أن تخبرني بشيء ما لا أعرفه، ومبينة لي أن والدتها أيضاً على علم به هي الأخرى، هكذا كان كلام (هند) ولهجتها، فسألت خالتي:

- **خالتي، ما الذي تقوله (هند)؟؟ ما الذي تطلب منك أن تخبريني به؟**

- **[(هند) مقاطعة]: نعم، أخبريها أنك لست خالتها؟ وأن خالتي لم تكن أبداً والدتها؟؟؟**

- **(هند) كفى؟؟؟**

صرخت خالتي (سمية) في ابنتها أن تكف، ولكنها أردفت تخاطبني بلهجة حادة:

- **وأنت أيضاً، طلبت منك أن تفعلي خيراً لا أن تعتدي وتتهجمي على ابنتي هنا في بيتي الذي أويناك فيه من قبل؟؟**

- **[قاطعتها]: فقط اسمعيني..**

- **[خالتي (سمية) مخاطبة اياي]: قلت كفى ومن فضلك دعيني وابنتي لشأننا..**

- **[غير مصدقة ما سمعت]: تطرديني خالتي؟؟**

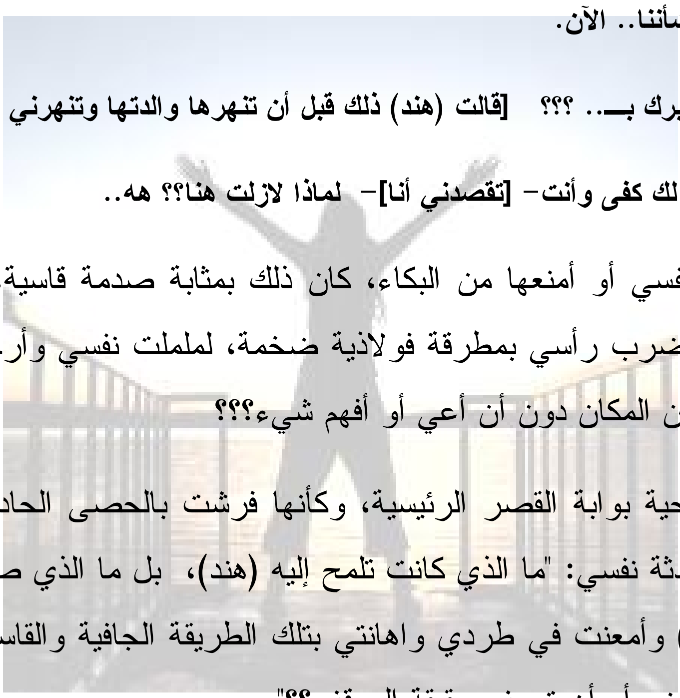

- **قلت لك دعينا وشأننا.. الآن.**

- **سلي (كايتي) تخبرك بـــ.. ؟؟؟ [قالت (هند) ذلك قبل أن تنهرها والدتها وتنهرني أنا أيضاً]:**

- **(هند)، كفى قلت لك كفى وأنت– [تقصدني أنا]– لماذا لازلت هنا؟؟ هه..**

لم استطع أن أتمالك نفسي أو أمنعها من البكاء، كان ذلك بمثابة صدمة قاسية، كانت خالتي (سمية) تتعمد طردي وكأنها تضرب رأسي بمطرقة فولاذية ضخمة، لململت نفسي وأرخيت للدموع أن تسقط من عيني، وانسحبت من المكان دون أن أعي أو أفهم شيء؟؟؟

كنت أسلك الطريق ناحية بوابة القصر الرئيسية، وكأنها فرشت بالحصى الحادة والمسننة والمتجمرة أيضاً، وأنا أتساءل محدثة نفسي: "ما الذي كانت تلمح إليه (هند)، بل ما الذي صرحت به لي، ثم لماذا طردتني خالتي (سمية) وأمعنت في طردي واهانتي بتلك الطريقة الجافية والقاسية أمام ابنتها دون أن تكلف نفسها أن تسمع مني أو أن تعرف حقيقة الموقف؟؟"

لم يكن الأمر واضحاً بالنسبة لي، ولكني شعرت أن (هند) كانت تقصد كل كلمة قالتها، وإلا لما تمادت بذلك حتى بحضور والدتها، بل أنها كانت تلح على أمها أن تؤكد ما ودت أن تقوله، لم أفهم شيء؟!! ولكن ما حدث.. حدث بالفعل، ويجب أن أصدق ما حدث، هذا ما قلته لنفسي عندما شعرت بأني واهنة القوى وبالكاد أستطيع أن أحمل جسدي أو أن أقف لبضع لحظات لأجد مفاتيح سيارتي التي لم أجد سواها أسند ظهري إليه خشية السقوط؟؟؟.

ركبتُ سيارتي، ولم أدرك ذلك إلا عندما أفزعني مزمور سيارة كانت تتحاشى أن اصطدم بها فقد كنت خارج نطـــاق الوعي في تلك اللحظـــات، لذا رأيت أنه من الأفضل لي أن أتوقف عن القيـــادة، لا أعرف لماذا ظلت صورة (هند) مطبوعة في ذهني وتأبى أن تغادره؟ نظراتها المليئة بالتشفي والشماتة وابتسامتها الساخرة لم تغب عن مخيلتي، ولعلي استشعرت إحساس (هند) بالظفر والانتصار فكرهتها، نعم، كرهت (هند) لأول مرة في حياتي: "أكرهك يا (هند)؟ أكرهك، أكرهك" قلت هذا لنفسي بصوت عالي قبل أن أنفجر بكاءً من شدة القهر، ظللت أبكي وأمعن في البكاء دون أن أتحاشى عيون العابرين الذين كانوا ينظرون إليَّ من خلف زجاج السيارة، ولم ألبث طويلاً، بل سرعان ما تذكرت شيئاً، أخر شيء سمعته من (هند) قبل خروجي من القصر، قالت: "سلي (كايتي) تخبرك؟

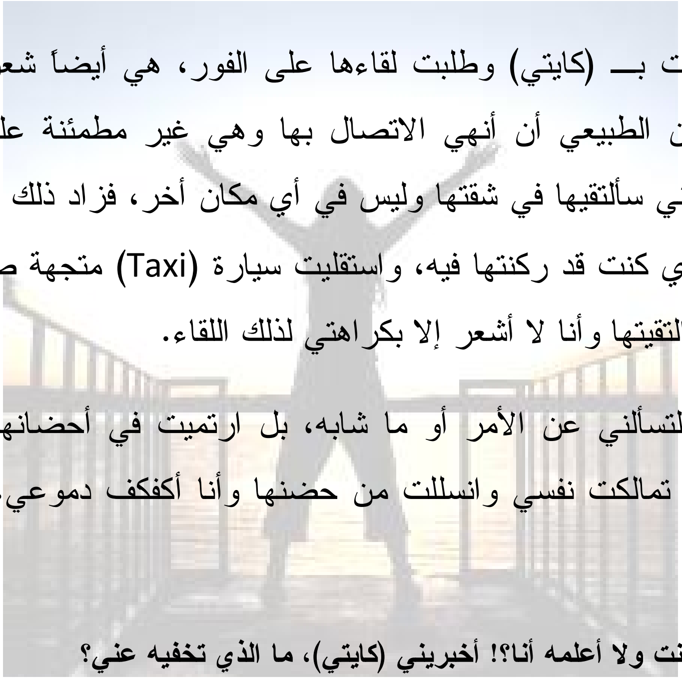

لم أنتظر كثيراً، اتصلت بـــ (كايتي) وطلبت لقاءها على الفور، هي أيضاً شعرت بأن هناك ثمة ما حدث، لذا فقد كان من الطبيعي أن أنهي الاتصال بها وهي غير مطمئنة عليَّ، ومع ذلك عاودت الاتصال بها لأبلغها بأني سألتقيها في شقتها وليس في أي مكان أخر، فزاد ذلك من شدة قلقها، تركت سيارتي في المكان الذي كنت قد ركنتها فيه، واستقليت سيارة (Taxi) متجهة صوب شقة (كايتي) في **(كينغنستون)**، وهناك التقيتها وأنا لا أشعر إلا بكراهتي لذلك اللقاء.

لم أعطها أي فرصة لتسألني عن الأمر أو ما شابه، بل ارتميت في أحضانها مستسلمة لنوبة بكاء جارفة، وبعد لحظات، تمالكت نفسي وانسللت من حضنها وأنا أكفكف دموعي، ثم قذفت بسؤالي في وجهها صارخة:

- **ما الذي تعلميه أنت ولا أعلمه أنا؟! أخبريني (كايتي)، ما الذي تخفيه عني؟**

حاولت أن تهدأ من روعي، دون أن تقوى على إخفاء شعورها بالخوف والصدمة،

- **اهدأي، وأخبريني ماذا حدث؟**

- **[صرخت في وجهها]: سألتك سؤالاً وانتظر منك اجابة، فلا تطلبي مني أن أكون هادئة قبل أن تخبريني ما الذي أخفيته أنت أيضاً عني؟**

- **اهدأي..**

- **[صرخت بوجهها مرة أخرى]: قلت لك لا تطلبي مني أن أبقى هادئة..**

- **[صارخة في وجهي بالمثل]: وأنا قلت لك اهدأي.. واخبريني ما الذي حدث كي أستطيع أن أجيب على سؤالك.**

قالت لي ذلك، فلم أدري ما اقول لها ولا كيف أشرح لها ما حدث معي في القصر، فأدركت أني لن أستطيع أن أقول لها شيء، فسألتني:

- **حسناً، لقد حدث أمر ما ولن ترغبي في اخباري به، وأنا لن أجبرك على ذلك، فقط أخبريني أين كنت قبل أن تأتين إلى هنا؟؟؟**

- **في القصر..**

- **حسناً، يكفي هذا والآن عليك أن ترتاحي قليلاً ريثما أعد لك كأساً من عصير الليمون لتشربيه..**

أنهضتني من مكاني الذي كنت جالسة فيه في الصالة، وقادتني صوب حجرة نومها وهناك تركتني ملقية على سريرها وذهبت لتعد كأس العصير، لم تغب كثيراً، وعادت تحمل ما كنت بحاجة إليه بالفعل، فقد كان حلقي جافاً ويكاد يتشقق من الداخل، وجوفي حار إلى درجة أني زفرت سحابة من البخار، بعد أن شربت القليل من العصير، بينما ظلت هي ترقبني بعينيها دون أن تنبت ببنت شفة، فكان وجهها أخر شيء رأيته، قبل أن يغلبني النعاس وأمضي في رحلة طويلة مع النوم، فلم أصحو إلا في منتصف النهار من اليوم التالي، وأنا أكاد أموت من شدة الجوع والعطش.

بعد أن استيقظت من النوم تركت السرير واتجهت نحو المطبخ، لكني فوجئت بوجود (أنور) في المكان، إذ شاهدته جالساً يتحدث مع (كايتي) في ركن الجلوس بالصالة، وكان هو أول من لمحني بمجرد أن ظهرت عليهما هناك، فقام من مجلسه واتجه ناحيتي، ولكنه تراجع وصرف ناظريه عني ملتفتاً ناحية أخرى، لم انتبه لنفسي وملابسي غلا في تلك اللحظة، فقد قامت (كايتي) بالواجب فنزعت عني ملابسي والبستني رداء نوم خفيف وشفاف أثناء ما كنت نائـــمة، وحينما أدركت ذلك عدت أدراجي إلى الخلف، ولحقت بي (كايتي) وساعدتني في ارتداء ملابس أخرى، دون أن يدور بيننا شيء، فقط قلت لها أني عطشى وجائعة.

تركتني بعد ذلك في الصالة مع (أنور)، واتجهت إلى المطبخ على عجل لتقدم لي ما أخرس به جوعي ويطفئ عطشي، كانت البسمة على وجهه وكان يتأملني بنظرات ليس لها تفسير عندما سألني:

- **كيف الحال الآن؟**

تذكرت ما حدث قبل ذلك بقليل فشعرت بالحياء متأخرة، ولعله أدرك سر ابتسامتي الخجولة التي تعمدت ألا يراها، ثم عاد هو وقال لي:

- **اتصلت بك البارحة أسأل عنك فردت عليَّ (كايتي)، وأخبرتني بأنك متوعكة قليلاً، وسمحت لي بالقدوم لزيارتك اليوم، والحمد لله فأني أراك بخير وستكونين بصحة أفضل بعد أن تتناولي الطعام..**

عاودت النظر إليه، وعقبت على كلامه بقولي:

- **نعم، فأنا أنتظر طعام الافطار على أحر من الجمر..**
- **الافطار!! قولي الغداء أو ربما صار بإمكانك أن تعتبريه العشاء!!!**
- **لماذا؟؟ أووه.. كم الساعة الآن؟؟**
- **أنها الخامسة والنصف بعد العصر لقد نمت قرابة (24) ساعة أو يوم كامل!!**

تناولت الطعام بنهم وشره شديدين كأني لم آكل منذ أيام، فيما كانا هما ينظران إليَّ تارة ويتشاغلان عني بالحديث كي أخذ راحتي بالأكل تارة أخرى، وبعد أن انتهيت من الأكل انضممت لهما حيث كانا يجلسان بالقرب من مائدة الطعام التي كنت جالسة عندها، فجلست إلى جوار (كايتي) على الأريكة الكبيرة، وكان هو جالس قبالتنا على الأريكة الأخرى الصغيرة، نظرا كلاهما إليَّ في نفس الوقت فشعرت بالحرج، في حين كنت قد نسيت تماماً كل ما كان قد حدث معي بالأمس، وكان الفضل في ذلك لوجود (أنور) معنا، والذي طلب موافقتي في قضاء تلك الأمسية معه، لم تعترض (كايتي) على عدم مرافقتها لنا، فقط اشترطت أن تكون عودتي إلى شقتها، عرفت حينها أنهما قد رتبا لكل ذلك معاً ومع ذلك فقد أسعدني الخروج معه تلك الليلة..

الفصل التاسع عشر

الإعتــراف؟؟

في تلك الليلة، ما قاله لي (أنور) عند باب العمارة التي تسكن فيها (كايتي) عندما خرجنا معاً وعندما افترقنا، كان واضحاً ولكني لم أفهم بالضبط مغزى ما قاله لي إلا بعد ذلك بوقت طويل، فعندما خرجنا من باب العمارة قال لي:

- **الليلة سأجعلك تعيشين كما تعيش أي فتاة عادية!!**
- **[سألته بسذاجة]: كيف؟**
- **[اجابني ببساطة ووضوح]: سوف نمارس رياضة المشي، ونستقل قطار المترو، وننحشر في زحمة الناس، نتأمل وجوههم ونوزع عليهم البسمات، وعندما نشعر بالجوع نذهب لتناول الساندويتشات في مطعم عادي، ونشرب بضع زجاجات من الجعة الرخيصة، وربما نقرر أن نذهب لمشاهدة فيلم أو مسرحية، أو شيء مما يجذب في العادة عامة الناس هنا في لندن، سوف أجعلك تعيشين الحياة في هذه الليلة كما يعيشها الناس العاديون والبسطاء، فهل يروق لك ذلك؟**

لم أفهم بالضبط ما كان يلمح لي به، فقد كنت ساذجة إلى درجة لم اتصور أني سأبلغها يوماً في حياتي، فقط أحسست بابتسامة صافية تنبع من أعماقي وترتسم على وجهي وأنا أميل له رأسي قليلاً بأني

موافقة، ولم تفارقني ابتسامتي تلك طوال تلك الليلة، فكان هذا ردي إليه قبل أن أقول له بنوع من البوح:

– **لكم أرغب في التحدث إليك، (أنور)؟؟؟**

– **لك هذا آنستي..**

قال لي ذلك وهو يفتح لي باب سيارة الـــ (Taxi) بأدب جم، وابتسامة وافرة، لتبدأ رحلتي معه في تلك الليلة، التي عشتها كما أخبرني هو بذلك، بفارق بسيط هو أني عايشت مشاعر جديدة لم أشعر بها من قبل طوال حياتي السابقة، مشاعر جميلة وبسيطة ورقيقة وصادقة في نفس الوقت، لم استطع وصفها أو التعبير عنها إلا بعبارة واحدة ظللت أرددها بيني وبين نفسي بين الحين والآخر:

[حقاً، ما أجمل الحياة بين الناس]

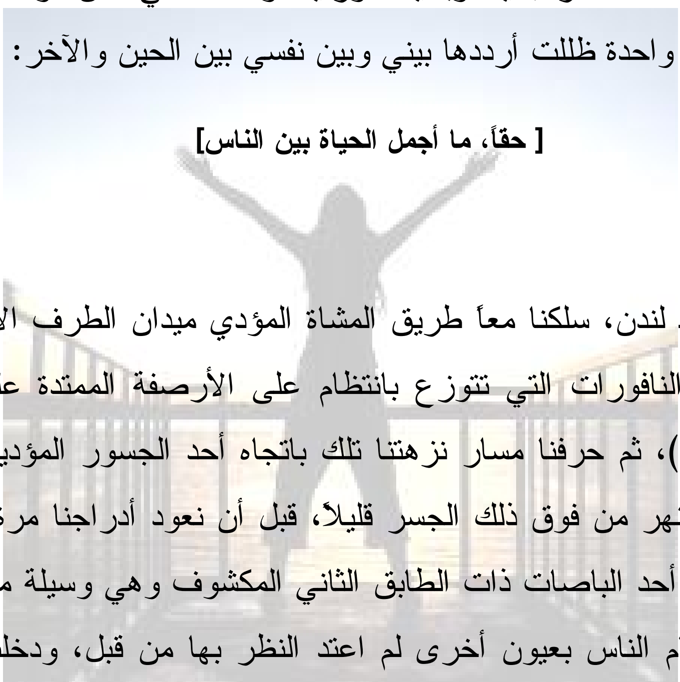

بدأت الرحلة من وسط لندن، سلكنا معاً طريق المشاة المؤدي ميدان الطرف الآغر، واستمتعت لأول مرة برؤية التماثيل والنافورات التي تتوزع بانتظام على الأرصفة الممتدة على طول الطريق إلى تقاطع شارع (وايتهول)، ثم حرفنا مسار نزهتنا تلك باتجاه أحد الجسور المؤدية إلى الضفة الجنوبية للندن وتمتعنا برؤية النهر من فوق ذلك الجسر قليلاً، قبل أن نعود أدراجنا مرة أخرى وسط المدينة، ولكن هذه المرة ركبنا أحد الباصات ذات الطابق الثاني المكشوف وهي وسيلة مواصلات عامة تشتهر بها لندن، رأيت ازدحام الناس بعيون أخرى لم اعتد النظر بها من قبل، ودخلنا المتحف القومي في الميدان ولم نلبث به طويلاً، وصادفنا في طريقنا بعد ذلك معرضاً فنياً لأحد الفنانين التشكيليين فألقينا نظرة سريعة على أحد جوانب المعرض، وبعد أن خرجنا من المعرض، سألني:

– **هل سبق لك أن دخلت كنيسة؟!**

– **كنيسة، لالالالاااا أبداً؟؟ أنا مسلمة..**

– **وهل يمنعنا الله من زيارة الكنائس أو عبادته فيها؟؟ تعالي، هيا..**

ومن محطة مترو الانفاق في وسط لندن، اتجه بنا القطار ناحية (وستمنستر)، لأجد نفسي بعد دقائق واقفة أمام **(كاتدرائية القديس بول)** الكاثوليكية، كان يقودني وهو ممسك يدي لندخلها والرهبة تغمرني، فقد كنت أعتبر فعل ذلك من المحرمات، بل ونوعاً من الكفر والخروج من الدين، لكنه أجبرني على الدخول من حيث وافق ذلك نزعة كانت دفينة في اعماقي، ولكم بهرني جمال الكنيسة ونقوشها وزخارفها ولوحاتها الجدارية، ونظامها الكامل وكل شيء فيها، وفي بهو واسع بعد مدخل الكنيسة، استقبلنا أحد القساوسة ولا أظنه عرف بأننا لسنا مسيحيان، لأنه أول ما قابلنا أراد أن يرشدنا إلى الأماكن التي عادة ما يذهب إليها الزائرين، لكن (أنور) قال له بتلطف:

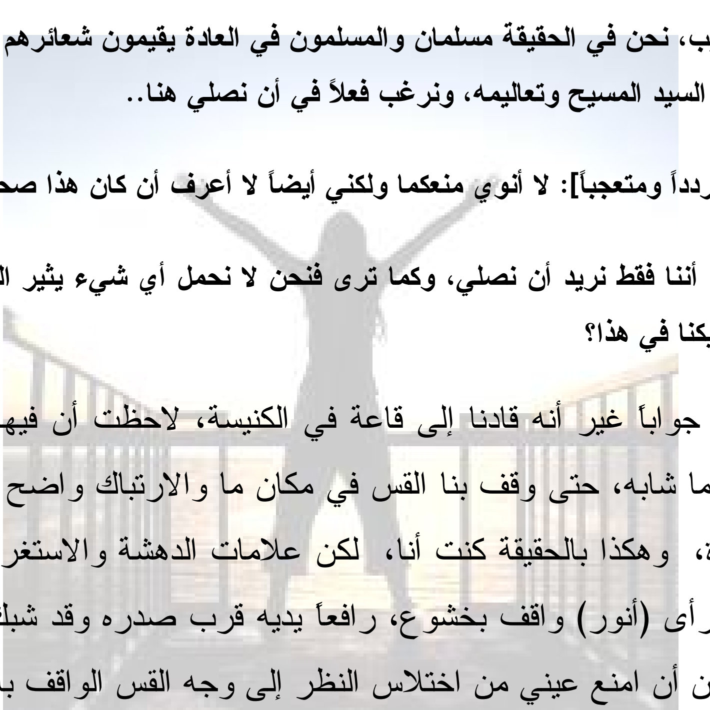

- **أيها الأب الطيب، نحن في الحقيقة مسلمان والمسلمون في العادة يقيمون شعائرهم في المساجد، ولكننا نؤمن برسالة السيد المسيح وتعاليمه، ونرغب فعلاً في أن نصلي هنا..**
- **[قال القس متردداً ومتعجباً]: لا أنوي منعكما ولكني أيضاً لا أعرف أن كان هذا صحيحاً بالنسبة لكما؟**
- **أبي العزيز، أننا فقط نريد أن نصلي، وكما ترى فنحن لا نحمل أي شيء يثير الشك أو الخوف منا، فهلا كنت شريكنا في هذا؟**

لم يجد القس الطيب جواباً غير أنه قادنا إلى قاعة في الكنيسة، لاحظت أن فيها عدداً قليلاً من الناس يؤدون صلواتهم أو ما شابه، حتى وقف بنا القس في مكان ما والارتباك واضح عليه لعله كان يتساءل كيف سنؤدي الصلاة، وهكذا بالحقيقة كنت أنا، لكن علامات الدهشة والاستغراب طرأت على وجهه أكثر وأكثر، عندما رأى (أنور) واقف بخشوع، رافعاً يديه قرب صدره وقد شبك بين اصابعه، رأيته كذلك ففعلت مثله دون أن امنع عيني من اختلاس النظر إلى وجه القس الواقف بالقرب منا، ثم بدأت أنا والقس ننصت لما كان (أنور) يدعو الله به بلغة انجليزية واضحة وصوت خافت ومسموع بما معناه بالعربية:

- **يا رب، نحن جميعاً نؤمن بك ونرجو رحمتك، اجعل قلوبنا عامرة بنورك لنشعر بأننا نلقاك في أي مكان أقمنا فيه إليك صلاتنا، يا رب حررنا من الأحقاد والعداوات وانشر بنا الحب والسلام في كل مكان، حررنا وحرر جميع عبادك من الغلو والتطرف، تعددت كتبك ورسلك وأنت الله الواحد ولا نعبد إلا اياك، أمين**

أمنت بعد دعائه، وفعل ذلك القس أيضاً، بينما وجدتني أنظر في وجه (أنور) متعجبة مما فعل ومتشككة من أن تكون تلك صلاة أو أن يكون الله قد قبل دعاءه في تلك الكنيسة، ولكن هذا لم يمنع أن أشعر بقليل من الفخر لأني كنت بصحبته، بعد ذلك عدنا ادراجنا عابرين الرواق المؤدي إلى بوابة الكنيسة والقس يصاحبنا فسمعته يقول لــ (أنور) ويسأله:

- **هل تعرف؟ لم يحصل معي من قبل أن رأيت شيئاً مثل هذا، ولا أظنني بعدما رأيته منكما سأشك في صدقكما واخلاصكما، ولكني اتساءل ما الذي دفعكما إلى ذلك دون أن تكونا مضطران إليه؟**

- **نحن جميعاً يا أبتي، يجب أن نفعل ذلك، يجب إلا نظل نفرق بين الكنيسة والمعبد والمسجد وأن نفترق حولها ونتنازع ونتصارع بأسمائها وتحت شعاراتها، بهذا فقط تتطهر قلوبنا من الشر الذي يجسده اليوم التطرف الديني ونخمد نيران العنف والقتل والارهاب، فأحببنا أن نقوم بهذه المبادرة من خلال مشاركة اخواننا المسيحيين الصلاة في الكنيسة، إننا نرى ذلك دعوة صادقة للحب والسلام..**

قال له (أنور) ذلك، فهز القس رأسه موافقا، ثم وبإشارة خفيفة ومحتشمة برأسه نادى قساً أخر، دنا هذا الأخير من صاحبه وسمع منه ما همس به له ليمضي ويعود مرة أخرى بعد دقائق قليلة بصحبة آخرين، أربعة أو خمسة من رجال الكنيسة، أحاطوا بالقس الأول، الذي حكى لهم ما حدث بإعجاب وأطرى علينا امامهم، بعد ذلك تسلم من أحد رفاقه علبتان انيقتان مكسوتان بقطيفة كحلية اللون منقوش على كل ظهر كل منهما (زهرة اللوتس) بلون الذهب كشعار للصليب، وفيهما سلسلتان متماثلتان من الفضة النقية يتدلى من كل منهما صليب يظهر عليه السيد المسيح مصلوباً، وبعد أن أرانا القس ذلك عاد فخاطبنا نحن الاثنان قائلاً:

- **نحن لا ندعوكما إلى المسيحية، بل نحب أن نهديكما تذكاراً بسيطاً ومعبراً تحفظانه دوماً لهذه الزيارة، [وأردف وهو يمد إلينا بالهدايا]: تفضلا مشكوران واقبلا منا هذه الهدية.**

- **[معاجلة قلت مخاطبة القس]: شكراً...**

قلت ذلك لأنني خشيت أن ينتهي الامر دون أن أكون قد نطقت بكلمة واحدة اعلن بها عن وجودي وأؤكد بها شراكتي في الأمر، فما كنت لأدع (عليَّ) يظفر بحسنة ذلك وحده، بعد ذلك قال (أنور) وهو يخاطب القساوسة ويتسلم من كبيرهم الهدايا بامتنان:

- **نقبل هديتكم، ونشكركم أيضاً على حسن تعاملكم ونرجو لو تأذنوا لنا بالانصراف..**

- **لتصحبكم رعاية الله يا ابنائي...**

أما ما حدث فقد كان بالنسبة لي شيء لا يحدث إلا في عالم الأحلام، ولعلي عرفت ما قصده (أنور) من فعل ذلك مع التأكيد على صدق مقاصده الظاهرة نفسها، فقد اراد أن يوصل إليَّ رسالة موجزة وبليغة تعبر لي بصدق عن حقيقة ما يؤمن به ويرى أنه جزء من رسالة كل شخص في الحياة، وليكن هذا العمل بمثابة مثال على كل ما يتبناه ويسعى لفعله، لقد وصلت إليَّ الرسالة كما وصلت إلى اولئك القساوسة الطيبين، الذين ظلوا ينظرون إلينا حتى فرغنا من اشعال شمعتين في مكان مخصص لذلك، والرحيل بعدها مباشرة..

في الساعة الحادية عشرة قبل منتصف الليل من تلك الليلة، كنا قد فرغنا من تناول العشاء في مطعم رخيص، ثم أخذتنا سيارة (Taxi) إلى حيث كانت تنتظرني سيارتي، تركته يقودها وجلست بجواره أتحين الفرصة تلو الفرصة لأنظر إلى وجهه وهو غافل عن ذلك، وفي طريق العودة قال لي:

- **هل فاتني شيء مما كنت تودين أن تتحدثي إليَّ بشأنه؟**
- **الحمد لله، من قال أنك كثير النسيان ومع ذلك فقد فاتك كل شيء..**
- **أووه، إذن فأنت لم تتكلمي الليلة مطلقاً..**
- **لاااا، خفيف الدم فعلاً..**
- **أولست كذلك؟ قولي لي ألست خفيف الدم؟؟ اعترفي، بالله عليك، ألست كذلك؟**

كان يقول لي ذلك بطريقة مسرحية مثيرة للضحك، حتى أني ضحكت بالفعل وبشدة من ادائه المسرحي ذاك، تركني اضحك قليلاً أدرك بعدها أننا اصبحنا نقف بالسيارة قبالة مدخل العمارة لشقة (كايتي)، كانت لحظات افتراقنا حينها غريبة وغير مألوفة لدي، أوصلني إلى باب العمارة، وقبل أن يغادر نظر إليَّ بنظرة متواضعة، وقال لي:

- **(تيماء)، كنت ولازلت انتظر اللحظة التي تجمعني بك ولا تنسين فيها أن هناك ما تودين أن تحدثيني به، تصبحين على ألف ذكرى جميلة..**
- **[بخجل واضح]: وانت أيضاً..**

مضى بعد أن رآني أمضي، لكنه بعد عدة خطوات ألتفت ناحيتي منادياً باسمي بصوت مرتفع، وبمجرد ما ألتفت أنا إليه قال:

- **أما أنا فتكفيني ذكرى واحدة جميلة..**

لم أفهم مغزى ما قاله لي هذه المرة أيضاً..

وصلت إلى بيت (كايتي) وأنا في قمة السعادة، بل أن سعادتي في ذلك الوقت لم يكن لها وصف يعبر عنها، وهناك لم تصدق (كايتي) عندما قابلتني ما كنت عليه، فقد ظهرت امامها وأنا أدندن بأعذب الأغنيات التي لطالما احببتها: "على مودك أنت وبس" وكنت اتحرك وادور حولها واتمايل راقصة وأداعبها بيدي، رأتني افعل ذلك فضمت يداها إلى صدرها وظلت واقفة مكانها تنظر إليَّ وهي مبتسمة، وبعد أن استقرت نفسي وأحسست بالامتلاء والشبع من معايشة تلك السعادة الطافرة في حياتي وفي مشاعري، اتجهت ناحيتها وادنيتها مني والقيت بها في قرارة حضني الذي جرفها إلى اعماقي وأدفئها، كانت هناك حيث امكن لي أن امنحها كل ما اردت أن امنحها إياه من حبي وامتناني ومن سعادتي. وبرفق شديد افلتها من ربقة احضاني وطوقت خصرها بذراعي وسرت بها صوب مكان الجلوس في الصالة، قائلة لها:

- **تعالي، ففي جعبتي لك حكاية من حكايات الخيال والأحلام..**

لم تعلق (كايتي) واكتفت بالجلوس محتفظة بابتسامتها، لم أرى منها ذلك الشغف لسماع القصة ولكنها بقيت هادئة ومزمعة على الانصات، حكيت لها ما حدث من اللحظة التي فارقناها فيها وحتى اللحظة التي عدت فيها إليها، كنت أرى الدهشة والتعجب على ملامحها واستمتع برؤية حاجبيها وهما ينعقدان ويفترقان دليلاً على ما كان فيها من دهشتها وغرابتها، واعجابها وفرحتها، لم أشأ أن انتهي سريعاً من رواية القصة لها، لذا حرصت على ذكر جميع التفاصيل، وأنا أعلق على كل جزء ومشهد منها، بوصف ما كانت عليه مشاعري ومكنوناتي التي فاقت كل تصوراتي بمجرد أني حاولت أن اكشف عنها وأصفها لها، ومع ذلك انتهيت من ذلك، بأن سألتها:

- **ما رأيك بما أسمعتك إياه؟**

أخفضت رأسها وكأنها تخفي ابتسامة أخرى غير التي كانت على وجهها قبل سؤالي، ثم رفعته ونظرت إليَّ بنظرات متأججة حباً وحناناً، وقالت:

- **أرى أنني كلما رأيتك تبدين أكثر تعلقاً بـــه، كلما قلقتُ عليك أكثر !!**

- **أوووف، لماذا كل هذا القلق عزيزتي (كايتي)؟؟**

- **(تيماء)، إلا تدركين أنك واقعة في غرام هذا الفتى؟؟**

تملكتني الحماسة بعد أن سمعت ما قالته لي، ورأيت أنه الوقت المناسب لاعترف لها بالحقيقة فقلت لها:

- **بلى، أنا أحبه بالفعل وصدقيني لو قلت لك بأن ذلك عن كامل وعي وادراك مني، فما قولك؟!**

- **ماذا أقول؟ إذا أنت تتحلين بكل هذه الشجاعة والجرأة لتعترفي بهذا بكل بساطة؟؟**

- **نعم، لقد أن الآوان لأحرر مشاعري واعبر عن عواطفي بلا خوف أو تردد، وغداً سألتقي بـــ (أنور) واعترف له بكل شيء يجب أن يعلمه عني، واعترف له بحبي له، غداً يا حبيبتي (كايتي)، سأقول له أني أحبه ولم ولن أحب احدا سواه.**

- **وهل وضعت في حسابك أنه قد لا يبادلك نفس المشاعر؟ فهذا بحد ذاته ما يجعلني أقلق عليك، لأني أستطيع أن اتصور سوء ما بعد ذلك، إلا إذا كان قد لمح أو صرح لك بما يشجعك على إتخاذ هذه الخطوة.**

لم استطع أن أخفي ملامح وجهي عن ناظريها، ومع ذلك فقد اعتقدت أني بذلك سأسمح لها بأن تساهم في التخفيف عليَّ من وطأة الخوف والخشية إزاء ما قالته، ويظل احتمالاً، فقلت لها:

- **في الحقيقة، هو لم يصرح ولو أني أخذت بفكرة التلميح لوجدت في كثير مما أبداه نحوي ما يجعلني أجزم بأنه يحبني، ولعل هذا ما أجده حافزي، ولكن أسالك (كايتي)، لو كنت أنت في مكاني فما الذي تعتقدين بأنك كنت ستقومين به؟؟ ربما احتجت الآن إلى حكمتك ونصحك أكثر من أي وقت مضى.**

- **اسمعي، هناك فرق بين ما سأفعله لو كنت في مكانك، وبين ما يمكن أن انصحك به من موقعي هذا بالنسبة لك..**

- **كيف؟؟**

- **لا أريد أن افسد عليك سعادتك، ولكني مضطرة لأن أقول لك رأيي بوضوح، ربما لو كنت في مكانك لعزمت وفعلت ما تنوين القيام به، أما لو طلبت نصحي، فأرى أن تتريثي قليلاً أو أن تجدي طريقاً أخرى للتمهيد للأمر..**

- **وإذن، بأي وجه سأعمل، بما أراه أم بما تنصحين؟؟**

- **لا أدري، فهذا ما أنت مجبرة على إتخاذ القرار الحاسم فيه وحدك دون تأثير من أحد..**

وصل الأمر إلى عقدته الصعبة، وكما قالت (كايتي) أنا وحدي من عليه أن يقرر، استسلمت للصمت قليلاً ودون أن أترك للحيرة والخوف فرصة للتأثير عليَّ، كما أني لم اشأ أن أترك الموقف بيني وبينها دون نهاية، فاستلهمت من أعماقي في تلك اللحظة ما ساورني من شعور وما خطر على بالي من كلمات، وقلت لها:

- **(كايتي)، لقد فكرت طويلاً بهذه المسألة وفي كل مرة لم أكن أجد أمامي خياراً أخر، فأنا لو أخذت بالاحتمالات لفسد كل شيء، ولما وجدت أنه بإمكاني عمل شيء، فهناك الكثير من العوائق والموانع التي اثق تماماً بأنها ستحول بيني وبين (أنور) على الأقل تلك التي من جهتي أنا، فضلاً عما يمكن أن يكون لديه هو، ما أعرفه الآن ومتيقنة منه هو صدق مشاعري نحوه، وأي شيء مما أعتبرها كل مخاوفي لن يحدث قبل أن اتخذ هذه الخطوة، لذا ليس أمامي إلا أن افعل ما أنا عازمة عليه..**

- **وأنا لن أعارضك، بل أعدك أني سأكون إلى جانبك طوال الوقت..**

عكفت طوال تلك الليلة أفكر فيما سيحدث في الغد، وكيف سيحدث ومن أين سأبدأ وماذا سأقول له بالضبط، وبدون أدنى قصد أو شعور وجدت أني اعيد شريط الذكريات إلى تلك اللحظة التي قرأت فيها اولى رسائله التي لفتت انتباهي إليه في الطرف الآخر المجهول بالنسبة لي حينها، وكيف تطورت الأمور وسارت واتجهت واتخذت المنحى الذي آل إلى ما هو عليه الوضع الآن. ياااااه، كم هي عجيبة تصاريف القدر؟!! وكم نكون متعجلين في اصدار احكامنا على كل ما يصادفنا في طريق الحياة، دون أن نتبين حقيقة ما يجري، أو نتوقع عاقبة أدنى ما يمكن أن نكون قد قمنا به..

صحوت في العاشرة صباحاً وكانت لاتزال (كايتي) في الشقة، فأخبرتها أني سأعود إلى شقتي فلم تمانع هي ذلك، وبمجرد أن انتهيت من تجهيز نفسي وجلست على مقعدي في السيارة، فكرت وقررت

بسرعة أن ابادر باتصال له، وفعلت ذلك، فجاءني صوته من حيث كان هو، قائلاً لي بأسلوب مازح ومرح:

- **اشتقتِ إليَّ؟ أليس كذلك؟؟؟**

فاجأني سؤاله، ولا أعرف من أين أتيت بذلك القدر الذي أبديته له من الجدية والصراحة وأنا أجيبه قائلة:

- **بصراحة نعم، وأريد أن ألقاك اليوم أيضاً..**

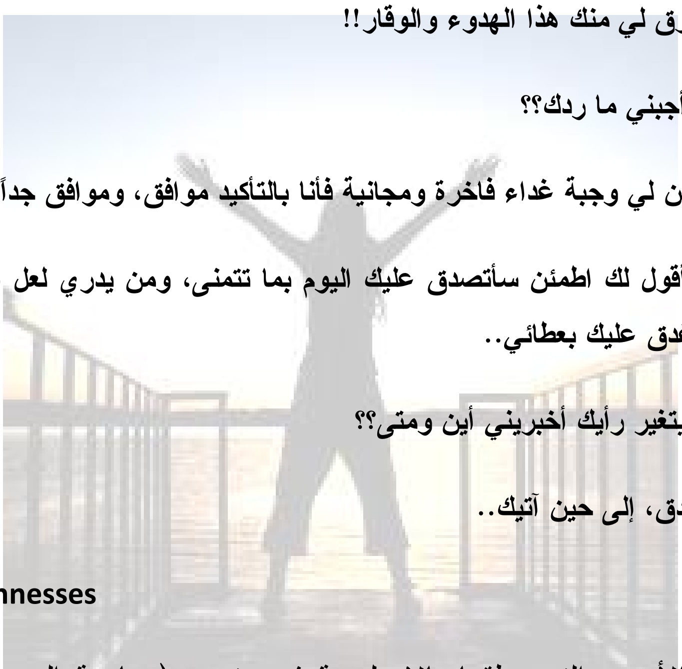

- **يووووه، لكم يروق لي منك هذا الهدوء والوقار!!**
- **دعك من هذا، وأجبني ما ردك؟؟**
- **أن كنت ستضمنين لي وجبة غداء فاخرة ومجانية فأنا بالتأكيد موافق، وموافق جداً جداً جداً..**
- **هكذا إذن، وأنا أقول لك اطمئن سأتصدق عليك اليوم بما تتمنى، ومن يدري لعل اليوم هو يوم سعدك لأني أنوي أن أغدق عليك بعطائي..**
- **حسناً، وقبل أن يتغير رأيك أخبريني أين ومتى؟؟**
- **انتظرني في الفندق، إلى حين آتيك..**

- **O. K Her Highnesses**

لفتت انتباهي عبارته الأخيرة التي نطقها بالإنجليزية فهي تعني (صاحبة السمو)، لم أدري حينها أن كان قد قصدها بمعناها الذي ادركته أم أنه قالها بدون قصد، ومع ذلك لم احتسب في نفسي شيء إلا أن يكون قد قالها دون أن يقصد بها شيء مما راودني، المهم أني غمرتني حالة من السعادة واللهفة فاتجهت سريعاً ناحية شقتي في (ماي فير)، وليس في خلدي إلا ما سأرتديه من الملابس وما سيكون عليه مظهري له اليوم..

ارتديت فستاناً طويلاً دون أكمام أو حمالات على الكتفين، الفستان من الحرير المموج بثلاثة ألوان أفقية، اللون الأزرق الفاتح وهو الرئيسي والسائد من أعلى الفستان ومن أدناه والمتفتح بموجة واسعة باللون الأبيض أدنى الوسط وموجة خطية رفيعة مماثلة تحت الصدر، وحول الخصر كانت موجة

بنسفجية، تنتهي في جانب الخصر الأيسر بعقدة موردة تتدلى منها فضلة تحمل الألوان الثلاثة تصل إلى ما تحت الركبة، وحول عنقي لففت شالاً أزرقاً صافياً يتدلى طرفاه خلف ظهري، وحذاء أبيضاً ذو كعب عريض وسميك، وذو إكسسوارات من الكريستال تزين شريطه الفضي، أما تسريحة شعري فقد كانت كلاسيكية من تلك التي كانت سائدة في السبعينيات من القرن العشرين، كما لم أستخدم أي إكسسوارات، غير قرطان فضيان، مرصع كل منهما بنصف بيضة من الفيروز.

في الثانية بعد الظهر وبعد أن أصبحت جاهزة، قررت أن أجعل انتظاره لي في الفندق مقلباً فاتصلت به وأبلغته بأن يخرج من هناك وأن يقابلني بعد نصف ساعة من ذلك، في المطعم الشهير لــ (كلاريدجيز) (Claridge's)، فأذعن لما قلته له وهو يتوعد بالانتقام، ومن ثم فقد تعمدت التأخر في الوصول إلى هناك، لأضمن أنه سيكون بانتظاري، وبالفعل حدث ذلك وعندما وصلت رأيته جالساً إلى إحدى الطاولات..

لمحني من بعيد هو، ولكني شككت للحظات بأن يكون قد عرفني، وسرعان ما ثبت أن شكوكي لم تكن في محلها، لأنه عرفني من أول لحظة بدوت له وأنا داخلة برفقة أحد العاملين، فلم يكن المكان مزدحماً، وبمجرد أن قارب وصولي إلى حيث هو، رأيته يرمقني بنظرة شاخصة من أعلى إلى أسفل ثم إلى أعلى مرة أخرى، ثم وقف وسارع بالاتجاه نحوي ونحى العامل جانباً باستلام طرف من يدي برفق، وهيأ لي المقعد لأجلس، ومن ثم عاد إلى مقعده بمجرد ما أن استويت في مكاني، جلس وهو يقول لي:

- **فستان جميل وأنيق للغاية..!!**
- **أنه حسن ذوقك وحسب [قلت ذلك بتواضع مصطنع].**
- **لا بل أنت كذلك حقاً، أنت اليوم جميلة وأجمل من كل مرة رأيتك فيها..**

قاطعه حضور عامل الخدمة ووقوفه إلى جانبنا واضعاً نسختان انيقتان من (المونيو/ دليل الأطباق) أمام كل واحد منا، بدا لي هو غير متعود على مثل هذه الأماكن من حيث ترك الكتيب ولم يبدي اهتماماً باختيار شيء، حينها نظر إليَّ وكأنه أوكلني بالمهمة ففعلت ذلك، وعجلت ليرحل النادل..

طيلة الوقت كان يجاذبني اطراف احاديث متعددة وكأنه يقصد ذلك، مما كاد أن يثير عليه غضبي فأدرك ما اعتراني، وبرر ذلك بقوله:

- **هنا لن يكون الحديث مناسباً، إذ اخشى أن تنسين ما أردت دوماً أن تخبريني به، لذا اقترح أن نخرج من هنا فور الانتهاء من خدش سطوح هذه الوليمة الفاخرة، ونتجه إلى أجمل مكان مفتوح يمكن أن تنطلق فيه لسانك، اتفقنا.**

ناسبني اقتراحه ذلك فأومأت له برأسي موافقة..

مرة أخرى جعلني (أنور) أشك في مقاصده فقد أخذني معه إلى إحدى حدائق (كنسينغتون)، وهي الحديقة التذكاريّة لـــ (ديانا أميرة ويلز)، التي قضت في حادث سيارة مريب مع حبيبها العربي الذي قضى هو الآخر معها في نفس الحادث، فقد بدا لي اختياره لهذه الحديقة بالذات ما يوحي بأنه قصد أن يوصل إليَّ أو يثبت لدي فكرة ما، ومع ذلك قررت مرة أخرى إلا استبق الأمور وأنا ماضية إليها بنفسي، كنا جالسان على مقعد واحد تفصل بيننا مسافة قصيرة، حينما ألتفت إليَّ وجعل وجهه قبالة وجهي، وسألني:

- **أعتقد الآن كل شيء مناسب فاخبريني؟؟؟**
- **[ألتفت إليه متعجبة وبنصف ابتسامة سألته]: بماذا؟**
- **بما كنت تنسين أن تخبريني به دائماً أم انك نسيت ذلك أيضاً؟؟**
- **لا بجد، فأنا لدي ما أريد أن أقوله لك بالفعل..**
- **وأنا يا آنستي أقول لك، تحدثي وأسهبي، كلي آذان صاغية..**
- **هل تسخر مني؟؟؟**
- **الله المستعان ؟؟ وهل تريني ساخراً؟؟**
- **حسناً، ساعدني من أجل ذلك..**

غير ملامحه المرحة وكسا وجهه بسمة جادة ورصينة، أرخى لبعض التعاطف أن يطل منها وقال لي:

- **(تيماء)، تكلمي وحسب..**

- [مترددة ومرتبكة]: في الحقيقة أنا.. أنا أريد أن أعترف لك بشيء،

- حقيقة من تكونين مثلاً.. [نظرت إليه فأردف قائلاً]: أووه آسف، ظننت أني بهذا اساعدك كما طلبت..

- نعم، أنت محق، أريدك أن تعرف من أنا؟؟ وأرجو أن تسمعني حتى افرغ من ذلك، أنا في الحقيقة، هناك ما يجب أن تعرفه عني يا (أنور):

، ،
، ،
، ،
، ،
، ،
، ،
، ،
، ،
، ،
، ،
، ،
، .

أخبرته بكل شيء وأنا اتحاشى النظر إليه، بينما كان هو منصت لي بدون أن يبدو منه أدنى حراك، وبمجرد ما أن انتهيت، ظللت عاجزة عن الالتفات ناحيته، فبقيت صامتة مطرقة رأسي إلى الأسفل، وقد شبكت اصابعي وأرخيت يداي فوق ركبتاي، اما هو فكان ينظر إليَّ كما أعتقد وينتظر أن ألتفت إليه، ولكني لم أفعل، فجأة، شعرت برؤوس أنامله تلامس رأس كتفي، وتسترخي عليه، فأصابتني قشعريرة وارتبكت وأنا أنتبز من شدة الرعشة، فأغمضت عينيَّ وأنا أتوقع أن يتمادى في ما ينوي فعله من ملامستي، لكنه لم يفعل، بل شعرت به يلاعب خصلة من شعري بأصابعه ويطلب مني أن أنظر إليه، كانت مشاعر الحياء والخوف والقلق والارتباك قد تملكتني جميعاً والقت بي حيث اعياه قليلاً أن أستجيب له، فأحاط عنقي بكفه ومن ثم دفع رأسي ليجعلني أنظر إليه، لذا أبقيت نظري إلى الأرض، فمد يده الأخرى وجعلها تحت ذقني ورفع بها رأسي، وقال:

- **(تيماء)، انظري إليَّ رجاءً، ما الذي توقعت أن يحدث لي عندما تخبريني بما أخبرتني به للتو؟؟ هاءنذا؟ لم يحدث لي شيء..**

تحليت بقليل من الشجاعة ورفعت بصري ناحيته، فوجدته طبيعياً مما شجعني ذلك أكثر أن أسأله:

- **ماذا بعد أن عرفت من أنا؟؟؟**

- **أبداً، فقد كنت أتوقع ذلك، ولعلي توقعت ذلك حرفياً..**

- **ماذا تقصد؟؟ هل كنت تعرف من قبل أني أميرة، وأني من .**

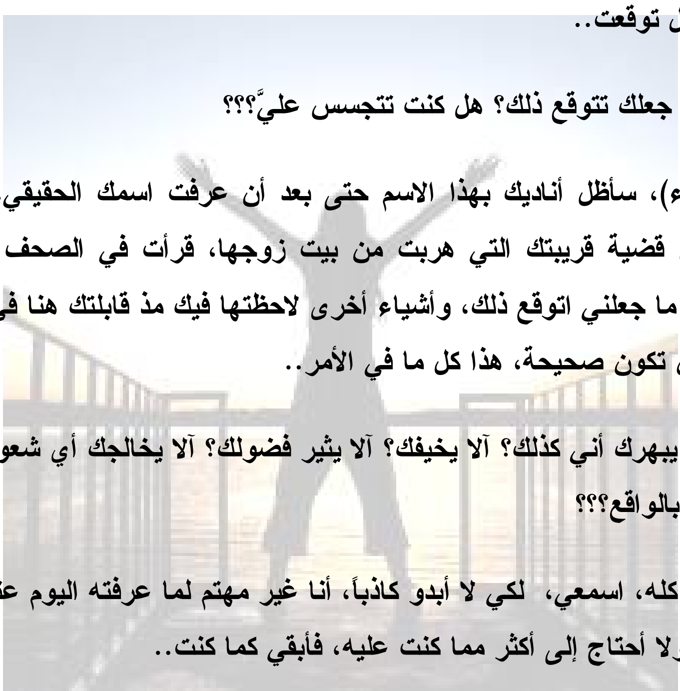

- **لم أكن أعرف، بل توقعت..**

- **كيف؟؟ وما الذي جعلك تتوقع ذلك؟ هل كنت تتجسس عليَّ؟؟؟**

- **لا لا لا لا (تيماء)، سأظل أناديك بهذا الاسم حتى بعد أن عرفت اسمك الحقيقي، هل تذكرين عندما استشرتني بشأن قضية قريبتك التي هربت من بيت زوجها، قرأت في الصحف بعد ذلك أنها كانت أميرة، فكان هذا ما جعلني اتوقع ذلك، وأشياء أخرى لاحظتها فيك مذ قابلتك هنا في لندن أكدت لي بأن توقعاتي يمكن أن تكون صحيحة، هذا كل ما في الأمر..**

- **حسناً، والآن آلا يبهرك أني كذلك؟ آلا يخيفك؟ آلا يثير فضولك؟ آلا يخالجك أي شعور بعد أن تأكدت من حقيقة من أكون بالواقع؟؟؟**

- **لا شيء من هذا كله، اسمعي، لكي لا أبدو كاذباً، أنا غير مهتم لما عرفته اليوم عنك بالمرة، فأنت كما عرفتك واضحة ولا أحتاج إلى أكثر مما كنت عليه، فأبقي كما كنت..**

رغبت أن أساله لماذا لم يحدث له ما كان ليحدث بالعادة لكل شخص يقترب مني ويعرف في لحظة ما بأني (أميرة)، ولكنه بدا طبيعياً وغير مهتم بدرجة فظيعة، إلى حد أني منعت نفسي من طرح هذا السؤال عليه، وقررت بدلاً من ذلك أن انتقل إلى الجزء الثاني مما أردت اخباره به، وقلت له:

- **هناك شيء أخر أريد أن أعترف لك به؟؟**

- **قولي ما شئت مادام ذلك سيريحك..**

- **ولكن قبل أن أقول لك ذلك أريد منك أن تقطع لي وعداً..**

- **وعداً بماذا؟؟؟**

- **بأن لا تنطق بحرف واحد بعد أن أقوله لك وأن لا تسألني أو تتحدث إليَّ أو تفكر بالاتصال بي من أجل ذلك عدة أيام، أني سأقول لك ذلك وأتركك هنا مباشرة، فهل تعدني؟؟؟**

- **لا، لا أعرف ما اقول لك..**

- **عدني فقط بما طلبت منك، عدني وإلا تركتك هنا دون أن أقول لك أي شيء أخر..**

- **حسناً، حسناً، أعدك!!**

وعدني، فشعرت أنا بالرهبة، الرهبة التي ظننت أنها لن تمكنني من القيام من مكاني لو أني صارحته بمشاعري نحوه وأنا جالسة، فنهضت من مكاني وفعل هو كذلك، أعطيته ظهري وظل واقفا ورائي، كنت مرتبكة إلى درجة لا يمكن وصفها، حتى أني فكرت إلا أفعل ذلك، ولكني عجزت عن الانصياع لفكرة من هذا النوع، ظل هو صامتاً وواقفاً للحظات بعدها تقدمت خطوة إلى الأمام بعد أن شعرت بيده تربت على كتفي من الخلف، أو ظننت ذلك، المهم أني كنت مغمضة عيناي، وانفاسي لاهثة ومتقطعة بشكل لم يساعدني على النطق بحرف واحد، بل شعرت باهتزاز في وجنتي وفكي وارتجاج في مجرى لساني، لكن الكلمة انسلت من طرف لساني بحشرجة وصوت خجول أولاً، ثم ألتفت إليه ومع نظرة سريعة في وجهه وعينيه قلتها مرة أخرى..

- **أنا أحبك.. نعم أحبك،**

هرعت بعد ذلك جرياً مبتعدة عنه، وبعد أن قطعت مسافة لا بأس بها توقفت واستدرت ناحيته ورأيته واقفاً متسمراً في مكانه هناك.. ثم رحلت ولم .؟؟

الفصل العشرون

هَيتَ لك؟؟

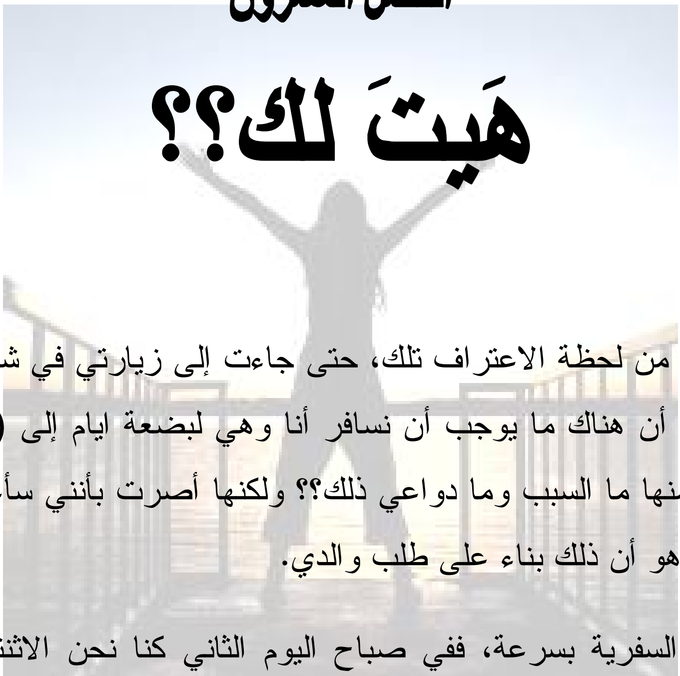

لم تكد تمضي عدة أيام من لحظة الاعتراف تلك، حتى جاءت إلى زيارتي في شقتي (كايتي)، وابلغتني بخبر غريب، قالت لي أن هناك ما يوجب أن نسافر أنا وهي لبضعة ايام إلى (الرياض) وسنعود بعد ذلك، حاولت أن افهم منها ما السبب وما دواعي ذلك؟؟ ولكنها أصرت بأنني سأعرف كل شيء هناك، وكل ما عرفت منها، هو أن ذلك بناء على طلب والدي.

تجهز كل شيء لتلك السفرية بسرعة، ففي صباح اليوم الثاني كنا نحن الاثنتان على متن الطائرة الخاصة التي كانت تنتظرنا في مدرج **(مطار جاتويك)** جنوب لندن، متجهة بنا إلى الرياض..

كل شيء هناك بدا لأول وهلة عاديا وطبيعياً في اليوم الأول، فقط أنا وأمي في حجرة نومي وهي تقول لي بأن هناك ما تود هي ووالدي اخباري به، على أساس أني أصبحت كبيرة وقادرة على الفهم والتفهم للكثير من أمور الكبار جيدا؟؟؟

وفي اليوم الثاني، كان كل شيء غير واضحاً وغير مفهوماً، أنا وأمي في جناحها وبحضور شقيقاتي، وشقيقتي (نجلاء) تخبرني بأنهم عرفوا بما حدث بيني وبين (هند) ووالدتها في قصرهما بلندن أخر مرة، وأن الموضوع يتصل بذاك الذي حدث هناك..

أما في اليوم الثالث، فقد كان كل شيء صاعقاً وصادماً وقاهراً ومحرجاً مؤلماً وقاتلاً ومدمراً. كنت بين والدي و(كايتي) في الصالة الرئيسية لقصر عمتي الأميرة (تهاني)، التي كانت جالسة إلى جواري مستعدة لأن تحضنني متى احتاجت هي أو احتجت أنا لذلك، تكلم أبي وتكلمت (كايتي)، وأثناء ما كنت أسمع من كلٍ منهما، كان على عمتي أن تربت بيدها على ظهري تارة وتارة أخرى تغرسني بشدة في قعر صدرها وهي تود في كل مرة أن أبقى هناك في العمق ولا أظهر مرة أخرى، لأسمع وأرى المشهد..

نعم وألف مليون نعم أخرى لعينة، لقد كان صحيحاً كل ما قالته (هند) في أخر مرة جمعتني بها وعلى مسمع ومرأى من والدتها التي كانت طوال العمر بالنسبة لي (شقيقة أمي وخالتي)، كان كل شيء أمام عيني ولكني لم أكن لأعيره أي اهتمام، ولم أكن لأقبل أن تكون الحقيقة على نحو ما كانت تلمح لي به شكوكي البريئة والساذجة طوال تلك السنوات..

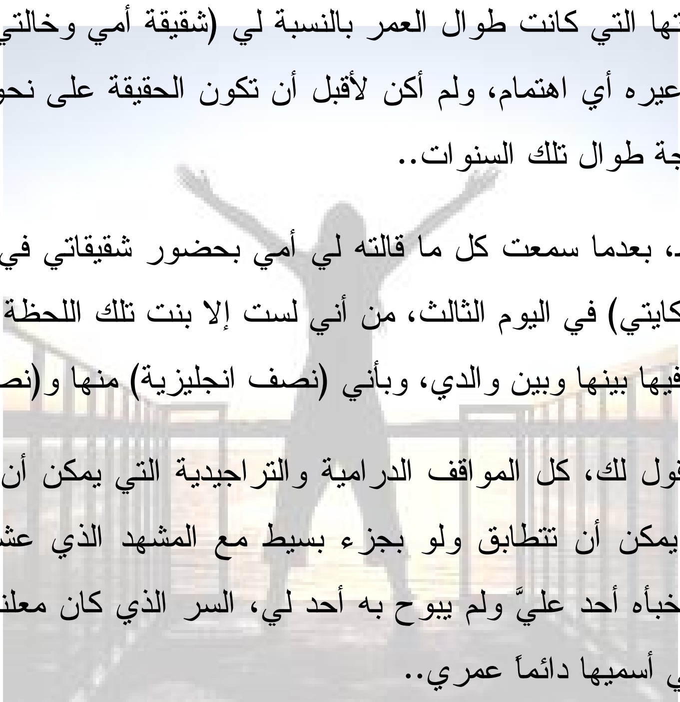

لم أكن لأنهار أو أسقط، بعدما سمعت كل ما قالته لي أمي بحضور شقيقاتي في اليوم الثاني، وبعد ما قاله لي أبي بحضور (كايتي) في اليوم الثالث، من أني لست إلا بنت تلك اللحظة التي لم تتجرأ (كايتي) أن تروي لي ما حدث فيها بينها وبين والدي، وبأني (نصف انجليزية) منها و(نصف عربية) من أبي..

كيف جرى الأمر؟ سأقول لك، كل المواقف الدرامية والتراجيدية التي يمكن أن تكون قد شاهدتها في السينما والتلفزيون لا يمكن أن تتطابق ولو بجزء بسيط مع المشهد الذي عشته أنا في الواقع، لقد عرفت السر الذي لم يخبأه أحد عليَّ ولم يبوح به أحد لي، السر الذي كان معلناً ومضمراً بالنسبة لي طوال تلك السنوات التي أسميها دائماً عمري..

سأقول لك أمراً أخراً: أن تحب كل الناس، أبوك وأمك وأشقائك وأهلك وأسرتك وعائلتك، لكل الأسباب التي علمتها عنهم وفيهم طوال عمرك، ليس كما أن تحتقر كل أولئك الناس وتكرههم وتحقد عليهم لسبب واحد كنت تجهله أو ربما تتجاهله طوال عمرك..

- **أريد أن أعود إلى لندن.. والآن فوراً..**

هذا أخر ما قلته لهم هناك ولا شيء أخر، فلم يكن لدي من سبب أخر يبقيني ولو للحظة واحدة هناك.

على متن طائرة العودة إلى لندن، كنت قد اختليت بنفسي في مقعد في ذيل الطائرة، منعت الجميع من الاقتراب مني فيه، كانت تلوح في رأسي تلك اللقطات التي كنت بالكاد اتذكرها من أول ما وعيت بنفسي على هذه الأرض، تقاطعني بين الفينة والأخرى ضحكة (هند) الساخرة والشامتة، عندما حدثتها عن (الشرف) والعار والعيب والحرام والحسب والنسب والأصل والفصل والمجد والعز وكل ما بناه أسلافنا العظماء على مر العصور، وأتذكر كل ما مر بي وعاصرته وشهدته من كل تلك الفضائح والرزايا، التي كانت تأتي عليها افعال الأمراء والأميرات من بني جدي أو بالأصح من بني نصف جدي، وكيف أني لم أتساءل يوماً لماذا يفعل البعض ذلك؟؟ دون أن يدور في خلدي أن الأمر لا يقتصر على البعض بل الجميع يفعل ذلك، لأن ذلك كامن في أصل نوعنا وجيناتنا، ولأننا جميعاً نتاج ذلك الانحراف المتجذر في أصلاب الرجال، والذي ينتقل عن طريق العدوى والتناسل إلى ترائب النساء، فصار قدر أن يولد الجميع من تلك الطينة وعلى تلك الشاكلة.

هذا ما لم أكن أحسب حسابه يا (أنور)!! قلت لنفسي هذا في لحظة ما، خطر على بالي وجهه الحبيب والذي لم أحب أحداً سواه من قبل، كما لا أظنني سأحب من بعده أحد دونه، كل ما ظننت أنه سيغريك بي، أصبح بمجرد أن تعرف الحقيقة ما يكفي لأن تهرب مني مسافة سبع حيوات أخرى، جل ما تكره فيها هو أن تلقاني، فماذا سيغريك بي بعد اليوم يا حبيب القلب ومنية الروح؟؟ إني في الطريق إليك ولا أدري بأي حقيقة هذه المرة سألقاك؟؟؟

وصلت أخيراً إلى لندن وماذا في رأسي غير تلك الأفكار الشيطانية اليائسة، التي جعلتني أتصور بأنني ما عدت أملك من مقومات ومميزات الفتاة المطلوبة والمرغوبة لدى أي شاب يمكن أن يعرف حقيقتي الجديدة، فكل ما كان بي من أبهة العظمة ونفخة الكبرياء وغرور التباهي مما غرسته في نفسي صفة الإمارة طوال دهر من عمري، تهاوى وتشظى وأضحى غباراً تذروه الرياح إلى حيث لا يبقى شيء منه، أمام تلك الحقيقة القذرة والمقرفة التي ما عاد بالإمكان دفعها عني أو ابرائي من دائها ووصمة عارها، الحقيقة التي تخبر الجميع بالطريقة التي جيء بي إلى هذه الحياة منها وعبرها، ماذا سيقول (أنور) عندما أخبره بأنني (بنت الخطيئة) و(نتاج النزوة) و(ثمرة لقاء عابر ومشين)؟؟؟

اللعنة، يبدو أن هذه الحقيقة سوف تدمر كل شيء في حياتي، بل أنها بالفعل قد دمرت حياتي كلها، كيف لا؟ وأدنى رجل في هذا العالم إن أخلص لي لن يعطيني شيء من حبه وعاطفته إلا بدافع الشفقة والاحسان، أما لو كان من المستنفعين فأقل ما يمكن أن ألقاه منه ليس إلا ذلك الذل والاستغلال المهين.

في شقتي وحدي ولا أحـــد سواي، وزجاجة (روتشيـــلد) (Chateau Mouton Rothschild) الباهظة الثمن، والكأس الثالث أو الرابع أو الخامس – لا أدري – الذي كان ينتظرني، كنت جالسة أمام المرآة، أتأمل أمارات تلك الخطيئة التي صنعتني في أحشاء تلك التي عرفتها مربيتي، وعشت معها على أنها صديقتي..

أن تتحول مربيتي إلى صديقتي، فهذا أمر ممكن والجميع يمكن أن يتقبلوه، ولكن أن تتحول صديقتي التي كانت في صغري مربيتي، أن تصبح هي (أمي) أو بالأصح (والدتي)، كيف سيتقبل الناس هذه المعلومة؟؟ وكيف ستتغير بسببها نظرات الكل من حولي إليَّ؟؟ وبكل الغضب الذي قدحتُ شرارته في صدري وتعاظمت حتى أصبحت بركاناً مسجوراً، قلت لنفسي وأنا أخاطب وجهي المكسور والمشروخ بلا ملامح حزن أو دموع وهو يطل مثل ظلال الخزي من على لوح المرآة: ما كان عليهم أن يخبروني؟؟ فلماذا تراهم فعلوا؟؟

أمام المرآة نفس المرآة، غير أني صرت واقفة، بدأت أخلع عني ملابسي قطعة قطعة، بعد أن شعرت برغبة جارفة في أن أتعرى وأظهر أمام نفسي عارية.. عارية لا يسترني شيء، فلم أتردد في ذلك، حتى أصبحت كما ولدتني (أمي) – أياً كانت تلك أمي– ومضيت أتأمل بعيون أزفة ونظرات منهكة جسدي العشريني بكل تضاريسه الواضحة، حينها تحاشيت النظر إلى وجهي فما عدت أرى فيه مسحة من ذلك الجمال الذي اعتقدت طوال عمري بأنه كان نسخة أنثوية من وسامة أبي الذكورية، وربما لأني خشيت أن أرى ملامح (كايتي) الانجليزية وهي تظهر لي بعد أن عرفت حقيقة أني كنت تلك القطعة منها...

تساقطت نظراتي من تحت ذقني على طول عنقي الرقيق، وتوقفت قليلاً عند حد فاصل بين لونين لبشرتي، حيث رأيت ذلك البرزخ الذي بدا لي واضحاً بين سفح البرونز الممتد بأثر قوس نحيل بأعلى صدري، وبين المنحدر اللبني المؤدي إلى الذروتين من قُبَتَيّ السُراة من صدري، وقد تتوجتا بحبتين من البُن اليمني الذي مازال لونه البني يشرب من حمرته الأصلية..

ما أسوأ حظكما أيها النهدان الطريان.. هل سيحفل بكما أحدٌ ما بعد اليوم؟؟ هل سيكون هناك من يتوق ويتلهف لملامستكما ومداعبتكما دائماً دون أن يلحظ في كل مرة أنكما رطبتما كثيراً وترهلتما أكثر؟؟ ما ذنبكما حتى تجردان من كبريائكما ويحكم عليكما بأن تكونا نهباً للعيون المتعطشة للرغبة والخالية من أي عاطفة تهذبها أو إحساس يدفعها إلى مراعاة مشاعري ومشاعركما؟؟ لا أعرف لماذا تساورني الخشية الآن على شموخكما وتلح عليَّ صورتكما وأنتما تسقطان في درك الجسد المباح؟؟

بطني المستوية تلك التي كانت مفخرتي على كل البنات، وخصري الذي يتسع بضاً دسماً رغم نحافتي البائنة، التي لطالما حسدنني عليها اللدَّات والنِدَّات، ممن قالت احداهن لي ذات يوم بأن جسمي جاء بحسب المقاييس الراقية للجمال، وكأنه طُلب خصيصاً من الله أن يجعلني هكذا، والدليل على ذلك على حد قولها تلك السرة الصغيرة والظاهرة حبتها الوردية مثل برعم زهرة برية شق طريقه إلى ظهر الأرض دون أن يتكبد فيها أي عناء، إنها سُرة تستحق الغزل وتستحق الدلال أكثر..

ماذا كانتا تفعلان يداي حتى هذه اللحظة؟؟ كانتا تمران على كل مكان من جسدي كنت أنظر إليه برفق وعناية، ويتحسسان أدنى بادرة خشنة يمكن أن تفسد ذلك الملمس الطري والناعم في كل سنتيمتر من جسدي، وكأنهما كانا يؤكدان كل حقيقة رأيتها وقلتها فيه، وإلا لما سقطا تلهفاً إلى الخلف واستجبت أنا لهما بأن أدرت جسدي قليلاً للمرآة لكي تسلط ضوئها على ذلك المنحنى المتقوس من أدنى ظهري إلى حيث ينتصب ذلك التل بتواضع جم في علو ساقي، هناك حيث يلتحم الساقان ليحفظا بعناية واخلاص سر ما بباطنهما، ذلك السر الذي لطالما تغَّنى به الشعراء وغنى لأجله المغنون وتساقط إليه الملوك والعبيد لا فرق بينهم: الدانة المصون والدر الثمين واللؤلؤ المكنون، نعم، هنا ذاك الذي لا أراه إذا استقمت وأقمت عودي، فلا يسعني إلا مغازلته بلين وبلمسات حذره من أن يستثيره طرف إحدى أناملي فيقدح شرارته الخامدة، أو ينكأه حد ظفر سافر لا يرحم ولا يعرف بقيمة ما دون ذلك في العمق القريب..

(ذاكرة الجسد) كتبت قصتها وأعلنت عن محتواها ومكنونها ذات مرة (أحلام مستغانمي) فقامت على رأسها الدنيا ولم تقعد، حتى أصبحت بعد ذلك في شرع جمهور العنعنيات مارقة كافرة، وفي عرف عوام الإمعيات ساقطة فاجرة، حيث أجمع الكل عليها بأنها استحقت بشرف أن تسمى (عاهرة)، وأخرى تمادت واعترضت وصرخت كاتبة قصتها المماثلة (أنه جسدي)، فلاقت نفس المصير وشفع لها أن

اعتبرها البعض مقلدة تبحث عن الشهرة من أجل إثراء جسدها بمتعة التلصص عليه من ثقوب الخيمة التي كان ينظر منها ذات سنين (عثمان العمير) وهو غير بعيد من هنا!!

هذا هو سبب كل ذلك الخلاف والاختلاف والجدل والصراع ومثار كل ما قيل بشأن النساء وقضايا المرأة في كل زمان ومكان، عن الحرية والجنس والجسد، ومن المؤكد أنه نفس السبب الذي أدى دائماً إلى اطلاق الفتاوى والأحكام الدينية التي تقضي بالحجاب والاحتجاب جبراً وقسراً على كل النساء في بلدي، وسبب كل الدعوات إلى تحرير المرأة وإطلاق إرادتها في كل شيء يخصها، فلا شيء مما يخصها كله أهم من جسدها!! البعض يفضلونها ساخنة عارية، والبعض لا يشربونها إلا مكسوة بالسواد ومملوحة بالعرق..

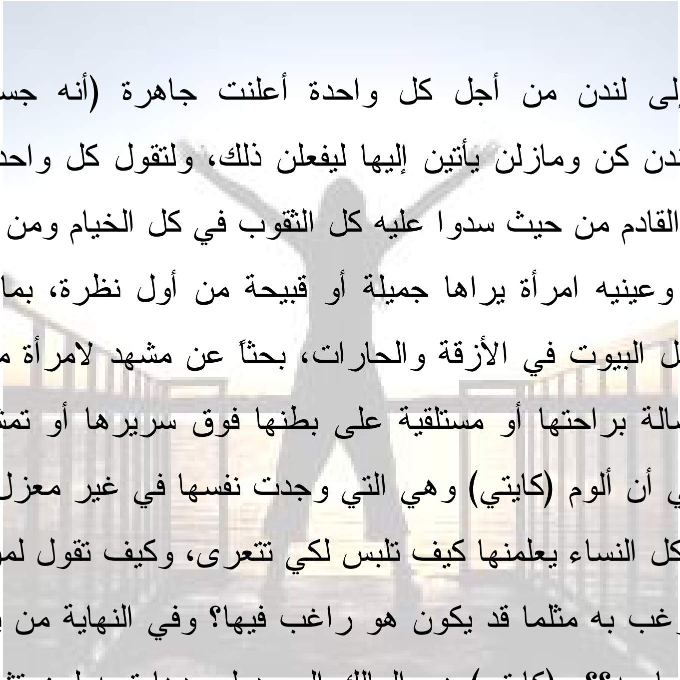

وكل الأمراء يأتون إلى لندن من أجل كل واحدة أعلنت جاهرة (أنه جسدها)، وكل الاميرات المفضوحات هنا في لندن كن ومازلن يأتين إليها ليفعلن ذلك، ولتقول كل واحدة منهن (إنه جسدي)، فكيف لي أن ألوم أبي القادم من حيث سدوا عليه كل الثقوب في كل الخيام ومن حيث شعر بأنه لم تعد هناك في متناول يديه وعينيه امرأة يراها جميلة أو قبيحة من أول نظرة، بما يكفيه عناء التلصص والدوران على نوافذ كل البيوت في الأزقة والحارات، بحثاً عن مشهد لامرأة متحررة في سجنها من سجنها، ممددة في الصالة براحتها أو مستلقية على بطنها فوق سريرها أو تمشط شعرها عارية في حمام منزلها؟ وكيف لي أن ألوم (كايتي) وهي التي وجدت نفسها في غير معزل عن الرجال تتعلم فن التحدث بلغة الجسد، وكل النساء يعلمنها كيف تلبس لكي تتعرى، وكيف تقول لمن وقعت في هواه بكل صراحة وجرأة أنها ترغب به مثلما قد يكون هو راغب فيها؟ وفي النهاية من يحاسب من؟؟ أبي حر بفطرته وسلطته فمن يحاسبه؟؟ و(كايتي) هي المالك الوحيد لجسدها تهبه لمن تشاء وتمنعه عمن تشاء، فمن يحاسبها؟؟؟

هذا هو أحد وجوه الحقيقة التي كانت غائبة عني أو كنت غائبة أنا عنها، وليس ما كنت أعتقد، لقد رأيت بعيني قيم الشرف والعفة والطهر تتهافت إلى مستنقع الرغبات الكامنة والشهوات المعلبة والأهواء والنزوات الطافرة، ولما عليَّ أن أبرِّأ نفسي من ذلك، فأنا لم أنسى كل ما رسمته في ذهني من تلك الرغبات والحاجات في الطريق الذي سلكته لأول مرة صوب لندن، من كل ما يمكن أن

يصبح بين عشية وضحاها عناويناً حمراء عريضة للصحف والمجلات والمواقع الالكترونية، ومن كل ما يمكن أن يسمى (فضيحة)، وكل ما جعلني ذات ليلة أتساءل: وأنا متى سيأتي موسم فضائحي؟؟

ظننت في تلك اللحظات أني ربما قد فقدت الشعور بنفسي وجسدي، ولكني للحظة شعرت فعلاً بخيط حار يتهاوى ممتداً وساقطاً على وجنتي، ماذا؟ إني أبكي!! ليس هذا وحسب بل وأذرف الدموع!! ولكن على ماذا؟ على سقوطي عارية فوق سريري؟ أم على سقوط كل تلك القيم التي رسخت في خزائن معتقداتي؟؟ أم على حظي العاثر وقدري البائس الذي اختار لي أن أكون كما وصفتني (هند): (ابنة حرام)؟؟ أم من خشيتي التي لها ما يبررها أن اخسر الحب الوحيد الذي عرفته في حياتي؟؟؟

لا علاقة للسكر أو الثمالة بما كنت فيه، لأني بدأت حينها أتأكد من موت الرغبة في أعماقي، وإن كنت قد رغبت بشيء حينها، فليس إلا أن أراه هو؟؟ اتصلت به وكلمني، جعلته يرتبك لأول مرة وأنا أقول له:

- **أحتاج إليك.. أرجوك، لا أريد أن أبقى وحيدة هذه الليلة..**

أمليت عليه عنوان شقتي وانتظرته خامدة، نصف جسدي العاري ملقي على فراشي والنصف الآخر مرجوم بإهمال ناحية الأرض، لم يطل بي أمد الانتظار، إذ سرعان ما رفعت جفن عيني وسمعت جرس الباب يقرع مسامعي، سترت جسدي سريعاً بسروال طويل وقميص واسع وفي الطريق ناحية الصالة نزعت من على طرف الشماعة رداءً حريرياً أبيضاً، ارتديته وأنا سائرة دون أن اشد حزامه حول خصري..

كان هو الذي فتحت له باب الشقة، وواقفاً من حيث منعه من الدخول ما رآه من مظهري، تنحيت قليلاً وطلبت منه الدخول، ففعل وهو يغض الطرف عني، وبدون أن أرشده جعل وجهته صوب مكان الجلوس، جلس.. وجلست أنا قبالته وبعد إن ملأت عيوني بالنظر إليه قلت له:

- **(أنور)، أنظر إليَّ أنظر.. واسألني عما بي؟؟ اسألني عما سافرت لأجله وعما قابلته هناك وعرفته وجئت به معي إلى هنا، اسألني عما يبكي العيون ويدمي القلوب ولكنه لم يبكيني ولم يدمي قلبي، هيا اسألني، اسألني..**

بدأ ينظر إليَّ وألف علامة دهشة واستفهام كانت تتطاير من عينيه، كما لمحت في نظراته تلك الخشية الغير واضحة المعنى وتلك الشفقة التي ما كنت أحتاجها، ومع ذلك ظل صامتاً لا يدري ما يقول، زاد صمته من شدة غيظي وحزني، فانفجرت أمامه باكية وغرست رأسي بين يدي، لا أقوى حتى على النظر إليه، حتى رأف بحالي، ودون أن يتخلى عن ثباته أو مكانه الذي كان قد جلس فيه، سألني متحققاً:

- **(تيماء)، ما بك؟؟ إذا استمريت بهذه الطريقة فلن تعطيني الفرصة أبداً لأن أعرف بالضبط كيف أساعدك أو أن اجعل لوجودي هنا قيمة..**

أفلتُّ رأسي ورفعته ويممت نظري إليه، وقلت له بصوت متعجعج ودون أن أخفي اسلوبي التمثيلي الذي استعنت به لبلوغ ذروة مبكرة.. قلت له متسائلة:

- **هل تريد أن تعرف فعلاً؟؟ هل تريد أن أخبرك بما جرى؟؟؟ أنا أيضاً أريد ذلك أكثر منك.**
- **اخبريني (تيماء).. ما بك؟!**
- **طلبوا مني العودة إلى الرياض لأمر ما، فسافرت، بشكل عادي وبدون أي توقعات أو تخرصات، قلت في نفسي بضعة أيام وسأعود، ولكن ما كان ينتظرني هناك، كان فظيعاً، ولا يحتمل على الاطلاق، هل تعرف ماذا كان هناك؟؟ كان كل شيء معد ليخبروني بالحقيقة التي كانت أمامي طيلة أربعة وعشرين عاماً، ولكني لم أكن لأقبل أن تكون تلك هي الحقيقة..**

أمي لم تعد أمي، وشقيقاتي لم يعدن شقيقاتي، وخالتي لم تعد خالتي وابنة خالتي لم تكن في يوم من الأيام ابنة خالتي، وفوق هذا كله مربيتي وصديقتي أصبحت أمي، هكذا وبكل بساطة أخبروني، قالوا بأني أصبحت كبيرة وناضجة وقادرة على الفهم... هم قالوا لي هذا، ورأوا في ذلك كل ما أحتاج إليه من العزاء!! أرأيت؟؟؟!!!!

كانوا ينتظرون الوقت المناسب ليخبروني بالحقيقة!! أربعة وعشرين عاماً لم يجدوا فيها الوقت المناسب، لا وفوق هذا الكل يعتذر للكل، ويطلب مني أن أعذر ما فعله كل واحد منهم، وأن اصدق بأنهم جميعاً فعلوا ما فعلوه بي لأنهم أحبوني.. طلبوا مني أن أسامح (هند) التي قذفت بالحقيقة في وجهي تشتمني بها وتهزأ بي حين قالت لي أني (ابنة حرام)؟ كنت أنا حينها أحاضرها وأعظها وألومها باسم الشرف والعفة التي خسرتهما هي، والعار الذي ألحقته بأمها وأبيها وأسرتها.. هل تصدق؟! قالوا، هي لم تكن تقصد وينبغي عليَّ مسامحتها، شتمتني أمام والدتها التي كانت حتى تلك اللحظة

خالتي، والتي طردتني من بيتها بطريقة مهينة ومذلة، قالوا: وخالتي أيضاً يجب أن اسامحها لأنها كانت تحبني.. وأمي التي كانت أمي، هي التي اعتنت بي واعتبرتني واحدة من بناتها طيلة تلك السنوات لم تكن تقصد أبداً أن تخفي عني الحقيقة، كما ولم تشأ يوماً أن تخبرني بها، وشقيقاتي وعماتي وكل المحيطين بي كانوا كلهم يعلمون ولا ينوون اخباري، وعليَّ أن اسامحهم جميعاً فهم كانوا يحبوني، و(كايتي) التي حملت بي وولدتني وتخلت عني لأبي، كان لها ألف عذر وعذر يجعلني اسامحها، وأبي الذي لم يقوى ذات مرة على كبح جماح نزوته فألقاني بذرة في رحم العاشقة المجنونة وتركني أعيش لمثل هذا اليوم، معذور هو الآخر أيضاً ويستحق مني السماح والعفو... وهكذا، أصبحوا كلهم أبرياء ومعذورون.. وأنا فقط بنت الخطيئة وبنت الزنا وبنت الحرام، وعلي أن أتقبل هذه الحقيقة وأعيش بها ومعها دون أن اشتكي أو أعترض..

هكذا أخبروني، هكذا قالوا لي كل شيء عني، عن ذنبي الذي ارتكبته في اللحظة التي ولدت فيها، فما رأيك؟؟ أليست الحقيقة بسيطة وسهلة التناول والمضغ والهضم وأسهل من ذلك كله حملها واحتمالها لبقية العمر..

هل تعرف؟!! كانت الصدمة شديدة والهزة عنيفة ومزلزلة، ولكني لم أبكي ولم أنهار.. هل تعرف لماذا؟؟ لأن اللاانهيار كان أشد وطأة وعذاباً من الانهيار نفسه، لن تعرف قسوة عجزك عن السقوط حين يفترض بك أن تسقط، ولن تعرف مرارة القهر عندما لا تستطيع أن تشعر به وتظهره، ولن تعرف طعم ذلك الألم المشحون بكل عذابات الدنيا عندما يصيبك ذلك الخدر المؤقت من هول ما ترى وما تسمع، ولن تدرك فظاعة الانعدام عندما تجد نفسك وأنت تخوض تجربة الموت حقيقة لمرة أولى في حياتك لا تموت فيها ولا يستمر موتك بعدها، ولن تدرك جحيم أن تخرج بعد ذلك كله سليماً معافى.. قادراً على الوقوف والتحديق في دائرة العالم دون أن تشوش رؤيتك الدموع أو ينسد حلقك بغصة خانقة تكفي لقتل المئات في لحظة واحدة، لن تعرف معنى العذاب ذلك الذي يأتي بصورة النقيض له تماماً.. لن تعرف.. لن تعرف أبداً؟؟

ولكن يجب أن تعرف لماذا أكشف لك الأمر كله؟؟ لأني قبل عدة أيام عشت معك السعادة إلى منتهاها، وأعلنت لك حقيقة حبي لك، كنت أتمنى أن أستمر في اعلان ذلك أكثر، أن أقول لك أكثر من مجرد أني أحبك، ولكني ظننت أني سأفعل ذلك لاحقاً، ولأني حتى هذه اللحظة لا أعرف أن كنت أنت قد احببتني مثلما احببتك أم لا؟؟ قررت أن أقول لك كل شيء، وأن أزف لك العذر الأقوى، الذي لن تكون مضطراً معه لأن تبرر لي موقفك مني.. نعم، كنت أتمنى من خالص قلبي أن أسمعك وأنت تنطق بتلك الكلمة التي أسمع بها حبك لي، ولكني لم أعد أريد ذلك، نعم، لا أريدك أن تقولها، لأني لم أعد استحقك.. لم

أعد جديرة بك، لم أعد مشرفة لك، فأنا صنيعة اللاشرف ونتاج اللاعفة.. حبي لك بقدر صدق احساسي به، يجعلني أقول لك هذا، حتى وقد أصبحت بالنسبة لي كل شيء، وأخر شيء وأجمل شيء...

أحسست به جواري يلملمني ويجمع أشلائي وأشتاتي، دفئه وحرارة قلبه المتوقد صدقاً أشعلت أخر رغباتي في الحياة، هو.. هو ما أرغب به، كل أعضاء جسدي انتفضت وتوقدت هوىً ورغبة.. قلت له:

- **احضني يا (أنور).. أملأ فراغي واحتوي جسدي المستسلم بين يديك، إنني أهبك نفسي، أحبوك جسدي، أعطيني لك، فهاك أنا، فرصة سانحة وغنيمة سهلة ووعاء مفتوح لصنبور رغباتك، اجعلها نزوة وكبلني بذراعيك، إني من كل قلبي وبكل جوارحي أقول لك... هيت لك، هيت لك، هيت لك..**

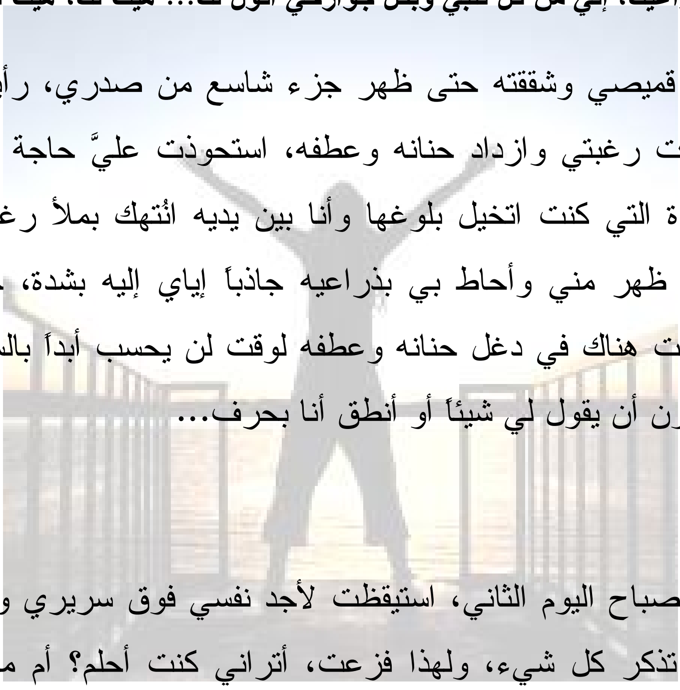

وبحركة شديدة جذبت قميصي وشققته حتى ظهر جزء شاسع من صدري، رأيت انجذاب نهدي إلى صدره وشفتيه، فازدادت رغبتي وازداد حنانه وعطفه، استحوذت عليَّ حاجة الجسد الذي عاش في فرط الدلال، وتلك اللذة التي كنت اتخيل بلوغها وأنا بين يديه أُنتهك بملأ رغبتي وارادتي، لكنه لم يستجب، بل غطى ما ظهر مني وأحاط بي بذراعيه جاذباً إياي إليه بشدة، حتى أني عجزت عن الحراك، فلم أقاوم وبقيت هناك في دغل حنانه وعطفه لوقت لن يحسب أبداً بالساعات أو الدقائق، بل بالأنفاس والنبضات، دون أن يقول لي شيئاً أو أنطق أنا بحرف...

في ساعة متأخرة من صباح اليوم الثاني، استيقظت لأجد نفسي فوق سريري وفي غرفتي ولكني مع ذلك كنت قادرة على تذكر كل شيء، ولهذا فزعت، أتراني كنت أحلم؟ أم ماذا؟ انسللت من تحت غطاءي وأنا أشعر بقدر من النشاط، مما دعاني إلى أن أقف قليلاً واحاول أن أستجمع وعيي ومداركي، فلم اهتدي إلا بما كان لايزال عليَّ من ملابسي التي كنت ارتديها البارحة، وكان لايزال ذلك الشق واضحاً على قميصي، فراودني شيء من الحياء تغافلت عنه واندفعت عجلة إلى الحمام لأتخلص من ذلك الحصر الشديد الذي كان بي، وبعد أن أخذت حمامي وغيرت ملابسي، خرجت من غرفتي وكأني احتجت إلى أن افعل ذلك متسللة، ولكني قبل أن اتجاوز المسافة الصغيرة الباقية من الممر المؤدي إلى الصالة، أحسست بوجوده قريباً من هناك، وبالفعل فقد تأكد لي وجوده بمجرد أن وقفت على رأس السلم المكون من خمس درجات هابطة إلى مستوى أرضية الصالة، فقد كان جالساً على

أريكة وواضع قدميه ممددتان على ترابيزة اسطوانية صغيرة، ممسكاً بيديه بكتاب كان يتصفحه، عاودني ذلك الشعور بالحياء ولكن بأشد مما شعرت به من قبل، وأحترت ماذا أفعل؟؟ وكيف أتصرف لألفت انتباهه..

خطرت لي فكرة، تراجعت عدة خطوات للخلف فلم أجدها كافية فتراجعت عدة خطوات أخرى حتى أصبحت في منتصف الممر، وبأداء تمثيلي بدأت اجرجر خطواتي على الأرض لتصدر صوتاً، وأطلقت عدة سعلات متوالية وظللت أمشي، حتى رأيت وجهه في وجهي مباشرة لا تفصل بيني وبينه أكثر من بضعة سنتيمترات، تظاهرت بأني متوعكة بينما أزال هو ما كان ينبأ في وجهه عن قلقه، ورسم عوضاً عن ذلك ابتسامة ضيقة وبادرني قائلاً:

- **ما كان عليك ترك فراشك؟؟**
- **[بشيء من الغباء]: هه، ماذا؟ أنت هنا هه آآآآآآه..**
- **تعالي.. تعالي، برفق، برفق...**

كان قد رآني وأنا أحاول أن أستند إلى الجدار، فسارع وأمسك بذراعي وأسندني إليه وأخذ بيدي إلى حيث أجلسني على أحد مقاعد مائدة الطعام، التي ظهر على سطحها ما كنت في أشد الحاجة إليه وأعده هو لي: الماء والطعام، وحينها طلب مني أن أتناول طعامي وهو جالس على مقعد مقابل لي، بقي قليلاً، حتى شغله عني هاتفه الذي أنبأه عمن يتصل به، فتركني بشكل عفوي وظل يتحدث عبر الهاتف وهو واقف يصول ذهاباً واياباً في ركن الصالة القريب من باب الشقة الرئيسي، في حين شغلت أنا بالأكل، ولكني بين كل لقمة ولقمة كنت ألتفت ناحيته وأرقبه قليلاً ثم أعود بعد ذلك إلى طعامي..

لا أعرف ماذا فعل بعد ذلك بالضبط، لكني أتذكر جيداً أني قضيت معه وبصحبته عدة أيام متوالية، لم يفارقني فيها إلا إلى الحمام أو إلى فراش النوم، عدة أيام، بعيدا عن شقتي، ودراستي التي كنت قد أهملتها لعدة أسابيع قبل ذلك، ولكن ليس بعيداً عن حزني ومأساتي..

أخذني إلى (آبريستويث) (Aberystwyth) في إمارة (ويلز) الانجليزية، وبين ساحل البحر ومصب النهرين (رايدول وستويث)، وأيضاً قمة الجبل أخرجني من ذلك كله الذي كنت قد حملته معي من

الرياض، وهناك أعادني إلى ما كان قد أشاعه في حياتي قبل ذلك، من الاطمئنان ولكن بأدنى درجاته تبعاً للملمات التي جعلني أبقيها موضوعة في اعتباري..

في منطقة الساحل البلوري كنت وهو نتشارك متعة رؤية الشمس وهي تشرق وتغرب، لأبدأ بعد الشروق حياتي بيوم حافل، وأبدأ بعد الغروب حياتي بليلة هادئة، وفي المكتبة الوطنية في قمة الجبل قضيت نهارات رائعة، فيما كانت لنا أمسيات هادئة في بعض الأماكن الرائعة في تلك المدينة، ولكن يبقى الأهم من ذلك كله، تلك الأحاديث والحوارات والمناقشات التي جعلني أخوض فيها معه، والتي استطاع من خلال استدراجي إليها أن يحل عقدي ويفكك تركيبي المثقب والمتهالك في بعض جوانبه، ليجعلني لاحقاً أعيد بناء وتركيب نفسي، وأستعيد قدرتي على الاتصال بذاتي والغور في أعماقي، والخروج مرة أخرى إلى العالم برؤية جديدة وقوية..

ظننت في البداية أنه كان يريدني أن أنسى، لكنه أوضح لي بأنه يريد مني أن أعيد النظر في كل شيء، وأن أتحقق مما يمكن أن يكون بالواقع أزمتي ومصدر معاناتي، فقبل أن تتوارى شمس اليوم الأول خلف الحجب الظلامية السوداء هناك في **آبريستويث** بادرني قائلاً:

- **لا تظني أني أطلب منك أن تنسين أو تتناسين ما حدث، لا، بل غايتي من وجودي هنا معك أن أراك قادرة على استعادة هدوئك وتوازنك، واعادة النظر في كل ما حدث والوصول إلى فهم صائب، وهذا ما قدَّرتُ أن أساعدك فيه..**

- **[سألته بتهكم مقصود]: ما الذي ستساعدني فيه؟!!**

- **في إدراك الحقيقة أولاً وفهم الواقع والتعامل معه بإيجابية ثانياً.. وفي أن تكوني أنتِ من جديد ثالثاً..**

- **أنا الآن أعرف الحقيقة وأنت تدعي بأني جاهلة بها، أنا تلك التي عرفت من تكون وكيف عاشت وكيف جاءت إلى هذا العالم..**

- **(تيماء)، أن تلومي نفسك فهذا بحد ذاته غير صائب، وأن تلقي اللوم على غيرك فهذا لم يعد مجدياً، أنا أرى أنك بحاجة إلى التفكير بطريقة أوسع وأشمل، بحيث تكوني قادرة على رؤية الواقع بوضوح، وليس مجرد الغرق في موضوع ما حدث..**

- **ومن ألوم إذن؟؟ القدر؟ أم ألوم الله ذاته؟؟**

- لم أقل ذلك، فليس القدر بمسؤول عما أنت فيه ولا أرى أي علاقة لله بذلك كله، بل أرى أن المسألة كلها لها جذور كامنة وممتدة في فكر وواقع ما كنت فيه وخاضعة له، قد تجدين تلك الجذور ومظاهرها من ناحية الفكر في الاعتقادات والقناعات التي تقف دوماً وراء كل ما يحدث، أما من ناحية الواقع فقد تجدينها في نمط العلاقات والولاءات التي تمثل دائرة شراكة الجميع في صنع الأحداث..

- لا، فالأمر يخصني أنا وحدي فلا تصبغه بصبغة عامة من فضلك..

- ربما يبدو الأمر كذلك، ولكن هذا ليس صحيحاً، فلست وحدك من يعاني، ولست وحدك من وجد نفسه في الموضع الذي يضطر فيه لأن يدفع ثمن أخطاء الآخرين، بل الجميع من حولك يعاني من نفس المشكلة التي تتخذ صوراً وأوجه متعددة، وأنا لا أعتبر نفسي بعيداً عن ذلك، وأنت كذلك لا تنسي أنني انتمي لنفس الذي تنتمين إليه..

- (أنور)، لا أعرف أن كان ما تقوله يواسيني أم أنك تبحث عن مدخل لتقحم نفسك في ما حصل لي، ولكني في كل الأحوال لم ولن ألوم أحداً، لأن ذلك لن يسترني من حقيقة ما بُتَّ أعرفه عن نفسي، فالمشكلة ليست فيما تعنيه لي تلك الحقيقة، بل في الطريقة التي سينظر بها الناس إليَّ بناءً عليها، أنا لن أعيب على نفسي أو أحملها الذنب لكوني اكتشفت أني ابنة غير شرعية، بل أستصعب أن أواجه الآخرين لكوني كذلك..

- حسناً، دعيني أصرف نظرك قليلاً عن مشكلتك وأسألك بناءً على ما رويته أنتِ لي: هل تعرفين كيف عولجت مشكلة قريبتك (هند) التي فجرت هذه الأزمة أساساً؟ هل تعرفين ماذا حدث بعد أن طردتك والدتها وغادرت أنت القصر؟

- لم أهتم..

- بل لم تكوني مهتمة وهناك فرق بين أن تكوني قاصدة الاهتمام أو قاصدة عدم الاهتمام، الناس ليسوا مشغولين دائماً بك أو بي، وأيما ظهر لهم عنا لابد أن يمر عليه الوقت وينساه الجميع، ما يهتم به الناس ليس إلا ذلك نثير به انتباههم إلينا، لاحظي أن كلانا لا يعلم ما جرى بشأن (هند) ولكني سأخبرك كيف يمكن أن تكون قد جرت الأمور..

- كيف؟؟ أو ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟؟

- من المؤكد أن حقيقة ما وقعت فيه (هند) قد انكشف بصورة أو بأخرى، وهذا سيدفع والديها إلى تدارك الأمر ومنع حدوث فضيحة، ومن ثم فإن معالجتهم للمشكلة ستكون بحسب فهمهم لها، فإن

فهموها بأنها فقط ما حدث فستكون معالجتهم لها بمنع انكشاف ما حدث ومنع تكراره أن تعقلوا كثيراً، أما إذا فهموها بأنها في السبب الذي أدى إلى حدوث ما حدث، وفي الدوافع والعوامل التي صاحبت ذلك، فسيبحثون عن الحلول لمعالجة ذلك، لقد فجرت (هند) مشكلتك هذه دفاعاً عن نفسها، وارتضت والدتها بذلك وطردتك لتشغلك بأمر نفسك وتلهيك عن الخوض في أمر ابنتها، وكل شيء تم بشكل مقصود ولاشعوري في نفس الوقت..

- إذن، عليَّ أن أجِّد في فضح الناس من حولي لأشغلهم بأنفسهم فلا ينشغلوا بفضائحي، أهذا ما تريد أن تقوله؟

- قلت أن الأمور ستجري هكذا، ولكن بأي من تلك المعالجات لن تنتهي المشكلات، فالطبيب الذي يعطيك دواء لتتخلصي به من الأعراض لا يداويك من المرض نفسه، الأمور في محيطك ستبقى كما هي تستمر على هذا النحو، وغداً ستكون هناك (هند) أخرى وستولد (تيماء) جديدة، ولأنك تعرفين قسوة أن يحدث هذا لأي شخص، فهذا أدعى أن تدفعك معاناتك إلى أن تمنعي بكل ما استطعت أن يعاني منها أحداً سواك، فليس والدك كل الرجال في بلدك، وليست (كايتي) كل النساء في لندن، لذا يجب أن تفكري في كيف يمكنك محاربة أن يتكرر ما حدث لك لكيلا يحدث لغيرك..

- كلام مفهوم نظرياً، ولكن ما شأني أنا بغيري؟

- هذا هو شأنك دائماً.. انظري إلى كل البنات والنساء في بلدك وبلدي، وانظري إلى كل الرجال هناك، ستجدين أن الجميع يعانون والجميع يقهرون، قد تختلف صور وأشكال المعاناة لكن العيش فيها هي السمة المشتركة، لأن هناك من يريد أن يشغلهم بأمر معاناتهم ليتسنى له موراة سوءاته وتحقيق غاياته، ولو تدرجنا في الأمر، لانتهينا إلى من هو في موضع المسؤولية تجاه الجميع، أن يحتمل مسؤوليته..

- ومن هو المسؤول برأيك؟؟

- كل من لا تتعارض مصالحه مع ما يتعرض له الناس من الظلم والقهر والكبت والحرمان، وكل من يواري مساوئه خلف مساوئ الآخرين، وكل من يقبل أن يعيش حياته في ترف لا طائل له، في حين أن هناك من يموت من الجوع، كل من يرى الباطل يحدث أمامه ولا يحرك ساكناً، وعشرات أخرى من التعريفات.. انظري بنظرة أوسع، ليس الأمراء والأميرات من يصنعون الفضائح، بل كل من استطاع أن يصل إلى لندن يفعل ذلك، ولكن مشكلة الخاصة أنها تتجاهل كونها تمثل العامة، ومشكلة العامة أنها تحمل أوزار خطايا الخاصة، فالجواب يعرف من عنوانه كما يقال على طريقة إذا كان رب البيت.

- **[ساخرة]: أرى براعتك الفائقة في التمهيد لطرح أرائك ومواقفك السياسية، فكلامك الأخير واضح إلى درجة أنك تقصد أن السلطة دائماً هي المسؤولة وهي الجذر الأساسي لكل معاناة الناس وبالتالي فهي السبب الذي أدى بي إلى أن أكون بنت الخطيئة، (أنور) لا داعي لهذه المقدمات كلها إن كان هدفك أن تجعلني في حرج أمام ما هي عليه أسرتي..**

- **نعم، هذه هي الحقيقة، ولو نظرت إلى نفسك من هذا المنظور لوافقتني في الرأي..**

- **أي منظور هذا الذي تتكلم عنه ولا أراه؟؟ أي منظور هذا الذي يجعل أسباب كل الوقائع السيئة في حياة الناس ذات طابع سياسي، إذا رجل طلق زوجته أو امرأة حملت سفاحاً أو طفل لقى مصرعه بحادث مرور أو.. أو، فهذا كله بسبب فساد السلطة القائمة؟؟؟**

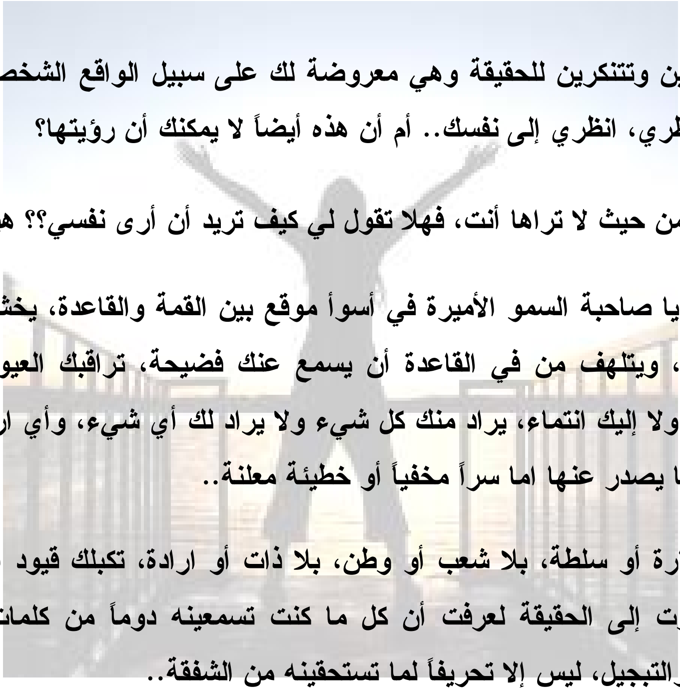

- **وأنتِ لماذا تنكرين وتتنكرين للحقيقة وهي معروضة لك على سبيل الواقع الشخصي، وتحرفينها على نفس السبيل؟ انظري، انظري إلى نفسك.. أم أن هذه أيضاً لا يمكنك أن رؤيتها؟**

- **بل أراها، ولكن من حيث لا تراها أنت، فهلا تقول لي كيف تريد أن أرى نفسي؟؟ هيا أخبرني**

- **سأقول لك: أنت يا صاحبة السمو الأميرة في أسوأ موقع بين القمة والقاعدة، يخشى من في القمة أن تصنعين فضيحة، ويتلهف من في القاعدة أن يسمع عنك فضيحة، تراقبك العيون من كل الجهات، فليس لك انتماء ولا إليك انتماء، يراد منك كل شيء ولا يراد لك أي شيء، وأي ارادة لك لا تلتمسينها إلا خلسة، فكل ما يصدر عنها اما سراً مخفياً أو خطيئة معلنة..**

أنت أميرة بلا امارة أو سلطة، بلا شعب أو وطن، بلا ذات أو ارادة، تكبلك قيود السلطة وتنبذك حياة الشعب، ولو نظرت إلى الحقيقة لعرفت أن كل ما كنت تسمعينه دوماً من كلمات الاطراء وعبارات الاعجاب والحب والتبجيل، ليس إلا تحريفاً لما تستحقينه من الشفقة..

مشكلتك يا صاحبة السمو ليست في كونك عشت طوال عمرك جاهلة بحقيقة من هي والدتك، أو في أن يعرف الناس عنك أنك تلك الفتاة التي جاءت عن طريق علاقة محرمة، هذه ليست مشكلتك، بل مشكلتك أنك كنت سترفضين أن يحدث لك هذا وستمنعينه بكل الطرق لو اتيح لك ذلك قبل أن يحدث، ومع ذلك فأنت لا تريدين أن تفعلي هذا من أجل غيرك، لقد جئت بك إلى هنا، وأنا أتمنى ألا تعودي منه إلا وقد اتضحت لك الرؤية.. وبان لك مغزى الحقيقة..

لم أكن لأقبل بما قاله بتلك السهولة التي لم يكن هو ذاته يتوقعها، ولكني مع ذلك لم أقبله من أجل كل الأسباب الموضوعية التي يمكن الأخذ بها، بل رفضتها عناداً له، وتكبراً، غير أن النقاش لم ينتهي عند

هذا الحد، بل استمر، فلم يكن في حياتي أحد سواه في تلك الأوقات الصعبة، وكان عليَّ أن أبدي له كل التقدير على ذلك، خاصة وأنه كان يفعل كل ذلك طوعاً من دون حتى أن أطلب منه، أو أن ألزمه بشيء من ذلك، فضلاً عن السبب الرئيسي وهو أنني كنت أحبه، وهذه هي الحقيقة!!

الفصل الحادي والعشرون

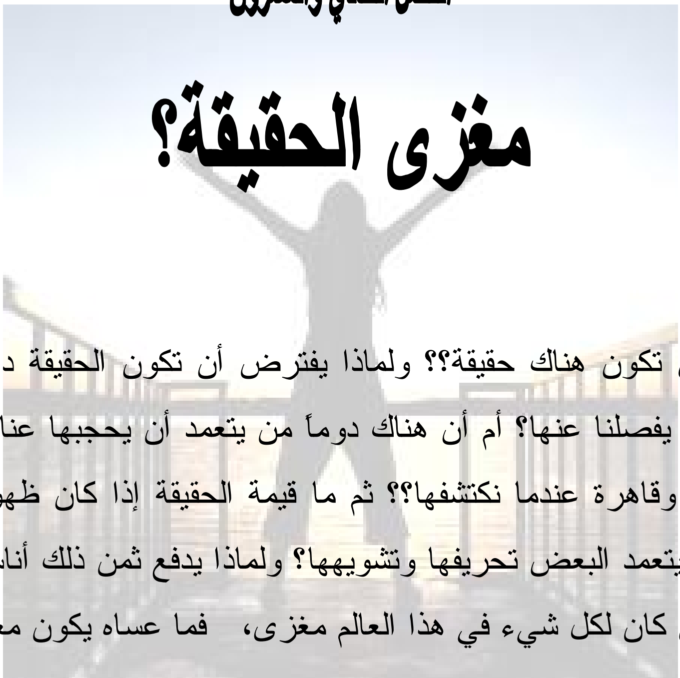

مغزى الحقيقة؟

الحقيقة، لماذا يجب أن تكون هناك حقيقة؟؟ ولماذا يفترض أن تكون الحقيقة دائماً غائبة ومتوارية؟؟ وهل جهلنا فقط هو ما يفصلنا عنها؟ أم أن هناك دوماً من يتعمد أن يحجبها عنا؟؟ ومن بعد ذلك لماذا تكون الحقائق صادمة وقاهرة عندما نكتشفها؟؟ ثم ما قيمة الحقيقة إذا كان ظهورها وانكشافها يسبب الألم للأخرين؟ ولماذا يتعمد البعض تحريفها وتشويهها؟ ولماذا يدفع ثمن ذلك أناس أخرون لا ذنب لهم إلا كونهم أبرياء؟؟ وأن كان لكل شيء في هذا العالم مغزى، فما عساه يكون مغزى الحقيقة؟؟

صحونا مبكرين في صباح اليوم الثاني ليتسنى لنا الاستمتاع بمنظر الشروق، وبعد أن غرق كل منا لساعة من الدهر في حالة من الصمت والتأمل، التفت إليه حيث كان واقفاً بجواري فوجدته شاخصاً ناظريه نحوي وكأنه كان كذلك منذ أمد بعيد، في البداية استحيت من نظراته تلك التي كانت تبرق منها أضواء العالم من كل حدب وصوب، لكنه كان كمن لم يشعر بأني أنظر إليه أيضاً، لم يكن شارداً، بل كان ينظر إليَّ وهو يعي ذلك تماماً، عجباً، ما بال هذا الرجل؟ سألت نفسي ذلك وأنا أمد ذراعي نحوه وأحرك كفي أمام عيناه لعلي الفت انتباهه:

- **هيييه.. هيييه، أين أنت؟؟**

لم يبدي ما يوحي بفعل انتباه أو استفاقة، بل ابتسم ودون أن يعلق بكلمة واحدة، خطا خطوة واحدة نحوي وأمسك بذراعي وجرني معه برفق ولين في طريق العودة إلى البيت الساحلي الذي كنا قد استأجرناه للإقامة فيه، مما زاد من غرابتي وشدة دهشتي، وعندما وصلنا اتجه كل منا نحو مخدعه، لنلتقي بعد قرابة الساعة في الباحة الخارجية للبيت والمفروشة بالعشب والمسورة بأشجار الزينة الصغيرة، كان ذلك بعد أن خرجت من غرفتي ولاحظت عدم وجوده في الداخل.

ومن فوق السلم الخشبي الصغير عند باب البيت، رأيته واقفاً في نهاية الممر الذي يخترق الباحة كنهر ينبع من تحتي ويصب في بحر المسرب المؤدي إلى الشارع، كان هناك يتحدث عبر الهاتف، وبمجرد ما أن رآني أبدى تعجلاً في انهاء المكالمة، ملوحاً لي بعد ذلك بيده بما يعني أن اذهب نحوه، فعلت ذلك وأنا في نفس الوقت أقاوم وسواس الريبة لئلا يستولي على ذهني موصولاً بالاستغراب الذي كان ما يزال يسكنني هاجسه، وكما كان برنامجنا لذلك اليوم اتجهنا إلى مطعم للأكلات البحرية، وهناك سألته:

- **ما بالك اليوم تبدو غامضاً ومقلقاً؟؟**

تناول منديلاً ومسح به فمه منبئاً عن انتهائه من تناول الافطار، وبشيء من ابتسامة متثاقلة لم أعهدها على وجهه من قبل، أجاب على سؤالي بسؤال:

- **وماذا تتوقعين أنت؟؟**

- **أتوقع أن هناك ما تخفيه، فهل تخفي أمراً؟؟ سألته..**

- **على العكس، فأنا أود أن أخبرك بأمر ما!!**

تذكرت ما كان من أمره جيداً، وبالذات المكالمة التي تعمد أن يجريها بعيداً، وسألته مرة أخرى:

- **(أنور)، ماذا هناك؟؟ أقصد الاتصال الذي كنت قد أجريته قبل قليل..**

- **هذا ما أردت أن أخبرك به، لقد اتصلت بي (كايتي) وتريد لقاءك..**

- **[قاطعته وتكلمت بحدة]: وأنا لا أريد لقاءها ولا أريد أيضاً رؤيتها..**

- **(تيماء) ما بك؟؟ اسمعي منها أولاً، ثم قرري ما شئت..**

- **لا أريد أن أسمع أي شيء منها.. لا أريد ألا تفهم؟؟**

- **حسناً كما تشائين، وماذا يهمني أنا؟؟ أن كنت لا تريدين ذلك، مع أني أرى أنك بحاجة إلى الاستماع إليها أكثر من أي وقت مضى، من يدري؟؟ ربما كان لديها ما يستحق أن تعرفيه، لكن كما تشائين..**

كان كلامه وأيضاً تهكمه ذو مغزى أكبر من أن يكون لمجرد أن يدفعني للقبول بلقاء (كايتي)، فاستدركت على نحو من السخرية وقلت له:

- **هه، وماذا تعتقد أنه تبقى لديها ولم تخبرني به؟؟ فما أخبرتني به حتى الآن كافياً بل وأكثر من كاف..**
- **[رد عليَّ بنبرة هادئة وهو يعطيني ظهره]: بحسب ما فهمته منها لازال هناك الكثير، على الأقل ذلك التفسير الذي تستقيم به الأمور وتتضح به الحقيقة على نحو مكتمل، وهو أدنى ما قد تكوني بحاجة إليه، إلا إذا كنت مستعدة للبقاء في ربقة تلك الأسئلة، لماذا؟ ولماذا؟ فأنت حرة!!**

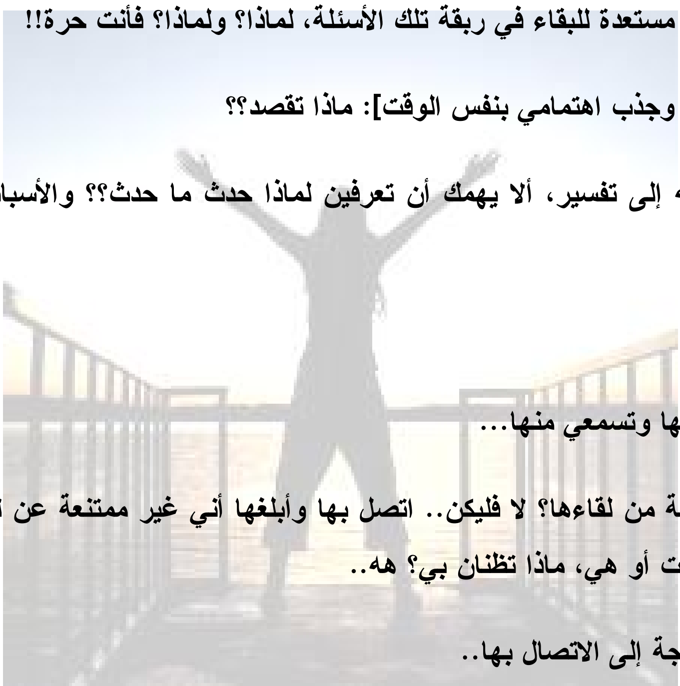

- **[أغاظني أسلوبه وجذب اهتمامي بنفس الوقت]: ماذا تقصد؟؟**
- **لا يحتاج ما قلته إلى تفسير، ألا يهمك أن تعرفين لماذا حدث ما حدث؟؟ والأسباب التي كمنت وراء ذلك؟؟**
- **بلى..**
- **عليك أن تلتقي بها وتسمعي منها...**
- **وهل تظنني خائفة من لقاءها؟ لا فليكن.. اتصل بها وأبلغها أني غير ممتنعة عن لقائها أبداً الآن وفي أي وقت تشاء أنت أو هي، ماذا تظنان بي؟ هه..**
- **لا أعتقد أني بحاجة إلى الاتصال بها..**
- **[استغربت من موقفه وتهاونه]: ولما لا؟؟**
- **لسبب بسيط وهو أنها في الطريق إلى هنا..**
- **[نظرت إليه بحقد]: أيها الخبيث اللئيم، حسمت الأمر مسبقاً، حسناً، هذا فراق بيني وبينك اليوم، ولتدعني بمفردي، نعم، أريد أن اقضي اليوم بدون أن أراك..**

وجدت في تلك الحيلة مهرباً منه، لا لشيء إلا لأعطي نفسي الوقت الكافي للتفكير في ما يمكن أن يكون عليه الموقف حالما ستصل (كايتي) والتقي بها، فتركته على الفور وسرت في طريقي على غير

هدى حتى استقرت نفسي بالجلوس في مكان صخري قصي من الساحل، وهناك اعتليت صخرة كبيرة، وجلست عليها بعد أن تحققت من عدم وجود سرطانات البحر فوقها أو بالقرب منها، لأني كنت ولازلت أفزع منها ومن كثير من كائنات البحر الرطبة والصلبة على حد سواء، ما عدا الأسماك الصغيرة والملونة فهي وحدها المألوفة والمحببة لدي.

في الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم وصلت (كايتي) واستقبلها (أنور)، بينما كنت أنا أدعي بأني أغط في نومة قيلولتي المعتادة، لكني على غير العادة لم استطع النوم فعلاً، كنت قد بدأت أسمع صوتها واضحاً وهي تتحدث معه، قبل أن يستحوذ على المكان صمت طويل دام حتى الرابعة عصراً عندما قررت الخروج اليهما، ولكنهما لم يكونا في المكان أصلاً، فقررت البقاء في مكاني حتى يعودان..

مع انتهاء اللحظة الأولى التي التقيت فيها بــ (كايتي) انتابتني حالة من التشوش والتناقض في المشاعر وعدم وضوح الفكرة، قابلتها ببرود وبدون أن اصافحها حتى، وقررت أن ابقى صامتة، إلى أن اخرج من تلك الحالة الغريبة التي أصابتني، في الوقت نفسه الذي رأيتها فيه توماً لـــ (أنور) بأن يتركنا بمفردنا، لكني اعترضت بلهجة حازمة عندما هم هو بفعل ذلك قائلة:

- **لا، ليبقى هو معنا..**

- **[تكلم هو]: لا بل الأفضل أن تكونا معاً على انفراد، بإذنكما..**

رده هذا كان كفيلاً بأن يشعل سعير غضبي عليه في أعماقي، ولكني لم أجد بداً من الرضوخ للأمر، كنت أتحاشى النظر إليها خشية أن تقع عيني في عينيها، في حين لم تكف هي عن التحديق في وجهي طوال الوقت، انتظرت منها أن تبدأ هي بالكلام فسمعتها تقول لي:

- **أرى أنك أصبحت تكرهين رؤيتي والنظر إليَّ، ولكن لتكوني على علم فأنا لن أخجل أن قلت بأني قد أرغب باسترضائك أو طلب الصفح منك، غير أني في الحقيقة جئت لأمر أخر..**

- **[قاطعتها]: طبعاً، فمثلك قد لا يشعر بالذنب..**

- **دعينا من هذا، لأني جئت إليك هنا لأخبرك بالجزء المتبقي من الحقيقة..**

- **أي جزء؟ فالحقيقة واضحة ولا تحتاج لتكملات تبريرية أو شروحات تتذريعين بها..**

- لا تقاطعيني رجاءً، ودعيني أقول ما عندي وأنصرف..

- طيب، لنسمع..

- من المؤكد أنك تريدين أن تعرفي حقيقة ما كان بيني وبين والدك، ولماذا تخليت عنك بعد ولادتك وقبلت أن تكوني في عهدته، ولماذا أبقينا على الأمر سراً عليك أنت بالذات؟؟ وكل الأسئلة التي يمكن أن تراودك حتى هذه اللحظة، لذا سأعيد حكاية القصة التي حكيتها لك من قبل ولكن بدون مقص رقيب أو عمل مونتاج، فهل أنت مستعدة للإنصات إليَّ؟ أم اعود ادراجي وأرحل؟

- قلت لك بأني سأستمع إليك، فتكلمي..

- بعد وفاة جدتي لم يكن معي إلا مبلغاً صغيراً من المال، بالكاد تدبرت به أمري إلى أن حصلت على شهادة تعليم جامعي متوسط، بعد ذلك كان عليَّ أن أجد عملاً، فقد وجدت نفسي واقفة في الشارع: شابة فقيرة ومعدمة وبدون مؤهلات علمية عالية أو خبرة عملية كافية وليس لدي أية علاقات داعمة، فأدركت أني لا أمتلك أدنى مقومات العيش السهل والآمن، في مقابل تلك الظروف الصعبة والمريرة التي حاصرتني فيها الهموم ساعة بساعة ويوم بيوم دون أن تعتقني ولو للحظة، من اول هم المأوى إلى أخر هموم الأكل والشرب واللبس وكل شيء، كل شيء، خاصة بعد أن نفذ المال من جيبي، وتوقف كل من كنت أعرفهم عن اقراضي المال لعجزي عن السداد، فتركت المدينة التي نشأت فيها واتجهت صوب لندن..

في لندن، بدأت على الفور بمحاولاتي للحصول على فرصة عمل أو وظيفة، ومع كل محاولة فاشلة كنت أكتشف حقيقة جديدة، فسوق العمل ليس فيه مكان للعواطف والمشاعر ولا شيء فيه بالمجان، وعليك في كل الأحوال أن تقدم الكثير من التنازلات متى ما وجدت نفسك مضطراً لذلك، هذا ما قاله لي مدير الفندق الذي عملت فيه بعد ذلك، بعد أن قلت له بأني مستعدة للعمل بضعف الوقت وبنصف الأجـــر، فقال لي: إذا قدمت بعض التنازلات لن تكوني مضطرة لذلك، كما أنك سوف تجنين الكثير من المال، قلت له: أني لا أملك ما اتنازل عنه، قال: بل تملكين جمالك وشبابك، فهما المؤهل الوحيد الذي تملكينه، ورأس المال الكاف لمن هي في نفس ظروفك، فقط استثمريهما لصالحك، وستحصلين على العوائد والأرباح، بالطبع أنا لا أطلب منك أن تكوني مومساً، لا، فكل ما نحتاجه منك ليس أكثر من الجاذبية والاغراء والتلطف بأنوثتك وجمالك في خدمة عملائنا على أحسن وجه، وما دون ذلك فهو من شأنك، وتأكدي بأني سأمنحك فرصة عمل رائعة في هذا الفندق، إذا أخبرتني بأنك مقتنعة بما قلته لك.

لم أجد بداً من القبول بذلك، فأرسلني للعمل كمتدربة في قسم الضيافات الخاصة، وهناك أدركت ما تتطلبه مني طبيعة عملي، إذ أصبحت مضطرة لتقديم التنازلات لكبار عملاء الفندق الذين كان بوسع الواحد منهم أن يدفع بك إلى الشارع بشكوى صغيرة يقدمها ضدك للإدارة، حينها بدأت اتنازل واتنازل واقدم التنازل تلو الآخر، لأحصل في المقابل على ترقية تلو أخرى حتى أصبحت مديرة للقسم نفسه، بعدها تعرفت على والدك وحدث ما حدث حتى رفضت ما كان من عرضه الزواج بي، بعدها بعدة شهور وجدت نفسي مضطرة لترك العمل في الفندق بسبب خلاف شخصي بيني وبين مديره أنذاك، وبفضل والدك عدت مرة أخرى إلى العمل بعد أن عانيت الأمرين خلال فترة عطالتي تلك، ولكنه –والدك– عاد بعد فترة بصحبة مسؤول كبير في السفارة وقدما لي عرضاً أخر، وهو العمل في خدمة الأسرة المالكة وكل من يأتي من طرفها إلى لندن، من خلال منظمة أو شركة ستقام لأجل ذلك وتتلقى تمويلاً مهولاً من الحكومة، كان العرض مغرياً ومجانياً، فقبلت وبدأت العمل في ادارة الشركة الجديدة..

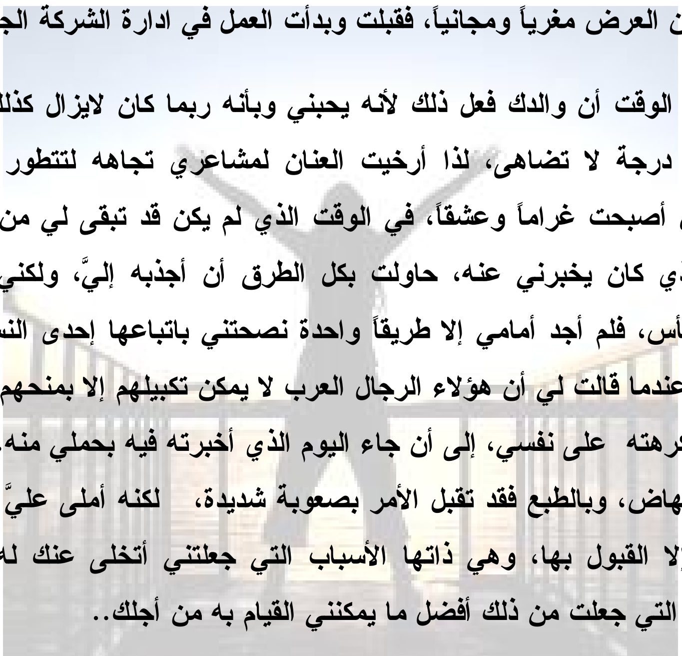

اعتقدت في ذلك الوقت أن والدك فعل ذلك لأنه يحبني وبأنه ربما كان لايزال كذلك، لاسيما وأنه كان كريماً معي إلى درجة لا تضاهى، لذا أرخيت العنان لمشاعري تجاهه لتتطور من مجرد الامتنان والعرفان إلى أن أصبحت غراماً وعشقاً، في الوقت الذي لم يكن قد تبقى لي من مشاعره هو سوى ذلك الاحترام الذي كان يخبرني عنه، حاولت بكل الطرق أن أجذبه إليَّ، ولكني فشلت دائماً، حتى استولى عليَّ اليأس، فلم أجد أمامي إلا طريقاً واحدة نصحتني باتباعها إحدى النساء العربيات اللاتي عرفتهن أنذاك، عندما قالت لي أن هؤلاء الرجال العرب لا يمكن تكبيلهم إلا بمنحهم الأبناء، فسعيت إلى ذلك، حتى أني أكرهته على نفسي، إلى أن جاء اليوم الذي أخبرته فيه بحملي منه، وفوات الاوان على اجراء عملية اجهاض، وبالطبع فقد تقبل الأمر بصعوبة شديدة، لكنه أملى عليَّ أيضاً شروطه، التي لم يكن امامي إلا القبول بها، وهي ذاتها الأسباب التي جعلتني أتخلى عنك له، بالإضافة إلى كل الأسباب الأخرى التي جعلت من ذلك أفضل ما يمكنني القيام به من أجلك..

نعم، كان الأفضل أن تعيشين في كنف والدك على ما هو عليه من علو شأن ورفـــاهية عيش، وأن تحظين بأم وأسرة وحياة طبيعية، بعد أن ضمن لي والدك إثبات أني والدتك بشكل رسمي هنا في انجلترا، وحقي في رؤيتك والاطمئنان عليك متى ما شئت، وبعد أن عاهدتني الأميرة الفاضلة (نورا) على حسن رعايتك ومعاملتك كواحدة من بناتها، على أن يظل كل شيء سراً في المقابل..

طبيعة عملي في خدمة أسرتك كانت تخفي دائماً سبباً أخر دفعني إلى التخلي عنك، وهو ما يتعلق بحقيقة هذا العمل نفسه، فالشركة التي أديرها تعمل بشكل غير معلن في تقديم ذلك النوع من الخدمات لكل أفراد الأسرة المالكة الذين يفدون إلى لندن: العلاقات وادارة الصفقات ونقل الأموال ودفع الرشاوى والعمولات وكل متطلبات الحماية الأمنية، والحصانة القانونية والقضائية، والأهم من ذلك كله الملذات

والرغبات من كل شيء، والغاية من ذلك كله لم تكن إلا وضع الجميع تحت السيطرة، وعمل كل ما من شأنه إبقاء الأمور في الاطار الذي لا تتعداه إلى ما يمكن أن يضر بسمعة العرش والحكومة هناك في الرياض أو يضر بعلاقاتها الخارجية، فكل شيء يتم طبعاً تحت اشراف واطلاع مباشر وسري من قبل سفارة المملكة هنا في لندن، وبالتنسيق مع أجهزة ومؤسسات حكومية بريطانية تقف على رأسها هيئات أمنية واستخباراتية عليا.

لذا وأمام كل ما يمكن أن تكوني قد فهمته مما قلته آنفاً، لم أجد بعد ولادتك أني سأكون أماً مناسبة لك، وكان من الأفضل أن اقبل بما اتفقت عليــه مع والدك، كما كان من الممكن أن أخبرك بهذه القصة في أي وقت بعد مجيئك إلى لندن، ولكن المشكلة لم تكن في ايجاد الوقت المناسب كما قلت لك من قبل، بــل في كوني أنا من كنت امتنع عن ذلك، إذ لم أجــد ما يدفعني إلى فعــله، حتى جئت أنت إليَّ في ذلك اليوم غاضبة وأخبرتني بأنك كنت هناك في القصر، فاتصلت أثناء نومك بالأميرة (سمية) وأخبرتني بما كان قد حدث بينك وبين الأميرة (هند)، الأمر الذي أدى إلى ما نحن فيه الآن..

هذا ما استطعت أن أسرده لك، والذي لم يكن لي من دافع ورائه إلا ما رأيت أنه من حقك أن تعرفي الحقيقة، خاصة وأنا التي عرفت كم كنت تنشدينها وتسعين إليها طوال السنوات السابقة..

كنت أستمع إلى ما تقوله لي، وأتصور مع كل كلمة كانت تنطق بها وكل عبارة تقولها، معنى أن يكون ذلك هو بالفعل ما جرى ويجري في الواقع، في الوقت نفسه الذي كنت فيه استرجع كل ما كان قد حدث معي وكل ما قد قيل لي وكل ما عرفته وشهدته وعاصرته، من تلك اللحظة التي غيرت فيها ملابسي في الطائرة التي حملتني لأول مرة إلى لندن، وحتى اللحظة التي جمعتني بــ (هند) أخر مرة، وبدا لي حينها أنني أصبحت قادرة على تفسير الكثير من تلك التناقضات التي كنت أشعر بها وأواجهها، وعلى الاجابة على تلك التساؤلات التي لطالما طرأت على ذهني واستولت على فكري لأوقات طويلة، فتساءلت بيني وبين نفسي بعد أن فرغت هي من الكلام: هل يعقل هذا؟؟ هل يحدث كل هذا؟ ولماذا يجب أن يحدث ذلك؟؟ وإذن، في أي عالم أعيش أنا؟؟ ومن عساه يكون ذاك الذي يجني الفائدة من ذلك كله؟؟

هكذا، اكتمل عندي تطبيق درس القراءة التي سبق وأن علمني أسسها ومبادئها (أنور)، وادركت أهمية أن يستخدم المرء منا عينه وعين غيره لرؤية الأشياء من حوله، واكتشاف الحقيقة التي ينبلج نورها من

بين تلك المتناقضات المربكة والمحيرة، وتسقط دونها كل تلك الأقنعة الخادعة والقناعات الزائفة والاعتقادات الموهومة، نعم، وهكذا اتيح لي للمرة الأولى أن أطل على إحدى صفحات كتاب الواقع المحبوسة في قمع الزيف والتضليل، والمحجوبة على العيون والأذهان لكي لا تكون هناك ردة حتمية على ما تردده الخطابات المصنعة والمقولبة، مما تجعجع به أبواق النفاق وطواحين الهواء وببغاوات المحاكاة والتقليد، التي لا تخدم إلا تلك القوى المختفية حقيقتها وراء الأقنعة والأغلفة والأستار، وفوق هذا كله أدركت أني لم أكن المستهدفة والضحية وحدي بل الجميع مستهدفون والجميع يقادون إلى حيث يتم اعدادهم كأضحيات تنحر على مذبح المصالح والغايات الأنانية والجشعة..

انتبهت لها أقصد (كايتي) وقلت لها:

- **يكفي ما سمعته منك حتى الآن، إذ أكره أن أسمع المزيد وأي ما رغبت بمعرفته فمن المؤكد أني سأعود إليك سواء كان ذلك اليوم أو غدا أو متى ما كان..**

نظرت إليَّ وكأنها فهمت من كلامي بأن مهمتها قد انتهت وأن عليها الرحيل، فقالت وهي تمنع الدموع من أن تظهر على عتبات أحداقها:

- **حسناً، سأنصرف الآن وسأكون طوع أمرك متى ما شئت..**

كنت لا أزال حتى ذلك الحين اتحاشى النظر إليها إلا خلسة، ولكن حين أعطتني ظهرها وهمت بالانصراف فعلاً، شعرت بعذابات الضمير بأسواطها وسلاسلها وكلابيبها وسيوفها ونيرانها تنهال على روحي ويشعر بها جسدي، بأشد وأقسى مما يمكن أن يشعر بها المرء فعلاً، ووجدتني أسمع صوت (أنور) وكأنه هاتف جاء يهاتفني من أعماق أعماقي، يقول لي بصوت عال كانت لتسمعه الدنيا كلها لولا أني عرفت أني أسمعه فقط أنا وحدي:

ألا ترين هذه التي جاءت إليك مذلة نفسها ومهينة كرامتها، أنها والدتك؟ ألا ترين أن هذه التي وضعت نفسها للتو طوع أمرك ورهن مشيئتك، أنك أنت ابنتها؟؟ ألا ترين أنها هي تلك التي حملتك في بطنها وهناً على وهن طوال تسعة أشهر وتجرعت من كأس آلام المخاض مثل كل الوالدات، تلك التي حرمت نفسها من قطعة منها كنتها أنت، ألا ترين تلك التي تكاد تختفي عن عينيك وهي التي أحسنت إليك طوال عمرها بما لم تكن لتفعل معك أم ووالدة سواها؟ ماذا يا سمو الأميرة؟ هل يرد الظلم بالظلم في شرعكم؟

أو أن جزاء الاعتراف بالذنب في حكمكم ليس إلا شديد الانتقام؟؟ ألا ترين؟؟ ألا ترين؟؟ إنها وحسب والدتك!!

إنخلع قلبي من صدري وأرتجف كل عضو في جسدي وأهترت نفسي تحت مكواة الضمير في كل أرجاء كياني، وفاضت على غير ميعاد دموعي، كما لم تفيض بالدموع عيون فتاة أو امرأة قبلي ومن بعدي، في حين كنت لا أزال أرى (كايتي) تعبر الممر متجهة نحو سيارتها، و(أنور) واقف على عتبة الباب لا يدري ما يفعل أو يقول، نظرت إليه بعينين مدميتين بدموعهما، وروح فاغرة فاها ذاك الذي تخرج منه ألسنة النار التي استعرت داخلي، لعلي التمس منه رأياً أو احظى منه برشد، لكنه أطرق برأسه والتفت ينظر إلى تلك الراحلة، وقد وقفت هناك تلقي نظرتها الأخيرة عليَّ من حيث أراها ولا تراني..

(إنها وحسب والدتك) صرخة أخرى شقت عباب الأثير مثل نفخة صور القيامة ثاقبة طبلة أذني، سمعتها، فهرعت أركض بكل ما أوتيت من قوة متجاوزة الباب وذلك الواقف كالصنم بجواره، ومن منتصف الممر صرخت بأعلى صوتي:

- **كااااااااااااااااااااااااااااتيييييييييي... كاااااااااااااااااااااااااااااااااااااايتييييييييييييييي.**

ارتميت وألقيت بكامل جسدي على مؤخرة سيارتها، وبدأت أنهال عليها ضرباً بكلتا يداي وأنا أصرخ باكية:

- **لا ترحلي، كاااايتي، لا ترحلي.. لاااااااااااااااا**

انهرت وركعت خلف السيارة في حال أسوأ من حالتي قبل، وأنا لا أزال أصرخ أناديها، فلم تكن إلا تلك التي شعرت بثقلها وقد انكبت فوقي كسحابة حب أرسلها الحنَّان لتغطيني ببرد عطفها وحنانها وتطفئ بأمطار دموعها نيران عذابي، حينها وحسب وبأخر ما كان قد تبقى من حزمة الصوت عندي اعترفت لها بأنها (والدتي).

عـــدنا إلى لندن معاً، وأنا ممتنة لتـــلك المصالحة التي حدثت بيني وبين (كايتي)، أقصد (والدتي)، ومع كل يوم كان يمضي كنت أشعر بأني كنت أستعيد توازني، ولكن كان هناك أمران لابد أن

أحسمهما، أولهما ما تكون في صدري من سخط عارم إزاء كل من كانوا ولازالوا من حولي، وفي مقدمة ذلك كله أسرتي ومملكتي، بعد أن عرفت حقيقة ما يجري، والأمر الثاني لم يكن إلا علاقتي بـــ (أنور) أو بالأصح علاقته هو بي، فيما يخص الأول كان لابد أن أجري نوعاً من التحقيق، أو لربما نوعاً من التحقق، فقد كان هذا ضروري حتى لا اتبنى مواقفاً واصدار أحكاماً فقط لأني أخذت الكلام على عواهنه، حتى وأن كنت أثق بصدق كل كلمة قالتها لي (كايتي).

في كل لقاء كان يجمعني بـــ (كايتي) بعد عودتي معها إلى لندن، كنت انتهز الفرص وأنا أحاول أن أُعوِّد لساني على مناداتها بـــ (أمي) وأشعرها بذلك في نفس الوقت، ولكم كان هذا صعباً للغاية، ففي كل مرة كنت أنظر فيها إليها، كنت لا أرى فيها إلا صديقتي تلك التي أحببتها، وهي أيضاً أدركت ذلك وأبدت تسامحاً بالغاً معي بشأنه، غير أني شعرت بحاجة ماسة إلى ما يزيل بعض الشكوك التي كانت لاتزال تراودني، خاصة تلك التي تتعلق بما كنت أشك بأنها و(أنور) على اتفاق بينهما أو ما شابه، لذلك سألتها ذات نهار:

- **ما الذي دار بينك وبين (أنور) قبل أن نلتقي أنا وانت هناك في (آبريستويث)؟؟ أقصد هل أطلعته حينها أو ربما من قبل بما دار بيني وبينك بعد ذلك؟؟ وأريد منك أن تخبريني بصراحة ما الذي أشعر به بينكما ولا أعلم به؟؟ اخبريني، فقد عاهدتني على ألا يكون هناك سر تخفينه عني بعد ذلك اليوم؟؟**

نظرت إليَّ وبكل هدوء، سألتني:

- **قبل أن أجيب على أسئلتك هلا صارحتني ما إذا كنت قد أسات الظن به أو بي؟؟**

- **[بانكار شديد قلت لها]: لاااا، ليس من قبيل هذا ما أسألك عنه، وانما قصدت أن يكون بينكما ما لست أعلمه، هذا فقط، بالإضافة إلى رغبتي في أن أعرف ما إذا كنت قد أطلعته بشيء مما أطلعتني به، صدقيني، ما كان عليك أن تسأليني هذا السؤال..**

- **حسناً، لا بأس، سأقول لك الحقيقة، هناك بالفعل ما كنا نكتمه أنا و(أنور) عنك، وأنا على ثقة بأنه لم يخبرك به اطلاقاً..**

- **وما هو؟؟**

- إنه فقط الأمر الذي يتعلق بوجوده هنا في لندن، فكما تعرفين فإنه يعمل هناك في (زيورخ) بألمانيا، وقد اتفقت معه على يبقى هنا اطول فترة ممكنة، بعد أن أدركت بأنك بحاجة ماسة إلى ذلك، لذا فبقائه هنا في لندن هو بترتيب بيني وبينه..

- وماذا غير ذلك؟؟

- كان هناك تواصل بيننا، لغرض الاطمئنان عليك فقط.

- وبخصوص ما سألتك عنه من قبل؟؟

- ماذا؟؟

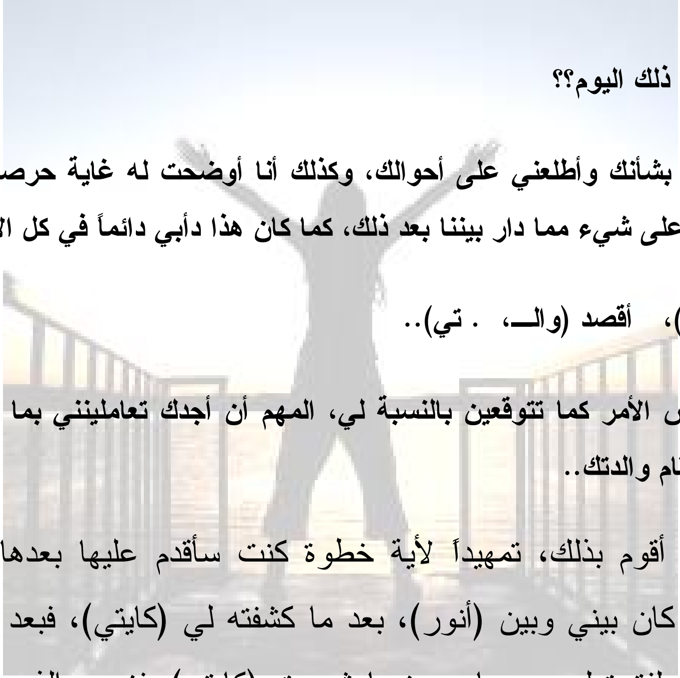

- ما دار بينكما في ذلك اليوم؟؟

- هه، تحدثت معه بشأنك وأطلعني على أحوالك، وكذلك أنا أوضحت له غاية حرصي على الالتقاء بك، ولكني لم أطلعه على شيء مما دار بيننا بعد ذلك، كما كان هذا دأبي دائماً في كل الأمور..

- صحيح؟؟ (كايتي)، أقصد (والـــ . تي)..

- على مهلك، فليس الأمر كما تتوقعين بالنسبة لي، المهم أن أجدك تعاملينني بما يشعرني دوماً بأنني على الأقل في مقام والدتك..

لقد كان من المهم أن أقوم بذلك، تمهيداً لأية خطوة كنت سأقدم عليها بعدها، خاصة فيما يتعلق باستكمال النقاش الذي كان بيني وبين (أنور)، بعد ما كشفته لي (كايتي)، فبعد عودتنا تلك إلى لندن، أبلغني هو بأنه سيغيب لفترة لم يحددها، وعندما شعرت (كايتي) بفزعي الذي كتمته بعد أن أخبرني بذلك، طمأنتني هي وأكدت لي أنه سيعود بالفعل، وهذا ما دفعني إلى أن أعرف منها حقيقة ما بينهما، المهم أني قلت لها بعد ذلك:

- أفهم من كلامك أن (أنور) ليس على إطلاع حتى الآن بأي شيء مما علمته منك؟

- من جهتي أنا، لا، فأنا واثقة بأني لم أخبره بأي من ذلك، لكن من جهات أخرى لا أعرف، أقول هذا لما نعرفه كلانا عنه، ولكن لماذا تسألين؟؟ هل أخبرك بما أوحى لك أنه قد يكون اطلاع بتلك الأمور؟؟

– لا، فقط أردت أن أتأكد واتخلص من بعض الشكوك كما أخبرتك، ولكن كيف تكوني متأكدة من أنه سيعود؟؟

– يكفي أنه أكد لي ذلك..

– وأين تعتقدين أنه ذهب؟؟ هل عاد إلى ألمانيا؟؟ أم أنه مازال هنا في بريطانيا، أو ماذا عساك تعرفين بالضبط بهذا الخصوص؟؟

– اظن أنه هنا في لندن، فهو على اتصال بنشطاء آخرين من المؤيدين للثورة في بلده..

– [دون أن يفاجأني ما قالته]: أعلم عنه هذا، فقد أخبرني به هو من قبل، ولكن منذ متى وأنت تعرفين ذلك؟؟ هل أخبرك هو؟؟ أم ماذا؟

– أبداً، لم يخبرني هو ولم أسأله أنا عن ذلك، فقط احتجت لعدة مرات أن اتحرى عنه، فهو على كل حال رجل غريب، وكان يجب أن أعرف عنه ما يكفي دون أن أشعره بذلك..

– (كايتي)، لو تكلمنا بهذا الشأن، فما رأيك أنت بتلك الثورات؟؟ أقصد في مصر وتونس وغيرهما، ما رأيك؟ فأنا بالفعل أريد معرفة رأيك وآراء الأخرين من حولي أيضاً؟؟

– من حيث المبدأ، أعتقد أنه من حق أي شعب أن يقرر مصيره وأن يستعيد سلطته، أما كمتابعة فقد رأيت بالفعل كيف أن ما حدث في تلك الدول العربية قد أدهش العالم، وجعل الجميع يعترف به ويتعامل معه كواقع لا مفر منه، حتى أن العديد من القوى والدول اتجهت إلى دعم تلك الثورات، كلا بحسب ما يراه مناسباً له ولمصالحه..

– أريد أن أسألك سؤالاً أخر بهذا الخصوص أيضاً، هل تعتقدين أو ربما تتوقعين أن تصل موجة الثورة هذه إلى المملكة؟؟

– سأكون صادقة معك في هذا الشأن، لقد وصلت تلك الموجة إلى بلدك بالفعل، ولكنها تقابل الآن بمقاومة شديدة، اتخذت طرقاً وأشكالاً متعددة، أقصد تلك المقاومة، وليس من المستبعد أن تكون هناك محاولات أخرى للتغيير، خاصة إذا لم تقوم الأسرة المالكة بتنفيذ مشروعات اصلاح سياسية واجتماعية تلبي الحد الأدنى من مطالب الشارع، وهذا ليس كلامي بل ما يقوله جميع المراقبين..

– معقول أن يكون هذا صحيح؟؟

- ولما لا؟؟ طالما وأن كل شيء ممكن، فكلما كفلت الأنظمة السياسية للشعوب حقوقها وحققت مطالبها، كلما اتسعت وكبرت طموحات الشعوب وارتفع سقف مطالبها، هكذا تجري الأمور ومن أجل هذا تقام الدول والحكومات، فالتغيير مطلوب دائماً..

- حسناً، بحكم معرفتك بالأوضاع في المملكة، ما هو سقف مطالب الناس هناك؟؟ وما هو الحد الأدنى من ذلك؟؟

- أمور كثيرة متعددة الجوانب، المزيد من الحريات السياسية وحرية التعبير واقامة الأحزاب، وأيضاً الحريات والحقوق الاجتماعية للمرأة وحقوق الانسان، والعدالة والمساواة في توزيع الثروة، واشراك الشعب في الحكم، وأشياء أخرى ثقافية واقتصادية، أما بالنسبة للوضع في المملكة، فهو وضع حاد وغير مستقر في عمقه بعكس ما يظهر بالعادة، فهناك الكثير من العوامل التي تتجه بالبلاد إلى التغيير وربما إلى الثورة..

- كيف؟ وهلا ضربت لي مثلا؟؟

- مثل الحكم الملكي المركزي، نفوذ المؤسسة الدينية، القوانين التي تسمح بأن تنتهك الحقوق، حرمان المرأة من الكثير من حقوقها، الطوائف الدينية، العصبيات القبلية، وغير ذلك، وكلها يمكن أن تكون عوامل للثورة..

- وهل ترين أن هذه العوامل أصبحت ظاهرة؟؟؟

- نعم، وكأنك لا تعرفين ما يجري اليوم هناك داخل حدود المملكة، هناك حراك طائفي في الشرق، وثورة نسوية في طورها الجنيني، وهناك جيل منفتح على العالم، ويريد أن يحصل على حرياته وأن تتحول بلده إلى الأفضل، وهو الجيل الذي صنع الثورة في تونس ومصر واليمن، عن طريق الـ (Facebook)، فضلاً عن العوامل الكامنة في بنية الدولة بل وفي بنية الأسرة المالكة نفسها، فهناك مخاوف شديدة حالياً من حدوث انقسام وصراع على العرش، خاصة وانه اصبح من الضروري انتقال السلطة إلى جيل أخر من أبناء الأسرة المالكة..

- لم أكن أعلم بأن الأمور يمكن أن تصل أو أن تكون قد وصلت إلى هذه الدرجة؟؟ أين كنت من ذلك كله؟؟

- لا عليك، فلازال الوقت مبكراً عليك للاهتمام بهذه الأمور..

- **لماذا تقولين لي هذا؟ هل يوجد سن محدد للخوض في أمور السياسة بنظرك؟؟ أم ماذا تقصدين؟؟**

- **هل تريدين الحقيقة، أنا لا أريد أن تقحمي نفسك في هذا كله، على الأقل حتى تنتهين من اكمال دراستك الجامعية..**

- **وأنا لا أريد أن أقحم نفسي في شيء، على الأقل حتى هذه اللحظة، فهل هذه مخاوف أم على ابنتها أم أنها نصيحة مخلصة؟؟**

- **بل هي مخاوف أم؟؟ فأنت ربما لا تعرفين ذلك المصير الذي كان ولازال يلقاه كل من فكر أو حاول أن يضع نفسه في موضع ما ضد النظام هناك في المملكة، ولكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أني سأمنعك من أي شيء قد ترغبين به..**

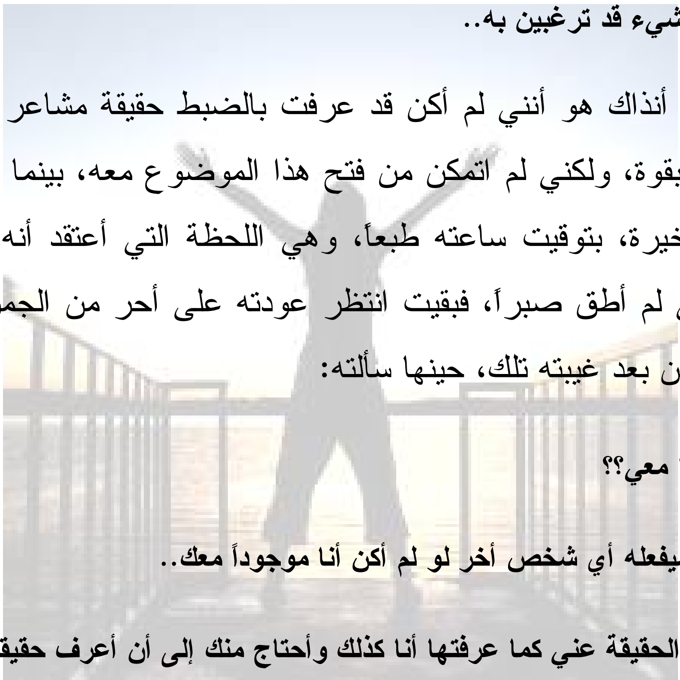

ما كان يحز في نفسي أنذاك هو أنني لم أكن قد عرفت بالضبط حقيقة مشاعر (أنور) نحوي، ولعلي أردت أن أعرف ذلك بقوة، ولكني لم اتمكن من فتح هذا الموضوع معه، بينما كان هو يدرك ذلك أو يؤجله إلى اللحظة الأخيرة، بتوقيت ساعته طبعاً، وهي اللحظة التي أعتقد أنه كان قد حدد أماراتها واشراطها مسبقاً، لكني لم أطق صبراً، فبقيت انتظر عودته على أحر من الجمر، وحرصت على أن ألتقي به فور ظهوره من بعد غيبته تلك، حينها سألته:

- **لماذا تفعل كل هذا معي؟؟**

- **لأن هذا ما كان سيفعله أي شخص أخر لو لم أكن أنا موجوداً معك..**

- **لكنك الآن عرفت الحقيقة عني كما عرفتها أنا كذلك وأحتاج منك إلى أن أعرف حقيقتك أنت أيضاً..**

- **من المهم جداً أن يعرف الانسان الحقيقة وأن يكون قادرا على ادراكها في كل لحظة، ولكن الأهم من معرفتها، هو إدراك مغزاها، فللحقيقة دائماً ذلك المغزى الذي قد يستعصي علينا ادراكه أكثر مما استعصت علينا الحقيقة ذاتها.**

- **أنا افهم ما ترمي إليه، ولكن ماذا عن المشاعر؟؟ أليست حقيقة هي الأخرى؟ ألا يكفي أن نعرفها ونشعر بها لنعمل بموجبها؟ قل لي، ما تعرف أني في أشد الحاجة إليه منك في هذا الوقت بالتحديد..**

- **(تيماء)، ماذا تريدين مني أن أقول لك؟؟**

- قل لي بصراحة هل كنت تحبني؟؟ وهل مازلت تحبني؟ أم أن موقفك مني قد تغير بعد أن كاشفتك بكل شيء وأصبحت تعرف حقيقتي القديمة والجديدة؟؟

- يجب أن تعرفي جيداً بأنه أن كانت هناك ثمة مشاعر تكونت لدي تجاهك، فإن ما حدث ومهما يمكن أن يحدث لم يكن ليؤثر على تلك المشاعر، ولكني أن قلت لك بأني أحبك بالطريقة التي احببتني بها أنت فلن أكون صادقا، وأن قلت بأني لم أحبك فسأكون قطعاً كاذباً، والأمر في كل الأحوال مرهون بمدى تفهمك..

- وكيف تريد مني أن أفهم مشاعرك نحوي إذن؟؟

- هناك فرق يجب أن تدركيه بين الفهم والتفهم، لأنه الفرق ذاته بين حبك لي وحبي لك، فأنت أحببتني ذلك الحب الذي يركن إلى غاية محددة، وليس كذلك حبي لك، لأني منذ البداية لم أحدد لأي علاقة قد تنشأ بيني وبينك غاية أو هدف، ولكن كل شيء يمكن أن يتغير لسبب ما، طالما كنا على استعداد دائم للقبول بالتغيير، هل تفهمين ما قلته لك؟؟

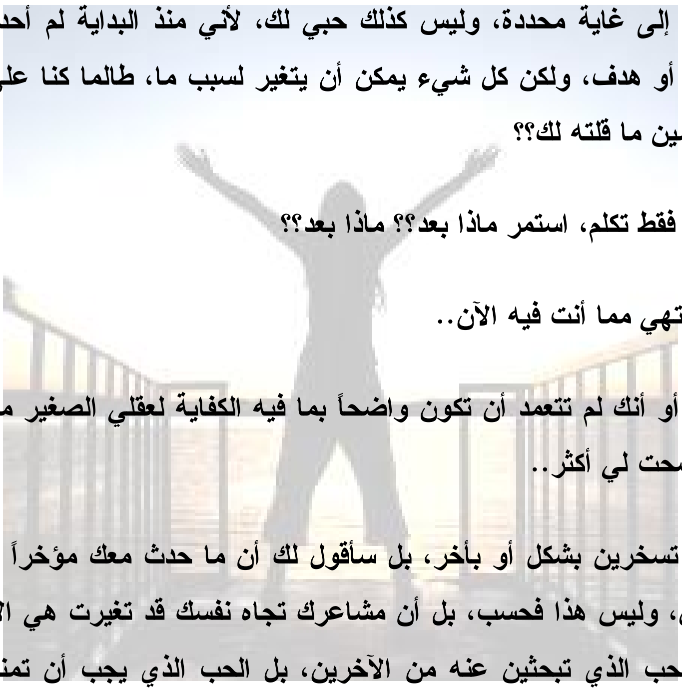

- لا عليك، لا عليك فقط تكلم، استمر ماذا بعد؟؟ ماذا بعد؟؟

- لا شيء، ما لم تنتهي مما أنت فيه الآن..

- أنا لم أفهم أصلاً أو أنك لم تتعمد أن تكون واضحاً بما فيه الكفاية لعقلي الصغير مقارنة بعقلك الكبير أن يفهم، فهلا أوضحت لي أكثر..

- لن أهتم إن كنت تسخرين بشكل أو بأخر، بل سأقول لك أن ما حدث معك مؤخراً أحدث شرخاً في ثقتك بنفسك وبالآخرين، وليس هذا فحسب، بل أن مشاعرك تجاه نفسك قد تغيرت هي الأخرى، ما أنت بحاجة إليه الآن ليس الحب الذي تبحثين عنه من الآخرين، بل الحب الذي يجب أن تمنحيه لنفسك، يجب أن تحبي نفسك أولاً لكي تتمكني من صنع بداية جديدة..

كلامه على ذلك النحو أثار غضبي ورفع من مستوى ضغط الدم عندي، فقاطعته وأظهرت ما بي من سخط وانفعال، وأنا أقول له بصوت مرتفع:

- لماذا تتهرب من الإجابة على سؤالي؟؟ أم أنك تريد أن تقول لي بأني أحاول فرض نفسي عليك، أتراني إلى هذه الدرجة انحدرت في عينيك؟؟ (أنور) أنا أسألك سؤال واحد عن مشاعرك نحوي وما أريده منك ليس إلا اجابة واحدة واضحة ومحددة: نعم أو لا، هل تحبني مثلما أحبك؟؟ هل تريدني كما أريدك؟؟ كن شجاعا وأجبني..

- **[منفعلاً ومستنكراً اسلوب كلامي معه]: وماذا لو قلت لك نعم واعترفت لك وكنت صادقاً معك بأني أحبك، ماذا سيحدث؟؟ اخبريني ماذا سيحدث؟؟ هل تدركين أن مجرد المشاعر في حالتي وحالتك لا تكفي حتى لأن نسمح لأنفسنا أن نعيش تلك اللحظات الشاعرية التي يعيشها كل العشاق العاديين، أو أن نسمح لخيالاتنا أن ترسم تلك الأحلام الوردية ونحن نعتقد بأنها قابلة للتحقق، يجب أن تفهمي وتقدري صعوبة الموقف، وأن تنظري إلى تلك المسافات الشاسعة التي تفصل بيني وبينك، فما الفائدة من (الحب) إذا كان كل شيء في واقع الحال سيحكم عليه بالإعدام شنقاً وحرقاً وغرقاً.. (تيماء)، أنا لا اتهرب منك، ولو كان الأمر متوقف فقط على الاعتراف لك بأني أحبك، لفعلت ذلك وما تركتك للحظة واحدة تعانين من كل ذلك العذاب أو تعيشين هذه المأساة بسببي، ففي حالتي أنا الاعلان عن حبي لك هو بمثابة الاعلان عن بدء حرب دامية ومؤلمة ضد كل شيء سيقف حتماً في وجهنا وسيصنع المستحيل لكي لا يلتئم لنا شمل، هذا أن قلت لك نعم، لكن ماذا لو كان جوابي لك هي تلك الـــ (لا) اللعينة، التي يستحيل أن تفهميها فضلاً عن أن كنت ستقبلين بها أو تتقبلينها، فأنت أن سمعتها مني لن تتورعين عن الأخذ بتفسيرات أبعد ما تكون عن الحقيقة، وستسقطين كل الأسباب التي أدت إلى تأجيج جحيم معاناتك في دائرة حياتك الشخصية والعائلية على موقفي منك ومشاعري نحوك، كما أني أن فعلت ذلك فذلك يعني أني سألقي بك في جوف النار بيدي، ولن يكون هناك شيء أسوأ من أي احتمال يمكنني أن اتقبله في أسوأ الظروف، إلا أن ينتهي الأمر بيني وبينك إلى ضد كل ما قمت به وسعيت إليه والتزمت به منذ البداية من أجلك، لهذا لا أستطيع أن اقول لك نعم حتى لو كان قلبي يقولها، لأن العقل يمنعني من ذلك، ولا أستطيع أن اقول لك لا لمجرد أن منطق العقل يدعمها على حساب قلبي ومشاعري، وكلتا الكلمتين إن قيلتا الآن لن تكونا صادقتين، فهل فهمت الآن حقيقة ما أنا بصدده، أم أنك مازلت في غي عن ذلك تعمهين؟؟**

عندما انتهى من الكلام، وجدني أمامه واقفة مذهولة ومتحجرة، حتى الدمعة التي أطلت على العالم من عيني، وقفت على حرف جفني وتحجرت وأعياني انتظارها أن تسقط، فكلامه ما كان ليبعث بي حزناً أو فرحا، وما كان لينتشلني من عذاباتي التي لم تشفى بعد جروحها ولم تغادرني آلامها وأسقامها، وما كان أيضاً ليأخذني إلى تلك السفوح الخضراء وحدائق الزهور التي لطالما رأيتها في أحلام الحب الوردية وقصائد العشق الغزلية، بل كل ما قاله زرعني في منطقة البين، حائرة الذهن وخائرة القوى، عاجزة عن إتخاذ قرار أو الحراك لخطوة واحدة..

ما قاله كان صحيحاً، وليس صحيحاً في نفس الوقت، ولكني ما كنت لأدرك ما معنى أن تكون الأشياء صحيحة وغير صحيحة في نفس الوقت، غير أني رضخت لما قاله، وقررت أن أؤجل كل شيء بهذا الشأن إلى أجل غير مسمى، دون أن اطلب منه أن يعطيني ذلك الأمل الذي كنت أحتاج إليه، أو أن

استسلم لليأس الذي كان يحوم حولي ويقتنص لحظة ضعفي لكي يستولي عليَّ، ولكن ما قاله لي حتى تلك اللحظة لم يكن أسوأ مما قاله بعد ذلك مباشرة، فعندما توقف عن الكلام وانتظرني ثم وجدني صامتة لا أميل إلى قول شيء، أردف قائلاً:

- **(تيماء)، آن الآوان لكي نعود إلى الواقع، وأنت بالذات يجب أن تساعدي نفسك لكي تساعديني، لقد طال بي أمد المقام هنا وأخشى أني لا أستطيع البقاء لفترة طويلة من بعد، وتعلمين أيضاً أنه يجب أن يأتي اليوم الذي سأرحل فيه، أرجوك، دعينا نغتنم الوقت القليل الذي تبقى لي هنا من أجل أن تستعيدي كل ما كنت قد خسرتيه من الايمان والثقة بالذات ومن تلك الحوافز التي أشعلت فيك من قبل الطاقة للحياة، يجب أن تقفي على قدميك فوق أرض الواقع مرة أخرى بقوة وثبات، وأن تصلي إلى لحظة الصفاء والتوازن تلك التي أنت بأشد الحاجة إليها لتكوني قادرة على حسم الكثير من الأمور، حينها أنا واثق بأنك ستحسنين إتخاذ القرار وستنجحين في صنع بداية أخرى لك في الحياة، لأنك حينئذ ستعرفين بالضبط ماذا تريدين، وستتضح لك أهدافك ورسالتك وطريقك التي يجب أن تسلكيها أيضاً، وفي ذلك الوقت فقط سأقول لك أنك بالفعل أصبحت حرة..**

طواني بعد ذلك في أحضانه، وأعمل كل تلك المشاعر الدافئة والصادقة لتعيدني إلى نفسي الرقيقة والناعمة، وتخرجني من تلك الحالة الصنمية التي كنت قد يبست فيها وتشققت بفعلها معظم قسماتي، ثم لم يتركني إلا وقد أراني فسحة الأمل أمامي، وأيقظ في أعماقي ذلك الدافع الأقوى للبقاء والاستمرار، حتى ابتسامتي وضحكتي استطاع أيضاً أن يعيدهما إليَّ، ولازلت لا أعرف سر ذلك السحر الذي يطغى على أسلوبه في التعامل مع الآخرين، أو ربما معي أنا وحدي، وبالفعل بدأت معه، من أجل كل كلمة قالها لي أن تتحقق، إذ كان لابد بعد أن عرفت الحقيقة، أن أدرك أيضاً مغزاها من بعد هذه الرحلة..

الفصل الثاني والعشرون

سؤال النهاية

بعد هذه الرحلة الطويلة والشاقة التي جعلتك تقطعها معي، سوف أطمئنك هنا بقولي أن قصتي هذه قد شارفت على بلوغ نهايتها، ولكن لا تستغرب أن وجدتني في لحظات النهاية هذه أتحدث عن البدايات، نعم سأتحدث عن البدايات، فلما وجدت أني بحاجة إلى أن اسأله كيف تصنع البدايات وعلى أي شاكلة تكون، سألته:

- **كيف أبدأ؟؟ ومن أين؟ وبما؟ أريد أن أتحرر من كل ما بات يثقل كاهلي، أريد أن أبدأ من جديد، فأخبرني كيف تكون البداية من حيث أحب نفسي مجدداً؟؟**

- **انظري إلى نفسك وإلى مواطن الخير والجمال فيها، إلى المواهب والمميزات التي وهبها الله لك، تأملي كيف أن أفكارك تسعى بك إلى فعل الخير، وكيف أن نواياك لا تنطوي على الرغبة في أذية أحد، وتذكري كل الأشياء الجميلة التي قمت بها من قبل، وكل المواقف التي لم تخذلك فيها ثقتك بنفسك، وابدأي بمنح الحب وتمتعي بقدرتك على أن تجعلي منه عطاءك اللامحدود للآخرين، وبقدر ما ستمنحينهم الحب سيكون حبك لنفسك، اغفري وسامحي وامنحي العفو للناس، وستحبين نفسك أكثر من أي وقت مضى، وتذكري في كل الأحوال أنك بمجرد أن تسعي إلى ذلك، فإن الله ذاته لن يبخل عليك بحبه وعطاءه وتوفيقه..**

- وكيف أعرف أن الله يحبني؟؟

- لأن الله يحبك بالفعل، وهناك ما تستطيعين من خلاله أن تتأكدي من حبه لك، لقد كنت تريدين السير في طريق ولكن الله جعلك تختارين طريقاً أخرى، وجدت فيها الكثير من الأشياء التي أحببتها، ولكل انسان أم واحدة، أما أنت فقد صار لك من الأمهات اثنتين، كان لك وطن واحد والآن صار لك وطنان، عشت أوقات صعبة ومريرة ولكن لولا تلك المعاناة ما تفتحت عيناك على الحقيقة، وبرغم كل الآلام التي حاصرتك إلا أن الله أعطاك لحظات كنت فيها قادرة على الشعور بالسعادة، أرأيت؟ كم أن الله يحبك؟؟

- [بنبرة خجلى ولكنها صادقة]: بل أكبر دليل على أن الله يحبني بالفعل أنه وضعك في طريقي وأدخلك حياتي..

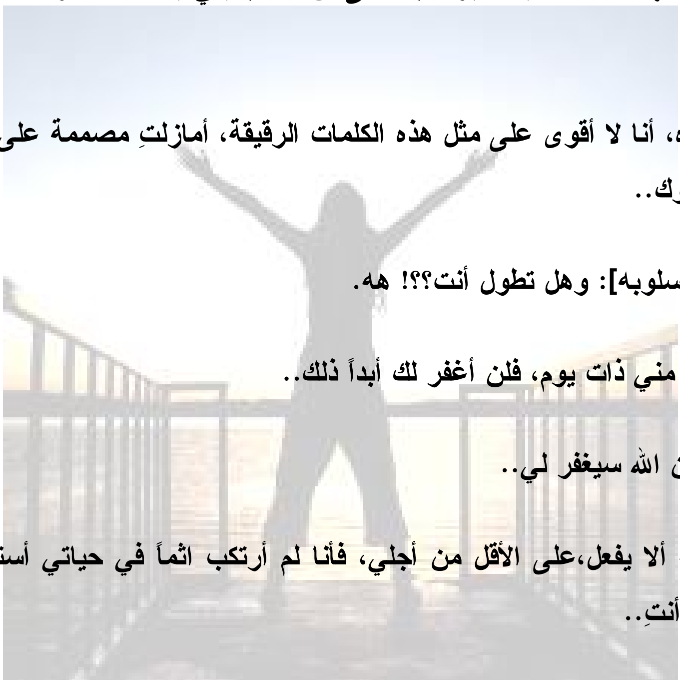

- [مازحاً]: أووووه، أنا لا أقوى على مثل هذه الكلمات الرقيقة، أمازلتِ مصممة على أن تدخليني سجون هواك؟؟ لااا أرجوك..

- [بنفس لهجته وأسلوبه]: وهل تطول أنت؟؟! هه.

- حتى وأن تمكنت مني ذات يوم، فلن أغفر لك أبداً ذلك..

- لا تفعل، المهم أن الله سيغفر لي..

- وأنا سأطلب منه ألا يفعل،على الأقل من أجلي، فأنا لم أرتكب اثماً في حياتي أستحق أن يعاقبني الله على ارتكابه بكِ أنتِ..

أغاظني ما قاله فسددت إليه لكمة قوية تحاشاها هو وأوقعتها أنا على ظهره، ثم أعطيته ظهري بنوع من الخصام، ولما طال عليه أمد خصامي، اقترب مني وبلمسة حانية أدار جسدي ناحيته، وبشيء من الصدق المهذب بروح الجدية قال لي:

- (تيماء)، تعرفين أني كنت أمزح معك، فلما هذه الكآبة بحق الله؟؟

- [بصوت خافت ونبرة متواضعة]: ما أحس به الآن ليس من ذلك الذي تظن؟؟

- ومما عساه يكون إذن؟؟

- [سألته]: هل تظن أن الله سيغفر لي؟؟

- ولما لا؟؟ إذا كان بوسعك انت أن تغفري لكل من أساءوا إليك وأذنبوا في حقك، أفلا يكون بوسعه هو أن يغفر لك؟؟ أنا واثق أن الله سيغفر لك بالفعل، فالله يجعلنا نخطئ، فقط ليشعرنا كم هو مشتاق لأن نعود إليه..

- وإذا حاصرتني المتناقضات وداهمتني الحيرة، ماذا أفعل؟؟

- استفت قلبك، استفت قلبك وحسب..

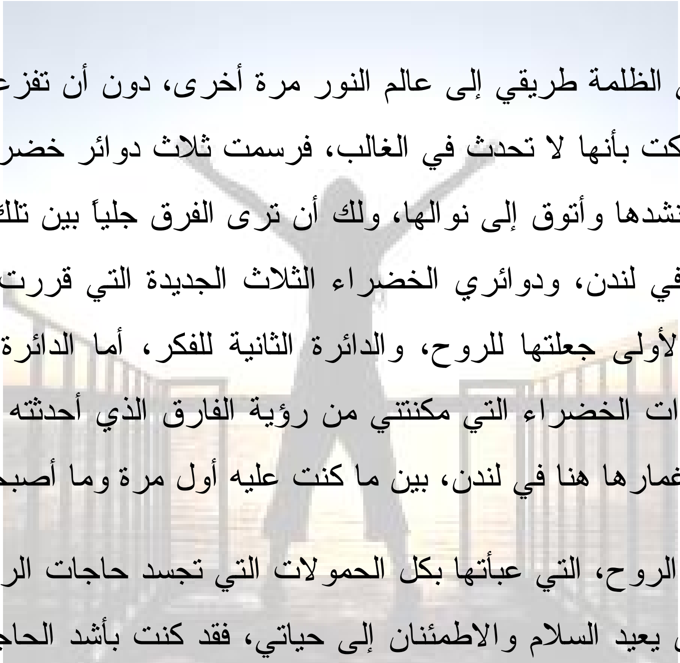

هكذا، بدأت أتعسس في الظلمة طريقي إلى عالم النور مرة أخرى، دون أن تفزعني أو تصيبني بالشلل تلك المخاوف التي أدركت بأنها لا تحدث في الغالب، فرسمت ثلاث دوائر خضراء تحمل معها عناوين الحرية التي أصبحت انشدها وأتوق إلى نوالها، ولك أن ترى الفرق جلياً بين تلك الدوائر التي رسمتها في بداية عهد إقامتي في لندن، ودوائري الخضراء الثلاث الجديدة التي قررت أن أرسمها في نهاية العهد نفسه!! الدائرة الأولى جعلتها للروح، والدائرة الثانية للفكر، أما الدائرة الثالثة فقد خصصتها للفعل، إنها تلك الاشارات الخضراء التي مكنتني من رؤية الفارق الذي أحدثته في شخصيتي كل تلك التجارب التي خضت غمارها هنا في لندن، بين ما كنت عليه أول مرة وما أصبحت عليه اليوم.

كانت البداية من دائرة الروح، التي عبأتها بكل الحمولات التي تجسد حاجات الروح الشفافة والناصعة، من كل ما من شأنه أن يعيد السلام والاطمئنان إلى حياتي، فقد كنت بأشد الحاجة إلى أن أطفئ لهيب ظمأي الروحي وأنعش احساسي بوجودي بذلك الفيض العارم والغير منقطع من الايمان والحب والغفران والجمال والأخلاق، كما كان عليَّ أن أطهر أعماقي من كل ما شابها من مشاعر الحقد والكره والبغض والاحباط والقنوط، لذا قررت أن أبدأ بإطلاق عفوي ومنح مغفرتي للجميع، بلا استثناء، وبأن أمنح الناس حبي خالصاً، وأجعل من ذلك الحب عطاءي المستمر لهم، بلا مقابل، فكان ذلك أول ما شجعني على أن أظهر مرة أخرى للعالم كشخص جديد، وأن أبدأ فيه ومعه بداية جديدة، تجعلني قادرة دوماً على أن أجعله يراني كيفما أحب وأرغب أنا أن يراني لا كما يشاء الغير..

لقد آمنت من خالص قلبي، بأن الله أكبر وأعظم من أن يكون قد جعل نفسه مصدر خوف وترويع لنا نحن البشر، وأنه أكبر وأعظم من أن يقبل على نفسه أن يحاصرنا ويحيط بنا ويحبطنا في الحياة بسبب خطايانا وآثامنا، وهو بكل قوته وعظمته تلك، ونحن على ما نحن عليه من الضعف والهوان، لأنه منبع الرحمة والمغفرة ولأننا نلتمس من كل أسمائه وصفاته كل تلك الأخلاق الرفيعة والقيم السامية التي يجب أن نتخلق بها، وآمنت أيضاً بأن الله كان غفوراً، قبل أن يخلقنا وقبل أن يــكون بوسعنا أن نخطئ، لذا فارتكاب الخطيئة لا يقطع علينا الطريق إليه، ولا يغلق في وجوهنا أبوابه، بل الخطايا والذنوب تفتح لنا آلاف الطرق والأبواب التي تمكننا من العودة إليه، وآمنت بأن هم الله عباده وليس همه عبادته، وأن إقامة العدل ومنع الظلم وفعل الخير وإشاعة السلام وقيم التسامح هي أسمى الصلوات وأعظم العبادات التي تقربنا إلى الله، وأن الحياة مع الناس البسطاء والضعفاء والغوص في تفاصيلهم وملامسة همومهم ومعاناتهم، والوقوف إلى جانبهم ونصرتهم والدفاع عنهم، هي أكبر وأعظم الفضائل وأسمى صور الحياة وأرقاها، وأن التواضع يرفع ولا يُدني، وأن الكبر يحط ولا يعلي، هذه كانت أولى قناعاتي في طريق البداية الجديدة، ويالها من بداية!!!

في تلك الفترة القصيرة التي سبقت يوم رحيل (أنور)، عشت معه بداية عهد جديد بكل ما تعنيه الكلمة، شعرت فيها بروعة وجمــال التغيير عندما يحدث في حيــاة المرء منا، مارست معه ريــاضة المشي، وانحشرنا كثيراً في زحمة الناس، في كل مرة عشنا وقتها في تلك الأماكن التي يزدحم فيها البشر، وتتساوى فيها المقامات والمقادير، وفي كل مرة ركبنا فيها الباص وقطار الأنفاق، كنت أتأمل الوجوه من حولي وأوزع عليهم ابتساماتي، وفي كل مرة ذهبت فيها معه إلى تلك المناطق والأحياء التي يعيش ويكتظ فيها الفقراء والطيبين، كنت أهوى تحت أقدام الأطفال الصغار، وهم يلعبون ويمرحون دون أن يمنعهم الفقر أو يقتل شظف العيش فيهم تلك البراءة الملائكية، أو يدنس جشع الأغنياء المقترين طهر أرواحهم الناصعة، وفي تلك الفترة أدينا صلاة الجمعة في المسجد الجامع، وحضرنا قداس الأحد في تلك الكنيسة التي غمرتنا فيها حفاوة ذلك القس الطيب..

ولم أنسى في تلك الفترة، أن أذهب لزيارة خالتي (سمية) وابنتها (هند) في القصر نفسه الذي طُردت منه ذات يوم، وهناك ذكرتهما بكل الأشياء الجميلة التي قامتا بها معي ومن أجلي، وأخبرتهما بأني لم أنسى جميل ما صنعاه معي، وأخبرتهما أيضاً بأني ما عدت أحمل عليهما حقداً أو ضغينة، لأني سامحتهما وغفرت لهما.

حتى صديقاتي، فاجأت كل واحدة منهن عندما طرقت أبواب بيوتهن، وتشرفت بمعرفة أهاليهن وتناولت الطعام معهن بل وشاركتهن في صنعه، وعندما كانت تسألني كل واحدة منهن عن ذلك الشخص الذي جاء معي، كنت أحكي لها قصتي وحكايتي معه، وأخبرها أمامه وبحضور والديها حتى، بأني أحبه بل وهائمة في حبه، وأعود فأشكوه اليهم بأني اعترفت له بحبي له، ولكنه لا يريد أن يعترف لي بحبه، بل ويرفض أن يحبني، فينهال عليه الجميع باللوم والعتاب، كانت أوقاتاً لا أروع منها، شعرت فيها بدفء الحياة وقيمة الحياة وجمال الحياة..

وأدركت في تلك الفترة أيضاً، بأن أجمل وأعذب الأمنيات لا يمكن أن تصنعها، إلا تلك الحياة البسيطة في قاعدة الهرم الاجتماعي، حيث الحياة مفعمة بروح الكفاح، وأن أي كفاح يمكن للمرء أن يخوضه في حياته، لن يكون ذو قيمة ما لم يكون من أجل كل اولئك البسطاء المطمورين تحت ركام أنانيتنا وغطرستنا وجشعنا نحن سكان الطوابق العليا في هرم المجتمع، وهناك سألت نفسي: إذا كانت صور الفقر والمعاناة والحياة القاسية هذه موجودة هنا في لندن، عاصمة المترفين وحاضرة المتخمين، ملهى العابثين وسوق المسرفين، فكيف عساها تكون الصورة في بلدي؟ وهل يعقل أن تكون بلدي خالية ونظيفة من تلك الصور المؤلمة والوجوه الكادحة والمنهكة؟؟ هل يعقل أن الرخاء الذي عشت فيه وترعرعت في نعيمه وأبهته قد وصل إلى كل بيت وكل أسرة وكل فرد في بلدي؟؟

كان ذلك شيء مما حدث لي في دائرة الروح، أما دائرة الفكر، فقد قررت أن أعود إلى دراستي وأمتع نفسي بوجودي في أحضان كليتي، وأن أجعل من اكمال دراستي الجامعية خطوتي الأولى وأساسي الذي أقيم عليه بناءات وجودي وطموحات استمراري في الحياة بفعالية، وقررت أيضاً أني بعدها، سأبدأ فتح كتاب الحكمة والمعرفة وأستمر في القراءة والتأمل في طريق البحث عن الحقيقة وإدراك غاياتها ومغازيها العصية، وأن أسخر كل ذلك من أجل أن يتضح لي هدف في الحياة، وتبين لي رسالة وغاية، تنقلني إلى دائرة الفعل، حيث أعُمل وتتحقق لي ارادتي كاملة غير منقوصة، وحيث أجعل من ذات الحياة خامتي الجوهرية التي أبدع في تشكيلها وإعادة إبداعها وصنعها، حتى أني حلمت أن أقوم بذلك كله وكأني سأمضي في مسار أبدي لا موت فيه ولا فناء..

في غمرة تلك الأوقات الحية والنابضة بكل تفاصيل المشاعر العذبة، والأحاسيس المفعمة بالصدق والجمال، كان حبه يتضاعف في قلبي بلا حدود، وكانت عيوني عامرة بتلك النظرات العاشقة

والمغرمة، ولكم تمنيت فيها وتخيلت وعشت الخيالات حقيقة من خالص قلبي، وكأنها ذلك اليوم الذي أتهيأ له فيه جسداً وروحاً، وأزف إليه هوى وصبابة، وآه، لو أنه علم ما بقلبي حينها من حب وشغف ولهفة وشوق وهيام، لما فكر للحظة واحدة بالسفر والرحيل.

كان هم اقتراب اللحظة المشؤومة، وحده ما ينغص أوقاتي الدافئة تلك، ويسرق من بين جوانحي سعادتي واطمئناني بقربه مني، وكنت ألمح في عينيه ذلك البريق الذي ما كان ليخفي عني احساسه بآلامي وعذاباتي، فقد كان يعرف أني بقدر ما كانت سعادتي تلك ظاهرة، فأني بالقدر نفسه وأكثر أموت مع كل لحظة تمضي وتعجل من أوان رحيله، فكرت كثيراً من حيث لم يكن يجدي التفكير، أن أمنعه، أن أثنيه، أن أرغمه على البقاء، أن اصنع المستحيل من أجل أن يبقى ولا يرحل، لكني كنت أعلم بأنه ليس من ذلك النوع الذي ينفع معه شيء من ذلك، وأن الفراق قدر لا مفر منه ولا مناص.

استأذنني قبل بضعة أيام من يوم رحيله لقضاء حاجة، كنت أعرفها، فقد كان يريد أن يحجز مقعده على طائرة السفر بعيداً عني، ومع ذلك أذنت له وتركته يذهب لما يشاء ولا أشاء، عاد بعد ذلك في منتصف نهار اليوم ودعاني للقاء يجمعني به العشية، وكانت لدعوته تلك خصوصية أدركت إلى أي مدى استأثر بها لتكون لي أنا وحدي..

ارتديت سوادي في تلك الليلة، دون أن أترك له فرصة اختطاف جمالي الذي يحب رؤيته، ودون أن أصطنع شيء مما أعتدت دوماً اصطناعه تمثيلاً، فقد أردت أن أكون صادقة معه تماماً في تلك الليلة بالذات، فرحت كثيراً بدعوته لي تلك، بقدر ما عرفت أنها أمارة اقتراب وشيك لموعد رحيله، فلم أكره شيء في حياتي حينها قدر ما كرهت ذلك اليوم الذي قرر أن يسافر فيه بعيداً عني..

وبعد لحظات طويلة، تركنا فيها للصمت أن يسود وللغة العيون أن تكون لغة الكلام بيننا، سمعت صوته يرعد دافئاً في بهو المكان الخانع للسكون، وشعرت براحتيه يحتويان كفاي ويعصرانهما عصراً، ومن مكان عميق جداً ادركته وهو يقول لي:

- **أشعر بك؟؟**

اكتفيت بالنظر إليه، دون أن أنطق بحرف واحد، أو تراودني الرغبة في قول شيء، فقط بقيت أنظر إليه، ويداي مستسلمتان ليديه، بدون أن أتحقق مما كان يبدو على وجهي وينم عن مشاعري في تلك

اللحظات، التي شعرت فيها بدمه يسري في شراييني، ونبضات قلبه تهز كياني، وأنفاسه تذيب جليدي المتكوم أمامه، بلا معنى أو قصد واضح، استدرك وقال:

- **لو كان الأمر يتعلق بما أشعر به من الألم والعذاب، لما كان بي مما بي الآن شيء، ولكني بقدر ما يطيب لي أن أتحمل عنك كل عذابات الحياة، بقدر ما يؤلمني أنك تتعذبين، وأن عذابك كله بسببي.. (تيماء)، ليته كان بوسعي أن أجعل الأمور تسير كما تشائين، غير أني لا أستطيع، ولذا أشعر بالخوف عليك، فماذا أفعل من أجلك؟؟ أخبريني، ما الذي يمكنني القيام به؟؟**

سللتُ الكلمات حادة من صدري، كأنها سيوف كانت تمر بحدها وأسنتها على كل عضو في جسدي له علاقة بفعل الكلام، وأنتزعتها إنتزاعاً من شأفة روحي، وأنا أحس بأنها انتزعت معها قطعاً من لحمي، ومن حر ذاك الألم الذي صاحبها تبخرت في الشغاف دموعي، فما اسطاعت بلوغ محاجري أو الظهور بين أجفاني، وسألته:

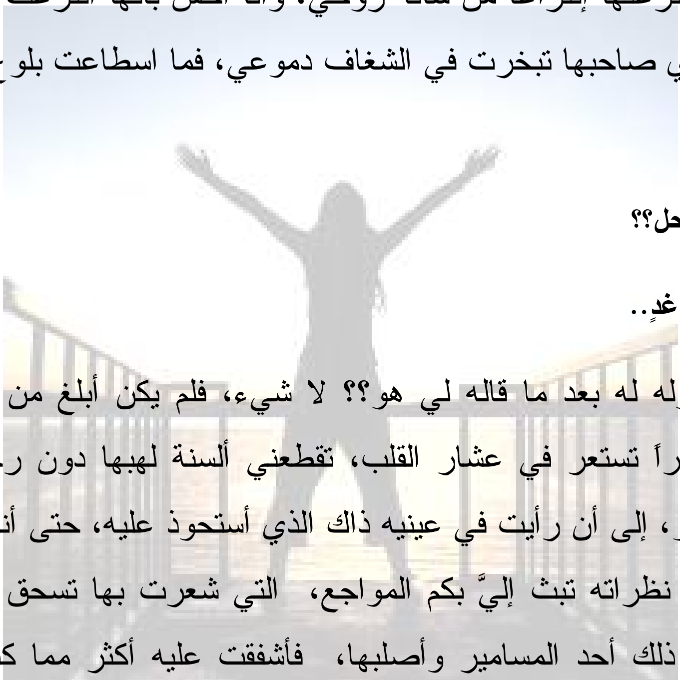

- **متى؟؟ متى سترحل؟؟**

- **صباحاً، بعد يوم غدٍ..**

ماذا كان يمكن أن أقوله له بعد ما قاله لي هو؟؟ لا شيء، فلم يكن أبلغ من صمتي ونظراتي إليه يفضيان له بما كان ناراً تستعر في عشار القلب، تقطعني ألسنة لهبها دون رحمة أو اشفاق، فبقيت للحظات على هذا النحو، إلى أن رأيت في عينيه ذاك الذي أستحوذ عليه، حتى أنه لم يشعر بيديه عندما تخلتا عن يداي، كانت نظراته تبث إليَّ بكم المواجع، التي شعرت بها تسحق فؤاده وتخزق خلاياه، بأشد مما كانت لتفعل ذلك أحد المسامير وأصلبها، فأشفقت عليه أكثر مما كنت مشفقة حينها على نفسي، التي تحاملت كثيراً عليها، وأرغمتها على أن تُظهر شيئاً مما قد يخفف عنه، وبالكاد تمكنت من نحت ابتسامة ظاهرة، ورسم نظرات هادئة على سحنة وجهي، لأقول له:

- **على بركة الله..**

نظر إليَّ وهو يعرف شيئاً ما كان ليخفى عليه وقال:

- **لم ولن تكون هذه أبداً من قلبك، أعرف ما الذي تحاولين صنعه؟؟**

- **ماذا؟؟ أقصد، وأن يكن فما من ذلك شيء يجدي بالحيلولة دون ما أنت عازم عليه..**

- ولكن لماذا؟؟ [قالها بصوت أعلى مما كان يتكلم به من قبل]

- لماذا؟؟ ماذا؟؟ [سألته متصنعة]

- لماذا كل هذا الحب الذي تكنينه لي، وقد علمت مني ما علمت؟؟

- لماذا أحببتك؟؟ هل هذا ما تقصد؟؟ (أنور)، إن كان لك أن تسألني هذا السؤال، فالأولى أن أسألك أنا لماذا لم تحببني أنت؟؟ والأولى أن تكون لديك اجابة شافية، فلا داعي لأن نفتح الموضوع مجدداً، ولنتعامل ما هو حاصل في الواقع..

- في الواقع، أنا لا استحق منك كل هذا الحب؟؟

- ليس من شأنك أن تحجر على مشاعري، كما لم يكن بالإمكان إجبارك على أن تحبني، دعني يا (أنور)، ودع الأمور تسير في وجهتها التي حددها لها القدر الغائب فقط عن أسباب تلاقينا عند شعور واحد، لا تخشى عليَّ، فمازال لدي أمل بأنك ذات يوم ستعود من أجلي، وهذا لوحده يكفي..

- يا سبحان الله!!! طوال تلك المدة التي جمعت بيننا هنا في لندن، وأنا أهرب من تلك اللحظة التي أشعر بها بأني أحبك، كنت أخشى أن أقع في شرك هواك، فهربت من ذلك وما كان لهروبي أي جدوى، من حيث لم يحدث ما كنت أخشاه، لكن ما حدث هو العكس، فكانت المصيبة أشد وأعظم..

- لما؟ أولست تحبني؟؟ لا أريد أن أسمع جوابك مرة أخرى، بل أريدك أن تسمع ما أحس وأشعر به ويعطيني الأمل، أنت يا (أنور) تحبني، ولكنك لا تنظر إلى مشاعرك، بقدر ما أنت محكوم برؤية الواقع الذي يفصل بيني وبينك، الواقع الذي ليس من صنعي أو صنعك، وكرهاً علينا أن نقبل بحكمه، سواء كان جائراً أو عادلاً..

- (تيماء)، لن أعدك بشيء هذه المرة، ولكني سأقول لك حقيقة لم أحرص على كتمانها عنك، لقد فتحت لك حياتي كلها، تدخلينها من حيث شئت، ولعلي تركت الباقي للقدر، فمن يدري لعلك تكوني محقة بما تشعرين به، فيأتي اليوم الذي لن امتنع فيه عن أن أكون لك كما تحبين، غير أني لا أضمن لك هذا في الوقت نفسه، فقط تأكدي بأن مكانتك في قلبي عظيمة ولم تبلغها فتاة من قبلك،

- وإذن، دع الله يتكفل بأمرنا كيفما شاء، قد قبلت أنا بحكمه فما بالك أنت لا تقبل؟؟

- ونعم بالله، بل هذا ما أنا أخذ به..

- **حسناً، يكفي أن تكون على علم بحقيقة مشاعري نحوك أما مشاعرك أنت نحوي، فسيأتي اليوم الذي تتضح فيه، حينها تعرف أنت ما ستفعل؟؟**

- **قد يطول بنا الأمد؟؟ ولا أدري إن كان بوسعك الانتظار؟؟**

- **وأنا أقول لك بأنه دونك أنت لا أحد سيعبر عتبات حياتي..**

- ؟؟؟؟؟؟؟

كان ذلك الحوار، تعويضاً لما لم يكن بالإمكان قوله في لحظات الوداع، وقد أصبحت حينها أقرب إليَّ من حبل الوريد، بعد ذلك طلبت منه أن يرافقني إلى حيث تسكن (كايتي)، فلم يكن بإمكاني أن اقضي تلك الليلة في شقتي بمفردي، وفعل ذلك، وهناك عند مدخل العمارة فرقته وصعدت على غير عادتي، بحال لم يكن لي أن أجد لها وصفاً أو قولاً ما يعبر عنها..

قابلتني (كايتي)، وهي على غرابتها تتفرس ملامحي وتقرأ ما عساه ذاك الذي يعتلج في طياتي، من حيث لم أبدي لها حزناً ولا سروراً، حتى ما رأت في لقاءها بي مناسبة لأن تسأل، أو أن تنشد مني مبادرة بقول، فقط انجذبت لحضنها، واختبأت هناك أواري سيل دموعي الجارف الذي بلل صدر تلك الوالدة الأسيفة على وليدتها الوحيدة..

لم تكد تمضي بضع دقائق حتى قرع جرس الباب، فأرخيت لها أن تذهب لتعرف من عساه يكون ذلك الطارق، جرت خطواتها الثقلى، ورأيتها بمجرد أن فتحت الباب وقد برق وجهها دهشة وغرابة، ورأيت (أنور)، بعد خطوة خطاها وهو يدلف للشقة، ويستبق أي كلمة ترحيب به كان يمكن أن تصدر من (كايتي) ويتجه نحوي أنا التي فغرت عيناي من شدة المفاجأة، وأعياني أن أجد تفسيراً لزيارته تلك بعد وقت قصير من افتراقنا عند باب المبنى، عجباً، ما الذي جعله يعود؟؟

اقترب مني دون أن يلتفت لشيء سواي، كانت خطواته هادئة لا صوت لها، فيما كان دبيبها قنابل تنفجر في غياهب مسمعي، بينما تسمرت (كايتي) واقفة قرب الباب الذي بالكاد أدركت أنها أوصدته، ودون أن يصدر من أحد منا قول أو فعل، عدا ما كان من اقترابه نحوي، وبدون شعور وجدتني أقف أمامه، وأتحقق مما كان يلمع على رأس وجنته اليمنى، كانت دمعة ونظراته إليَّ أبلغ من أي تراجم قد تشي بحقيقة شعوره بالألم وبالعذاب..

لم تمضي برهة على كوننا اصبحنا قريبين جداً من بعضنا البعض، ووجهاً لوجه لا تفصل بيننا قدر بنانة، حتى أني شعرت ببروز صدره يلامس قمة صدري، وإذا به يلقي برأسه في سفح صدري، غمرني حبه، وأستولى عليَّ شوقي إليَّ عناقه وشمه وتقبيله، فأحطته بذراعي وحبسته هناك بين نهدي ونهدي وفي قرارة قلبي وخزائن حبي، وأنا أحاول قدر ما استطعت أن أبقيه كذلك حتى أتمكن من الجلوس وإجلاسه قربي وفي حضني..

لم أقاومه لما شاء أن يرفع رأسه، راغباً أن يراني ففعل، وأحرقتني دموعه تلك التي كانت تصب من قعر وجوده، إذ عمدت أكفكفها وأضم ما بقي تحت يدي منه إلى صدري، كانت نظراته تائهة عن كل شيء إلا عني، واحساسه غائب عن أي شيء عدا احساسه بي، وتلك المحنطة لازالت في مكانها واقفة تعي ولا تعي شيء مما ترى وتشهد، عاودت النظر إليه، فهاجت نفسي وانتفضت نوازعي، وأنا بكل قوتي أضمه إليَّ، وأتمنى لو كان بإمكاني صهره وادلاجه كله عطراً في مساماتي، حينها فقط علا نشيجي وتعجعج صوتي وأنا أطلقه هاتفة باسمه:

- **آه آه آه هههههه يا (أنور).. لماذا عدت؟؟ لماذا؟؟ لماذا!!!!!؟**

ظلت عيناه ترمقني، وكأنها كانت أبعد ما تكون عني في تلك اللحظة، بينما كان هو أقرب شيء إلى قلبي في اللحظة نفسها، كانت نظرات تائب وطالب صفح وساهن غفران، تلك التي كان يرمقني بها، كانت تتكلم وتنطق بكل كلمات التوسل والرجاء، توخز قلبي المحب بمثل حزمة إبر صينية كانت ترش على قلبي من ذرا، ولا يسعني إلا الامتناع عن صدها، راجية أن تصيب حيث يطيــب له أن تصيــبني، وإذا بصوته يقرع مسمعي مرة أخرى، ويهل على روحي مثل هاطل رحمة حط على أرض اليبـــاب، قائلاً:

- **سامحيني..**

- **على ماذا؟؟ وأنا التي لم تحمل عليك إصراً فما الذي يدمي فؤادك غير رجوى السماح والعفو مني؟؟**

- **على كل ما سببته لك من الألم، على صدي وصلدي دون ما تبغين مني.. سامحيني، وسامحيني على العذاب الذي هيأت لك جحيمه مراجل نار تغلي بين أضلاعك من حيث تخفين عني مواجعك التي صنعتها لك بيدي، سامحيني على حرمانك ما تمنيته وحسبته القدر يحول بينك وبينه، ولم يكن ذاك إلا قسوة قلبي وقسوة صدقي واخلاصي، وسامحيني على الدموع التي سفحتها من أجلي، ولم تحظى مني بما**

تستحق وتستحقين، وسامحيني على عجزي عن عطاؤك ومنحك دوائك، سامحيني بحق الله على كل ما سببته لك من الحزن والألم، سامحيني أرجوك..

- لا بأس، إن كان هذا ما تريد، اعلم أني سامحتك وسامحتك روحي وسامحك قلبي وكل جوارحي، فطب نفساً..

ظللت على هذا الحال، أواسيه وأخفف مما ألم به، حتى زال كل الذي كان بي من ذلك كله، وقد كنت أحسب أني عليه من دونه، وشعرت بالرضا يتسرب إلى أعماقي بما سيكون من أمر فراقه، حتى هدأت نفسه واستقرت حالته، حينها انتزع ما كان منه في حضني، وأستوى قبالة وجهي يناظرني وأناظره، دون أن يبدي أحدنا شيء مما بقي في نفسه، أو لعلي تأكدت بأنه ما عاد في نفسي شيء من ذاك الذي كان بي من قبل مجيئه، اللهم ما كان في نفسه هو، وقاله بعد ذلك:

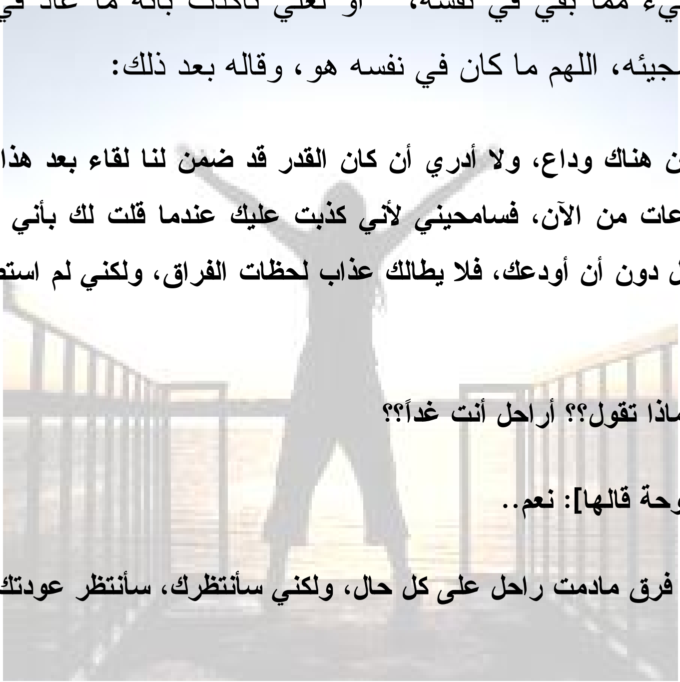

- (تيماء)، لن يكون هناك وداع، ولا أدري أن كان القدر قد ضمن لنا لقاء بعد هذا فقد أن أوان سفري، ورحيلي بعد ساعات من الآن، فسامحيني لأني كذبت عليك عندما قلت لك بأني سأرحل بعد غد، لأني كنت أنوي الرحيل دون أن أودعك، فلا يطالك عذاب لحظات الفراق، ولكني لم استطع أن أفعل ذلك فعدت إليك..

- [غير متفاجأة]: ماذا تقول؟؟ أراحل أنت غداً؟؟

- [هز رأسه ومبحوحة قالها]: نعم..

- وإن يكن فما من فرق مادمت راحل على كل حال، ولكني سأنتظرك، سأنتظر عودتك هل تفهم؟؟

- آمل ذلك..

- حسبي هذا ولترحل ونفسي راضية فهل طابت نفسك أنت؟؟

- نعم، وما أسعدني وأنا أراك في هذه اللحظات قوية وشجاعة، لقد تحررتِ بالفعل من ضعفك ويأسك،

- صحيح؟؟

- نعم، لقد أصبحت حرة وأنا واثق بأنك عما قريب ستبلغين رحب اليقين...

- كيف؟؟ وما عسى أن أفعل من أجل ذلك؟؟

- **أخرجي من سجون الظلمة، وانطلقي إلى عوالم النور والضياء، اطلقي صرختك الأولى مدوية في الأرجاء، واعلني عن وجودك، اصرخي: أني هنا.. أني هنا..**

- **ولكن كيف؟؟ أخبرني..**

- **أتمي شطر ما فعلت من قبل ودعي العالم يقرأ ما كتبت، دعي العالم يسمع بالمكتوب صوتك لأول مرة،**

- **[فطنت لمغزى ما قاله، وقلت]: نعم، هذا هو، سأفعل، حتماً سأفعل..**

قلت له ذلك في حين كان هو قد فتح لي حضنه هذه المرة، فآويت إليه وأودعني هو فيه، وبين الفينة والأخرى كان يطبع قبلة على جبيني، ومن ثم غفوت لساعات قليلة حتى أدركني الصباح، فاستيقظت وأنا على يقين بأنه قد رحل..

البداية...

محتويات الكتاب

اهداء		3
مقدمة الكاتب		5
الفصل الأول	سؤال البداية	7
الفصل الثاني	أقصوصة ما قبل	21
الفصل الثالث	أميرة في لندن	37
الفصل الرابع	في اكسفورد	51
الفصل الخامس	أسوار لندن	66
الفصل السادس	الانتكاس إلى الداخل	80
الفصل السابع	القفز وراء الحدود	94
الفصل الثامن	رسائل من مجهول	109
الفصل التاسع	أول الغيث.. فضيحة	127
الفصل العاشر	محنة انقطاع	143
الفصل الحادي عشر	علمني القراءة	158
الفصل الثاني عشر	أسرار هند	175
الفصل الثالث عشر	الهدوء بعد العاصفة	189
الفصل الرابع عشر	بين العودتين	202
الفصل الخامس عشر	لقاء ووعد	213
الفصل السادس عشر	حصار الفضائح	227
الفصل السابع عشر	الحب، وربيع عربي	241
الفصل الثامن عشر	أزمة شرف	256
الفصل التاسع عشر	الاعتراف	271
الفصل العشرون	هيت لك	285
الفصل الحادي والعشرون	مغزى الحقيقة	301
الفصل الثاني والعشرون	سؤال النهاية	318
محتويات الكتاب		330

في البدء كان الحدث..

التجربة..

فكانت الحكاية.. التي ولدت من صلب الواقع ومن رحم المخيلة..

الحكاية التي جاءت من حيث تنبثق التجربة الانسانية حافلة بكل تلك التناقضات، ومن حيث تتكاثف الأحداث على متون الزمن، وتصبح الذكريات تاريخاً مكتوباً ونصاً تمتد سطوره في مساحة المحدود، لكن معانيها تظل تفتح كل يوم فضاءات جديدة للمعنى، فلا تنتهي أبداً غايات القراءة والتأمل..

بين السيرة الذاتية التي تتقاطر الى الصفحات من ثقوب الطراز الروائي.. وبين الرواية التي تتعاطى الفكر والرأي والقصة من خلال السرد الذي تنغرز في خاصرته الفلسفة.. تأتي رواية (التاج والمشعل).. من مذكرات أميرة عربية معاصرة..

Fekri101@hotmail.com

2013